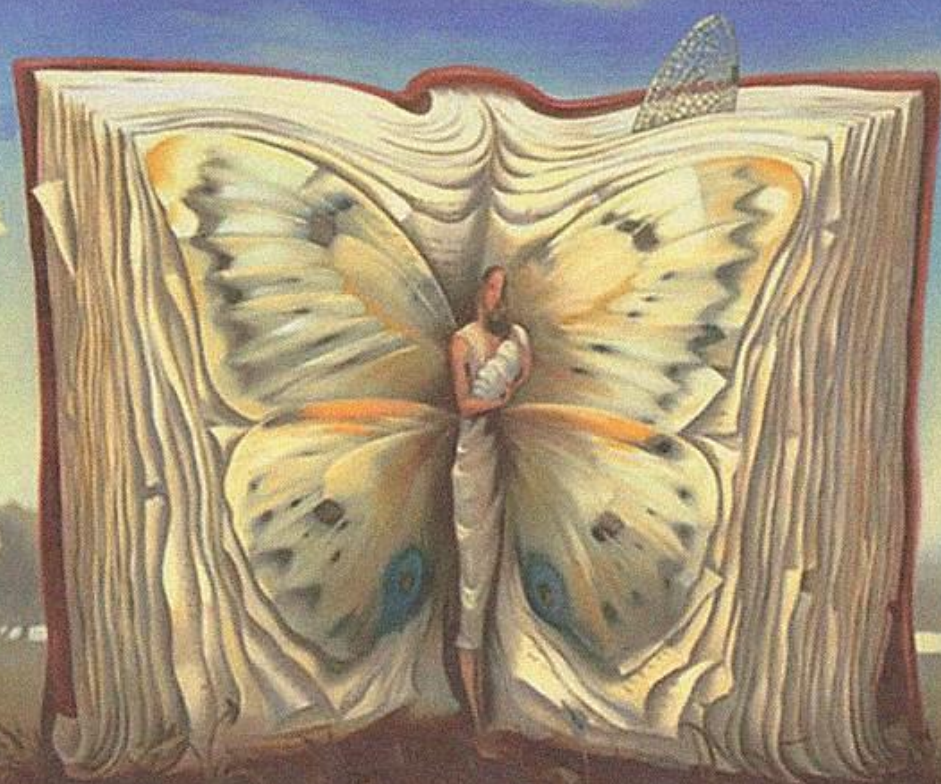


A B D U L L A H I B R A H I M

نقداني  
NKRITIQUE

# د. عبد الله إبراهيم السر، والاعتراف، والهوية



السرد، والاعتراف، والهوية / نقد أدب  
د. عبد الله إبراهيم / مؤلف من العراق  
الطبعة الأولى، 2011  
حقوق الطبع محفوظة



المؤسسة العربية للدراسات والنشر  
المركز الرئيسي:

بيروت، الصنائع، بناية عيد بن سالم،  
ص.ب 11-5460، هاتفاكس: 751438 / 1 752308 00961  
التوزيع في الأردن:

دار الفارس للنشر والتوزيع  
ص.ب: 9157، عمان 11191 - الأردن،  
هاتف 00962 6 5605431 / 00962 6 5605432، هاتفاكس 00962 6 5685501  
e-mail: info@airpbooks.com  
موقع الدار الإلكتروني: www.airpbooks.com  
الإشراف الفني وتصميم الغلاف:

ستيفان عمان 00962 7 95297109  
لوحة الغلاف: جيسلاف بكسينسكي / بولندا  
الصفّ الضوئي: المؤسسة العربية للدراسات والنشر  
التنفيذ الطباعي: ديمو برس / بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in any retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN 978-614-419-034-0

د. عبدالله إبراهيم

السرد، والاعتراف، والهوية







## المقدمة

يقترن أدب الاعتراف بالهوية ، سواء أكانت هوية فردية أم جماعية ، فلا يمكن انتزاع الكاتب من الحاضنة الاجتماعية والثقافية التي يشتبك بها ؛ ذلك أن أدبه يقوم بمهمة تمثيلها ، وبيان موقعه فيها ، فلا يطرح موضوع الهوية في السرد ، والاعتراف بها ، إلا على خلفية مركبة من الأسئلة الشخصية والجماعية ، وتبادل المواقع فيما بينهما ؛ فالكاتب منبثق من سياق ثقافي ، وتجذ الإشكاليات المثارة كافة في مجتمعه درجة من الحضور في مدوّنته السردية .

لكنّ أدب الاعتراف محطّ شبهة وموضوع ارتياب ؛ لأنّ الجمهور لم يتمرّس في قبول الحقائق السردية والواقعية ، فيرى في جرأة الكاتب على كشف المستور سلوكاً غير مقبول ، وإفراطاً في فضح المجهول ، فالاعتراف محاط بكثير من ضروب الحذر في مجتمعات تقليدية تتخيّل أنّها بلا أخطاء ، فتبالغ في ذكر نعم الله عليها ، وكأنّها هبات خصّت بها دون سواها ، وتتحاشى ذكر عيوبها ، وتوهّم أنّها تطهّرت من الآثام التي وازبت على اقترافها مجتمعات أخرى ، فتدفع المخاوف كثيراً من الكتاب إلى اختلاق توارخ استرضائية لمجتمعاتهم ، وابتكار صور نقيّة لذواتهم ، متجنّبين كشف المناطق السريّة في تجاربهم ، وإظهار المسكوت عليه في مجتمعاتهم ، فصمتوا عمّا ينبغي عليهم قوله أو زيفوا فيه ، وربّما أنكروا وقوعه ، يريدون بذلك الحفاظ على الصور الشفافة لهم ولمجتمعاتهم .

وقد أفضى ذلك إلى ظهور أدب يهرب من كشف البطانة الذاتية الحميمة ، ويلوذ بالقضايا المشتركة بين الجميع ، فثمة إحجام عن التركيز على البعد الجوّانيّ للشخصيات ، حيث تقبع المادّة الأكثر أهميّة في أدب الاعتراف ، وقد نهلت الآداب السردية العالمية من هذه المنطقة شبه المحرّمة ، وبيّنت موقع الكاتب في مجتمعه وهويّته ورؤيته للعالم . ومع ذلك لم يزل أدب الاعتراف في الأدب العربيّ الحديث يتلقّى إمّا بوصفه جملة أسرار ، أو على أنّه مدوّنة فضائح ، فسوء الظنّ يتربّص

بالكتاب والقراء على حدّ سواء ، ولا غرابة أن نجد ندرة فيه ، لا يقبل البوح بالجوانب الشخصية ، ولا بالأراء المخالفة للإجماع العام ؛ إذ يعمّق الخوف الضمنيّ من المتلقّين رغبة في الصمت لدى الكاتب ، فيتجنّب ذكر الوقائع غير المقبولة ، وهذا يطمّر في طياته تزييفاً للتاريخ الشخصي وللتاريخ العام ، ويجعل من خداع الذات والآخرين سلوكاً مقبولاً وشائعاً ، فتتوارى الوقائع المهمّة ، أو يقع تخطّيها ، وكلّ هذا يتعارض مع وظيفة أدب الاعتراف الذي يستبطن المناطق المخفية من حياة الأشخاص ، ثمّ المجتمعات بعد ذلك .

يضع أدب الاعتراف - ومثاله الأكثر وضوحاً السيرة الذاتية والسيرة الروائية والرواية التي تستفيد من التجارب الذاتية للمؤلّف - الكاتب أمام المسؤولية المباشرة لصنّاع الرأي العام ؛ لأنّ الاعتراف بذاته يقع في المنطقة المتوتّرة بين رغبة الجمهور في براءة المشاهير ، ورغبة هؤلاء في التطهّر ممّا لحق بهم من أخطاء اقترفوها عن قصد أو غير قصد خلال حياتهم . ويحول التنازع بين الصورة الخارجيّة والداخليّة للكاتب دون الاتفاق على حلّ مرض للطرفين ، فالجمهور الأدبيّ يصاب بخيبة أمل حينما يعرض الكاتب اعترافاً صريحاً عن حياته ، وأفكاره ، ومعتقداته ؛ لأنّ الصورة النمطيّة للكاتب - وكثير منها من نسج الخيال - تخربّ في بعض أجزائها . وهذا تعبير عن رغبة يبيدها متلقّون ينتظرون نقاء مطلقاً دون أن يفكّروا في نقائصهم الخاصّة ، وفي مقابل ذلك يحرص بعض الكتاب على عدم التنكّر للأخطاء التي انزلقوا إليها في وقت مضى ، سواء أكانت شخصيّة أم أيّدولوجيّة ، فهم يريدون تنقية صورهم الجوانبيّة حتى لو اقتضى ذلك البوح بالأسرار الخاصّة وبالأخطاء .

وتتصل هذه القضية بأخرى أكثر أهميّة ، في سياق البحث في الصلة بين السرد والاعتراف والهويّة ، فالجمهور يضغط التاريخ الشخصي للكاتب في لحظة واحدة ، وهي لحظة معرفته خلال القراءة ، فيما الكاتب صيرورة من التحوّلات التي لا تنتهي ، ولا يعاب على المرء الوقوع في الخطأ ، إنّما يعاب عليه نكرانه له ، أو عدم تخطّيه ، فينبغي عدم الخوف من اقتراف الكاتب للخطأ ، ولكن يحسب عليه تقبّله والتعايش معه ، فالانزلاق إلى الخطأ أمر تصعب السيطرة عليه بسبب تحوّل الوعي الخاصّ بالكاتب من درجة إلى أخرى ، وبين مرحلة وأخرى ، وصولاً إلى ما يصطلح عليه «لوكاش» بـ«الوعي الأصيل» بنفسه وعالمه ، وذلك يتأخّر كثيراً ، وقد لا يأتي أبداً . وبعبارة أخرى يتعامل الجمهور مع شخص جاهز ، فيما يتعامل الكاتب مع ذاته



بوصفها هُويّة متحوّلة ، وحالة الاعتراف بالنسبة إليه جزء من عملية التحوّل ، لكنّها تخدش الصورة الرمزيّة له في المخيال العامّ .

ليس من المفيد أن يأتي الاعتراف منقطعاً عن السياق الحاضن له ، وإلاّ أصبح فضيحة ، فالقارئ يبحث عن ذروة ، ويهمّه أن يتعلّق بحادثة مثيرة ، أمّا الكاتب فمشغول بسياق كامل من التحوّلات الفكرية والجسديّة ، وهو ما يشكّل صيرورة هُويّته ، وحينما يعيد تركيب تاريخ حياته بالتمثيل السرديّ ، فمن الطبيعيّ أن يدرج الأحداث في سياق منظور خاصّ لنفسه ولمجتمعه وللعالم الذي يعيش فيه . ومن الخطأ انتقاء لحظة عابرة وتركيز الاهتمام عليها في منأى عن السياق الحاضن لها ، فذلك انتهاك مقصود يهدف إلى تخريب فكرة الاعتراف ، والترويج لغاية معيّنة توافق أيّدولوجياّ القارئ الذي يقوم بذلك . ولا بدّ من الأخذ في الحسبان كيفية استعادة أحداث الماضي والموقف منها ، وكيفية إدراجها في الكتابة السردية .

كُتب كثير من الكتب لتكون مدوّنات اعترافات ، وقليل منها تمسّك بالهدف الاعتباريّ للكتابة ، وهي أن ما يُكتب وما يُرغب في استعادته ، ينبغي أن يكشف خريطة التحوّلات الاجتماعيّة والفكرية والشخصيّة ، وبيان علاقة الكاتب بكلّ ذلك تأثيراً وتأثيراً ، وإلاّ أصبحت الكتابة خداعاً ، ثمّ أخيراً ينبغي أن يُمنح الكاتب الفرصة والمناسبة والحقّ في تقديم اعترافه في الوقت الذي يراه مناسباً . إنّ للاعتراف قيمة تفوق كثيراً قيمة الصمت أو التزوير ، ولا بدّ أن يمنح المعترفون فرصتهم لقول ما يريدون قوله . وتجنّب الخداع واصطناع التواريخ المزيفة ، وإعادة التعريف بالهويّة ، كائنة ما كانت ، يفوق أمر تعريفها الابتدائيّ .

يتنزّل أدب الاعتراف خارج السياق الرسميّ للأدب وللمجتمع الحاضن له ، فلم تزل الثقافة العربيّة تتبرّم منه ، وما زالت هذه الفكرة عصيّة على الفهم العامّ ، وفي كثير من الأحيان يوصم المعترف بأنّه الشخص الذي غدر بمجتمعه ، وتنكّب له بأنّ فضّل اختياراً فرديّاً تاركاً الجماعة في وضع خامل خارج منطقة اهتمامه ، أو إنّهُ فضح البطانة الخفية المسكوت عنها ، فلا يقع استيعاب كامل لاعترافاته .



# **الفصل الأول**

## **السيرة، والمنفى، والأوطان المتخيّلة**



## ١. أوطان متخيّلة:

تحدّث «ميلان كونديرا» في رواية «الجهل» عن (Nostalgia) بوصفه منفياً ، فمن باريس كتب عن براغ ، وهو يستعيد عالماً تراجع بقوة إلى الوراء فاستحال ذكرى . وأشار كونديرا ، وهو يتتبّع المسارات الدلالية لـ (Nostalgia) إلى أنّ الجذور الأولى للكلمة يونانية ، وهي مزيج نُحِتَ من (Nostos) و (Algos) أي الرجوع المقترن بالشقاء ، فالطرف الأوّل يحيل على العودة والانكفاء ، فيما الطرف الثاني يحيل على الحنين والشغف والاشتياق والشوق المعبّد الذي لا يحتمله المرء ، بسبب العجز عن تحقيق الرغبة في الرجوع إلى المكان الأوّل .

ثمّ اتّخذ اللفظ في اللاتينية معنى النأي الذي يحول دون المعرفة ، فيتسبّب في جهل مطبق بما يحدث في ذلك المكان ، وما يتبع ذلك من إحساس عميق بالألم ، أمّا في الإنجليزية فاستقرّت الدلالة على معنى الابتعاد عن الوطن ، والحنين المشوب بالوجع في العودة إليه ، فتكون الدلالة الأخيرة قد اقترضت كثيراً من المعاني الإغريقية-اللاتينية للكلمة .

على أنّ المعنى اتّسع وتشبّع بدلالات حافة ، فالمصطلح يتردّد في إحياءاته بين حنين جارف للمكان الأوّل ، وتوق إليه وجهل به وتخوّف من العودة إليه وتردّد ، بل عجز عن عدم القدرة على اتخاذ أيّ قرار بشأن ذلك ، فالبقاء بعيداً عن الوطن يخلف عذاباً متواصلاً وقلقاً مستمراً ، والاقتراب إليه غير ممكن ، فالمنفيّ منزلق في سفوح منحدر لا سبيل له إلى الثبات ولا الوصول إلى نهاية محدّدة . وحينما تُحزم معاً كلّ هذه الإحياءات القابعة تحت لفظ (Nostalgia) ينبثق المفهوم الشامل لفكرة الحنين ، التي تشكّل اللبّ الحقيقيّ لأدب المنفى .

إثر إحدى محاضراتها سُئلت الروائية التشيلية «إيزابيل أليندي» عن معنى «Nostalgia» في رواياتها ، فبُهِتت ، ثمّ صممت مرتبكة ومتفاجئة ، لكنّها استجمعت معلوماتها المعجميّة عن المصطلح بعجالة ، فتداركت الموقف قائلة : «هو ألم أن يرى المرء نفسه غائباً عن وطنه ، هو الحزن الذي تثيره سعادة مفقودة» . ثمّ عقبّت تشرح حالها المضطربة حينما طُرِحَ عليها السؤال ، وهي تفكّر بالجواب : «قطع السؤال الهواء

عَنِّي ؛ لأنني حتى تلك اللحظة لم أنتبه إلى أنني أكتب كتمريرين متواصل عن الاشتياق ، طوال حياتي كنت غريبة تقريباً ، وهو الوضع الذي أقبله ؛ لأنه لا خيار آخر أمامي . وجدت نفسي مرّات عديدة مجبرة على المغادرة مُحطّمة الأغلال ، مخلّفة كل شيء ورائي ، كي أبدأ من جديد في مكان آخر ؛ فلقد جيت متغرّبة طرّقاً أكثر ممّا أستطيع تذكره ، ومن كثرة ما ودّعتُ جفّت جذوري ، واضطّرتُ إلى أن أستنبتَ أخرى ، استوطنتَ الذاكرةَ لعدم وجود مكان جغرافيّ تستوطنه»<sup>(١)</sup> .

وما دام الحديث ينصرف برمّته إلى أمكنة مفقودة فرضتها حالة النفي ، فهل يمكن الحديث عن أوطان متخيّلة بالنسبة للمنفقين ، تكون بديلاً للأوطان الحقيقيّة؟ أجابت «أليندي» نفسها عن ذلك في سيرتها الذاتيّة «بلدي المخترع» ، وهي تصف شعورها بالاقتلاع إبّان مغادرة بلادها إلى فنزويلا عام ١٩٧٥ بعد نحو سنتين من الانقلاب العسكريّ الذي قاده الجنرال «بينوشيت» ، ضدّ الرئيس «سلفادور ألييندي» في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ١٩٧٣ : «منذ اللحظة التي عبرتُ فيها جبال الأند ، ذات صباح شتويّ ماطر ، بدأتُ دون وعي عمليّة اختراع بلد ، عدتُ لأحلّق فوق الجبال مرّات كثيرة ، ودائماً أثأّر ؛ لأنّ ذكرى ذلك الصباح تهاجمني كما كانت حين رأيت مشهد الجبال الشامخ ، فالعزلة المطلقة لتلك القمم البيضاء ، لتلك الهوآت السحيقة ، لتلك السماء العميقة الزرقاء ، ترمز إلى وداعي لتشيلي . لم أتصوّر قطّ أنني سأغيب كلّ هذا الزمن . سيطر عليّ الحنين منذ تلك الليلة الأولى ، ولم يفلتني لسنوات طويلة إلى أن سقطت الدكتاتوريّة وعدتُ لأطأ أرض بلدي ، خلال ذلك بقيتُ أعيش ناظرة إلى الجنوب ، متعلّقة بالأخبار ، منتظرة لحظة العودة بينما اختار ذكرياتي ، أغير بعض الأحداث ، أبالغ أو أتجاهل أخرى ، أشدّب عواطفي ؛ وهكذا رحّتُ أشيّد شيئاً فشيئاً هذا البلد المخترع ، الذي زُرعت فيه جذوري»<sup>(٢)</sup> .

أثارت «إيزابيل ألييندي» قضية الانتماء ومشكلة الهويّة وتخيّل الأوطان ، وهي أمور مهمّة بالنسبة للمهجرّين والنازحين والمترحّلين ، وكلّ الذين غادروا بلادهم قسراً أو اختياراً ، جماعات كانوا أم أفراداً ، أو أبعدوا عنها بسبب التجربة الاستعماريّة أو الاستبداد السياسيّ أو الدينيّ ، أو بسبب ظروف تأسيس الدول في العصر الحديث ،

---

(١) إيزابيل ألييندي ، بلدي المخترع ، ترجمة رفعت عطفة ، دمشق ، دار ورد ، ٢٠٠٤ ، ص ٨-٩

(٢) م . ن . ص ١٥٥

أو بسط الأيدولوجيات المتشددة التي وضعت تمايزاً بين الجماعات على أسس عرقية أو دينية أو مذهبية أو قبلية ، أو أيّ تمييز آخر قائم على أساس المعتقد أو اللون أو العرق ، فأدّى إلى النزوح عن المكان الأول ، والانتقال إلى مكان غريب لم تعهده الجماعة أو يعرفه الفرد ، وما يترتب على ذلك من صعاب الاندماج في الحال الجديدة التي أصبحوا عليها ، لكونهم لم ينسوا أعراف الجماعة القديمة التي تحدّروا منها ، ولم يهضموا تقاليد الجماعة الجديدة التي رحلوا إليها . ومن بين هؤلاء المنفيين لأسباب خاصة بأوضاعهم الثقافية أو السياسية .

لا يستطيع المنفي الانخراط الكامل في المجتمع الجديد ، ولا يتمكن من قطع الصلة بالمجتمع القديم الذي ولد فيه ، فيتوهم صلة مضطربة وانتماء مهجناً ، ويخلق بلاداً لاحقته أطرافها في المنفى ، فما إن يرخل المراء أو يُرخل عن مكانه الأول حتى تتساقط كثافة الحياة اليومية وتنحسر وتتلاشى ، وتحلّ محلّها ذكريات شفاقة تدفع به إلى نسيان الوقائع المريرة ، وبمضيّ السنوات يبدأ المنفي في تخيلّ بلاد على سبيل الاستعادة والتعويض ، وهي أمكنة تتخلّق في ذاكرته كتجربة شفاقة وأثيرة ، يغذيها شوق إلى أماكن حقيقية تلاشت إلّا كومضات بعيدة في عتمة حالكة . ذلك هو الحنين بدلالته الفكرية والعاطفية . حينما كتبت أَليندي سيرتها ، تحدّثت عن طفولتها في تشيلي المتخيّلة ، وليس عن حياتها في أمريكا حيث تعيش . ولكن كيف يقوم الحنين بمهمة تخيلّ الأوطان؟

وفي مقال له بعنوان «أوطان متخيّلة» عرضَ الروائيّ الهنديّ «سلمان رشدي» وصفاً لخلفيات روايته «أطفال منتصف الليل» ، ثم ربط النصّ بذكريات طفولته في «بومباي» ، حيث استعاد نبذاً من أحداث متناثرة ، ليجعل منها حقائق سردية كوّنت متن الرواية . لم يؤرّخ رشدي لانفصال شبه القارة الهندية إلى دولتين هما باكستان والهند ، إنّما ركب حدثاً متخيّلاً من شتات الوقائع ، فاستعاد ذكرى مزعجة لانشطار أمة كبيرة إلى أمتين متنازعتين بناء على تفسيرات ضيقة للمعتقدات الدينية .

وقد علّق «تيتز رووكي» على ذلك بقوله : ربّما كان صحيحاً اعتبار الماضي وطنّاً هاجرنا كلّنا منه ، وأن يكون فقدانه أو ضياعه جزءاً من إنسانيتنا المشتركة كما يتصوّر رشدي ، بيد أن الكتاب الذين يعيشون مثله في المنفى قد يمرّون بتجربة الفقد هذه أكثر من سواهم ، لكن حتى أولئك الكتاب الذين يؤرّقهم الشعور بالفقد والدافع إلى استعادة ما ضاع ، إذا قرّروا أن ينظروا وراءهم ، فلن يكونوا قادرين على استعادة الشيء

الذي فقدوه بالتحديد ، لكنهم سوف يصنعون خيالاً بديلاً ، ليس مدناً وقرى حقيقية ، وإنما مدناً وقرى غير مرئية ، وأوطاناً متخيلة ، كما صنع رشدي «هكذا متخيلة» في روايته (١) .

## ٢. المنفى والعودة المستحيلة:

تشكل قضية تخيل الأوطان والأمكنة الأولى ، ومنها المدن وما يتصل بذلك من حنين وشقاء ، البؤرة المركزية لأدب المنفى ، فثمة تزاخم بين الأوطان والمنافي في التخيلات السردية التي يكتبها المنفيون . ولكن مَنْ هو المنفي الذي ينتدب نفسه لهذه المهمة ، أو يُجبر عليها فيخوض غمارها؟

يُعرف المنفي بأنه الإنسان المنشطر بين حال من الحنين الهوسي إلى المكان الأول ، وعدم القدرة على اتخاذ القرار بالعودة إليه ، وينتج هذا الوضع إحساساً مفرطاً بالشقاء لا يدركه إلا المنفيون الذين فارقوا أوطانهم ، ومكثوا طويلاً مبعدين عنه ، فاقتلَعوا عن جذورهم الأصلية ، وأخفقوا في مدّ جذورهم في الأمكنة البديلة ، فخيم عليهم وجوم الاغتراب والشعور المريع بالحسّ التراجيدي لمصائرهم الشخصية ؛ إذ عَطَبَتْ أعماقهم جرأ ذلك التمزّق والتصدّع ، وقد دفع الحنين إلى المكان الأول رغبة عارمة لاستدعاء الذكريات الممزوجة بالتخيلات ، فالمنفي وقد افتقد بوصلته الموجهة ، يستعيد مكاناً على سبيل الافتراض ليجعل منه مركزاً لذاته ، ومحوراً لوجوده ، فيلوذ بالوهم بحثاً عن توازن مفقود . فهو يُحكم سيطرته على المكان المفقود عبر سيل من الذكريات المتدافعة في سعي للعثور على معنى لحياته ، فيغيب المنفى مكاناً يعيش فيه الآن ، ويحضر الوطن زماناً كان فيه من قبل . وفي اللغة العربية تحيل مشتقات الفعل «نفي» على دلالة واحدة مترابطة الأطراف ، هي : الإبعاد والتنحية والطرْد والإخراج والتغريب والذهاب والانتفاء والانعدام . وجميعها تؤكد حال الانبثات والانقطاع والاجتثاث وعدم المكنة على التواصل والعجز عنه .

يُكرّس المنفى شعوراً من عدم الانتماء ، فالمنفى ليس مكاناً غريباً فحسب ، إنما هو مكان يتعذّر فيه ممارسة الانتماء ؛ لأنه طارئ ومُخَرَّب ، ومُفتَقِر إلى العمق الحميم ،

---

(١) تيتز روكي . في طفولتي : دراسة في السيرة الذاتية العربية ، ترجمة : طلعت الشايب ،



بل إنّه يضمّر قوّة طاردة في العلاقات القائمة فيه بالنسبة للمنفيّ، ويخيّم عليه برود الأسى وضحالة المشاركة . ولطالما وقع تعارض ، بل انفصام بين المنفيّ والمكان الذي رُحِّل/ارتحل إليه ، وندر أن تكلّلت محاولات المنفيّين بالنجاح في إعادة تشكيل ذواتهم حسب مقتضيات المنفى وشروطه .

ولطالما اتّقد المنفيون حماسة أول عهدهم بالمنافي ، إنّما لم يعوا أنهم رموا في منطقة مبهمّة لا تخوم لها ، فمن اختار المنفى فقد راودته الآمال العراض لإجراء تحويل جذري في نمط حياته ، واختياراته ، ومن دُفع إليه قسرا وجده ضربا من الانتقام الفظيع الذي لا سبيل إلى الاقتصاص منه ، لكن المعرفة بالمنفى سرعان ما تراكمت خلال القرن العشرين ، وارتسمت معالمها الثقافية ، فراودت بعض المنفيين أحلام وردية بعالم جديد ينبثق من أحشاء عالم عتيق لا يقبل الاختلاف ، ولا يعترف بالمغايرة ، ولا يوفر أسباب الشراكة في الحقوق ، لكن ولادته تعسّرت ، ثم تأخّرت ، وحينما ظهر أخيرا جاء هشاّ لا طاقة له بقبول الغرباء ، وحمائيتهم ، ناهيك عن الدفاع عنهم ، فكان من المنفيين من قبل التواطؤ فوجد فيه خلاصا مؤقتا لمحو التجارب المريرة التي ذاقتها في وطنه ، وفيهم من وقع أسير الإغراءات المذهلة للعزلة ، ومنهم من أراد الاكتفاء بتحسين أحواله ، أو خوض مغامرة ، أو ملامسة عالم آخر ، لكن مجمل هذه الدوافع المتداخلة ما لبثت أن غدت جزءا من الإستراتيجية التي يمارسها المنفى ضدّ من ينتسب إليه ، وهي الانغلاق على من يكون فيه ، ووضعه تحت طائلة انتظار دائم ، فانتهى الأمر بالمنفيين إلى غير ما صبوا إليه ، فقد أصبح المنفى اختيارا غامضا يختلف عمّا كان يُتوقّع منه ، لمن أراد أو أُجبر عليه ، فتمنّخ عن كل ذلك شعور مركّب من الآمال والإخفاقات ، ومن الإقدام والتردد ، ومن الاندماج والعزلة ، ومن الاطمئنان والخوف ، ومن النبذ والاشتياق ، فكان أن تلاشت الفكرة البرّاقة التي اجتذبت المنفيين للعيش في عالم آمن يخلو من مخاوف الأوطان ؛ إذ نشأت غيرها في المكان الجديد ، وسواء تعايش المرء مع هذه أو تلك ، فإن إحساسه المريع بفقدان مكانه أورثه شكّا بأنه خارج الدائرة الحميمة للانتماء البشري .

ومن الحقّ أن توصف حال المنفيّ بأنّها «شقاء أخلاقيّ» دائم ، فالمنفيّ هو من اقتُلِع من المكان الذي ولد فيه لسبب ما ، وأخفق في مدّ جسور الاندماج مع المكان الذي أصبح فيه ، فحياته متوتّرة ومصيره ملتبس ، وهو يتأكل باستمرار ، ولا يلبث أن ينطفئ بالمعنى المباشر ، ليتوهّج مرّة أخرى بالمعنى الرمزيّ . فالمنفيّ ينطوي على ذات

ممزقة ، لا سبيل إلى إعادة تشكيلها في كينونة منسجمة مع نفسها أو مع العالم . ومن المتوقع أن يقدم أدب المنفى تمثيلاً سردياً عميقاً لهذه الحالات المتضاربة من الرؤى والمصائر والتجارب التي يخوضها المنفي ، وبخاصة حينما يلجأ إلى الكتابة السردية التي تتعرض لارتحالاته بين الأمكنة والأزمنة والثقافات واللغات والتقاليد والمجتمعات ، والبحث عن موقع له بينها ، وكشف موقفه منها ، ثم الكيفية التي يعيد فيها بناء مسار حياته ضمن رؤيته بوصفه منفيًا يقف على حافة كل الحالات ، ولا ينخرط فيها .

وقد أن الأوان لتنشيط جدل ثقافي ينتهي بإحلال عبارة «كتابة المنفى» محل عبارة «كتابة المهجر» لأن الثانية تخلو من المحمول الذي جرى وصفه من قبل ، فيما الأولى مشبعة به ، فهو يترشح منها حيثما درست مستوياته الدلالية ، ووقع تأويله ، وعليه ف«أدب المنفى» يختلف عن «أدب المهجر» اختلافا واضحا ، كون الأخير حبس نفسه في الدلالة الجغرافية ، فيما انفتح الأول على سائر القضايا المتصلة بموقع المنفي في العالم الذي أصبح فيه دون أن تغيب عنه قضايا العالم الذي غادره .

عرض «تودوروف» في سياق بحثه عن الصلة بين «الأنا» و«الآخر» لشخصية المنفي ، وحاول أن يحدد ملامحها بالصورة الآتية : «تشبه هذه الشخصية (المنفي) في بعض جوانبها المهاجر ، وفي بعضها الآخر المغرب . يقيم المنفي مثل الأول في بلد ليس بلده ، لكنه مثل الثاني يتجنب التمثل ، غير أنه وخلافاً للمغرب ، لا يبحث عن تجديد تجربته وزيادة حدة الغربة ، وخلافاً للخبير ، لا يهتم خصوصاً بالشعب الذي يعيش بين أفراد» .

وبعد هذا التحديد الذي تقصّد «تودوروف» فيه أن يبين فيه أوضاعاً متزحزحة للشخصيات التي من خلالها يمكن أن تنبثق شخصية المنفي ، مضى قائلاً بأن المنفي هو الشخص «الذي يفسر حياته في الغربة على أنها تجربة اللانتماء لوسطه ، والتي يحبها لهذا السبب نفسه . المنفي يهتم بحياته الخاصة ، بل وبشعبه الخاص ، ولكنه أدرك أن الإقامة في الخارج هناك حيث لا «ننتمي» أفضل لتشجيع هذا الاهتمام . إنه غريب ، ليس مؤقتاً بل نهائياً . يدفع هذا الشعور نفسه ، وإن يكن على نحو أقل تطوراً ، بالبعض إلى الإقامة في المدن الكبيرة حيث يحول الإغفال دون أي اندماج كامل في الجماعة» . ويضيف «يكمن الخطر في وضع المنفي . في إنه يتخلى دفعة واحدة عن العلاقات القوية التي تربطه بهؤلاء الآخرين الذي يعيش بينهم» . ثم

يختم «قد يشكّل المنفى تجربة سعيدة ، لكنّه بالتأكيد ليس اكتشافاً للآخرين»<sup>(١)</sup> .  
وشغل هذا الموضوع «إدوارد سعيد» فتطرّق إلى بواغث النفي وآثاره ، «النفي لا يقتصر معناه على قضاء سنوات يضرب فيها المرء في الشعاب هائماً على وجهه ، بعيداً عن أسرته وعن الديار التي ألفها ، بل يعني إلى حدٍّ ما أن يصبح منبوذاً إلى الأبد ، محروماً على الدوام من الإحساس بأنّه في وطنه ، فهو يعيش في بيئة غريبة ، لا يعزّيه شيء عن فقدان الماضي ، ولا يقلّ ما يشعر به من مرارة إزاء الحاضر والمستقبل» .

ثمّ يستطرد موضحاً «يشيع افتراض غريب وعار عن الصحة تماماً ، بأنّ المنفى قد انقطعت صلته كليّة بموطنه الأصليّ ، فهو معزول عنه ، منفصل منبتّ الروابط إلى الأبد به . ألا ليت أنّ هذا الانفصال «الجراحيّ» الكامل كان صحيحاً ، إذن لاستطعت عندها على الأقلّ أن تجد السلوى في التيقّن من أنّ ما خلفته وراء ظهرك عاد لا يشغل بالك ، وأنّه من المحال عليك أن تستعيده أبداً . ولكنّ الواقع يقول بغير ذلك ؛ إذ لا تقتصر الصعوبة التي يواجهها المنفى على كونه قد أرغم على العيش خارج وطنه ، بل إنّها تعني - نظراً لما أصبح العالم عليه الآن- أن يعيش مع كلّ ما يُذكره بأنّه منفيّ ، إلى جانب الإحساس بأنّ الوطن ليس بالغ البعد عنه ، كما أنّ المسيرة «الطبيعيّة» أو المعتادة للحياة اليوميّة المعاصرة تعني أن يظلّ على صلة دائمة موعودة ولا تتحقّق أبداً بموطنه . وهكذا فإنّ المنفى يقع في منطقة وسطى ، فلا هو يمثّل تواؤماً كاملاً مع المكان الجديد ، ولا هو تحرّر تاماً من القديم ، فهو محاط بأنصاف مشاركة وأنصاف انفصال ، ويمثّل على مستوى معيّن ذلك الحنين إلى الوطن وما يرتبط به من مشاعر ، وعلى مستوى آخر قدرة المنفى الفائقة على محاكاة من يعيش معهم الآن ، أو إحساسه الدفين بأنّه منبوذ ، ومن ثمّ يصبح واجبه الرئيسيّ إحكام مهارات البقاء والتعايش هنا ، مع الحرص الدائم على تجنّب خطر الإحساس بأنّه حقق درجة أكبر ممّا ينبغي من «الراحة» و«الأمان»<sup>(٢)</sup> .

(١) تودوروف ، نحن والآخرين : النظرة الفرنسيّة للتنوع البشريّ ، ترجمة : د . ربي حمود ، دمشق ،

دار المدى للثقافة والنشر ، ١٩٩٨ ص ٣٨٤-٣٨٥

(٢) إدوارد سعيد ، المثقّف والسلطة ، ترجمة ، محمّد عناني ، القاهرة ، رؤية للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٦ ،

ص ٩٢ ، و ٩٤-٩٥ . والعنوان الأصليّ للكتاب هو «Representations of the Intellectual» .

توقّف إدوارد سعيد كثيراً على هذا الموضوع في سعي لا يخفى من أجل تعميق الإحساس بفكرة المنفى، «يُجبر المنفى المرء على التفكير فيه، ويا لها من تجربة فظيعة. إنّه الشرخ المفروض الذي لا التئام له بين كائن بشري ومكانه الأصلي، بين الذات وموطنها الحقيقي: فلا يمكن أبداً التغلّب على ما يولّده من شجن أساسي... فمآثر المنفى لا يني يقوّمها فقدان شيء ما خلفه المرء وراءه إلى الأبد»<sup>(١)</sup>.

أفرزت هذه الحال مدوّنة ضخمة من الكتابة الشعرية والسردية تعرف بـ«أدب المنفى». وهي سجلّ متنوّع أسهم فيه عدد كبير من الكتاب المنفيين الذي استلهموا تجاربهم، وجعلوا منها خلفيات لعوالم افتراضية أفصوا بحنينهم إليها، ورغبوا في أن تكون المكافئ المتخيّل لإحساسهم بالفقدان والغياب. وقد أجمّل «فخري صالح» ما تفرّق عن المنفى وأدبه في دراسته «مفهوم أدب المنفى»، فبيّن دلالة المنفى وموقع المنفيين في الجغرافيا الثقافية المتزحزحة بين المراكز والأطراف، فمفهوم المنفى ذو طبيعة معقدة؛ لأنّه مفروض ومرغوب فيه، يجري السعي إليه وتفضيل الإقامة فيه، وكذلك ذمّه بوصفه حالة من الإبعاد والاعتراب اللذين يُدفع المرء إليهما، أو يُجبر على عناقهما.

ثمّ انتقل إلى تقصّي طبيعة الأدب الذي يفرزه المنفى، مؤكّداً أنّه من الصعب أن نرسم شبكة لمعنى المنفى وأدب المنفى، ضمن هذه الظروف المعقّدة من عمليّات النزوح والشتات والاعتراب والافتلاع والتشريد والنفي والرحيل الطوعي أو الهجرة بحثاً عن الحرية، أو الرغبة في تحسين الأوضاع المعيشية؛ فبينما كان الارتحال فردياً في العصور السابقة، أو إنّهُ يتضمّن جماعات صغيرة، صار هناك مجتمعات شتات كاملة تبتعد طوعاً أو كرهاً عن أوطانها الأصلية. وبعض مجتمعات الشتات هذه أجبرت لا على ترك أوطانها فقط، بل على التخلّي عن لغتها الأمّ، وثقافتها الأصلية لتصبح جزءاً مُزاحاً من المجتمعات والثقافات الجديدة، مثل الأفارقة الذين يعيشون في فرنسا، والهنود والباكستانيّين الذين يعيشون في بريطانيا.

وهؤلاء ينتجون أدباً مهجّنة، لكنّهم يتّخذون من الفرنسية والإنجليزية لغة يعبرون بها عن أنفسهم، بكلّ ما يتضمّن ذلك من مصاعب في التعبير عن الذات

---

(١) إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى، ترجمة نائر ديب، بيروت، دار الآداب، ٢٠٠٤، ص ١١٧

وانشقاقت في الهوية . وعلى هذه الخلفية المركبة من أوضاع الجماعات النازحة والأفراد المقتلعين ، يرى «فرانز فانون» أنّ المنفى «انسحاب نرجسيّ من العالم إلى شرنقة الذات» . وبهذا المعنى يستخدم «فانون» المنفى استخداماً مجازياً في تحليله لعبء الاستعمار وضغطه على الذات المستعمرة ، حيث يتلوّن تعريفه ليدخل في تعريف الهوية المنشقة والذات المشروخة ، لأسباب تتصل بالتجربة الاستعمارية للشعوب المستعمرة في القرون الثلاثة الأخيرة .

إنّ المنفى عرض نفسيّ من وجهة نظر «فانون» ، وهوية مكتسبة تقيم على حدود الثقافات ، وتعلّم الذات والآخر كيفية النظر إلى تداخل الثقافات وتجارب البشر ، من وجهة نظر «إدوارد سعيد» ، وهو الشيء نفسه الذي فعله «هومي بابا» حين شدّد على أهميّة المجاز في تجربة المنفى ؛ حيث يرى أنّ عدداً كبيراً من الشعوب الحديثة بدأ رحلته في تكوين القوميات خلال القرن التاسع عشر ، وهو القرن نفسه الذي بلغ فيه الاستعمار الأوروبي ذروته . لقد سعى الغرب إلى الامتداد نحو الشرق ، كما نشطت حركة الهجرة باتجاه الغرب ، ممّا ملأ الفراغ الذي تركه غياب الأوطان بلغة المجاز . وإلى كلّ ذلك يميّز «جان محمّد» بين المهاجر والمنفيّ ، ففي الوقت الذي يقوم فيه «كلّ من المنفيّ والمهاجر بعبور الحدود بين مجموعة قومية أو اجتماعية وأخرى ، فإنّ موقف المنفيّ من الثقافة المضيفة سلبيّ ، فيما يتّخذ المهاجر من تلك الثقافة موقفاً إيجابياً . تشدّد فكرة المنفى دوماً على غياب «الوطن» وعلى النسيج الثقافيّ الذي شكّل الذات الفردية ؛ ومن ثمّ فإنّها تتضمن تمرّفاً لا إرادياً أو مفروضاً ، للعلاقة بين الذات الجمعية للثقافة الأصلية والذات الفردية . إنّ «النوستالجيا» الخاصّة بالمنفى تدفع الفرد في العادة لكي يكون غير مبال بالقيم والخصائص المتعلقة بالثقافة المضيفة ؛ إنّ المنفيّ يختار إذا كان بمقدوره أن يختار ، أن يعيش في سياق غير مرحّب ، سياق يشبه «الوطن» .

وخضع مفهوم أدب المنفى خلال الربع الأخير من القرن العشرين لتحوّلات وتعديلات عديدة ، حيث غادر معناه اللغويّ ، الذي جعل منه دالاً على أدب الغربة والهجرة والاقتلاع والنفي والتشرد ، فأصبح تجربة مجازيّة تدلّ على النظر بعيون جديدة إلى العالم وتجارب البشر وتفاعل الثقافات ومفهوم الحرية والرؤية غير المتحيّزة والابتعاد عن مفهوم الهوية المغلقة ، وطرح مفاهيم مثل الأصل والقومية والآداب الوطنيّة على بساط البحث مجدداً .

ودخل المفهوم من خلال عدد من المنظرين ونقاد الأدب بـ «بوابة النظرية الأدبية» ، ليصبح من بين المفاهيم الأساسية التي تشكّل ما يسمى «آداب ما بعد الاستعمار» ، بوصف تجربة المنفى عنصراً مشكّلاً للهوية الخاصة بكلّ من المستعمر والمستعمر ؛ فالرحلة باتجاهات متعاكسة جزء لا يتجزأ من تجربة الغزو الاستعماري الحديثة . وهو ما جعل مفهوم أدب المنفى يُبحث في كلا الاتجاهين : شرقاً وغرباً ، جنوباً وشمالاً . وبهذا المعنى يمكن القول إنّ محاولة فهم الآداب الحديثة تستلزم إلماماً بتحوّلات المفهوم ، ومغادرته دائرة الفهم القاموسي الضيق إلى أفق النظرية الأدبية<sup>(١)</sup> .

أدب المنفى إذن ظاهرة ثقافية يتنامى حضورها في آداب الأمم التي خضعت للتجربة الاستعمارية ، وتشكّل الكتابة السردية لبها الجوهرية ، وهي تطفح برغبات هوسية من الاشتياق والحنين والقلق ، ومسكونة بفكرة إعادة كشف موقع الفرد في وطنه وفي منفاه على حدّ سواء . والحال هذه ، يكرّس المنفى عجزاً عن الانتماء إلى أيّ من العالمين المذكورين ، وتعذّر الانتماء يقود إلى نوع من الترفع الفكري والرهبة الروحية والعقلية ، وذلك قد يفضي إلى العدمية أحياناً ، حيث تتلاشى أهمية الأشياء ، فتنهار صورة العالم في أعماق المنفى ، ولكن قد يظهر العكس ، فالمنفيون الكبار عبر التاريخ ، هم الذين أوقدوا شرارة الأمل في نفوس شعوبهم ، وألهموها فكرة الحرية ، وقادوها إلى شواطئ الأمان ، فالمنفي ما إن يتخطّى الذاتية المغلقة حتى يصبح كائنًا عالميًا يتطلّع إلى تغييرات شاملة . والمنفيون ينظرون إلى غير المنفيين نظرة استياء وسخط . فهم ينتمون إلى محيطهم ، أمّا المنفي فغريب على الدوام . يقضي معظم حياته في التعويض عن خسارة مربكة بخلق عالم جديد ييسر سلطانه عليه<sup>(٢)</sup> .

خلع إدوارد سعيد على المنفي الميزة المتفرّدة ، بقوله : يعلم المنفي أنّ الأوطان في العالم الدنيوي عارضة ومؤقّته . بل إنّ الحدود والحواجز يمكن أن تغدو سجوناً ومعازل ، وغالباً ما يُدافع عنها ، وتُحمى بلا مبرر أو ضرورة . أمّا المنفيون فيعبرون الحدود ، ويحطّمون حواجز الفكر والتجربة<sup>(٣)</sup> . وكلّ ذلك له صلة بفكرة الانتماء التي تتلاشى

---

(١) فخري صالح ، مفهوم أدب المنفى ، انظر ، كتاب الأدب والمنفى ، تحرير وتقديم عبد الله إبراهيم ،

الدوحة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث ، ٢٠٠٧ ، ص ٧-١٧

(٢) تأملات حول المنفى ، ص ١٢٦-١٢٧

(٣) م . ن . ص ١٣١

عند المنفيين بمعناها المباشر ، فتصبح الهوية رمادية ، تطوي في داخلها هويات متمازجة كثيرة ، وربما متناقضة .

ويتميز أدب المنفى بأنه مزيج من الاغتراب والنفور المركب ؛ لكونه نتاجاً لوهم الانتماء المزدوج إلى هويتين أو أكثر ، ثم في الوقت نفسه عدم الانتماء لأي من ذلك ، بل إنه أدب يستند في رؤيته الكلية ، إلى فكرة تخريب الهوية الواحدة والمطلقة ، وبصفته تلك فهو أدب عابر للحدود الثقافية والجغرافية والتاريخية ، ويخفي في طياته إشكالية خلافية ؛ لأنه يتشكل عبر رؤية نافذة ومنظور حاد يتعالى على التسطيط ، ويتضمن قسوة عالية من التشريح المباشر لأوضاع المنفى ، ولكل من الجماعة التي اقتلعت منها والجماعة الحاضنة له ، لكنه أدب ينأى بنفسه عن الكراهية والتعصب ، وهو يتخطى الموضوعات الجاهزة والنمطية ، ويعرض شخصيات منهمكة في قطيعة مع الجماعة التقليدية ، وفي الوقت نفسه ينبض برؤية ذات ارتدادات متواصلة نحو مناطق مجهولة داخل النفس الإنسانية .

### ٣. السيرة والمنفى: تفاعلات متبادلة:

تقع السير الذاتية للمنفيين في قلب المدونة السردية لأدب المنفى ، ومعلوم أن أدب السيرة يظهر في إطار التعبير الشخصي الذي يفرضه الوعي الذاتي ، وهو يبحث عن معنى لتطوره عبر الزمن ، ولهذا يقول «جورج ماي» بأن «أقوى البواعث الباطنية على كتابة السيرة الذاتية ، حاجة المرء إلى العثور على معنى لحياته المنقضية أو على إعطائها شكلاً مخصوصاً»<sup>(١)</sup> . وفكرة البحث عن معنى مخصوص لتجربة الحياة ، بعد أن توارت متمزقة بين الأوطان والمنافي ، تستأثر باهتمام المنفيين أكثر من سواهم ؛ لأن تجاربهم تنتزل في منطقة البحث عن معنى معين يفرضه المنفى ؛ فتأثير المنفى وإعادة صوغه للشخصية ، يترك بصمة لا تمحى في تحديد معالم تلك التجربة ، وفي طريقة النظر إليها ، وفي استخلاص التجربة الكبرى منها ، وفي كيفية كتابتها .

في سيرته الذاتية «خارج المكان» عرّج «إدوارد سعيد» على ذكر كثير من ذلك ، وأول ما يلفت الانتباه حرصه على رسم الأطر العامة التي حددت نزوعه ليس في

---

(١) جورج ماي ، السيرة الذاتية ، تعريب : محمد القاضي - عبد الله صولة ، بيت الحكمة -

اعتبار كتابة سيرته معادلاً لانهيائه الجسديّ بسبب مرض السرطان فحسب ، إنّما في الوصف المُسهب للنزوح المكانيّ المتواصل ، والإزاحات اللغويّة التي سبّبتها التجربة الاستعماريّة ، ثمّ تأثير كلّ ذلك في صوغ علاقته بنفسه وبأسرته وبالأمكنة المفقودة . وفي جميع ذلك ظهر سعيد منقسماً على نفسه بين قوّة مستترة وضعف معلن ، فلا هو قادر على الإفصاح عن قوّته الجوّانيّة - وهو ما يقع الاحتفاء به عادة في السير الذاتية - ولا هو متمكن من ستر الوهن العميق الذي يجتاح أعماقه - وهو ما يجري غالباً طمسه في الكتابة السيريّة - فكلّ قوّة طبيعيّة في داخله كبجها ضغط خارجيّ فرضته التربية العائليّة الصارمة ، ولم تُتَح له فرص التفتّح والمشاركة ، إنّما الانكفاء على الذات وتكبيل الرغبات . وبمرور الزمن فإنّ كلّ ضعف تسبّب به تلك التربية استُبدل بقوّة خارجيّة أمكن تحويلها لتحرّر سعيد المثقّف من هشاشته الداخليّة المرتبكة ، وتجعل منه شخصيّة ثقافيّة وأكاديميّة صلبة وحادة وعنيفة وسجاليّة في مواقفها وأفكارها . إلى كلّ ذلك كشفت سيرته طبيعة الصلة المعقّدة بين المنفى والكتابة ، وموقع المنفى فيهما ، ونوع التصدّعات الجوّانيّة التي لحقت به جرّاء كلّ ذلك . وقد اهتبل الفرصة كاملة فشرح كلّ ذلك وعرض له باستفاضة لم تنقصها الجدّيّة والوضوح .

يكن مفتاح سيرة «إدوارد سعيد» في محفّزها الأساسيّ ، وتمثّله العلاقة الافتراضيّة التي ربطته بـ«جوزيف كونراد» وهي علاقة مُماثّلة وربّما مُطابقة ، ظلّ سعيد يحيل عليها بكثير من الاحتفاء ، والإصرار والتكرار ، وإليها أرجع موقعه في الثقافة ، بل ورؤيته للعالم وصلته باللغة بوصفها أداة تمثيل وتعبير ، فما برح كونراد مُلهماً لسعيد في تحديد نوع العلاقة بين الكاتب والعالم ، منذ أوّل مؤلّف ظهر له . وهذه العلاقة هي المفتاح الأنسب الذي به يمكن الدخول إلى عالم سعيد كما قامت سيرته الذاتيّة بتمثيله .

ففي مقالته «بين عالميّين» التي وردت في كتابه «تأمّلات حول المنفى» ، صرّح بأنّه منذ أوّل كتاب كتبه ، وهو «جوزيف كونراد وقصّ السيرة الذاتية» ، استخدم «كونراد مثلاً لمن تبدو حياته وعمله تجسيداً لمصير المتجوّل الذي يغدو كاتباً بارعاً بلغة أخرى مُكتسّبة ، لكنّه لا يقوى مطلقاً على زعزعة إحساسه بالاغتراب في موطنه الجديد - أي المُكتسَب - والمثير للإعجاب في حالة كونراد الخاصّة ، فجميع أصدقاء كونراد قالوا إنّّه كان راضياً أشدّ الرضا حيال فكرة أن يكون إنجليزيّاً ، على الرغم من



أنّه لم يفقد أبداً لكنته البولنديّة الثقيلة ونكده المميّز تماماً ، والذي اعتقد أنّه غير إنجليزيّ إلى أبعد الحدود . غير أنّ مَنْ يدخل كتابته لا بدّ أن يلمس مباشرة جوّ الانخلاع وعدم الاستقرار والغربة ، الذي لا مجال للخطأ فيه . فما من أحد أمكنه أن يمثّل مصير الضياع وفقدان الوجهة بأفضل ممّا فعل ، وما من أحد كان أشدّ سخرية حيال السعي وراء تغيير ذلك الشرط بترتيبات وتكيّفات جديدة . لا تني تغري المرء بالوقوع في مزيد من الشراك»<sup>(١)</sup> .

والحقّ ، كلّ هذا ينطبق تمام الانطباق على سعيد نفسه ، فلم يتبرّم من كونه أميركيّاً ، ولكن من الصعب أن يعثر المرء على كتابة له لا تمور فيها فكرة الاقتلاع ، ولا تموج بمشاعر الاغتراب ، ولا يتعالى فيها القلق ، ولا تضطرب فيها الشكوك . وباستعارة تحيل على تجربته يستطرد سعيد متحدّثاً عن نظيره : «لم يحاول نقاد كونراد إعادة بناء ما دُعيّ بخلفيته البولنديّة إلّا بعد وفاته بفترة طويلة ، تلك الخلفيّة التي لم يجد منها طريقه المباشر إلى قصّ كونراد سوى أقلّ القليل . غير أنّ معنى كتابته المراوغ المتملّص لا يُقدّم بسهولة أو يسر ، ذلك إنّّه حتى حين نجد الكثير عن تجاربه البولنديّة وأصدقائه وأقربائه ، فإنّ تلك المعلومات بحدّ ذاتها لن تهدّي ذلك اللّباب من عدم الاستقرار والقلق الذي يدور عمله من حوله دون كلل أو ملل . وندرك في نهاية المطاف أنّ القوام الفعليّ لهذا العمل إنّما هو تجربة المنفى أو الاغتراب التي لا سبيل لمعالجتها . فبصرف النظر عن مدى قدرته البارعة على التعبير عن شيء ما ، فإنّ النتيجة تبدو له على الدوام ضرباً من التقرب ممّا أراد أن يقوله ، وممّا قاله متأخراً جداً ، بعد اللحظة التي كان يمكن للقول فيها أن يكون مفيداً»<sup>(٢)</sup> .

هذا الوصف لحال كونراد العالق بين لغتين وعالمين ، دفع بسعيد إلى وصف تجربته المماثلة لتجربة صنوه البولنديّ ، «إنّ العربيّة لغتي الأصليّة ، والإنجليزيّة لغتي المدرسيّة ، كانتا مختلطتين على نحو يتعدّر فصمه : فلم أعرف أبداً أيّهما كانت لغتي الأولى ، ولم أكن أشعر بأنني مرتاح تماماً في أيّ منهما ، على الرغم من أنّني أحلم بكليتيهما . وفي كلّ مرّة أنطق بها جملة إنجليزيّة ، أجد نفسي أرددها بالعربيّة ،

---

(١) تأملات حول المنفى ، ج ١ : ٣٦٧

(٢) م . ن . ص ٣٦٨ .

والعكس بالعكس»<sup>(١)</sup> . وأردف : «وجدت نفسي وأنا أحيي من جديد ما في سنواتي الأولى من مآزق سرديّة إحساسي بالشكّ ، وبكوني خارج المكان ، وشعوري الدائم بأنني أقف في الركن الخطأ ، في مكان بدا كأنّه ينزلق مني بعيداً كلّما حاولت أن أحدّده أو أصفه»<sup>(٢)</sup> . والمماثلة بين تجربتي كونراد وسعيد أشار إليها هو بنفسه مراراً ، وأشار إليها سواء أيضاً<sup>(٣)</sup> .

التريث طويلاً أمام تجربة كونراد ، والتأمل فيها وتقليبها من طرف سعيد ، إنّما هو عتبة للولوج إلى تجربته الشخصية والثقافية ، بوصفه مفكراً ومنفياً ، فتجربته تصلح بدورها أن تكون ذكرى استعاديّة يمكن بها إعادة اكتشاف تجربة كونراد في ضوء الارتباك الذي تفرضه المنافي وشروطها القاسية ، ويقرّره تزاخم اللغات الجديدة ، بما يؤدي إلى دفع اللغة الأصليّة إلى الوراء ، ومعها التصورات الذهنيّة المصاحبة لها ، ويقترح لغات بديلة لها متصوراتها الجديدة ، وبذلك تُخرّب الصلة الطبيعيّة مع المكان الأوّل ، وتفرض صلة ثقافيّة جديدة ، فتقع القطيعة بين المنفي ووطنه ليس بالمعنى المباشر فحسب ، إنّما بالمعنى الرمزيّ ؛ إذ يتراجع دور اللغة الواصفة ، وينحسر التواصل ، ويجري ترحيل الوطن المفقود من مرتبة الواقع إلى مرتبة الذكرى المستعادة . وفي ضوء هذا الانزلاق اللغوي والثقافيّ تنزلق الهويّة بصورة متواصلة ، فلا تكتمل ولا ترسخ ولا تتّضح معالمها ولا تعرف الثبات النهائيّ ، «فالهويّة أو التطابق أمر مضجر بقدر ما يمكن للمرء أن يتخيّل . ولا شيء يبدو أبعد عن الإثارة والتشويق من الدراسة النرجسيّة للذات ، التي تستبدل بها اليوم في كثير من الأمكنة سياسات الهويّة أو الدراسات الإثنيّة ، أو ضروب التأكيد على الجذور والاعتداد الثقافيّ والقوميّة الصاخبة . وإذا ما كان علينا أن ندافع عن الشعوب والهويّات المهدّدة بالإفناء أو المخضّعة بسبب اعتبارها شعوباً وهويّات أدنى ، إلّا أنّ ذلك مختلف تماماً عن تعظيم ماضٍ مبتدع لأسباب في الحاضر»<sup>(٤)</sup> . وأخيراً عرض سعيد اعترافه الآتي : «كوني

(١) م . ن . ص ٣٧١

(٢) م . ن . ص ٣٧١

(٣) شيلي واليا ، صدام ما بعد الحداثة : إدوارد سعيد وتدوين التاريخ ، ترجمة عفاف عبد

المعطي ، القاهرة ، رؤيا للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٦ ص ٦٩

(٤) تأملات حول المنفى ، ص ٣٨١

فقدت بلاداً دون أن يكون لديّ أمل باستعادتها قريباً ، ليس يعني أن أجد عزاء في رعاية جنّة أخرى»<sup>(١)</sup> .

وبهذا التصريح نقل سعيد علاقته باللغة والمكان إلى مستوى إشكاليّ يخصّ المنفيّين ، وهو أحد أهمّ مرتكزات أدب حقبة ما بعد التجربة الاستعماريّة ، فقضيّة الإزاحة عن المكان الأصليّ والارتقاء في مكان ناء ، وتبنيّ لغة أخرى غير اللغة الأمّ للتعبير ، وبناء تصوّرات مغايرة ، تولّد أزمة خاصّة بالرؤية وبالهُويّة وباستعادة بناء علاقة فعّالة بين الذات والمكان الجديد لتحديد موقع الفرد في العالم ، وهذا هو مضمون الاغتراب والمنفى ، وكما تذهب أدبيّات ما بعد الاستعمار ، فإنّ «أوسع ممارسة إدراكيّة مشتركة يمكن داخلها تحديد هذا الاغتراب ، تتمثّل في بناء المكان . كما أنّ الفجوة القائمة بين خبرة المكان واللغة المتاحة لوصف هذا المكان تشكّل ملمحاً كلاسيكياً واسع الانتشار في نصوص ما بعد الكولونياليّة ، وتوجد هذه الفجوة لدى من تبدو لغتهم غير كافية لوصف مكان جديد ، ولدى من تتعرّض لغتهم لتدمير منتظم نتيجة الاسترقاق ، ولدى من أصبحت لغتهم غير متميّزة نتيجة فرض لغة سلطة المستعمر . وعن مزج واحد أو آخر من تلك النماذج يمكن أن يصف حال جميع مجتمعات ما بعد الكولونياليّة»<sup>(٢)</sup> .

تتخلّل سيرة سعيد إشارات متواترة عن موقعه في الثقافة والعالم وعن لغته وكتابته ، باعتبار كلّ ذلك رداً على الإزاحة التي تعرّض إليها بوصفه منفيّاً لم يشعر بالانسجام مع العالم الجديد الذي أُزيح إليه ، ولم يقطع الصلة بالعالم القديم الذي أُزيح عنه ، فبقي عالماً بينهما وخارجهما ؛ لتعذّر الاتصال الكامل بأيّ منهما بصورة صميّة وكاملة .

بعد أن فرغ سعيد من وصف كلّ هذه المحدّثات عرّج على ذكر الظروف الخارجيّة التي رافقت كتابة السيرة ودفعت بها ، وبلورت الأحاسيس المطمورة في تضاعيفها ، وكلّ ذلك جسّم عمق الخسارة التي تسبّبت بها التجربة الاستعماريّة وتداعياتها في فلسطين : «أحاول أن أكتب ذكريات حياتي الباكّة - أي ما قبل السياسة - وذلك

---

(١) م . ن . ص ٣٨٢

(٢) بيل أشكروفت وآخرون ، الردّ بالكتابة : النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة ،

ترجمة شهرت العالم ، بيروت ، المنظمة العربيّة للترجمة ، ٢٠٠٦ ص ٢٨-٢٩

عائد بدرجة كبيرة إلى اعتقادي بأنها قصّة جدية بالإنقاذ والإحياء ؛ لأنّ الأمكنة الثلاثة التي ترعرعت فيها كفتّ عن الوجود . ففلسطين هي الآن إسرائيل ، ولبنان بعد عشرين عاماً من الحرب الأهليّة ، لم يبقَ ذلك المكان المُضجر إلى حدّ الاختناق حين كنّا نقضي أضيافنا محتجزين في ضهور الشوير ، ومصر الكولونياليّة الملكية اختفت عام ١٩٥٢ . وذكرياتي عن تلك الأيام والأمكنة لا تزال حيّة إلى أبعد الحدود ، مفعمة بالتفاصيل الدقيقة التي يبدو أنّي احتفظت بها كما لو بين دفتي كتاب ، ومفعمة أيضاً بالمشاعر غير المُعبر عنها المتولّدة عن أحوال وأحداث وقعت منذ عقود مضت ، لكنّها انتظرت كما يبدو لكي يفصح عنها الآن . يقول كونراد في «نوسترومو» : ما من قلب إلّا وتعتمل فيه الرغبة في أن يدوّن مرّة وإلى الأبد رواية صادقة لما حدث ، ولا شكّ أن هذا ما حرّضني على كتابة مذكراتي»<sup>(١)</sup> .

#### ٤. المنفى وانزياح الهوية؛

وعلى هذه الخلفيّة من الشعور المتفاقم بالفقدان ، وكون المرء عالقاً في منطقة ينتمي/ ولا ينتمي فيها إلى أمكنة وثقافات متعدّدة ، تتنزّل السيرة الذاتيّة لسعيد ، فتشير إحدى أهمّ المشاكل الخاصّة بكتابة المنفى ، قصدتُ بذلك العلاقة مع المكان من وجهة نظر المنفيّ ، وكيفيّة تشكيل الهويّة الشخصيّة المزاحة لرجل يقيم علاقة هشّة معه ، فهو لم يدخر جهداً في تصوير علاقته الواهنة بالأمكنة ، وتوسيع دلالتها ليجعل منها فضاءات ثقافيّة ، مصوّراً نفسه عالقاً بينها ، ومن خلال ذلك ينزلق إلى المنطقة الجوهريّة في أيّة سيرة ذاتيّة ، وهي تكوين الذات في وسط أسريّ واجتماعيّ قلق ضمن حقبة تاريخيّة متقلّبة جعلت المصيرين العائليّ والاجتماعيّ في وضع متأرجح بين المنفى كمكان غير محدّد الملامح ، وفقدان الوطن ، والتفكك الذي مثله غياب الداعمين الأساسيّين له ، وهما الأب والأمّ ، ثمّ تجربة المرض بالسرطان ، وهي التي فرضت الشروع بكتابة السيرة ، وحدّدت شروطها ، وكلّ ذلك جعل من كتاب «خارج المكان» كما يقول مؤلّفه ، عبارة عن «سجلّ لعالم مفقود أو منسيّ»<sup>(٢)</sup> .

حضر العالم الذي استعاده سعيد بالسرّد على خلفيّة إحساس بالغياب النهائيّ

(١) تأملات حول المنفى ، ج١ : ص ٣٨٢-٣٨٣ .

(٢) إدوارد سعيد ، خارج المكان ، ترجمة فواز طرابلسي ، بيروت ، دار الآداب ، ٢٠٠٠ ص ١٩

عن العالم الحقيقي، «منذ عدة سنوات، تلقيتُ تشخيصاً طبياً بدا مُبرماً، (اكتشاف إصابته بسرطان الدم في خريف عام ١٩٩١)، فشعرتُ بأهميّة أن أخلف سيرة ذاتيّة عن حياتي في العالم العربيّ، حيث ولدتُ وأمضيتُ سنواتي التكوينيّة، كما في الولايات المتّحدة، حيث ارتدتُ المدرسة والكلّيّة والجامعة. العديد من الأمكنة والأشخاص التي أستذكرها هنا أصبحت غير موجودة، على الرغم من أنّي أندesh باستمرار لاكتشافي إلى أيّ مدى أستبطنها، وغالباً بأدقّ تفاصيلها، بل بتشخيصاتها المروعة»<sup>(١)</sup>.

أول الصعاب التي تواجه شخصاً اتّصل بأمكنة ولغات متعدّدة وانفصل عنها في وقت واحد، هو الموقع الذي ينظر من خلاله إلى تجربة حياته الأفلة، وإلى تجارب الآخرين المحيطين به، فقد شرع سعيد في كتابة السيرة وهو في أميركا يكافح مرضاً لا سبيل للنجاة منه، عن حياته طفلاً وصبيّاً وشابّاً قبل أكثر من خمسين سنة في القدس والقاهرة وضهور الشوير (في لبنان)، وما كان يثيره ويشغله في الوقت نفسه بوصفه كاتباً تتناهبه مؤثرات المكان واللغة، «هو إحساسي بأنّي أحاول دائماً ترجمة التجارب التي عشتها لا في بيئة نائية فحسب، وإنّما أيضاً في لغة مختلفة. ذلك أنّ كلاً منّا يعيش حياته في لغة معيّنة، ومن هنا فإنّ الكلّ يختبر تجاربه ويستوعبها ويستعيدّها في تلك اللغة بالذات.

والانفصام الكبير في حياتي هو ذلك الانفصام بين اللغة العربيّة لغتي الأمّ، وبين اللغة الإنجليزيّة وهي اللغة التي بها تعلّمتُ وعبرتُ تالياً بما أنا باحث ومعلم؛ لذا كانت محاولتي سرد التجارب التي عشتها في اللغة الأولى بواسطة اللغة الأخرى مهمّة معقّدة، ناهيك عن الطرائق المختلفة التي بها تختلط عليّ اللغتان وتعبيران من حقل إلى آخر. إلى جانب اللغة كانت الجغرافية في مركز ذكرياتي عن تلك السنوات الأولى، خصوصاً جغرافية الارتحال، من مغادرة ووصول ووداع ومنفى وشوق وحنين إلى الوطن وانتماء، ناهيك عن السفر ذاته. فكلّ واحد من الأمكنة التي عشت فيها - القدس والقاهرة ولبنان والولايات المتّحدة - يملك شبكة كثيفة ومركّبة من العناصر الجاذبة، شكّلت جزءاً عضوياً من عمليّة نمويّ، واكتسابي هويّتي،

---

(١) م. ن. . ص ١٩

وتكوين وعيي لنفسي وللآخرين»<sup>(١)</sup>.

وقد أسهب سعيد في وصف هذه الخلفية المركبة ، وهو يعيد تخيل وقائع حياته ، مشيراً إلى أثر التعليم الاستعماري في صوغ تجربته الثقافية والشخصية القلقة ، ومستعيداً علاقته باللغة بوصفها وسيلة تمثيل لتجاربه الخاصة والعامة ، «الفارق بين الإنجليزية والعربية يتخذ شكل توتر حاد غير محسوم بين عالين مختلفين كلياً بل متعادين : للعالم الذي تنتمي إليه عائلتي وتاريخي وبيئتي وذاتي الأولية الحميمة - وهي كلها عربية - من جهة ، وعالم تربيتي الكولونيالي وأذواقي وحساسياتي المكتسبة ومجمل حياتي المهنية معلماً وكاتباً من جهة أخرى . لم يُعْغِني هذا النزاع منه يوماً واحداً ، ولم أحظ بلحظة راحة واحدة من ضغط واحدة من هاتين اللغتين على الأخرى ، ولا نعمت مرةً بشعور من التناغم بين ماهيتي على صعيد أول وصيرورتي على صعيد آخر .

وهكذا فالكتابة عندي فعل استذكار ، وهي إلى ذلك فعل نسيان ، أو هي عملية استبدال اللغة القديمة باللغة الجديدة ، لذا ساورني شعور عظيم بالارتباب عندما أقدمتُ على تأليف هذا الكتاب عن حياتي المبكرة ، وقد عشتها في معظمها في القدس والقاهرة وضهور الشوير ؛ إذ أدركت أنني مُقدم على عمل متناقض جذرياً ، هو إعادة بناء عالم في مصطلحات عالم آخر . كان لي أن استخدم اللغة الإنجليزية ، ولكن كان عليّ أن أستخدم التجارب ، وأعبر عنها بالعربية . طبعاً ، كان من العبث إنكار التباين والتباعد الكاملين بين هذين العالمين .

ولكن لا يعقل أن يكونا منفصلين أحدهما عن الآخر ، كأنما نتيجة لعملية بتر جراحية ، ما دامنا قد تعايشنا سنوات وسنوات داخل شخص واحد . الأخرى أنهما كانا جسمين متوازيين بل توأمين ، يتحسّس أحدهما أيديولوجياً وروحانياً كل عنصر غريب يتعدّر استيعابه عند الآخر ، وينفعل إزاءه . لقد اختبرت دوماً ذلك الشعور بالغربة المزدوجة . فلا أنا تمكّنتُ كلياً من السيطرة على حياتي العربية في اللغة الإنجليزية ، ولا أنا حققتُ كلياً في العربية ما قد توصلتُ إلى تحقيقه في الإنجليزية . هكذا طغى على كتاباتي كمٌّ من الانزياحات والتغايرات والضياغ والتشوّه ، ولكّني كنت مدرّكاً في الأقل لكل ذلك ، وقد حاولت استظهاره في مؤلفاتي . فالذي عشته

---

(١) م . ن . ص ٢١-٢٢

صبيًا في البيت مع شقيقتاتي وأهلي مثلاً ، اختلف كلياً عما قرأته وتعلّمته في المدرسة . تلك الانزلاقات والانزياحات هي قوام هذا الكتاب ، وهي السبب الذي يحدوني إلى القول إن هويتي ذاتها تتكوّن من تيارات وحركات ، لا من عناصر ثابتة جامدة»<sup>(١)</sup> .

هذا الموقع المنزلق دائماً خارج أيّ مكان- وقد برع سعيد في وصفه بالتفصيل كما رأينا- انعكس أثره مباشرة في التوتر الذي يشوب السيرة بكاملها ، إلى ذلك فقد كتب النصّ في ظلّ مرض عضال لا سبيل إلى وقف زحفه ، فقد ربط سعيد كتابه بمرضه . وهذه هي التفاصيل التي حدّدت الإطار الخارجي والمباشر لكيفية تأليف الكتاب بوصفه معادلاً لتأكل ذاتي متواصل ، فقد كانت الكتابة «الوسيلة الوحيدة التي أفسّر بها لنفسي وللقارئ مدى ارتباط زمن هذا الكتاب بزمن مرضي بحقباته وطلعاته ونزلاته وتقلّباته كافّة . فمع تزايد ضعفي ، وتكاثر الالتهابات وطفرات الآثار الجانبيّة للمرض ، ازداد اتّكالي على هذا الكتاب وسيلة أبتني بها لنفسي شيئاً ما بواسطة النشر ، فيما أنا أعارك في حياتي الجسمانيّة والعاطفيّة هواجس التدهور وآلامه . وقد انحلت المهمّتان إلى مجموعة من التفاصيل : فالكتابة انتقال من كلمة إلى كلمة ، ومكابدة المرض اجتياز لخطوات متناهية القصر تنقلك من حالة إلى أخرى . . والغريب في الأمر أنّ كتابة هذه السيرة ومراحل مرضي تتزامن تماماً ، مع أنّ معظم آثار مراحل مرضي قد محت من هذه السيرة ومراحل مرضي المبكّرة . وعلى الرغم من ذلك ، فسجلّ حياتي ذاك ومسار مرضي هذا (الذي عرفت منذ البداية أنّ لا شفاء منه) هما كلّ واحد ، بل يمكن أن يقال إنهما متمثالان ومختلفان قصداً»<sup>(٢)</sup> .

هذه الأطر النازمة لمتن السيرة ، حيث ظهر فيها سعيد ملوّحاً لعالم تركه خلفه ، جعلته يستعيد بصراحة كيفيّة تشكيل شخصيّته ، وتشكيل وعيه الذاتيّ بعالمه الأوّل في الشرق الأوسط ، وأوّل ما حرص على التصريح به هو فكرة اختلاق تلك الشخصيّة ، «تخترع جميع العائلات آباءها وأبناءها وتمنح كلّ واحد منهم قصّة وشخصيّة ومصيراً ، بل إنّها تمنحه لغته الخاصّة . وقع خطأ في الطريقة التي تمّ بها اختراعي وتركيبني في عالم والدي وشقيقتاتي الأربع . فخلال القسط الأوفر من

---

(١) م . ن . ص ٨-٩

(٢) م . ن . ص ٢٦٩

حياتي المبكرة ، لم أستطع أن أتبين ما إذا كان ذلك ناجماً عن خطئي المستمر في تمثيل دوري أو عن عطب كبير في كياني ذاته . وقد تصرّفت أحياناً تجاه الأمر بمعاندة وفخر . وأحياناً أخرى وجدت نفسي كائناً يكاد أن يكون عديم الشخصية وخجولاً ومترددًا وفاقدًا للإرادة . غير أنّ الغالب كان شعوري الدائم بأنني في غير مكاني»<sup>(١)</sup> .

ويستطرد بعد هذا التدشين الذي يسبب الصدمة ، «منذ أن بدأ وعيي بذاتي وأنا بعدُ طفل ، استحال عليّ التفكير بذاتي إلا بوصفي طفلاً يملك ماضيًا شائئًا ويتوعده غدٌ لا أخلاقيّ . فكان أن اخترت كلّ وعيي الذاتي خلال السنوات التكوينية بصيغة الحاضر ، مجاهدًا كي لا أنقلب إلى الوراء فأقع في قلب مُعدٍّ سلفًا ، أو أن أتهوَى إلى أمام ، فأسقط في هاوية الضياع المؤكّد . أن أكون أنا ذاتي كان يعني ألا أكون تمامًا في موقعي الصحيح ، ولكن الأمر لم يقتصر على ذلك ، وإنّما كان يعني أيضًا أنني لم أنعم مرّة براحة بال ، بل أتوقّع باستمرار أن يأتي من يقاطعني ، أو يصوب لي أفعالي ، أو يحتاج حميميّتي ، أو يعتدي على شخصي الضعيف الثقة بالنفس . كنت دومًا في غير مكاني . لم يترك لي نظام الضبط والتربية المنزلية الجامد الصارم ، الذي حبسني فيه أبي منذ سن التاسعة أيّ متنفس ، أو أيّ مجال للإحساس بالذات في ما يتجاوز قواعده وترسيماته»<sup>(٢)</sup> .

## ٥. الأبوة والأمومة: تنازع تربويّ:

رسم سعيد المحضن التربويّ الأبويّ الذي اختلق شخصيّته ، وهو محضن خربّ البراءة الأولى ، وشتّت السويّة الطفوليّة ، حينما أخضعها لمعايير أبويّة معدّة سلفًا ؛ فلم يكن المهمّ أن ينمو طفلًا على البداهة ، ويتفتّح مكتسبًا خبراته بالتدريج من الوسط الأسريّ والاجتماعيّ ، إنّما ينبغي عليه أن ينمو ممثلًا لشروط تلك المعايير الجاهزة ، وما كان مهمًّا أن تنمو له شخصيّة خاصّة ، إنّما أن ينصاع إلى سلسلة لا نهائية من الروادع والنواهي . وبهذه الطريقة اخترعت شخصيّته ، وتحدّدت علاقته بالأمكنة التي عاش فيها ، «فإلى سنّ الستين ، لم أكن أطيع مجرد التفكير في ماضيّ ، خصوصًا ماضيّ في القاهرة والقدس ، وقد احتجبت المدينتان عنيّ لمجموعتين مختلفتين من

(١) م . ن . ص ٢٥

(٢) م . ن . ص ٤٢-٤٣



الأسباب : الأخيرة لأنّ إسرائيل حلّت محلّها ، والأولى لأنّي مُنعتُ من دخولها لأسباب قانونيّة نتيجة صدفة من أقسى الصدف . ولتعدّر زيارتي مصر خلال خمس عشرة سنة ، بين ١٩٦٠ و ١٩٧٥ ، أخذت أفنّن الذكريات المبكّرة عن حياتي هناك . فاعتمدت تلك الذكريات وسيلة للإخلاء إلى النوم ، بعد أن ازداد صعوبة مع مرّ الوقت ، الذي بدّد هالة السعادة التي غمرت حياتي المبكّرة ، فظهرت فترة أكثر تعقيداً وعسراً . فأدركت أنّ استيعاب تلك الفترة يتطلّب منّي حالاً من الصحو والنباهة وتحاشي الوسن الحالم .

والواقع أنّي أحسب أنّ محور هذا الكتاب هو الأرق ، وأنّ موضوعه الرئيسيّ هو اليقظة ، أي حاجتي إلى الاستذكار الصاحي وإلى التعبير ، وهما عندي البديل من النوم . لا ، ليس بديلاً من النوم وحده ، بل من العطل والاستراحات وكلّ ما هو في عرف الطبقات الوسطى والغنيّة ضرب من ضروب «التسلية» ، وقد أدّرت لها ظهري بطريقة لا واعية منذ حوالي عشر سنوات . ولمّا كان هذا الكتاب أحد الأجوبة عن مرضي ، فقد وجدت فيه نوعاً جديداً من التحدّي ، لا مجرد نوع جديد من اليقظة ، وإنّما مشروعاً أبتعد بواسطته أبعد ما أستطيع عن حياتي المهنيّة والسياسيّة .

ثمّة موضوعان ضامران في كتابتي هذا الكتاب . أولهما ، انبثاق ذات ثانية كانت مدفونة لمدة طويلة جداً تحت سطح خصائص اجتماعيّة ، غالباً ما تكتسب بواسطة العادة والإلزام ، وتنتمي إلى تلك الذات التي حاول أهلي تركيبها ؛ وأعني بذلك «إدوارد» الذي أتحدّث عنه هنا بين الحين والآخر . والثاني ، هو الكيفيّة التي أدّى بها عدد متزايد جداً من المغادرات إلى زعزعة أركان حياتي منذ بداياتها الأولى . وفي نظري أنّ ما من شيء يميّز حياتي على نحو أشدّ إيلافاً - والمفارقة إنّهُ هو ذاته ما أتوق إليه توقّاً - أكثر من تنقّلاتي العديدة عبر البلدان والمدن والمساكن واللغات والبيئات ، وهي تنقّلات ظلّت تحرّكني خلال تلك السنوات<sup>(١)</sup> .

هذه هي الأطر التربويّة الناعمة لحياة سعيد ، والنتائج التي ترتّبت عليها ، ما برح يفكّكها ليعيد لنا ترميم طفولته وشبابه وعلاقته بالمكان ، وهو أمر ظلّ يتردّد في تضاعيف السيرة ، وسيقودنا إلى القضية التي تخيّم على صفحات الكتاب ، غنيّت علاقته الملتبسة بأبيه وأمه ، فكما تبلبل وسط تنازعات مكانيّة وثقافيّة في حياته

---

(١) م . ن . ص ٢٧٠-٢٧١

العامّة ، فقد عرف التنازع نفسه في أسرته طوال فترة وجوده معها .  
وارتسم تأثير الأب والأم عميقاً في حياته ، وهو تأثير متناقض يخرب بعضه ،  
ولا يعرف الاستقامة ، ويتعذر حله ، فلم يخالجه إحساس بالبهجة في علاقته بأبيه :  
«مهما تكن الوقائع التاريخية الفعلية ، يبقى أن أبي كان مزيجاً طاغياً من القوة  
والسلطان ومن الانضباط العقلاني والعواطف المكتومة . وقد أدركت لاحقاً أن هذه  
جميعاً قد طبعت حياتي ببعض الآثار الإيجابية ، ولكنّها لم تعفني من الكوابح  
والمعوقات . ومع تقدّمي في العمر ، توصّلت إلى تحقيق التوازن بينها ، على أنّي عشت  
محكوماً بها من الطفولة حتى سنّ العشرين . فقد بنى لنا أبي بمساعدة أمّي ، عالماً  
كان أشبه بشرنقة جبارة أدخلت إليها ، وحبست فيها بكلفة باهظة ، أو هكذا أرى  
الآن إلى تلك التجربة إذ أستعيدها بعد نصف قرن . وما يثير دهشتي الآن ، إضافة  
إلى صمودي ، هو نجاحي بطريقة ما خلال أداء عقوبتي داخل ذلك النظام ، في أن  
أربط بين مصادر القوة الكامنة في تعاليم أبي الأساسية ، وبين قدراتي الشخصية التي  
عجز هو عن التأثير فيها ، وربما عجز أيضاً عن إدراكها» (١) .

وراح سعيد يفصل ذلك بقوله : «هيمنت قوة أبي المعنوية والجسدية على طفولتي  
ونشأتي . كان له ظهر ضخم وصدر برميلي نافر يوحى بالعصيان ، رغم قصر قامته ،  
ويوحى بالثقة الطاغية بالنسبة إليّ على الأقلّ . على أن أبرز صفاته الجسدية مشيته  
المتبسّسة كقضيب ، والمنتصبّة على نحو يكاد أن يكون كاريكاتورياً . إلى هذا ،  
وبالمقارنة مع جبني وخجلي الانكماشيين والعصابيين ، كان يتمتّع بنوع من التيه  
يناقضني تناقضاً صارخاً ؛ إذ لا يبدو أنّه يخشى اقتحام أيّ مكان أو الإقدام على أيّ  
فعل - وهما أكثر ما أخشاه . ولم يقتصر الأمر على أنّي لم أكن مقداماً . وإنّما كنت  
أتحاشى جدّاً نظر الناس لشدة تحسّسي لنواقصي الجسمانية اللامتناهية ، وأنا مقتنع  
تمام الاقتناع بأنّها جميعاً انعكاس لنواقصي الجوانية» (٢) .

واضح أن الأبوة تجسّدت بالقوة المظهرية الخارجية ، فيما عبّر عن البنوة بالهشاشة  
الشعورية الداخلية . وحينما نقوم بتنضيد صفات الاثنين ، نجد أن الأبوة تتمثّل  
بالضخامة والنفور والعصيان والطغيان والانتصاب والتهيه والإقدام والافتحام ، أمّا البنوة

(١) م . ن . ص ٣٥

(٢) م . ن . ص ٨٥

فمكوّناتها الشعور الانكماشىّ بالجنّ والحجل إلى درجة العُصاب .  
وفي مقابل هذا الهشيم الداخليّ الذي خلّفه الأب في أعماق سعيد ، ظهرت  
الأمّ بوجه مغاير ، لكنّه مزيج من الحبّ والحبور والكبح والغموض ، «المؤكّد أنّ أمّي  
كانت الرفيق الأقرب إليّ والأكثر حميميّة خلال ربع قرن من حياتي . وأشعر أنّي  
مطبوع بالعديد من وجهات نظرها وعاداتها التي لا تزال تسيّر حياتي : من قلق يشلّ  
إرادتها إزاء احتمالات التصرّف ، إلى أرق مزمن ، معظمه فرضته على نفسها فرضاً ،  
وعدم استقرار عميق الجذور يضارعه مخزون لا ينضب من الحيويّة الذهنيّة  
والجسديّة ، واهتمام عميق بالموسيقى واللغة وبجماليّات المظهر والأسلوب والشكل ،  
وربّما أيضاً من ميل متضخّم إلى الحياة الاجتماعيّة بتيّاراتها وملذّاتها وما تحمله من  
طاقة على السعادة والحزن ، ونزوع لا يرتوي - ومتعدّد الأساليب إلى حدّ لا يصدّق -  
إلى تنمية الوحدة ، بما هي شكل من أشكال الحرّيّة والعذاب في آن معاً .

ولو أنّ أمّي كانت مجرد ملجأ ، أو مأوى آمن ، أفىء إليه بين حين وآخر هرباً من  
مرور الأيام ، لما استطعت التكهنّ بالنتائج ، إلّا أنّها كانت تحمل أعمق الالتباسات  
التي عرفتها ، وأكثرها إشكالاً تجاه العالم وتجاهي أنا شخصياً . فعلى الرغم من الألفة  
بيننا ، كانت تطالبني بالحبّ والتفاني ، وتعيدهما إليّ أضعافاً مضاعفة . على أنّها قد  
تصدّ مشاعري فجأة ، باعثة رعباً ميتافيزيقياً في أوصالي لا أزال أتمثله بانزعاج شديد ،  
بل برهبة قويّة . فبين ابتسامة أمّي المقيّنة وعبوسها البارد أو تكشيرتها المتعالية  
المديدة ، وُجدتُ طفلاً سعيداً وعظيم اليأس في آن معاً ؛ فلم أكن هذا أو ذاك على  
نحو كامل» (١) .

وُضعت الأمومة في تعارض مع الأبوة ، وفي مقام الغموض مع البنوّة ، فلقد رأينا  
قبل قليل ، كيف أنّ الأبوة لم تكف عن التعبير عن نفسها بشكل مباشر قصد أن  
تكون أنموذجاً يحتذى في علاقة التبعية بين الأب والابن ، فلكي يكون سعيد طفلاً  
باراً عليه تبني مبدأ محاكاة الأب في سلوكه العامّ ، وهو سلوك يخرب هدفه بنفسه ؛  
إذ لا تستقيم تربية في ظلّ الهيمنة ، ولا يتكوّن استقلال بوجود التبعية ، وكلّ ذلك  
أدى إلى نتائج تحالف مقاصد الأبويّة ؛ إذ تكرّست الهشاشة الجوانبيّة ، وسائر ضروب  
الانكسار الداخليّ المرافق لها من تردّد وخوف وخجل وعجز .

لم يتحقق مقصد الأبوة ؛ لأنّ مضمون المحاكاة فيها نزع إلى التقليد الأعمى ، وليس التمرّس على مواجهة الصعاب . على أنّ الأمومة لم تكن أقلّ ضرراً من الأبوة في نزوعها الجارف إلى زرع خصال لا تقلّ خطراً ، فتعارض مع صورة الأب الواضحة جرى بناء صورة الأمّ الغامضة التي كانت تريد لطفلها أن يتشرب مبدأ المحاكاة نفسه ، ولكن بمضامين مختلفة ؛ إذ غدّت صغيرها بنظام صارم من العادات الشخصية بدأت بالخير والسُّهاد والقلق ، ومرّت بشغف مفرط بالجماليّات الشخصية والتعبيريّة ، والمظاهر الخادعة ، وانتهت بالعزلة المعدّبة . ثم ، وهذا هو اللبّ الخطير في الأمر كلّ ، جُمع كلّ ذلك ورمي الطفل به باعتباره حناناً أمومياً صادقاً ، وحينما توهم صدق ذلك ببراءة ، ورغب في التفاعل معه ، لم يجد إلّا صداً وعبوساً ، فقد كان يتطلّع إلى مشاطرة الأحاسيس مع أمّه ، لكنّ مشاعره كانت تردّ وترفض وتكبح ، فيقع في المنطقة المعتمدة بين السعادة واليأس ، والأمل والقنوط . ومن الصعب أن تغدق على طفل بمشاعر خاصّة ، ثمّ تفيض عليه بأحاسيس متضاربة ، وتحول دون مشاركته . وهذا النمط المقترح من العلاقة الأموميّة ، أفضى إلى تبعيّة أخرى مغايرة لتبعيّة الأب ، وأكثر خطراً منها ، كما سنرى .

ولكن من المفيد أن نترك لسعيد إضاءة جوانب خافية من العلاقة مع أمّه : «تراءت لي أمّي امرأة في مقتبل العمر ، غير معقّدة موهوبة محبّة جميلة . وإلى حين بلوغي سنّ العشرين ، وقد بلغت هي الأربعين ، كنت أراها في تلك الصورة ، فلا ألومن إلّا نفسي إن هي انقلبت شخصاً آخر . بعد ذلك ، ارتسمت ظلال داكنة على علاقتنا . ولكنّي ، وأنا في مقتبل العمر ، غمرتني حال من الحبور بسبب التناغم الهشّ والمؤقت جدّاً القائم بيني وبين أمّي ، إلى درجة أنّه لم يكن لي فعلاً أصدقاء من عمري . إلى أمّي حصراً كنت أتوجّه للرفقة الفكريّة والعاطفيّة . وهي تقول إنّها مُدّ فقدت طفلها الأوّل في المستشفى بعيد ولادته ، أخذت تغدق عليّ جرعات زائدة من العناية والاهتمام . على أنّ هذه المبالغة لم تكن لتحجب تشاؤمها الداخليّ الشديد الذي كان يموّه غالباً إعلاناتها الإيجابية عنيّ » .

إنّه حبّ مشوب بغموض تعذّر على سعيد تفسيره ، فدمغ حياته بالخير ، «وفّر لي دفء أمّي السائع الفرصة النادرة لأكون الشخص الذي كنت أشعر حقيقة بأنني إيّاه ، بالمقارنة مع «إدوارد» الفاشل في المدرسة والرياضة والعاجز عن مجاراة الرجولة التي يجسّدها أبوه . على أنّ علاقتي بها ما لبثت أن ازدادت التباساً مع الوقت ،

وصارت إدانتها لي أشدّ تدميرًا من الناحية العاطفيّة من تنمر أبي وتأنيبه ، فقد كانت تعلن خيبتها بأولادها جميعهم ، وتزرع الشقاق فيما بينهم في تقلّباتها العاطفيّة التي تربطها بهم ، «ظلّت أسباب خيبتها فينا ، ومن ثمّ فيّ أنا شخصيًّا سرّها الدفين ، وسلاحًا في ترسانتها تُشهره للتلاعب بنا وإفقادنا التوازن وبذر الشقاق بيني وبين شقيقتي وبيننا وبين العالم» . وذلك أورث الأطفال إحساسًا بالتناوب والتفارق والانشقاق ، «لم تتعانق كما هي عادة الأشقاء والشقيقات ، فعلى مستوى ما دون الوعي هذا ، كنت أشعر بانكماش متبادل منّي تجاههنّ ومنهنّ تجاهي ، ولا تزال تلك الهوة الجسدانيّة قائمة بيننا إلى الآن ، ولعلّها اتّسعت عبر السنين بسبب أمّي» .

وعلّل سعيد كلّ ذلك بالصورة الآتية : «كنت دومًا أشتبه في أنّها كانت تلعب على الغرائز والنوازع وتستخدمها لبذر الشقاق بيننا ، بتشديدها على الفوارق وتضخيمها نواقص واحدنا للآخر على نحو دراميّ ، بحيث تشعرنا أنّها وحدها مرجع كلّ منّا وصديقه الصدوق وحبّه الأعلى . والمفارقة في الأمر أنّي ما أزال أصدّق أنّها كانت ذلك كلّ . وكان على كلّ شيء بيني وبين شقيقتي أن يمرّ عبرها ، وكلّ ما أقوله لهنّ يجب أن ينبع من أفكارها هي ومشاعرها هي ومعاييرها هي لما هو الصواب والخطأ» .

ثمّ توسّع في فضح كنه تلك العلاقة غير السويّة بين الأمّ والأطفال : «خلافًا لأبي ، الذي كان رسوخه العامّ وإعلاناته الأنيقة كمّا مستقرًّا ومعروفًا سلفًا ، جسدت أمّي الحيويّة في كلّ شيء ، في أرجاء البيت كافة وفي حيواتنا ذاتها ، تتدخل فيها بلا كلل ، مطلقة الأحكام ، جارفة إيّانا جميعًا إلى مدارها المتوسّع باستمرار . ولكنّها حرمتنا بذلك من تكوين حيّز مشترك فيما بيننا ، مستبدلة إيّاه بعلاقات ثنائيّة معها ، كمثّل علاقة المستعمرات بالحاضرة الاستعماريّة ، وشكلتنا كمجرّة تنفرد بالإحاطة بكامل أجزامها ومداراتها»<sup>(١)</sup> .

التفضيل على أساس الطاعة ، ثمّ النبذ على قاعدة عدم الرضا ، وخلق بؤرة استقطاب أموميّة ينجذب إليها الأطفال ، بمقدار ولائهم للأمّ ، وليس استنادًا إلى مراعاتها لاستقلاليتهم النسبيّة الكامنة في ذواتهم الصغيرة ، جعل سعيد يضع أمّه في مرتبة الإمبراطوريّة المستعمرة ، وجعل نفسه وشقيقاته في مرتبة المستعمرات

(١) م . ن . ص ٣٦ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١

التابعة التي لا حول لها ولا قوّة ، وقد عجزوا عن فهم هذه العلاقة المداريّة حول قطب لا يتيح لهم انجذاباً كاملاً إليه إلى درجة التماهي ، ولا يُمكنهم من التحرّر عنه ، وتكوين هويّاتهم الخاصّة ، فهم منخرطون في مدار مغلق حول مركز يتلاعب بهم بمزيج من التقريب والإبعاد . وهو أمر بقي عصياً على فهم سعيد إلى النهاية .

ولطالما ظلّ يحوم حول علاقته بأمّه في تضاعيف سيرته دون أن يحسم طبيعة تلك العلاقة بصورة نهائيّة ، فيما كان قد أصدر حكماً حول طبيعة العلاقة مع الأب . فبدا وكأنّ الأب صاغ جسده ، وعالمه الخارجي ، فيما صاغت الأمّ نفسه ، وعالمه الداخلي ، وفي نهاية المطاف لم تستقم علاقة سعيد ، لا مع جسده ولا مع نفسه . وكان برّماً بجسده ذي الحاجات الغامضة التي لم يزود بأيّة معلومات عن وظائفها ، ففي ظلّ رقابة الأب كان جسده ينمو بعيداً عن الشروط المعيارية التي افترضتها الأبوة ، فظهر وكأنّ جسده مدوّنة عار ينبغي أن يخفيها عن الآخرين ، ويمحو عنها كلّ العيوب ، ولازمه أيضاً سأم وضجر من أحاسيسه ومشاعره ، فبدت بطانته الروحيّة شاحبة ، وشبه جرداء من التجارب ، وفيها من التشويه والعجز ما يحول دون أن يعدّ نفسه سوياً ؛ إذ وسمته الأمومة الغامضة بسلوك ملتولم يفصح عن مقاصده .

وفي النهاية رسم سعيد للمتلقيّ كمّاً كبيراً من الصياغات الأبويّة والأُموميّة المتواصلة لكيّنوته الخارجيّة والداخليّة ، ما أدّت قطّ إلى تحقيق غاياتها ، بل تحقّق عكس ذلك ، فلا هو بالمستقرّ الثابت في مكانه ، ولا هو بالمنجرف إلى الهاوية ، بل مكث متأرجحاً بين هذا وذاك ، فيهما وخارجهما في الوقت عينه ، «كان أبي هو الذي بادر تدريجياً إلى محاولة إصلاح جسدي ، بل وإعادة تكوينه من الأساس . على أنّ أمّي نادراً ما اعترضت على ذلك ، بل أخذت تدور بجسدي بانتظام من طبيب إلى آخر . وإذا استذكر وعيي لجسدي منذ سن الثامنة فصاعداً ، أراه منحسباً في نظام صارم من التصحيحات المتكرّرة ، تمّت كلّها بأمر من أهلي ، وأدّى معظمها إلى تفاقم نقمتي على ذاتي ، ذلك أنّ «إدوارد» كان قد حلّ في كيان بشع مشوّه يشكو من كلّ العلل أو يكاد» .

كشفت الرواية الاستعداديّة التي قدّمها سعيد عن صباه ومراهقته أنّ الأبوين وقعا أسرى وهم مؤدّاه اعتباريّة التشكيل الجسديّ لابنهما ، وسرعان ما صدّق الجميع إنّّه موطن أمراضٍ وتشوّهات لانهائيّة ، منها : أنّ قدماء مسحواوان ، ولديه رعشة غير إراديّة عند التبول ، وآلم في المعدة ، وضعف في البصر ، ووجود كدس من الشعر النامي بين

الفخذين ، والتواء في القامة ، وكبر في الصدر ، وضخامة في الكفين ، وقضم للأظافر ، ولم يعدم وجود عُقد نفسية ، وقد جرى مراجعة عدد من الأطباء لإصلاح كل تلك العلل ، وقبلها هو صاغراً مفترضاً أنها «جميعاً من مقومات عملية تهذيب لا بد أن يمر بها المرء كجزء من مرحلة النمو . فإذا النتيجة الصافية لتلك الإصلاحات تعمق ارتباكي وخجلي من ذاتي» .

بقيت تلك الإصلاحات العبثية شاخصة في ذاكرته ، ولم يغفر لأبويه التنازع على جسده ، وفرض الإصلاحات والعقوبات عليه ، وجعله موطن شبهات لا تحصى ، فكل ذلك رسخ لديه «شعوراً بالخوف العميم الذي قضيت معظم حياتي أحاول التغلب عليه . وما أزال أفكر أحياناً أنني جبان ، تتوعدني كارثة جبارة ضامرة تتحفز للانقضاض عليّ بسبب ذنوب ارتكبتها وسوف أعاقب عليها لا محالة في القريب العاجل»<sup>(١)</sup> .

## ٦. المنفى وثنائية الرفعة والدونية:

وخارج مجال الجسد نشأ سعيد في عالم أسري مغلق يدار بإحكام ، «لشدة ما كنت محمياً ومحتجراً داخل ذلك العالم الصغير الذي بناه أهلي ، لازمني شعور بأن وراء حدود العادات والرحلات المبرمجة بدقة متناهية عالماً كاملاً يتأهب لاختراق السدود ليغمرنا ، بل ليحرفنا جرفاً تحت لُجه» . فارتسم له عالم القاهرة عدائياً وغير مؤتمن ، وينبغي الحذر منه ؛ إذ كُبت رغباته بضغط أسري مفرط في صرامته ، فمع أن كل شيء في القاهرة كان يغريه ، لكن حياته كانت خاضعة لرقابة كاملة ، «لم أخرج مرة مع فتاة ، بل لم يسمح لي بأن أزور أماكن اللهو العامة والمطاعم ، ناهيك عن ارتيادها . وكان والداي يتناوبان على تحذيري دائماً من الاقتراب من الناس في الباص أو الحافلة ، ومن تناول المشروبات أو الأطعمة من محل أو بسطة ، والأهم أنهما صورا لي بيتنا والعائلة على أنهما الملجأ الوحيد في زريبة الرذائل المحيطة بنا»<sup>(٢)</sup> .

حُجز سعيد خلف جدران عالية أخذت بها أسرة متوسطة الحال تنتمي إلى أقلية شامية مهاجرة ، لم تتوافر لها ظروف الاندماج بالمجتمع المصري ، وظلت علاقتها

(١) م. ن. ص ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٧

(٢) م. ن. ص ٤٩ ، ٥٤

مضطربة بكلّ من السكان الأصليين والإدارة الاستعماريّة . والشوام أقلية ظهرت في مصر منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وتكاثرت في نصفه الثاني ، ولكنّها بقيت خارج المجال الأهليّ المتناسك ، ونُظر إليها باعتبارها داعمة للاستعمار ، فيما لم تنظر إليها الإدارة الاستعماريّة إلّا بوصفها جزءاً من تشكيل الأقليات الأجنبية . والحال أنّها كانت أكثر قرباً من الناحية الذهنيّة للأقليات الأجنبية منها للمصريّين ، وقد شكّل الشاميّون في مصر عالماً خاصاً غلّفه حسّ بالاغتراب ، والعزوف عن الاندماج والشعور بدرجة من التعالي ، بسبب الهجنة التي جعلتهم في منتصف الطريق بين الأجنبيّ والغربيّين والأهالي ، فذاكرة تلك الأقلية استمدّت وجودها من الأصول الشاميّة ، ولكنّه وجود منشبك بالمصالح الغربيّة . وهذا الوضع غير المستقر جعلها أسيرة نوع من الانكفاء الحذر على الذات .

ارتسم كلّ ذلك بوضوح في عائلة سعيد التي تجنّبت الاندماج الاجتماعيّ باعتبارها ليست مصريّة ، إنّما تحمل الجنسيّة الأميركيّة ، وتتلقّى تعليمها في المدارس الأجنبية التي أخذت بالتعليم الاستعماريّ ، حيث يلقن الطلبة معلومات عن الأمجاد البريطانيّة في منأى عن الاهتمام بالبيئة المحليّة ، فزاد كلّ ذلك من انقسام سعيد على نفسه ، ففي أعماقه كان يشعر بأنّه عربيّ بصورة أو بأخرى ، لكنّ نظام العلاقات والمصالح في العائلة والمدرسة والمجتمع ، حال دون الاعتراف بذلك ، بل ، وربّما التنكّر له .

وفي ظلّ أوضاع متشابكة من الانتماء الأسريّ لأقلية وافدة ، وتعليم استعماريّ منقطع عن سياق المجتمع المصريّ ، وقع إغراء مزدوج لزرع فكرة الرفعة في أعماقه ، وفصله عن الحاضنة الاجتماعيّة تجاه المصريّين من جانب ، وفكرة الدونية والاستصغار تجاه الأقليات الأوربيّة في مصر ، وبخاصّة الإنجليزيّة الممثّلة للإدارة الاستعماريّة من جانب آخر ، فحينما نهّره «بيليه» المشرف الإنجليزيّ على «نادي الجزيرة» لأنّه مرّ بجوار مبنى النادي - وكان سعيد عضواً فيه - قائلاً له : «يا ولد غادر المكان وغادره سرعة ، ممنوع على العرب ارتياد هذا المكان ، وأنت عربيّ» . علّق سعيد بمرارة : «حتى لو لم يسبق أن فكرت بنفسي بوصفي عربياً ، فقد أدركت مباشرة آنذاك أنّ معنى النعت مُفقد للأهليّة حقاً» .

وحينما أخبر أباه بالإهانة الجارحة عزف أبوه عن إظهار الاهتمام المطلوب ، والمشاركة التي ينتظرها سعيد من أب مواسٍ ومدافع عن كرامة الابن ، «لم يقلق أبي



كثيراً عندما أبلغته ما مقاله المستر بيليه». لكنّ هذا الجرح لازمه لنصف قرن، «وشدّ ما يحزّ في نفسي الآن، وبعد مضيّ خمسين سنة، أنّه على الرغم من أنّ الحادثة لازمتني مدة طويلة جداً وكانت مؤلمة حينها، مثلما هي الآن، فقد بدا وكأنّه يوجد عقد استسلاميّ بيني وبين أبي توافقنا فيه على أنّنا ننتمي بالضرورة إلى مرتبة دنيا. كان هو يعرف ذلك، أمّا أنا فقد اكتشفته لأوّل مرّة عندما جابهت بيليه»<sup>(١)</sup>.

كشفت حادثة نادي «الجزيرة» لإدوارد سعيد حقيقتين: كونه عربياً من جهة، وكونه دون الإنجليز من جهة أخرى. فتضاربت هاتان الحقيقتان في داخله؛ إذ لُقّن من قبل أنّه في مكانة أسمى من المصريّين، والآن فوجئ بأنّه دون الإنجليز، فما هو موقعه بين جماعة مستعمرة يرى نفسه أرفع منها، وجماعة مستعمرة تبين له أنّه دونها؟ اخترتُ هذا المثل لفضح ازدواجيّة الرفعة المفترضة والدونيّة المقرّرة التي جرى تلقين سعيد عليها في سنوات حياته المبكّرة، وهي ثمرة التعليم الاستعماريّ الذي يريد رفع الطبقات الموالية له إلى مستوى أعلى من مستوى السكان الأصليّين، لكنّه لا يقبل للأتباع ترقياً جذرياً يرفعهم إلى مستوى المستعمرين. فبإزاء المصريّين كان يُلقّن بالرفعة، وبإزاء الإنجليز كان يُوحى له بالدونيّة، فثمّة خطّ أحمر ينبغي عدم الاقتراب إليه، وبانهيار موقع الأقلّيّات في مصر، وتقويض الإدارة الاستعماريّة بثورة ١٩٥٢، ظهر وكأنّ سعيداً قد جرّد من مقوّمات القوّة التي اكتسبها من مكانة أسرته وأقليّته الشاميّة وتعليمه الاستعماريّ.

لكنّ الثورة لم تصحّح في داخله الشعور المرتبك بالدونيّة أمام الإنجليز، فذلك من مغذّيات السلوك اليوميّ والتلقين المدرسيّ المغذّي للأخلاقيّات الاستعماريّة، إنّما أفقدت عائلته امتيازاتها كافّة، فاضطرت إلى نزوح ثانٍ إلى أميركا، وهو غير النزوح الأوّل من فلسطين إلى مصر. وبوصوله إلى أميركا وجد نفسه يرث المتناقضات كافّة التي تربّى عليها وتعلّمها، فثمّة حيرة كاملة في تحديد الهويّة واللغة والرؤية والانتماء والمكان والمرجعيّة والموقع. وبمرور الزمن انشطر سعيد إلى شخصيّة جوّانيّة هشّة، وأخرى خارجيّة صلبة.

---

(١) خارج المكان، ص ٧٢، ٧٣

## ٧. صور متعارضة:

يفسّر كل ذلك الأسباب المتوارية وراء ظهور صورتين متباينتين ، وربما متناقضتين لإدوارد سعيد ، فصورته الشخصية التي رسمها في سيرته ، وفيها ظهر منطويًا على نفسه بسبب الصرامة التربوية الأسرية التي خربت في أعماقه روح المبادرة والمواجهة وكبّلت ثم عطّلت إحساسه بالحرية ، وهذه الصورة تختلف عن صورته الخارجية التي رسمها لنفسه في كتبه ومحاضراته ، ولقاءاته وآرائه السياسية . ففي الصورة الأولى كان هشاً ومتردّداً وخجولاً وحائزاً وشبه منكسر ، فيما ظهر في الثانية ، مجادلاً صعب المراس ، وناقداً شرساً للتجربة الاستعمارية ، ومحاوراً شديد الاعتداد بنفسه ضدّ الهيمنة الغربية ، فأحكامه قاطعة ، ومواقفه الفكرية والسياسية مكشوفة ؛ إذ عارض السياسات الأميركية المتحيزة ، ودعا إلى الشراكة وحقوق الإنسان والتحرر ورفض التفكير بطريقة خطيّة واحدة ؛ لأنّ الثقافات تتحرّك ولا ثبات لشيء ، وكلّ ذلك كشف الصلابة النقدية التي اتّصف بها إلى اللحظة الأخيرة من حياته ، باعتباره «الفلسطيني المتنقّل بمعاركه من منبر إلى آخر ، والمناهض للعواطف المعطاة ، والمزعج للسلطة ، والمدقق في سرديات الإمبريالية ، والمستعد دائماً لتحديّ الكذب المسلّح ، ومؤازرة الصدق الأعزل»<sup>(١)</sup> .

وكثيراً ما نُظر إلى إدوارد سعيد على أنّه ناقد راديكاليّ ترك تراثاً فكرياً في أكثر من عشرين كتاباً توزّعت بين الدراسات النقدية ، ونقد الاستشراق ، وتصحيح صورة الإسلام ، والتعريف بالقضية الفلسطينية ، ومواجهة خصومها ، إلى ذلك أسهم في تصحيح كثير من المفاهيم الشائعة ، فقد فضح مصادرات الاستشراق إلى درجة يُعزى

---

(١) مريد البرغوثي ، إدوارد سعيد : صوت التفكير المستقلّ ، العدد الخاصّ من مجلة إلف المخصّص بكامله لموضوع «إدوارد سعيد والتقويض النقديّ للاستعمار» ، القاهرة ، العدد ٢٥ لسنة ٢٠٠٥ ، ص ٢٣ . وقدّم البرغوثي هذه الشهادة الشخصية عن سعيد «لن يعرفه عن قرب ، كان إدوارد ذلك الفلسطيني المتنقّل بمعاركه من منبر إلى آخر والمناهض للعواطف المعطاة ، والمزعج للسلطة ، والمدقق في سرديات الإمبريالية ، والمستعدّ دائماً لتحديّ الكذب المسلّح ومؤازرة الصدق الأعزل ، هو نفسه صاحب تلك الروح الهشة التي يعرفها أصدقاؤه . هو سيّد السهرة المرح صاحب الذائقة على مائدة طعامه ، المنتبه للمحيطين به ، له ملاطفات يوشّحها خجل خفيّ ، وله قدرة على السخرية حتى من الذات ، وهيبة الأستاذ فيه تزداد جمالاً بطفولة غامضة تذيبها عيناه» .

فيها إليه التسبب في انهيار الاستشراق التقليديّ، كما ربط بين صعود الحركة الاستعماريّة ونشأة الرواية، وهو من أهمّ النقّاد المعاصرين المطوّرين لـ«نظرية التمثيل الأدبي»؛ إذ كشف تورط الرّؤى في إعادة صوغ المرجعيّات على وفق موقف نمطيّ ثابت يحيل على تصوّر جامد ذي طبيعة جوهريّة، الأمر الذي أفضى إلى سلسلة من عمليّات التمثيل التي يمكن اعتبارها وثائق رمزيّة دالّة على العلاقة بين المرجع الفكريّ وتجليّاته الخطابية.

ولعلّ مساهمته في تطوير مفهوم «التمثيل»، أهمّ ما قدّمه للنظرية الأدبية، وللدراسات الثقافية بشكل عامّ، وجهوده النقديّة منظومة نقدية اكتسبت مشروعيتها الثقافية في الفكر المعاصر، لكونها تستعين بشبكة واسعة من المرجعيّات، وتصدر عن تصوّر فكريّ شامل وتوظّف الكشوفات المنهجية الحديثة وتنقّب بدقّة في ثنايا أشدّ الموضوعات والقضايا الحديثة إشكاليّة. وأجد في عمله حول قضية «التمثيل» البؤرة المركزيّة في كلّ جهده الفكريّ والنقديّ، فقد برهن في كتاب «الاستشراق»<sup>(١)</sup> على أنّ فلسفة الاستشراق هي «التمثيل الرغبوي» للشرق خطابياً، وهذا الأمر تدفعه رغبة في إنتاج شرق يطابق مواصفات الغرب وتصوراته وبنيتة الثقافية العامّة، وقد أفضى إلى تركيب شرق موافق للرغبة أكثر ممّا هو مطابق لحقيقته، وكلّ هذا أحدث سوء فهم أدّى إلى سوء تفاهم.

وفي كتاب «الثقافة والإمبرياليّة»<sup>(٢)</sup> وسّع وظيفة «التمثيل» فلم يقتصر على قضية تمثيل الرواية للعلاقة المتوتّرة بين الإمبراطوريّة ومستعمراتها، إنّما حلّل التواطؤ بين نشأة الإمبراطوريّة الاستعماريّة ونشأة الرواية الحديثة، وتنبتق أهميّة «التمثيل» في أنّه ركّب صورة نمطيّة ومشوّهة لـ«الأخر» الذي هو موضوع مشترك لكلّ من الاستعمار والرواية، فالمستعمر والخطاب الروائيّ ينتجان صورة رغبويّة لـ«المستعمر»، توافق منظومة القيم التاريخيّة والفنيّة التي ينتميان إليها، الأمر الذي يقود إلى تثبيت نوع من سوء التفاهم الذي لا يمكن إزالته إلّا من خلال نقد هذا النوع من «التمثيل»، وزحزحة ركائزه وكشف خباياه ومصادراته.

الصورتان الداخليّة والخارجيّة لإدوارد سعيد، لا بدّ وأن يكون قد لاحظهما كلّ

(١) إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربيّة ١٩٨١.

(٢) إدوارد سعيد، الثقافة والإمبرياليّة، نقله إلى العربيّة كمال أبو ديب، بيروت، دار الآداب، ١٩٩٧.

من تابع مسيرته الفكرية والشخصية ، وأجدهما ترسمان حال مفكر إشكاليّ بكلّ معنى الكلمة ، وليس من الصواب وضعهما في تعارض وتضادّ ، فقد ظهرت السيرة الذاتية لسعيد ، وفيها ارتسمت صورة الرجل الملتبس في قراراته ، وذلك في أوج قوته الخارجية ، وتماسكه بوصفه مفكراً وناقداً لكثير من الظواهر الثقافية في العالم ، وبخاصّة في الغرب . فلم يرغب في أن يوهم الناس بأنّه قدّ من حديد ، إنّما هو إنسان مرّ بتجربة أسريّة تركت في نفسه إحساساً لا يجتثّ من الانكسار والضعف الإنسانيّ ، ومن اللازم ترك هاتين الصورتين تتحاوران ، بما يثري هذه الشخصية ، وقد توحى الصورة الخارجية الصلبة على أنّها تعويض عن الهشاشة الداخلية .

على خلفيّة كلّ ذلك تلوح طبيعة علاقة سعيد بالمكان ، وهي علاقة توتّر لا انسجام فيها ، وهو ليس حيّزاً جغرافياً ناجزاً ، إنّما هي فضاء مغمور بضروب المساءلات والتجارب والذكريات ، لا يوجد مكان صكّت ملكيّته لمنفيّ مترحّل عبر اللغات والثقافات والهويّات ، ولهذا تنزاح الأمكنة عن دلالاتها اللغويّة المعروفة ، وحدودها الجغرافيّة ، سواء أكانت القدس أم القاهرة أم زهور الشوير ، ويقع استعادتها طبقاً لرغبات المنفيّ وحنينه وشغفه ، وما دام سعيد يربض خارج المكان ، فالأمكنة التي وردت في سيرته الذاتية ما هي إلّا محطّات رمزيّة يتطلّع عبرها إلى الماضي أو المستقبل ، فلا غرابة أن يبدو متعثراً في اختيار لغته وتحديد موقعه وهويّته ، فتلك حال الشخصيات العابرة نحو المجهول .

## الفصل الثاني

### الهوية السردية والمدن المستعادة



## ١. مدخل

يقع تحوّل جذريّ في الهوية الفردية حينما تندرج في سياق السرد ، فتنتقل من كونها هوية ذاتية مجردة إلى هوية سردية متفاعلة مع مجموع المكونات السردية الأخرى في النصوص الأدبية ، وبذلك تصبح الذات موضوعاً للسرد ، وبه تكتسب معناها في تيار الحياة . وتعير السرود الذاتية اهتماماً كبيراً للزمن ، فهو إطار خارجيّ ناظم للأحداث ، ومن خلاله يمكن استعادة الأمكنة . ومن أجل تحقيق ذلك يلزم ابتكار حبكة ، أي إيجاد صلة قوية بين تجارب الذات وتاريخها ، ففي السير الاستعاديّة التي تحرص على استرجاع الأمكنة تؤدّي الحبكة وظيفة تنسيق مكونات السرد جميعها ، بما يفضي إلى رسم ملامح مفصلة لتلك الأمكنة بمزيج من الحنين والرغبة والشقاء ، وتظهر في خلفيّة ذلك صورة قلقه للهوية السردية الباحثة عن ماضيها في الزمان والمكان ؛ لأنّها رهينة إنجاز متواصل لذاتها ، فلا تصل أبداً إلى تحقيق صورتها النهائية .

## ٢. المدينة الملونة وإزاحة المنفى:

رأينا كيف كان «إدوارد سعيد» منبثاً عن المكان بمعناه الجغرافي ؛ إذ هو خارج أيّ مكان لدواع فرضها المنفى ، فلبجاً إلى استعادة أمكنة الطفولة والصبا والشباب بمزيج من الذكريات والتخيّلات ، ونجد لذلك نظيراً في السيرة الذاتية لـ«حليم بركات» التي جاءت بعنوان «المدينة الملونة» ، وفيها أعاد بناء بيروت بالتخيّل السردية لتكون مكاناً تسبح في التجارب الأولى التي خاض غمارها في شبابه .

وأول ما يلفت الانتباه أن بيروت نزلت بين مكانين وزمانين شبه افتراضيين ، فاجتذبهما إليها بقوة ، والمكانان هما قرية الكفرون السورية حيث ولد بركات ، ومدينة واشنطن حيث انتهى به المطاف . والزمانان هما زمن الطفولة شبه المعدمة في القرية السورية المنسية ، وزمن الاستقرار الأكاديمي في واشنطن أستاذاً لعلم الاجتماع في جامعة «جورج تاون» ، حيث أقام هناك إلى أن تقاعد شيخاً في مدينة غريبة لم تحظ باهتمامه في الكتاب ، فبيروت هي التي استأثرت بكل شيء لديه شاباً وكهلاً ،

وأمام وهج المدينة الملونة التي تعجّ بالتناقضات والوعود ، انحسرت أهميّة الكفرون وواشنطن ، وتوارت معهما مرحلتا الطفولة والشيخوخة ، فسَلَطَ الضوء على شباب بيروت وشبابه خلال الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين ، إلى درجة تبدو فيها مرحلة الطفولة في سوريا ومرحلة الشيخوخة في أميركا ، مجرد نوافل كتابيّة ، وأطراً سرديّة ناظمة لحياة المدينة وحياة بركات الذي ظهر في السيرة باسم نادر الكفرونيّ ، وهو قناع حليم بركات وبديله وحامل لوجهة نظره وتجربته .

هيمن التوازي بين المدينة والشخصيّة بحضوره في السيرة منذ البداية إلى النهاية ، وكما كانت بيروت مشرقة ومتنوّعة آنذاك ، كان بركات كذلك من حيث الانغماس في لجّة الأيدلوجيّات والأفكار والسجلات . وقد كشف توازي المصائر بينهما ، في نهاية القرن العشرين شيخوخة وهرم الاثنين ؛ إذ نصب معين بيروت ممّا كانت تمر به قبل نصف قرن من وعود ثقافيّة وأيدلوجيّة ، وبدأت تتآكل جراء الحرب الأهليّة التي لوّثت روحها الفاتنة .

وتحوّل بركات الشابّ القلق والمتمرّد ، إلى شيخ مسالم يطوف دروبها متعثراً بذكريات تندفع إليه من الطرقات والأزقة ؛ فقد تطايرت وقائع الماضي ، وتفرّق صحب الأّمس ، ووقع اعتداء على سكيّنة بيروت ، حينما انجرفت إلى حرب خربت جوهرها ، وعطلت جاذبيّتها ، ومحت إشراقها ، فلم يكن أمامه غير أن ينتبذ مكاناً يحاور فيه نفسه ، مستعيداً التحوّلات الفكرية في مدينة ما فتئت تودّع أثمن رموزها ، وتلوّح لهم ألاّ عودة مرّة أخرى إليها ، وبذلك أعاد حليم بركات بناء بيروت المتخيّلة بوصفها فضاءً حاضناً لتجربة حياته الأولى قبل نصف قرن ، كما فعل إدوارد سعيد بالنسبة للقاهرة .

بدأت العلاقة شائكة بين بركات ، والخلفيّة الزمانيّة والمكانيّة للمدينة ، فهو يريد إعادة ربط نفسه بمكان وزمان متلاشين ومتباعدين ، افتتن بهما في شبابه ، ولم يبقَ منهما إلّا وقائع متناثرة لا سبيل إلى شيكها في ضفيرة متجانسة ومتماسكة ، والبحث عن ذلك بعد عقود خمسة لا يتأتّى عنه غير مزيد من الإحساس بالفقدان والخسارة واليأس . ومع ذلك يعاند بركات هذه الحقائق ، فيعيد تركيب صورة المدينة ، مستعيداً بعُجب وزهو واستهواء ، بقايا أحداث ممّا وقع له فيها من تجارب ، وممّا تركته من أثر فيه ، «أحاول من موقع نهاية القرن العشرين ، وبفعل تقدّم العمر ، أن أتذكّر أيّام الصبا ، وأتساءل سرّاً وعلناً : هل أصرّ على الاحتفاظ بنشاطي كما تُمعن بيروت



نفسها باستعادة ازدهارها؟ وصدف أن كان صباي في منتصف القرن أقرب إلى صباها هي أيضاً . وها أنا ما إن أستكشف بعض أحداث الماضي من خلال علاقاتنا الحميمة حتى تستيقظ ذكرياتي الشخصية والعامة متشابكة متوهجة غامضة»<sup>(١)</sup> .

لم يكتفِ بركات بذلك ، إنّما قسم سيرته إلى ثلاثة أقسام ، شكّل الأوّل والأخير إطاراً منظماً لعملية استعادة أحداث مضى عليها خمسون عاماً ، أمّا القسم الثاني ، فهو اللبّ الذي وصف التشابك بين المكان والشخصية ، فقد أولت سيرته اهتماماً بالمكان فاق الاهتمام بشخصيته ، وهو أمر يكاد يناقض معايير الكتابة السيرة حيث الاحتفاء بالشخصية ؛ لأنّها المركز الذي يتفاعل مع الأحداث والأمكنة . ولا ترتسم صورة بيروت بوصفها مكاناً مجرداً ، إنّما باعتبارها فضاءً ثقافياً وسياسياً وتاريخياً ، اضطرت في عمقه الإرادات والرغبات والأيدلوجيات وجميع الشخصيات ، بما فيها شخصية صاحب السيرة ، ما هي إلّا ذرات سبحت في عالم المدينة التي تناهبتها الأهواء ، فانشطرت بين موقفين متعارضين : الأوّل ، ويذهب إلى أنّ بيروت وعموم لبنان مكان يستمدّ أهميته من كونه بؤرة غربية في الشرق ، فلبنان عبر تاريخه حمل شعلة الحرية في قلب الظلام ، وينبغي عليه أن يمضي في إضاءة العتمة باستمرار ، وإلّا انتفى دوره وتلاشى وجوده . والثاني ، ويرى فيهما امتداداً طبعياً وبشرياً وثقافياً للعرب والعروبة بالمعنيين العرقي والثقافي ، ولا يجوز نفيهما من الذاكرة الجماعية مهما كانت الأخطاء .

هذه الخلفية المتنازع عليها في تحديد هوية بيروت ولبنان ، هي التي غذّت السيرة بفكرتها الجوهرية ، ومؤدّاها فضح التناقضات الطائفية والثقافية المتساجلة التي خرّبت مفهوم الدولة الوطنية الجامعة ، فجعلت منها دولة طوائف وجماعات ، ثمّ كشف المخاوف من اندلاع نزاع أهليّ على خلفية طائفية يأخذ طابع حرب أهلية ، وكلّ ذلك كان موضوعاً لجدل متشعّب في بيروت منذ منتصف القرن العشرين ، وقد وجد له تعبيراً مباشراً في الحرب الأهلية بين عامي ١٩٧٥ و١٩٩٠ ، فمن تناقضات بيروت المختبئة في الماضي يمكن رصد مستقبلها ، إلى ذلك فهويّتها غير متماسكة ولا منسجمة ويتعذّر تعريفها ؛ لأنّها تتمرّد على الأطر التي تمنح المدن الكبرى هويّاتها المميزة .

(١) حليم بركات ، المدينة الملوّنة ، بيروت ، دار الساقي ، ٢٠٠٦ ، ص ١٥

حاول بركات تفكيك الأوهام المغذية لصورة بيروت ، وكثير منها مختلق ، وقد انهار في النزاع الأهلي ، فاستسلمت المدينة لحقيقتها الهشة ، «تردد أنها كانت مركزاً ثقافياً ومالياً في الخمسينيات ، وتبين لنا أنها في واقع الأمر لم تكن تملك ثقافتها كما لم تملك بنوكها ، فأصبحت وسيطاً ، وأقامت علاقات ، إنما ليس مع نفسها بل مع غيرها . أرادت أن تكون غيرها بالتخلي عما يراه البعض جوهرها . وليس من الغريب أن هنالك البعض الآخر الذي يرى أن جوهرها لا جوهر له . وحين واجهت الدمار العبثي إثر الحرب الأهلية الثانية بعد الاستقلال ، انهارت داخل نفسي الأساطير التي حيكت حول البلد ، فاقتنعت بأنه كان يقوم على أسس واهية لم تصمد عندما عصفت بها رياح الأزمات العاتية»<sup>(١)</sup> .

بقيت بيروت معبراً لكل من يريد أن يغادر ذاته الصغرى إلى ذات إنسانية أشمل ، فسحراها يجتذب الحالمين والطامحين والمحبتين ، فتمتص رحيقهم وترمي بهم في لجة تناقضاتها وهفواتها ، فيتمزقون أشتاتاً بين رهانات لا يتحقق منها أي شيء ، فيلوذون هاربين إلى مهاجر ومناف بديلة ، فتصبح هي ذكرى براءة تراودهم كأنها مس من جنون الصبا الذي لا يبرحهم ، فبيروت هي البؤرة التي - في آن واحد - يحس المرء بأنه ينتمي ولا ينتمي إليها ، ولكن لا خيار له إلا المرور من خلالها لرؤية نفسه ولمعرفة العالم ؛ لأنها الرحم المشكل للتجارب ، سليمة كانت أم مشوهة ، وتترك بصماتها في كل عابر ، فلا يلبث أن يستعيدها مزيجاً من الأوهام والحقائق ، فلا هوية لها لأنها عابرة للهويات ، وناقضة لها ، ولا سبيل للشفاء من ذلك ما دام الخيال العام بؤاًها مكانتها بوصفها مدينة أوهام وإلهام وعبور .

وبالقدر الذي تجتذب فيه بيروت ، فهي تصدّ ، «مهما انجذبت إلى بيروت ، لا أنكر أنني أنفر في عمق أعماقي من بعض تصرفاتها واتجاهاتها السقيمة المزيفة . أحب بحرّها وهي تعاديه . أحب الطبيعة وهي تتعامل معها بشراسة . ألع بالأشجار وهي تقتلعها دون تردد ، وتزرع الأبنية الأسمنتية الشاهقة البشعة مكانها ، وأعشق الطيور وهي مولعة بالصيد . ألومها على قسوتها وعدم قدرتها على التجدد الحقيقي ، وألوم نفسي لأنني ربّما أتعامل معها كمحلل يركّز على مشكلاتها وأزماتها وليس كصديق يتقبلها كما هي بلا قيود وشروط . أمّا أكثر ما أستاذ منه . فهو إحساسي

---

(١) م. ن. ص ١٦

بأنها تميل للتقليد أكثر من الإبداع في علاقتها بالغرب ، فتنبهر بأزيائه فحسب ، وترفض الأسس التي اعتمدها في تحقيق إنجازاته الكبرى»<sup>(١)</sup> .

قام بركات بتجميع سمات بيروت بصعوبة بالغة ، وحاول أن يصف علاقته المرتبكة بها ، فلم يفلح في كل ذلك ؛ لأنّ حضورها يتلاشى كلما همّ بوصفه ، «أشعر بأنّ علاقتي ببيروت ليست على هذا القدر من الغرابة كما أظنّ . إنّها علاقة انجذاب ونفور متبادلة ، تزداد حدة وتعقيداً وقسوة في الأزمات عندما تفلت الأمور من يدها ومن يدي ، «فما بينه وبينها» ليس وهماً بل لغز<sup>(٢)</sup> . فقد وضع نفسه في قلب مدينة أحبّها ونفر منها في الوقت نفسه ، ولهذا جاءت تجربته مزيجاً من الفخر والخذلان ، وتبدو في عمومها متلعثمة ومقيّدة وغير طليقة ، وفيها اعتداء متبادل بين الاثنين ، بل فيها أحياناً لمسة من الترفع والتصنّع والرفض من جهة ، والانجذاب وافتتان من جهة أخرى ، سببه سوء فهم متبادل بينهما ، فكأنّ أحدهما ينوء بأحمال الآخر .

ينبغي التوقف على علاقة بركات ببيروت التي منحته هويّتها الملتبسة ، فظلّ قلقاً خارج أيّ انتماء نهائيّ ، فتجواله في أرجائها ، وهو شيخ على مشارف النهاية ، إنّما هو تعبير عن فقدان أمر تعذّر وجوده إلّا ك لحظة مبهمّة مضت إلى غير رجعة ؛ إذ جرى محو الحقائق ، فالتّ سيلاً من ذكريات طويت في سجلّ الماضي إلى الأبد ، فالمدينة اللعوب ما برحت تتباعد كأنّها سراب ، وواهم كلّ من ادّعى أنّه أمسك بقيادها ، وامتنى صهوتها . وكامل صفحات السيرة الضخمة إنّما هي سعي متعثّر لكشف العلاقة المتوتّرة بين بركات وبيروت ، وهي علاقة لم يستقم أمرها أبداً ، وكما أنّه عاد إليها من واشنطن بعد نصف قرن ، فإذا بها غير التي ألفها في صباه خلال منتصف القرن العشرين ، فطاف في شوارعها بحثاً عن دليل لذكرى ، فإنّها بالمقابل لم تمنح نفسها له ، وتنكرت لعشرين سنة من المعاشرة والمخالطة والاستبطان ، وتركته يجرّ طرقاتها على غير هدى جرياً وراء ذكريات هاربة ، إلى ذلك فقد أورثته داء عُضالاً ؛ إذ عجز عن أن ينتمي إلى سواها . ولم يجد ذاته في المنفى الأميركيّ .

فكرة الانتماء الخياليّ إلى عالم ، والعجز عن الانتماء إلى آخر حقيقيّ ، تردّدت في طيّات السيرة ، فقد توهم بركات انتماءً مطلقاً إلى بيروت في صباه وشبابه ، لكنّه

---

(١) م . ن . ص ٢٠

(٢) م . ن . ص ٢٠ و ٢٣

حينما عزم على اختبار ذلك في أخريات حياته ، وجد عزوفاً كاملاً من المدينة ، وكأنه لم يصغ حياته في وسطها ، فتعثرت فكرة الانتماء ، وانهارت ركائزها ؛ لأنه اخترع مدينة مغايرة لبيروت الحقيقية ، وبكل ذلك استبدل سيلاً من ذكريات موجعة فيها كثير من المرارة والعتب والتبرم . وقد حال وهم بيروت دون إمكانية الانتماء إلى أي مكان آخر . وفي الحالين عجز عن عبور الهوة الفاصلة بين الأوهام والحقائق ، فتحقق أمران متضادان : انتمى إلى مدينة متخيلة أشاحت عنه بوجهها ، وعجز عن الانتماء إلى مدينة حقيقية رحّبت به ، فبيروت وواشنطن مزقتا تماسكه ، ودفعتا به إلى المنطقة الإشكالية التي لا علاج لها لديه ولدى نظرائه من المنفيين ، وهي الشعور بالانتماء وعدم الانتماء في وقت واحد ، أي فقدان الإشكالي العظيم لبوصلة الإحساس بالمكان ، وهو شعور شطر صاحبه شطرين ، فأصبح عاجزاً عن فهم ماضيه وحاضره ؛ لأنهما لغز يستحيل فكّه ، فتحول كل شيء إلى ذكرى عاصفة .

هذه العلاقة المتوترة مع المكان والزمان تركت بصماتها في السيرة ، فحياته الشخصية والأسرية استدعيت من وسط هذه التجاذبات ، ولكي يتمكن من جمع الخيوط النازمة لها ، اشتبك في صراع مع بيروت التي لا تريد لسواها أن يعوم في العالم الافتراضي الذي شكّله السرد في الكتاب . وظهر وكأنّ عالم المدينة مزيج من حقائق وافتراءات ، وأصبح من غير الممكن الفصل بين المتخيّل والحقيقي . وكل ذلك أثر في تركيب صورتَي أبيه وأمه ، بل وصورته الشخصية والفكرية ، فصورة الأب كانت مخترعة ، أمّا صورة الأم فأصلية ، « بحثت عن أبي دون أن أجده . وجاءت تصوّراتي عنه واهية وضبابية ، وحين أتكلّم عنه أحاول أن أضبط مخيلتي ، فكثيراً ما كنت اخترعه أكثر ممّا أتصوّر شخصيته كما كانت على حقيقتها»<sup>(١)</sup> ، فيما ظهرت الصورة الأصلية للأم «في غياب أبي . تأثرت أكثر ما تأثرت بأمي ، بشتاتها وحزنها العميق وحبّها الذي لا حدود له وتضحياتها وانكبابها على العمل ، وتحرّرها من أمنياتها ورغباتها الخاصة . لم تعش لنفسها . بل أنكرت ذاتها وعاشت لنا . تعلّمتُ منها أهمية الانتصار على الذات ، فنشأت قنوعاً فيما أريد امتلاكه ، كما كنت خجولاً إلى حدّ أنني بدأت اتّهم نفسي بعدم الجرأة والثقة بالذات والقدرة على الاقتحام قبل التأكد من كلّ خطوة ، وبدأت من موقع خلقي أحاول بكلّ جهد سلوك

---

(١) م. ن. ص ١٧٨

طريق الاحتجاج على الخطأ بدلاً من سبيل الولاء للأقوياء مهما كان السبب»<sup>(١)</sup> .  
الإحساس بالهشاشة على خلفيّة من شعور بالاستقامة لازم بركات ، وهو  
يستعيد رحلة أسرته من الكفرون ، وإعادة توطينها في بيروت ، ثمّ ذهابه إلى أميركا ،  
وهو أمر سبق لنا أن وجدناه في حالة إدوارد سعيد الذي تتبّع ارتحال أسرته من القدس  
إلى القاهرة ثمّ أميركا . والحق أنّ فكرة الاقتلاع ظلّت لصيقة بشخصيّته ، وعجز عن  
إبطال مفعولها في نفسه ، فاكتفى بالوقوف على مصائر أفراد الأسرة التي وصلت  
بيروت في عام ١٩٤٢ إثر وفاة الأب بثلاث سنوات ، في ظلّ الانتداب الفرنسي ،  
وأجواء الحرب العالميّة الثانية ، فأقامت في ملجأ ضيق معتم ترك في نفسه أثراً  
كبيراً ، «خجلت من نفسيّ دون أن أتحرّر من الصدمة التي تلقّيتها ، ولم أكن أدرك لماذا  
تركنا بيتنا الفسيح فوق تلة تشرف على أودية خضراء ، لنعيش في هذا المكان الضيق  
والمعتم تحت الأرض ، وظللتُ زمنًا لا أريد أن يعرف أحد أين أسكن . عشت وقتاً غير  
قصير في أجواء تلك الصدمة التي لم أتحرّر منها حتى الوقت الحاضر بعد ستين سنة ،  
وأنا أسكن منزلاً فخماً في ضاحية غنية من ضواحي واشنطن . تكونّ عندي  
إحساس دائم بالغرابة والمنفى بعد أن اقتلعت كشتلة رمان مزهرة من تراب الكفرون ،  
فحملت جذوري على كتفي أبحت عن تربة جديدة أزرع فيها نفسي»<sup>(٢)</sup> .

ليس الصدمة سببها فقط ضيق المكان وعتمته في قلب بيروت ، وهو نقبض  
المنزل الريفيّ المرمي تحت الشمس على تلة في الكفرون ، إنّما صعب الحياة التي  
تقودها امرأة عصاميّة ترمّلت حديثاً ، وتعيّل ثلاثة أطفال ، وتُجبر على البقاء أسيرة  
الملجأ لسبع سنين ، ولهذا شغل الابن خلال عقدين من الزمان بالعمل والدراسة ،  
فقد عمل بقالاً وصبّاغاً وفلاحاً ونجاراً ومعلّماً ، وواصل تحصيله العلميّ إلى أن أنهى  
دراسته في الجامعة الأميركيّة . وفي قلب بيروت ، وهو في نحو الخامسة عشرة من  
عمره ، تعرّض لأوّل هزة عنيفة حينما تعرّف أدب جبران خليل جبران ، هزة جعلته  
ينفصل رمزياً عن طفولته ، ويطلّ بدهشة على مرحلة جديدة ، «منذ قرأت جبران لم  
تبقْ دروسي خصوصاً الأدب واجباً ، بل متعة بالدرجة الأولى . ومهما شعرت  
بضعفي وفقرتي ، إلّا أنّني تحرّرت من الخوف . فحلّ في حياتي زمن التمرد مكان

(١) م. ن. ص ١٧٨-١٧٩

(٢) م. ن. ص ١٠١

زمن الصمت والولاء والانطواء على الذات» . فإلى جوار الشعور الطبقي الذي ارتسم في داخله جراء عوز الأسرة الماديّ، عمّق جبران إحساسه «بالنفور من أهل السلطة والثراء والدين» .

أوقد جبران في نفس الفتى جذوة التمرد الفرديّ الحالم ، فتفاقم إحساسه بالرفض لمظاهر الزيف كلّها ، بما في ذلك الصراعات الطبقيّة والدينيّة التي تعجّ بها بيروت ، ومكث هذا الشعور مسيطرًا عليه إلى أن دخل الجامعة الأميركيّة حيث تعرّف الفكر الواقعيّ ، «بدأت أهتمّ بمطالعات للنظريّات السياسيّة المختلفة مما فتح أمامي باب المنهج الواقعيّ وحررني إلى حدّ ما من رومنطيقيّة جبران ، وإن ظللت أحبّه وأدافع عنه وأعترف بتأثيراته الجمّة خصوصاً في مجالات التمرد والتحرّر من الموروثات والسلطات الاجتماعيّة إن كانت عائليّة أو دينيّة»<sup>(١)</sup> . ثمّ بدأ بعد ذلك في تشكيل هويّته الذاتيّة خارج الإطار الفرديّ الذي اقترحه عليه جبران ، «لست متأكّدا متى بدأت أفكرّ جدّيّاً في التحرّر من انشغالاتي الذاتيّة ، فأهجر صدفتي التي أحملها على ظهري وأحتمي بها من مخاطر الحياة . . . للبحث في معنى الحياة ، وما الهويّة التي اتّخذها لنفسي؟ وما القضايا التي تستحقّ الاهتمام؟ فأنخرط في حركة تسعى لتغيير الواقع»<sup>(٢)</sup> .

عرضت لبركات هذه الأسئلة في بداية الخمسينيّات ، فكان أن انخرط في صفوف الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ ، بعد أن اطّلع على كتب زعيمه «أنطوان سعادة» ، فأحدث ذلك فيه تأثيراً مباشراً ، «شعرت بأنّني أهبط إلى أرض الواقع من عالم جبران الخياليّ الذي كثيراً ما حلّقت فيه مستسلماً لعذوبة كلماته وصوره ورموزه ، وسلكت دروبه في حدائق القلب» ، أمّا كتب «الزعيم» ، فقد جعلته يقرأ «لغة سياسيّة جديدة»<sup>(٣)</sup> . وهذا قاده إلى الانخراط في صفوف الحزب .

أخذ هذا التنازع بين الفرديّ والجماعيّ حيّزاً من اهتمام بركات ، وكانت تغذّيه قراءات متنوّعة للفكر المعاصر ، بما فيه الوجوديّة ، فأشعره بالتمزّق على المستوى الشخصيّ والفكريّ ، «بدأت أشعر بحيرة بين التمسك بعقيدة حركة ثوريّة أنتمي

(١) م . ن . ص ١٢٥ و ١٢٧ و ١٢٨

(٢) م . ن . ص ٢٢٠

(٣) م . ن . ص ٢٤٣

إليها ، وبين قيم الاغتراب والتفرد والقلق والاختيار التي تأثرت بها خلال قراءاتي المتواصلة في أدبيات الفلسفة الوجودية<sup>(١)</sup> . وقع كل ذلك على خلفية حياة عاطفية شبه هامدة ، فتجاربه الجسدية محدودة ، وربما معدومة ، وفيها شعور مقرف تجاه العلاقات الجسدية العابرة ؛ لأنه كان مشغولاً بالمرأة المثل التي يجد نفسه معها . ثم جاءت المفاجأة حينما تدخل الحزب في تحديد علاقته بصديقه «صبا» ، وطلب إليه وقفها ، فكان رده أن يختار «صبا» ويترك الحزب ، «بدل أن أضع حداً لعلاقتي بصبا ، وضعت حداً لعلاقتي بالحزب»<sup>(٢)</sup> .

وقد جعله هذا الموقف يعيد النظر في فكرة الانتماء السياسي ، «ما رأيته كفاحاً ضمن حركة تساوي وجودنا ، تحول إلى حزب سلطوي» . وما غالبه أي ندم على خوض تلك التجربة التي انهارت بسرعة ، فقد تعرف أصدقاء ، وأنشأ علاقات متينة مع أدونيس وخالدة سعيد وسواهما . قمع الحزب الجزء الذاتي فيه ، فكان أن غلب ذاتيته على إرادة حزب طفق يتدخل في الشؤون الشخصية لأعضائه ، والتنازع بين الحرية الفردية والإرادة الجماعية التي يمثلها الحزب دفع به لاختيار حرّيته ، بعد أن تعقدت علاقته به . ولكن بيروت ظلت مكاناً يجتذب اهتمامه ، فتمنّعها عليه أورثه شغفاً متواصلاً بها .

### ٣. منطقة الجمر والرماد:

ونجد لذلك التنازع بين المجالين الخاصّ والعامّ نظيراً في سيرة هشام شرابي «الجمر والرماد» ، ففيها استعاد من منتصف سبعينيات القرن العشرين ، وقائع من حياته البيروتية خلال أربعينياته ، غير أنه لم يشغل بالحنين ، كما لاحظنا ذلك عند سعيد وبركات ، إنّما تعرّض للموضوع من زاوية أخرى ، مثلاً حنين عقليّ خاصّ بدور المثقف في مجتمع تقليديّ ، ورغبته في تحديث ذلك المجتمع . وعلى خلفية هذه الفكرة بدا الماضي متشظياً تناثرت أطرافه هنا وهناك ، فالإحساس بعدم الانتماء تخلّل السيرة ، وهو إحساس عقليّ يتعالى عن العواطف والمشاعر ، لكونه يتّصل بمفكر إشكاليّ مفارق للنزوع الاجتماعيّ العامّ .

(١) م . ن . ص ٣٦٤

(٢) م . ن . ص ٤٥٨

وكَلَّمَا هُمَّ شرابي باتخاذ قرار الانتماء بمعناه المباشر إلى عالمه الأوّل الذي تركه منذ مدة طويلة ، جدّ ما حال دون ذلك ، فقد انفصمت عرى صلته بمجتمعه ، لكونه مثقّفًا نقديًا أفرد خارج سياق القطيع الاجتماعيّ ، وحيثما حلّ برزت أمامه رغبة في ألاّ يكون داخل بلاده ، فقرار عودته إلى بيروت مهد الصبا والشباب ، يواجه برفض يحول دون إتمام ذلك . حينما قرّر العودة ، والإقامة في لبنان لخدمة قضيتّه كمثقّف عربيّ جوبه بعدم قبول إقامته ، فصدمه ذلك ؛ لأنّه ترك عمله الأكاديميّ في أميركا ، «لقد عدت لكي أعمل من أجل هذا الشعب ومن أجل هذا الوطن . . واكتشفت ، كما يفعل كلّ مثقّف عائد لخدمة وطنه ، أنّ الشعب والوطن لا يأبهان به وبأحلامه ، وأنّ الواقع يناقض الرؤيا» (١) .

وتتأرجح السيرة بين حالين من التواصل والانقطاع ، وبين حقبتين متداخلتين ، فلم يتمكن شرابي من فصم عراه عن الحقة الأولى ، ولم ينجح في أن ينخرط في الثانية ، فكان القلق يلازمه ، «هذا الكتاب حصيلة تلك الفترة القلقة . بدأت في كتابته صيف ١٩٧٥ لأسجّل فيه مرحلة من حياتي ظننتها انتهت ، وبداية مرحلة جديدة ظننتها بدأت أو على وشك البدء . إلّا أنّ المرحلة الجديدة لم تتحقّق ، والمرحلة السابقة ما زالت مستمرة . ويغمرني إحساس في هذه اللحظة بأنّ الفرصة قد فاتتني ، وأنني لن أعود أبداً إلى وطني ، بل سأمضي ما تبقى لي من العمر هنا في هذه البلاد الغريبة ، وأنّي سأموت فيها . لكن لا . . هذا لن يحدث . شعبي هو جزء من حياتي لم أتركه يوماً ، ووطني أحمله في قلبي لا أقدر على أن أتخلّى عنه . سأعود يوماً» (٢)

الوقوف في المنطقة المتأرجحة بين رغبة المراء في عمل ما وقدرته على القيام به ، أمر ظاهر في تضاعيف سيرة شرابي ، فهو يكشف أحياناً عن موقف نقديّ صارم في تحليله للبنية الأبويّة للمجتمع الذي ظهر فيه ، وأحياناً تخامره الرغبة للقيام بدور رسوليّ لتغييره ، وثمة هوة لا تروم بين مفكرٍ ينهض بمهمّة تشريح البنية التقليديّة لمجتمعه ، كاشفاً الأزمات الكبرى في عمقه ، وبين مثقّف يتوهّم دوراً نبويّاً في تغيير ذلك المجتمع ؛ لأنّ الشعب «جزء من حياته» ، ولأنّه «يحمل الوطن في قلبه» ، فإذا

(١) هشام شرابي ، الجمر والرماد ، الجزائر ، منشورات الاختلاف ، ٢٠٠٣ ، ص ٨

(٢) م . ن . ص ٩



«بالشعب والوطن لا يأبهان به وبأحلامه». وإذا «بالواقع يناقض الرؤيا». لهذا تتردد في صفحات السيرة عبارات من نوع: «شعبي هو جزء من حياتي لم أتركه يوماً، ووطني أحمله في قلبي لا أقدر على أن أتخلّى عنه. سأعود يوماً»، أو «عدت لكي أعمل من أجل هذا الشعب ومن أجل هذا الوطن»، أو «أريد العودة إلى وطني وأهلي وإلى الحزب الذي تركته ورائي». وهي مواقف أيديولوجية تتبدّد حالاً حينما يعرف شرابي أنّ «الشعب والوطن لا يأبهان به وبأحلامه».

ومن المتوقع أن يفضي كلّ ذلك إلى ظهور نزعة انطوائية لديه، تؤدّي به إلى إعادة بناء تجربة طفولته وشبابه في عكا وبيروت، حيث كانت فكرة الانتماء والملازمة قائمة بينه وبين العالم، وذلك من موقع المفكرّ المفارق الذي أفرد خارج مجتمعه، فعجز عن تغييره، وتلاشت لديه فكرة الانتماء، فراح يستعيد حقبة انقضى عهدها، ومكاناً أصبح غير قائم.

وكان شرابي قد عرف الترحّل مبكراً، فقد ولد في يافا، وترعرع في عكا ثم درس فيها وفي رام الله، قبل أن يرسله أبوه إلى بيروت في عام ١٩٣٨ لمواصلة تعلّمه في مدرسة داخلية، ثم أكمل في الجامعة الأميركية في بيروت، وتوجّه إلى أميركا لاستكمال دراسته العليا. ومنذ عام ١٩٥٣ تولّى تدريس تاريخ الفكر الأوربي في جامعة «جورج تاون» في واشنطن، بوصفه أستاذاً فيها، وباستثناء عودات قصيرة إلى بيروت، مكث في أميركا نحو نصف قرن. ومن واشنطن عرف باقتلاع أسرته من وطنها فلسطين في عام النكبة، وانشطارها بين لبنان والأردن.

وحينما قرّر العودة، وقد ارتبط بالحزب الاجتماعي القومي السوري، من أجل أن يسهم في مجتمعه بوصفه مثقفاً عضواً فاعلاً، قتل زعيم الحزب أنطوان سعادة وضرب الحزب وتفكّك، فعاد ثانية إلى أميركا مصاباً بخيبة أمل؛ إذ فرض عليه المنفى بعد أن كان قد قرّر العودة حال إكمال دراسته، وكان شاباً غصّاً يتطلّع إلى عودة سريعة إلى بلاده، كأنّه محكوم بأداء واجب. وفي يومه الأوّل في الأرض الجديدة دهمه شعور المغترب الأميركي، «أحسست بالوحشة تغمرني. قلبي يكاد ينفجر. . . إنّي على وشك البكاء. أريد العودة. أريد العودة إلى وطني وأهلي وإلى الحزب الذي تركته ورائي. الحلم إذا تحقّق، كالرغبة إذا أشبعت، يترك وراءه فراغاً موحشاً. في تلك اللحظة أخذت قراراً بالعودة في أقرب وقت ممكن. سأدرس للحصول على شهادة الماجستير فقط، وأعود بعد سنة. وشعرت بشيء من الراحة ولم يدر في خلدي

حينذاك أنني سأمضي الجزء الأكبر من حياتي في أمريكا ، وأنّ عودتي إلى وطني لن تكون إلّا لفترة قصيرة مفاجئة»<sup>(١)</sup> .

كانت هذه العودات الخاطفة أشبه بزيارات شخصيّة لا يمكن أن تعبّر عن موقف فكريّ وتجربة شخصيّة ، ولهذا أغفل شرابي الوقوف عليها ، فما إن التحق أستاذًا بالجامعة في واشنطن حتى أصبحت تجاربه الأولى مادةً للذكرى . وفضلاً عن بيروت التي تفتّح فيها ، وخاض فيها تجارب الشباب وغمار العمل السياسيّ ، تمثّل عكاً نقطة جذب ثابتة في تاريخه الشخصيّ ، لكنّه لم يتمكن أبداً من رؤيتها منذ غادرها في عام ١٩٤٧ ، يقول عن مرتع طفولته : «زرت مدناً كثيرة وشاهدت سواحل ، لكنّي لم أقع على مدينة تضاهي عكاً رونقاً ، ولم أر ساحلاً يفوق ساحلها جمالاً ... عكاً هي ذاكرتي عن الوطن ، هي المقياس والنموذج . كلّ ما أراه أقرّنه بما رأيته فيها . هي المدخل لكلّ تجربة مستقبلية»<sup>(٢)</sup> .

إنّ إعادة تحيّل مدينة الطفولة بعد مرور نصف قرن على مبارحتها أمر بمقدور ما ينطوي على المفارقة ، فإنّه ينطوي على العذاب ، فالمفارقة أنّ التاريخ عرض مقترحاً ماكرّاً وخبيثاً ، فقد أصبحت عكاً في قلب إسرائيل ، وأصبح ابنها شرابي منفيّاً في واشنطن . أمّا العذاب فهو الاستعدادات التخيليّة لمدينة أصبحت ذكرى . فهي بالنسبة لشرابي «المقياس والنموذج» .

انفصمت عرى العلاقة المباشرة بين شرابي وبيروت بتفكّك الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ إثر إعدام زعيمه ، وأصبحت علاقة ذهنيّة وقعت استعادتها عبر الزمان ، فموضوعها هو الذكرى بعد حادث فاصل ، وهو أمر لاحظنا أثره في سيرة حلّيم بركات إثر تركه الحزب نفسه ، ثمّ الحرب الأهليّة اللبنانيّة . وسيرة إدوارد سعيد ، وما حصل له ولأسرته بعد ثورة عام ١٩٥٢ في مصر ؛ فالأحداث الجسام تفرض قطيعة فعليّة بين الشخص والمكان ، فيصبح هو منفيّاً ، وتصبح هي ذكرى ، فيعاد بناء العلاقة عبر التخيّل .

توقّف شرابي كثيراً على وصف نزعتة الانطوائيّة والشكّيّة ، وتكاد حياته تنقسم

---

(١) م. ن. ص. ١٤-١٥

(٢) هشام شرابي ، يروي قصّة ثلاث مدن عاش فيها : عكاً وبيروت وواشنطن ، تحرير محمود

شريح ، كولونيا ، منشورات الجمل ، ١٩٩٤ ، ص ١٠٤

إلى مرحلتين : مرحلة الاندماج النسبي التي كان عليها إلى أن أنهى دراسته الجامعية في بيروت ، ثم مرحلة العزلة شبة الكاملة في الحقبة الأميركية من حياته . ومن قلب أميركا أعاد بناء الحقبة الأولى من حياته ، وينبغي ألا نغفل إنه استدعى وصف المرحلتين بعد مروره بهما ، وقد أصبحت حياته وقائع تلاشت ، وأحداثاً انقضت ، وهو يعزو ذلك جزئياً إلى نزعة التفلسف التي اتّصف بها ، أي نزعة خداع الذات بأنّه قادر على إنتاج فكر فلسفيّ ، فيما كان يخوض سجالاً حول الفلسفة فحسب ، « كانت النزعة الطاغية في حياتي ، في أثناء دراستي الجامعية ، هي نزعة «التفلسف» . لم يكن بإمكانني آنذاك التفرقة بين الفلسفة والتفلسف ، وكنا في دائرة الفلسفة أساتذة وطلبة جميعاً متفلسفين . وكنت بطبيعتي أميل إلى «فلسفة» الأشياء ، أي أن أراها من خلال حجب كثيفة من التأمل والتفكير ، وليس بشكل مباشر وعفويّ . ولعلّ هذا هو السبب في أنّ الحياة كانت تبدو لي غامضة مشوشة ، لا أقدر على تلمّسها أو تذوّقها ببساطة ومرح . كما كان يفعل معظم زملائي . فكان كلّ يوم يمرّ في حياتي معقّداً مليئاً بالأحاجي والأحداث المؤلمة نفسياً . ولا شكّ أنّ نوعيّة الفكر الذي تعرّضت إليه في الجامعة الأميركية عزّز اغترابي عن نفسي ، وزاد من ابتعادي عن واقع الحياة الذي كنت أتوق لتفهّمه وامتلاكه»<sup>(١)</sup> . وقاده ذلك إلى الشكّ في كلّ شيء ، حتى الشكّ في أصالة أفكاره ، «كلّ أفكار هي ، بشكل أو بآخر ، نتاج ما أقرأ . لم تصدر عني فكرة يمكن وصفها بأنّها فكرة أصيلة أو ملهمة»<sup>(٢)</sup> .

وتلمس مركزيّة واضحة حول الذات ، فكلّ الأشياء تكتسب قيمتها لأنّها صلة به ، ويكاد ذلك يخفي إحساس الشخصية بالزمن إلّا على سبيل المجاز ، فمع أنّه رسم مساراً متدهوراً لأحوال عصره خلال أكثر من ثلاثة عقود ، لكنّه حاول ألاّ يعترف بتغيير رؤيته لنفسه ، إلّا ما له صلة بالأفكار النظرية التي خرّبت تماسكه الأوليّ حال وصوله إلى أميركا ، وفي وقت متأخّر عبّر رمزياً عن تقدّم العمر به ، وتغيير ملامحه الخارجية ، لكنّه أبى أن يصف ذلك ، إنّما أشار إلى انعكاسه في أعين النساء ، «تمرّ بي الفتيات في الطريق فلا يرينني . تلتقي عيناى بعيونهنّ ، ولا أرى ما ينبئ بأنهنّ يشعرون بوجودي . لقد انقطع التيار السحريّ ، وانطفأت الشعلة . هكذا

(١) الجمر والرماد ، ص ٣٣

(٢) م . ن . ص ١١٦

أعترف بأنّ عهد الشباب قد انتهى»<sup>(١)</sup> .

يحوم القلق في تضاعيف الكتاب ، وتتناثر الوقائع ، وباستثناء المرحلة الأخيرة من مصاحبته لزعيم الحزب السوري القومي الاجتماعي أنطوان سعادة ، حيث تتبّع حاله في الأيام الأخيرة لوجوده ين بيروت ودمشق وعمّان ، فإنّ سائر ما ورد غير ذلك جاء على شكل انتقالات بين مرحلة الطفولة في عكا ، والشباب في بيروت ، والكهولة في شيكاغو . على أنّ النصّ يرتفع مرهفًا في بعض المواقف ، مركزًا الاهتمام على فرد ما برح يفكّك أواصر العلاقات التقليدية داخل نفسه ، وفي المحيط الذي يعيش فيه ، ثمّ يتوسّع فيقدّم تحليلًا للمجتمعات التقليدية الأبويّة ، ويكشف كيفية انزلاق المثقف إلى عالم ذهنيّ خاصّ تاركًا طبقات المجتمع الدنيا تدفع ثمن عذابات الحياة اليومية ، بما في ذلك اقتلاعها عن أوطانها ، وتشردّها .

لكنّه في المقابل حاول رسم شخصيّة تعدّ بقدرتها على خدمة قضايا شعبها ، لكنّها تنزوي أسيرة تأملات تجريدية ، وهذا التعارض بين تخيّلات ذهنية للقيام بأدوار قدرية متخيّلة ، وانكفاء ذهنيّ تحليليّ شبه منقطع عن الجماعة الكبرى ، رسم في أفق السيرة شخصية مفكّر اجتماعيّ انطوى على ذاته ، وعجز عن القيام بأية مهمّة للتغيير المباشر ، وتلك هي صفة المنفيّ بذاتها . ولقد ترتّب كلّ ذلك في إطار مدينة كادت تصبح ذكرى ، كما أصبحت أفكار شرابي التي أراد بها تغيير كلّ شيء .

#### ٤. المدينة بوصفها ذكرى مستعادة:

بعد أن وقفنا على نموذجين من السير الكبرى لمفكرين منفيين ، وظهرت لنا العلاقة بين المنفيّ والمكان ، وما تؤدّي إليه من بناء أماكن متخيّلة تعويضية ، ينبغي الآن أن نرى كلّ ذلك عند بعض الأدباء الذين مرّوا بالتجارب ذاتها أو ما يقاربها ، فمن الصحيح أنّ السيرتين اللتين وقفنا عليهما كانتا لمثقفين إشكاليين ، أجبرا على اختيار المنفى لأنّ التجربة الاستعمارية خلخلت علاقاتهما بأوطانهما جرّاء ظهور دولة إسرائيل ، أو لأسباب لها صلة غير مباشرة بذلك ، كالنزاعات الأهلية ، وانهيار الوعود الكبرى ، فكأنّا من منطقة واحدة هي بلاد الشام ، وقد رحلا إلى أميركا ، حيث التباين الواضح بين الأمكنة على الصعد الثقافية ، وفي مقدّمتها اللغة ، فإنّ الأديبين

---

(١) م. ن. ص ١٣١

الذين سنقف على سيرتهما وهما عبد الرحمن منيف ، وعبد الرحمن مجيد الربيعي ، مرّاً بظروف مشابهة في دلالتها ، لكنّها مختلفة في مظهرها ، فالأوّل لم تتح له الفرصة لبناء تجربة أصيلة في المكان باعتباره وطناً ؛ لأنّه ترحل إلى نهاية حياته بين أمكنة طارئة ، وربما طاردة ، فمن قلب الجزيرة العربيّة إلى الأردنّ ، ثمّ العراق فأوروبّا وسوريا ، مضى منيف مرتحلاً غير عارف أيّ معنى للاستقرار ، فهو لصيق بحالة الإزاحة المتواصلة ، ويفهم مروره بالأمكنة على أنّها ملامسات خاطفة لا تتيح له فرصة التعرّف التي تحقّق الانتماء ، فجاءت رواياته مدوّنة ضخمة عن أمكنة غير موصوفة ؛ إذ كان يبنّي فضاءاته السردية الكبرى بناء على التخيّل وليس المعرفة .

أمّا الربيعي ، فيشارك منيفاً في أنّه اختار النهاية نفسها ، لكنّ جذوره الأولى في العراق أكثر عمقاً ، فذكرياته مستوحاة من حالة أصليّة من التعرّف ، لكنّه أجبر على استعادتها من تونس بعد خمسين سنة من وقوعها ، وذلك على خلفيّة نزوح من العراق بسبب سلسلة متواصلة من الحروب ، انتهت بالاحتلال الأميركيّ للبلاد ، وهو ما جعل الوقائع في سيرته الذاتية نسيجاً متداخلاً من الحقائق والتخيّلات محكومة بحنين وشقاء للمكان الأوّل .

أبدى عبد الرحمن منيف ، في كتابه «سيرة مدينة» ، حرصاً على وصف الصلة التي تربط الشخصية بالمكان ، وهي صلة تستعاد بعد مرور نصف قرن على وقوع الأحداث ، أي صلته طفلاً وفتى في مدينة «عمّان» خلال أربعينيات القرن العشرين ، فيكون الكتاب خلاصة مزج بين تاريخ مدينة وحياة شخص في مستقبل عمره ، «هذا الكتاب عبارة عن سيرة لمدينة هي عمّان ، وليست سيرة ذاتيّة لكاتبه ، وإن تقاطعت السيرتان ، بسرعة وجزئياً ، في بعض المحطّات»<sup>(١)</sup> .

وقد خيّم التقاطع بين سيرة الشخصية وسيرة المكان على الكتاب منذ بدايته إلى نهايته ، فتاريخ المدينة يتمرأى في عينيّ الفتى عبد الرحمن الذي لا يظهر إلّا خلف ضمير غائب ؛ فالسرد يبعد الجانب الذاتيّ ، ولا يأتي على ذكر اسم الراوي ، لكنّ كلّ شيء يتشكّل أمام المتلقّي من خلال عينيّه اللتين ترسمان حركة الأفراد على خلفيّة مكانية غير واضحة المعالم ، فالعلاقة بين الشخصية والمكان طارئة ، ولهذا يغذيها التخيّل بالتفاصيل ، ولا وراء فعلل أهمّ ما يلاحظ هو ذكر الأحداث .

(١) عبد الرحمن منيف ، سيرة مدينة ، بيروت ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر ، ١٩٩٤ ، ص ٥

وشغل المؤلف بأمر آخر له صلة بالموضوع ، وهو موقع كتابه في خريطة الأنواع الأدبية ، «ليس رواية ، لأنّ الخيال فيه محدود ، وإن استعار من الرواية بعض أدواتها ، كطريقة العرض والبناء . إنّه كتاب يحاول أن يستعيد ملامح مكان في زمن معيّن ، اعتماداً على الذاكرة»<sup>(١)</sup> . وبهذا التوضيح نأى الكتاب عن كونه تاريخياً كاشفاً للمدينة ، وصرّح بأنّه استعادة مركّبة لأحداث قديمة جرى بناؤها بواسطة الذاكرة ، وما انفكّ المؤلف يتدخل لإيضاح دور الذاكرة في تكوين الكتاب ، قائلاً : «والذاكرة ، مهما حاول الإنسان الدقّة والأمانة خداعة شديدة المكر ؛ لأنّها تقول الأشياء التي تعنيها ، ما تعتبره أكثر أهميّة ضمن مقاييسها الخاصّة . لذلك فإنّ بعض الوقائع الواردة ربّما لم تحصل بهذا الشكل تماماً ، لكن هكذا بدت لمن رآها ، أو هكذا استقرّت في الذاكرة ، دون أن تكون هناك أيّة نية أو رغبة بتحويلها ، أو إعادة تشكيلها ضمن نسق مختلف»<sup>(٢)</sup> .

بعد كلّ هذه التحوّلات الخاصّة بكيفية انبثاق صورة المدينة من عمق الكتاب ، ينزلق إلى إعادة تركيب المدينة المستعادة ، «لا يدّعي هذا الكتاب أنّه تأريخ «لعمّان» بالوقائع والأرقام ، إذ لم يعتمد على المراجع والمصادر ، ليس استهانة بها ، وإنّما ارتأى قراءة أخرى موازية ، من خلال عينيّ إنسان عاش ذاك الزمن في ذلك المكان ، وافترض بالتالي أنّ من المفيد أن «يقول» كيف رأى الأشياء ، كيف عرفها أو تعرّف عليها ، دون مقارنتها مع المراجع والمصادر والأرقام ، باعتبار أنّ هذه القراءة تتيح إمكانيّة جديدة للكشف والاكتشاف ، ومن ثمّ لإعادة ترتيب الأحداث والوقائع بطريقة مختلفة ، قد تساعد على رؤية إضافية»<sup>(٣)</sup> .

شدّد منيف كثيراً على وضع الأطر الخارجيّة المحدّدة لعلاقته بالمكان المستعاد عبر الذاكرة ، فتلك الأطر ترسم حدوداً للمنطقة التي يتحرّك فيها ، «المكان في حالات كثيرة ليس حيّزاً جغرافياً فقط ، فهو أيضاً البشر ، والبشر في زمن معيّن . وهكذا نكتشف علاقة جدليّة بين عناصر متعدّدة متشابكة ومتفاعلة . فالمكان يكتسب ملامحه من خلال البشر الذين عاشوا فيه . والبشر هم تلخيص للزمن الذي كان ،

(١) م . ن . ص ٥

(٢) م . ن . ص ٥

(٣) م . ن . ص ٥

وفي مكان محدّد بالذات ، وبالتالي فقد اكتسب الناس ملامح وصفات ما كانوا ليكتسبونها لولا هذه الشروط . . . وحديث الإنسان عن المدينة التي تعني له شيئاً خاصاً بمقدار ما يبدو ممكناً فإنّه شديد الوعورة ، وبعض الأحيان عصي ، لأنّ السؤال الذي يطرح نفسه : أيّ شيء يمكن أن يقال ، وأيّ شيء يترك ، وهذا الذي قيل ، وذلك الذي تمّ تجاوزه ، أهو ما يجب أن يدوّن ويبقى ، أم أنّ ما ترك كان الأجدر بالتدوين ، ومن ثمّ بالبقاء؟ إنّ الكتابة عن مدينة الماضي التي يحبّها الإنسان تحوّل هذه المدينة إلى كلمات ، والكلمات ذاتها مهما كانت بارعة زلقة خطيرة مأكرة ، وغالباً لا تتعدّى أن تكون ظلالاً باهتة لحياة ، أو في أحسن الحالات ملامسة لها من الخارج ، أو مجرد اقتراب ، علماً بأنّ الحياة ذاتها كانت أغنى ، أكثر كثافة ، ومليئة بالتفاصيل التي يصعب استعادتها مرّة أخرى»<sup>(١)</sup> .

نلمس في «سيرة مدينة» وصفاً زلقاً لمتاهة الاحتمالات ، فقد آلت عمّان إلى مدينة كلمات ضمن خطاب سيريّ استعاديّ ، وتوارت الأشياء إلى الخلف ، وكأنّها لم تبق جزءاً من التاريخ ؛ إذ ليس ثمّة وسيلة أخرى غير كلمات نتمكّن بها من بناء صورة عن أمكنة الماضي ؛ لأنّها في تحوّل دائم ، وبناء الصورة بالكلمات إنّما هو بناء مدينة تنبثق من ذاكرة الراوي الذي عاصر حقبة من تاريخ المدينة ، والتقط جزءاً ممّا عاصره وعرفه وعاشه ، ويترتّب على كلّ ذلك أنّ المدينة التي تُكتب سيرتها هي مدينة نُظر لها بعينيّ فتى شغوف بما يقع حوله ، وهو يتفتّح في أزقتها ، وليس من الصواب اعتماد تلك الصورة السردية المجتزأة باعتبارها صورة حقيقية وشاملة وكاملة لمدينة .

مدينة السرد غير مدينة التاريخ ، ولهذا يعود منيف مراراً وتكراراً إلى وصف الصلة بينه وبين عمّان ، التي انبثقت من سياق كتابه السرديّ ، «هل إن المدينة مجرد أماكن وأشياء وأسماء ، وحتى بشر؟ وكلّ هذه ، هل هي في حالة ثبات أم تتغيّر في كلّ لحظة ، كما يعاد تشكيلها في الذاكرة مرّة بعد مرّة ، خاصّة والزمن يمضي ، وتدخل أسباب وعوامل كثيرة ومؤثّرة؟ وهل من حقّ الكاتب أن يجبر الآخرين على رؤية الأمكنة والبشر كما رآهم هو ، أو كما أحبّ أن يراهم؟ وهل كان هؤلاء هكذا فعلاً ، أم أنّ العواطف والمسافات غيّرت في الأشكال والأحجام ، وغيّرت في المواقع

---

(١) م. ن. ص. ص ٥-٦

أيضاً ، تبعاً لما يعتمل في العقل والقلب؟ والكتابة ، خاصّة من هذا النوع عن الأمكنة والبشر ، ألا تعتبر بشكل ما ، بنسبة ما ، انحيازاً يبعدها عن الموضوعيّة؟ وألا يعتبر الكاتب صاحب هوى أو غرض ، وربّما حالماً أو واهماً ، وهو ينتقي ، وهو يعطي الصفات؟ وإذا كان من الممكن التسامح مع الأمكنة ، باعتبارها محايدة - هل هي كذلك فعلاً؟ وقد تشي بها أمور كثيرة ، وربّما يستطيع إعادة تصويرها أو تركيبها بأقلّ قدر من التحريف ، فماذا عن البشر الذين لا يتوقّفون لحظة واحدة عن التغيّر؟»<sup>(١)</sup> .

تنتهي هذه التوجّسات إلى الاعتراف الخاصّ بالكتابة السيريّة والكتابة الروائيّة ، ويعقبها حديث مسهب عن الذكرى ، «تردّدت كثيراً في التعامل مع مادّة هذا الكتاب ؛ لأنّ من أصعب المواقف أن يكون الإنسان شاهداً ، وأن يكون مطمئناً . من الأمور الصعبة ، أيضاً ، لكاتب تعود كتابة الرواية ألاّ يترك مساحة للخيال ، أو أن يتعامل مع الأشياء المكتملة الناجزة ، لأنّ الكتابة بالنسبة لي وهكذا أمارسها ، اكتشاف مستمرّ وبحث لا يتحدّد ولا يتجسّد إلاّ بالكتابة ذاتها . أو بكلمات أخرى لم ألقأ بعدُ ، إلى كتابة شيء أعرفه معرفة تامّة ، أو واقع بالفعل ، إذ بمقدار ما يبدو هذا ناجزاً كاملاً واضحاً ، فإنّه بالنسبة لي عصيّ وغير مغر ، ولذلك يجب ألاّ أكتبه ، أو على الأقلّ يجب ألاّ أكتبه الآن . هكذا اضطرت ، مرّة بعد أخرى ، لتأجيل الكتابة عن عمّان ، على أمل أن يأتي وقت أكثر ملاءمة ، لكنّ هذا الوقت قد لا يأتي ، فالحياة الطائشة الشديدة الغدر ، تسرق الأشياء الجميلة ، تسرق الأمكنة والبشر ، كما تقرض الوقت .

هذا السلاح الذي نحاول بواسطته أن نقاوم ، لكن هو ذاته يتسرّب ، يتفتّت ويتلاشى ، ولا يبقى سوى الذكرى ، ذكرى الأيام التي مرّت . والذكرى بمقدار ما هي حارس يحمي الروح ، فإنّها الداء الذي ينخرها ، بما يخلفه من لوعة ، وهي التي تزيد يوماً بعد آخر! . إذا استبدّت الذكرى بالإنسان تخضّعه وتغيّره ، يصبح أسيراً لحالة لا يقوى على مقاومتها ، ويصعب عليه الاستسلام لها ، لأنّها بمقدار ما تبدو ، في لحظات معيّنة جميلة ، فإنّها موجعة ، خاصّة وهي تحمل معها هذا الكمّ الكبير من الشجن على أيّام كانت ثمّ مضت إلى الأبد ، كما تجرّ معها أشياء يفترض الإنسان أنّها انتهت ، وأنّه تجاوزها ، لكن وهي تعود هكذا حاملة معها الأصوات والإشارات

---

(١) م. ن. ص ٦



وروائح الأمكنة والأجساد والكلمات ، يولد من جديد الحنين المجهول بالأسى والرغبة في أن تعود الأشياء كما كانت في يوم من الأيام . إنّ الذكرى مهما كانت الصفة التي نعطيها لها ، حالة تجعل الإنسان ، أيّ إنسان ، أقرب إلى الاستسلام ، ومسكوناً بالماضي وناسه . فإذا كان فاعلاً في لحظة وقوع الحدث ، وله موقف منه ، أيّاً كان هذا الموقف ، فإنّه وهو يستعيده يصبح ضعيفاً ، مسلوب القدرة ، كما تصبح هذه الذكرى ماضياً ، ولذلك فإنّ ثقل الزمن ومرارته ، يهبطان عليه من جديد كما يهبط الليل»<sup>(١)</sup> .

يخيّل للمتلقّي أنّ منيفاً سوف ينصرف بعد هذه المداخل التوضيحية الطويلة إلى متن موضوعه ، وهو سيرة المدينة ، لكنّ شعوراً بالقلق يغالبه في تضاعيف الكتاب ، إلى درجة أنّه وقبل أن يختم الكتاب بصفحات قليلة ، يعود إلى ذكر تلك التوجّسات التي لا تنفكّ تذكر المتلقّي بالقلق الملازم للمؤلّف ، «المدن ليست المعالم مهما بلغت البراعة في استعادة تفاصيلها ؛ وليست المياه والأرض والأشجار ، وهذه كلّها أو بعضها لا تزال قائمة أو يمكن تخيلها ؛ والمدن لا تقتصر على البشر ، رغم أنّ هؤلاء هم الذين يعطونها القوام والنكهة ؛ كما لا يمكن أن نستعيد الفترة الزمنية الماضية ، باستعراض ما وقع خلالها من أحداث ، إذ رغم فائدة ذلك ، لأنّه يضعنا في الطريق الصحيح ، إلّا أنّه لا يوصلنا إلى ما نريد . إنّ المدينة ، أيّة مدينة ، كلّ هذه الأشياء معاً وغيرها ، وقد تداخلت وترابقت وتفاعلت ، بحيث أصبحت مختلفة عن العناصر التي كوّنتها ، مع استمرار صلتها بها ، واختلافها عنها . المدينة هي الحياة بتعددّها وتنوّعها ، هي الأمكنة والبشر والشجر ورائحة المطر ، وهي التراب أيضاً ، وهي الزمن ذاته ولكن في حالة حركة . المدينة طريقة الناس في النظر إلى الأشياء ، وطريقة كلامهم ، كيف تعاملوا مع الأحداث التي وقعت ، كيف واجهوها وكيف تجاوزوها . المدينة هي الأحلام والخيالات التي ملأت عقول الناس وقلوبهم التي تحقّقت ، وتلك التي طاشت ثمّ خابت ، وكم تركت من العلامات والجروح . المدينة هي لحظات فرح الناس وأوقات حزنهم . المدينة هي الطريقة التي تستقبل بها من تحبّ وتواجه من تعادي . المدينة هي الدموع التي تودّع بها من غادروها مضطّرين ، مؤقتاً أو إلى الأبد ، وهي البسمات التي تستقبل بها العائدين . هذه هي المدينة وأشياء أخرى كثيرة وصغيرة ،

---

(١) م . ن . ص ص ٧-٨

فهل يمكن استعادتها؟»<sup>(١)</sup> .

تستعاد المدينة بعيداً عن كل تلك الشروط ، فعمّان تنبثق بوصفها ذكرى مستعادة ، تجتذب فتاها الصغير بنشوة بالغة ، بعد أن أصبح شيخاً ، فمن دمشق ، وبعد مرور خمسة عقود على فراقها انتاب عبد الرحمن منيف حين مفعم بالحزن إلى مدينة صباه ، فغطّت ذكرياته عقداً من الوقائع المنتخبة من حياة المدينة ، ولكنها ذكريات استجمعت بعض الأحداث المتناثرة ، والشخصيات التي كانت تطوف في شوارع عمّان وقد انفرط عقدها الناظم ، فقد كانت عينا الطفل تلاحقان غرائب الشخصيات من رجال ونساء ، وذاكرته تستعيد مرويّات متضاربة . لكنها لا تهمل بعض الأحداث الجسام ، منها أثر الحرب العالمية الثانية في الناس في المدينة ، ومنها أحداث الطوفان الذي اجتاح المدينة ، وإلى غير ذلك ممّا مكث راقداً في قعر الذاكرة وجرى بعثه مرّة أخرى عبر الكلمات .

وظهرت الجدّة العراقيّة بتعليقاتها على الأحداث ، وكأنّها تختزن حكمة تاريخيّة تريد نقلها من بغداد إلى عمّان ، فهي الشخصية التي تؤطّر السرد بكامله ؛ إذ بذكرتها البغداديّة ، وبلهجتها العراقيّة المغايرة للسياق ، تخترق السرد في مصاحبة الفتى الذي يظهر صمتاً كاملاً ، لأنّ العالم يتركّب من خلال عينيه - ويستعاد من خلال ذاكرته شيخاً- أمّا الجدّة فتتنظّم مسار الأفكار ، وتكشف نموّ الوعي عند الفتى ، وبها وبه ، وقد وصلا بغداد قصد الإقامة هناك ، ينتهي الكتاب ، فتصبح عمّان علامة على حقبة انتهت بالنسبة للراوي وجدّته ، وبدأت الحقبة العراقيّة . ترتسم الملامح الأولى لمدينة عمّان في وعي عبد الرحمن منيف ، بمقتل ثاني ملوك العراق غازي بن فيصل بن الحسين ، وتتلاشى بمرافقة جدّته العراقيّة إلى بغداد .

## ٥. السيرة واستدعاء مدينة البدايات؛

رأينا كيف أنّ المنفى هو النافذة التي من خلالها يستعيد المرء ماضيه ، وبخاصّة تكوينه المبكر ، وفي سيرته الذاتيّة «أية حياة هي؟» يستعيد عبد الرحمن الربيعي البدايات الأولى لحياته في العراق الملكيّ خلال خمسينيّات القرن العشرين ، ويحاول استحضار وقائع مضى عليها نحو خمسة عقود ، وهو يركّب تجارب حياته البسيطة

---

(١) م. ن. ص ٢٤٥

بأسلوب فيه شغف متعاظم للماضي وللطفولة وللوطن الذي أصبح ذكرى ، فالربيعي ، وهو يكتب سيرة بداياته من تونس ، يفصله عن ذكرياته ومكانها نصف قرن وآلاف الأميال ، فكتابه تعبير عن حنين عابر للأزمنة والأمكنة إلى مرحلة الطفولة والصبا وأول الشباب ، في مدينة الناصرية التي تقع في جنوب العراق على ضفاف الفرات وجوار الصحراء .

كتب الربيعي عن مدينته خلال العهد الملكي الذي انقضى أمره في عام ١٩٥٨ ، وقد ارتبطت كل الأحداث بالصبي الصغير «عبد الرحمن» فمن خلال رؤيته الذاتية تم تعرّف العالم المحيط به ، ومن خلالها جرى أيضاً تعرّف التجارب الأولى ، ومنها التجارب التعليمية والأسرية والعاطفية ، «تأكّدت لي أهميّة مرحلة الطفولة بكلّ تفاصيلها ، فهي التي يوظّفها الكتاب لاحقاً في أعمالهم ، لا سيّما الروائية والقصصية منها ، وتعتاش نصوصهم عليها . ولكنّ كتابة الطفولة بكلّ دقائقها لم أجد كاتباً عربياً قد منحها هذا الاهتمام وكرّس لها كتاباً خاصاً ، بل إنّها تأتي في سياق حديث شامل عن حياته ، وهذا ما فعله جلّ كتاب السيرة»<sup>(١)</sup> .

حرص المؤلف على أن يشير في مقدمته للكتاب إلى أنّه أراد أن يكون «صادقاً وصريحاً قدر الإمكان ، ليشكّل كتاب احتفاء بالحياة التي نعيشها مرّة واحدة» . والطفولة بوصفها مرحلة تكوين أساسية ؛ أمر كان «جورج ماي» قد شدّد عليه في كتابه العمدة عن «السيرة الذاتية» ، إذ ذهب إلى أنّ «مواضيع السير الذاتية الكثيرة التي تؤكّد لنا هذه الظاهرة ، ذكرى الطفولة أو المراهقة ، هي بدون شكّ تجسّد هذه الظاهرة خير تجسيد . فالشخص ، قبل أن تكونه بيئته وثقافته تكويناً كاملاً ، هو الأقدّر على التأثير في الناس تأثيراً شاملاً . ولذلك ، فإن كان الحديث عن «طفولة» الشخصية يستغرق من السير الذاتية حيزاً كبيراً ، وإن كانت طائفة كبيرة من السير الذاتية تقف عند بلوغ صاحبها سنّ الرشد ، فإنّ الميل الفطريّ لكاتب السيرة الذاتية يلائم ذوق القارئ كلّ الملاءمة : فالأوّل بحاجة إلى إحياء ماضٍ عزيز عفا ، والثاني يجد لذة في أن يرى نفسه في غيره ، وأن يطمئنّ إلى أنّه إنسان سوّي»<sup>(٢)</sup> . ولعلّ أبرز ما تميّزت به هذه السيرة ، أنّها أزاحت التكلّف والتردد والحجل بإزاء

(١) عبد الرحمن مجيد الربيعي ، أية حياة هي؟ سيرة البدايات ، بيروت ، دار الآداب ، ٢٠٠٤ ص ٥٣

(٢) ماي ، السيرة الذاتية ، ص ١١٥

تجارب ذاتية نشأت في سياق خاصّ، فلم يسقط عليها وعي لاحق يحول دون ظهورها كما هي؛ إذ سعى المؤلّف إلى تقديم تلك التجارب في سياق ظهورها، فبدت صافية ونقيّة ومباشرة، إلى درجة قد لا يقبلها فكر أصيب بداء العمى، وحجب الحقائق الإنسانية الأولى، وبخاصّة الجنسيّة. وارتسم دفء في هذه التجارب التي كانت اكتشافات أولى لفتى في مقتبل العمر بمدينة نائية تقع على كتف الصحراء. وشكّلت حالة البلوغ الجنسيّ لحظة فارقة ينتقل بها الإنسان من مرحلة الطفولة إلى المراهقة، وأوّل ما تلاحظ ذلك وتحتفي به جدّته التي ربّته بعد وفاة أمّه، «وأذكر أنّه في اليوم الذي عرفت فيه ببلوغي نزلت إلى السوق واشترت كيساً من الحلوى المشكّلة، التي تُرمى على رأس المحتفى به عند الختان أو الزواج أو أيّ مناسبة سعيدة، ويسمى «الواهيّة». وطلبت منّي أن أقف، ونادت على أصحابي، وصارت تزغرد، وهي تنثر حلوى «الواهيّة» على رأسي... قد جاءت بعض النساء ممّن سمعنها، وكنّ يتساءلن عن سرّ هذه الزغاريد، وكانت لا تعلن السبب بل تكتفي بالهمس بأذان بعضهنّ، وخاصّة من المسنّات، فكنّ يضحكن، لكن وسط حشد النسوة المجتمعات رأيت وجه صفيّة. كانت تنظر إليّ وكأنّها تبحث عن جواب لسؤال في داخلها. وللمرّة الأولى رأيت في عينيها بريقاً لم أعرفه فيهما، كأنّها تناديني، أو كأنّها تقول لي: انتظرني يا من بلغت سنّ الرشد»<sup>(١)</sup>. وستكون له معاً مغامرات خاصّة.

لم تُغلق السيرة على أحداث الصبا والشباب وحدها، إنّما رصدت بعض مصائر الشخصيات في المدينة، وتعقّب نهاياتها، وكشفت وجه الطرافة في حياتها، كما أنّها كشفت بجرأة الوسط الأسريّ، ثمّ الاجتماعيّ الذي تشكّلت فيه، فضلاً عن استعادة صورة مفصّلة للمدينة، إنّها مزيج من سيرة ومذكرات واعترافات، لكنّها منظومة بخيط سرديّ يتقوّى شيئاً فشيئاً، ثمّ يتحوّل إلى رحلة استكشافية إلى بغداد حيث المعرفة الأولى لعالم مختلف عن الناصريّة. ولا غرابة أن يستأثر ذلك باهتمام المؤلّف، ويشغل حيّزاً كبيراً في متن السيرة، فتزداد نبرة السرد الذاتيّ قوّة، وتصبح الرؤية أكثر حدّة، فالمكان اختلف، والتجربة اتّسعت، وانتهى كتاب السيرة عند اللحظة التي ارتسمت فيها ملامح الشخصية الأدبيّة للمؤلّف.

(١) أيّة حياة هي؟ ص ١٨٢-١٨٣

ضمّت سيرة الربيعي نبذاً من وقائع وتجارب وأفكاراً وعواطف ونزوات ، ولكنها حرصت على وصف مساره التعليمي منذ دخل المدرسة عام ١٩٤٨ في مدينته الناصرية ، ثم وقفت بالتفصيل على التجربة الأهم في هذه المرحلة ، وهي السفر إلى بغداد ، والالتحاق بمعهد الفنون الجميلة بقسم الفنون التشكيلية في عام ١٩٥٧ ، وذلك في نهاية الحقبة الملكية . وقد صُوّر هذا السفر كأنه ارتحال إلى عالم جديد ، وخوض تجربة مغايرة ، فقد غادر مكاناً أليفاً ليحلّ في مكان غريب ، ولهذا توقّف الكاتب طويلاً على هذه الحقبة التمهيدية لظهوره أديباً في مطلع الستينيات . فقد ارتسمت بغداد المتنوّعة بأفكارها ومشاربها وفنونها وأدابها . على أنّ صاحب السيرة ركّز الاهتمام على شيء مهمّ جداً ، وهو مركز كلّ كتابة سيرية ، قصدتُ رصد علاقته بالأشخاص المجالين له وعلاقاتهم به ، ثمّ تأثير الأحداث فيه ، وفي كلّ ذلك كان ميّالاً نحو التفاصيل الحميمة ممزوجاً بحسّ الفكاهة .

منذ تلك الفترة المبكرة ظهر الربيعي مشاءً محترفاً ، فباستثناء إشارته مرّة أو مرتين إلى الحافلة في بغداد ، فقد اكتشف المدينة سيراً على الأقدام ، ولم يرد ذكر لغير السير على الإقدام في الناصرية ، فلكي تكتشف أرضاً جديدة ينبغي أن تطأها بقدميك ، وبهذه الرحلة التي نقلته بالقطار من الناصرية إلى بغداد للقبول في معهد الفنون الجميلة ، قطع الربيعي الصلة مع الطفولة ليعيش فترة الشباب ، والارتحال المكانيّ هو في معناه العميق ارتحال من مرحلة عمرية إلى أخرى ، وقد انتهى «روكي» في سياق دراسته لموضوع الطفولة في السيرة الذاتية العربية ، إلّا أنّ «أشهر النهايات المميّزة في السيرة الذاتية العربية هي مشهد الرحيل أو الفراق ، نهاية تصوّر وداع الطفل لبيئته المعهودة التي نشأ فيها . هذا المشهد يمثّل انقطاع الصلة بالواقع المعروف والمألوف ، والتوجّه نحو مستقبل غامض ، أو نحو «المصير المجهول»<sup>(١)</sup> .

ولاح في ثنايا السيرة فقدان عالم لا سبيل لاستعادته إلّا بالتخيّل . ومن المعلوم أنّ فكرة الغياب شكّلت ركناً أساسياً من أركان أدب السيرة الذاتية ، وهو أدب في غالبه ينطلق من عتبة الطفولة نحو الآفاق الأخرى ، ويحظى أمر النموّ العاطفيّ بمكانة مهمة ، فقد ركّز السرد الاهتمام على الاكتشافات الأولى للجسد ، ثمّ الرغبة في المرأة والأحاسيس المرافقة لذلك ، ورسم علاقة خاصّة بين الابن والأب . ومع أنّ الراوي لم

(١) في طفولتي : دراسة في السيرة الذاتية العربية ، ص ٢١١

يظهر عدوانية صريحة تجاه الأب ، لكن غياب الحميمية كشف تبايناً بين الاثنين ، فالأب مشغول بالنساء ، فيما الابن ينمو ببطء بعيداً عن التأثير الأبوي المباشر ، وتوج ذلك بالدنس حينما تشارك الابن والأب في أجساد النساء .

فكرة الدنس في الأدب العربي الحديث نادرة ، لكنها ظهرت بوضوح في ثلاثية نجيب محفوظ ، حيث تشارك الأب «أحمد عبد الجواد» والابن «ياسين» في جسد «زنوبة» عشيقة الأب وزوجة الابن ، ثم «أم مريم» وقد كانت عشيقة الأب ، ثم أصبحت أم زوجة الابن ، وتشارك كلاهما بجسدي المراتين المذكورتين ، كما ويتشارك الأخوان «ياسين» و«كمال» معاً بجسد إحدى العاهرات في القاهرة ، وهي «وردة» .

على أن الربيعي طرح الأمر بوصفه جزءاً من تجربة ذاتية وليس متخيلة كما هو الأمر في ثلاثية محفوظ ، ولا يريد من ذلك بناء أية فرضية حول موضوع الدنس بمفهومه الثقافي ، إنما مرّ على التجربة كواقعة جرى اكتشافها من طرف الابن وتكتم عليها ، دون أن يعرف الأب بذلك . وبالمقارنة فقد أحدث الدنس صدعاً في ثلاثية محفوظ ، فالتنافس على جسد الأنثى خرب في نهاية المطاف مفهوم الأبوية ، لكن سيرة الربيعي مرّت على هذه القضية باعتبارها تجربة جرت وقائعها في منأى عن التخيل السردى ، الذي يتطلّع إلى وضع الأبوة والبنوة في تعارض ثقافي ، «أماً والذي فحبّ النساء لا يغادره . وقد اكتشفت أن له صديقة كان يأخذني معه لنزورها ، ويتركني ألعب مع ابنتها ذات الشعر الأجعد ، واسمها «حسنية» كانت تكبرني بحوالي عامين ، تقول لها أمّها : اخرجي العبي أنت ورحمن . فتسحبني من يدي وتدخلني إلى عالمها ، وقد عرفت منها أشياء كثيرة رغم أن فكري كلّ عند والدي وهو يجالس تلك المرأة في غرفتها . وعندما كبرت وبدأت أعني ، أخذت الأشياء تتضح لي ، وبدأت تجد أجوبتها تلقائياً . ولم يكفّ والدي عن هذا النوع من المغامرات إلا بعد أن حجّ إلى بيت الله» (١) .

وفيما هو يتواصل مع إحدى النساء اكتشف أنها عشيقة لأبيه ، «لم يخطر ببالي يوماً عندما علمت أنها كانت على علاقة بأبي في الآن نفسه ، ممّا جعلني أهرب منها ، رغم أنها كانت ترى الأمر عادياً ، إلا أنني لم أقبّل فكرة مضاجعة امرأة كان

---

(١) آية حياة هي ؟ ص ١٦٠

والدي يضاجعها»<sup>(١)</sup> . وفيما يجد غرابة في أن يشترك هو وأبوه على جسد امرأة واحدة ، فإنه لا يجدها حينما يجمع في رغبته بين الأمّ وابنتها ، «ذات يوم تأملت الأمّ ، ولكن هذه المرة بعينيّ ذكورتني المتأجّجة التي لم تشبعها ابنتها رغم استعارها الجسديّ واستعدادها الأنثويّ الفائح ، فوجدت أنّها أنثى حقيقيّة : سمراء وطويلة وملفوفة لا فائض من اللحم في جسدها . واشتهت الأمّ . . . قلت في سرّي : ماذا لو بادرت هي إلى دعوتي؟ ماذا لو اشتهدت التغيير في أعمار عشاقها من الشبان إلى فتية مثلي؟! وفكرت كيف سيكون جسدها في الفراش؟ إنّها عالم مفتوح لي ، سيأخذني إيقاع جسدها الجميل الذي لا علاقة له بجسد صفيّة الممتلئ والمؤخّرة التي يتهدّل لحمها ، وسأسحر بها حتماً»<sup>(٢)</sup> .

تتموّج الأحاسيس في نفس الفتى عبد الرحمن ، وبخاصّة حينما ينزلق من حافة الطفولة إلى هوّة الشباب ، حيث يكتشف نفسه ببطء وهو يسبح في خضمّ تجارب يقع كثير منها بالمصادفة ، وقد رسم الكتاب كلّ ذلك بعفويّة على خلفيّة من حياة بسيطة في مدينة هي أقرب إلى القرية الكبيرة في ذلك الوقت ، ويتدفّق تيار صاعد من الرغبات لإعادة تركيب عالم توارى عن الأنظار ، وجرى استبعاده ليقع في الذاكرة . وفي عموم السيرة ظهر عالم متماسك في علاقاته ونظام حياته وإيقاعه ، فالشخصيّات فيه مكفولة من مجتمع يوفر الحماية الرمزيّة لأفراده ، ولم يكن الربيعي يتطلّع إلى الخروج عن ذلك إلّا بعد أن تبلورت خميرة الموهبة الأدبيّة في أعماقه ، فشدّ الرحال إلى بغداد التي كانت تجتذب أمثاله ؛ لأنّها توفر إمكانيات مختلفة ، وبالوصول إلى بغداد انتهت سيرة البدايات .

## ٦. السيرة ومآل المدن الإمبراطوريّة:

على أنّ استدعاء المكان قد يصحبه موقف ثقافيّ تجاه المدينة التي كانت حاضنة لتجارب تاريخيّة جليّة ، وعلى هذا بدت إسطنبول في سيرة أورهان باموك «مدينة عجوزاً فقيرة مدفونة تحت رماد إمبراطوريّة خربة»<sup>(١)</sup> ، فلطالما أحسّ بأنّه ولد في مدينة

(١) م . ن . ص ١٨٥

(٢) م . ن . ص ١٨٩-١٩٠

(٣) أورهان باموك ، إسطنبول : الذكريات والمدينة ، ترجمة أمانى توما ، وعبد المقصود عبد الكريم ، القاهرة ،

الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ، ٢٠٠٨ ، ص ٦

كانت في أسوأ أحوالها خلال ألف عام من عمرها ؛ فقد خيم عليها الذبول والسوداوية ومشاعر الإخفاق العميقة الملازمة لنهاية الإمبراطوريات الكبرى ، فلا عجب أن يمضي باموك حياته يحارب تلك السوداوية أو يتقمصها كما كان يفعل جلّ أهل إسطنبول . كانت إسطنبول حوالي منتصف القرن العشرين مشدودة إلى تاريخ إمبراطوريّ مفعم بالمجد ، ومجتمع دنيويّ يرى مستقبله في نموذج الحداثة الغربية ؛ إذ كانت المدينة طوال ألف وخمسمائة سنة عاصمة لثلاث إمبراطوريات كبرى ، وتعاقب عليها نحو مئة وعشرين بين إمبراطور وسلطان ، وفيها كانت تصاغ الأحداث الكبرى في التاريخ ، ثم فجأة انهار كلّ هذا المجد بانتهاء الإمبراطورية ، وظهور الدولة القومية التي رسمت صورة قائمة للماضي ، وأخذت بمقترح غربيّ للتحديث ، لكنّ الذاكرة الجماعية ما زالت نابضة بالأمجاد ، فوقع تضارب بين الماضي والحاضر ، وارتسمت الحيرة في أعماق المدينة وفي أعماق الكاتب على حدّ سواء . لم تتركس الدولة العلمانية اهتماماً جدّياً بالماضي ، إنّما اعتبرته عائقاً أمام تطلّعاتها الحديثة ، وأصبحت إسطنبول بإرثها الرمزيّ موضوعاً لكلّ ذلك ، وهو ما استأثر بشغف باموك .

انحدر باموك من عائلة ميسورة الحال كانت تقيم في قصر حجريّ كبير يعود إلى الحقبة الأخيرة من تاريخ الإمبراطورية العثمانية ، لكنّ الأسرة قبل عام من ولادته في منتصف ليلة السابع من يونيو/حزيران ١٩٥٢ اضطرت إلى تأجير القصر المنيف ، وابتناء منزل مجاور بخمسة طوابق ضمّ كلّ أفراد الأسرة : الأجداد والآباء والأحفاد . ولئن كان مخيال الأسرة طافحاً بأمجاد العصر الإمبراطوريّ ، فإنّ سلوكها اليوميّ راح يزيّف لها قطيعة معه ، فتبنّت ضرباً من الحياة الحديثة مستعاراً من الطراز الغربيّ ، وللتعبير المبهم عن هذه الحيرة وضع بيانو في كلّ طابق حيث تطوف الذكريات القديمة في جنبات المنزل الحديث .

ولكن لم يعزف أحد من أفراد الأسرة على أيّ بيانو في تلك الطوابق الخمسة ، حتى ظنّها باموك حوامل لصور الماضي الذي تلاشى إلى الأبد . وكان هذا مثار أسى بالنسبة له ؛ فقد تعارضت دلالات الزمان والمكان في البيت ، فالتصميم الحديث للبيت لم يحل دون العلاقات التقليدية بين أفرادها ، حيث تبوّأت الجدة المكان الأوّل في الهرم العائليّ ، وللاحتيال غير الواعي على حال ملتبسة ومنقسمة على ذاتها ، فقد امتلأت طوابق المنزل بخزفيات صينية وفناجين شاي وفضيّات وعلب سعوط وكؤوس من الكريستال وأباريق لمياه الزهر وأطباق ومباخر ، وجميعها لم تلمس ، فضلاً



عن مناضد مزخرفة بالصدف لا يجلس عليها أحد ، ورفوف للعمائم لم يكن عليها أيّ عمامة ، وستائر من القماش الثمين لا تستر شيئاً يختبيء وراءها . وقد غطى الغبار زجاج المكتبة الوحيدة في المنزل ، فلا غرابة أن يحسّ الطفل أورهان بأن «هذه الغرفة ليست مفروشة للأحياء بل للأموات» . ويعود ذلك إلى أنّ غرف البيت أثّرت وكأنّها متاحف صغيرة ، «لتظهر للزائر المفترض أنّ لأهل البيت ميولاً غربيّة»<sup>(١)</sup> .

من الصعب قبول الانتقال السريع من علاقات تقليديّة إلى أخرى حديثة ، فالمدن الكبيرة لا تتيح ذلك ، والأصعب استبدال سلوك يوميّ بأخر جرى اعتباره قديماً وغير ملائم ، فقد أحدث هذا التصميم الغربيّ للمنزل معاناة عند أفراد الأسرة ؛ إذ كانوا يفضلون الأرائك والمخدّات على المقاعد الوثيرة ، لكنّه الذوق المستعار الذي يتعارض مع التركة التاريخيّة كي يستجيب لشروط الثقافة السائدة ، وسرعان ما أدرك أهل البيت «أنّ التغريب هو التحرر من قواعد الإسلام» ، وسوى ذلك «لم يكن أحد على يقين من فائدته في أيّ شي آخر» . لم يقتصر ذلك على إسطنبول وحدها ، إنّما شمل تركيا طوال النصف الثاني من القرن العشرين ، وقد استعاد باموك ذكرياته عن منزل عائلته بوصفه متحفاً للأثريّات وليس مكاناً للحياة ، فتحدّث عن صور الأشخاص الذين تناثروا ، ولكنّه لم يتحدّث عنهم ، ولم تُعرف مصائرهم . وقد صدر قرار عائليّ مهمّ ، «لا تنقل صورة أبداً بعد أن تحتلّ مكانها في المتحف»<sup>(٢)</sup> .

مارست جدّته دور الإمبراطورة في تنظيم شؤون البيت ، وتوزيع الأثاث وتحديد مواقع الصور وتحديد نظام التواصل والعلاقات . وكانت تعيش في حداد دائم ، وتحدّث إلى الجميع وكأنّها في سبيلها لتأسيس «أمة» . كانت ترغب في مواصلة الحياة ، لكنّها تتوق إلى أسر لحظات الكمال . تريد أن تستمتع بالمألوف لكنّها ما زالت تتعثر بالمثاليّة الموروثة . وقد وجد باموك أنّ حياة أسرته قد أطرت في برواز ، وأنّ الحياة خارج ذلك الإطار أمتع . ومع ذلك لم يحجب ذلك الانتظام القسريّ لحياة العائلة الحقيقة المرّة التي نخرت في التماسك الإمبراطوريّ ، إنّ ركام من التنازعات والاتّهامات المتبادلة حول الأملاك والثروة ، فكان أن ارتسم تفكّك عائليّ مناظر لتفكّك الإمبراطوريّة .

(١) م . ن . ص ١٠

(٢) م . ن . ص ١٤

ركّز باموك اهتمامه على فكرة انهيار الإمبراطورية في كناية مجازية عن انهيار الروابط التقليدية في عائلته . أوليس من العجب أن يكون قصرهم الحجريّ الذي انتهى مؤجّراً في الخمسينيات كمدرسة خاصّة قد بني في الأصل في حديقة رئيس مجلس الوزراء خير الدين التونسي؟ وقد آل الأمر بالعائلة إلى أن تسكن عمارة حديثة بجوار ذلك القصر ، لكنّها لم تزل حائرة بين تحديث عامّ ومحافظة رمزيّة ، وقبّض لها أن تكون شاهد عيان على انهيار مرحلة القصور ، فحاولت أن تحافظ على اتزانها في عالم شرع يستبدل بالقديم كلّ جديد ؛ فشروط الجمهورية العلمانية غير شروط السلطنة الدينيّة ، « كانت سوداوية هذه الحضارة المحتضرة تحاصرنا ، وكلّما عظمت الرغبة في التغريب والتحديث ، عظمت الأمية البائسة في التخلص من كلّ الذكريات المريبة كما الإمبراطورية المنهارة»<sup>(١)</sup> . ولا عجب حينما يقول باموك إنّ بيتهم كان متحفاً ، وكأنّهم لغة أثرية جيء بها من التاريخ .

راحت إسطنبول تتباهى بحزنها وسوداويّتها ، فلم تبق قلباً لإمبراطورية ، إنّما أصبحت شاهداً حياً على رجل مريض ، طال احتضاره ثمّ انتهى أمره . وللتخلص من عار الماضي جرّدت إسطنبول من أهميّتها ، وأصبحت لا تصلح لأن تعتصم بها البلاد ، كما كان ذلك خلال الحقب الرومانية والبيزنطية والعثمانية . أصبحت مدينة بدرجة ثانية ، فخيم عليها الحزن ، وارتسمت الكآبة وكأنّها مدينة حداد . صارت مدينة رمادية فحمة لا تعرف للفرح معنى ، « لا نرى في إسطنبول ما نراه في المدن الغربية ، حيث تحفظ بقايا الإمبراطورية العظيمة كمتاحف للتاريخ وتعرض بزهو . يواصل أهل إسطنبول حياتهم ببساطة بين الخراب»<sup>(٢)</sup> .

أصبحت إسطنبول موضوعاً للانتقام من الإمبراطورية ، فقد وقع إهمالها ، واندلعت فيها الحرائق ، وخربت معالمها القديمة ، وكأنّها عار يذكر بحقبة مخجلة . تصلح أن تكون إسطنبول علامة دالة على مصائر المدن الكبرى التي تحمل على كاهلها كلّ من تركة الأجداد ، وآمال الأحفاد .

---

(١) م . ن . ص ٣٢

(٢) م . ن . ص ١١٦

## الفصل الثالث

### السرد والاعتراف وإعادة تعريف الهوية



## ١. مَنْ يَجْرُو عَلَى الاعتراف؟

في خريف عام ٢٠٠٦ ألقى الروائي التركي «أورهان باموك» بمناسبة فوزه بجائزة نوبل كلمة اختار لها عنواناً جذاباً ومثيراً «حقيبة أبي»<sup>(١)</sup>، حاول فيها رسم هويته الكتابية، وبيّن فيها صلته الرمزية بأبيه، من خلال التركيز على محتويات حقيبة تركها لدى الابن «قبل وفاته بعامين، أعطاني أبي حقيبة صغيرة مملوءة بكتابات، مخطوطاته ويوميّاته، وعلى طريقتة المعتادة في المزاح والسخرية أخبرني إنّه يريدني أن أقرأها بعد رحيله، وهو يقصد موته». كان أبي يبحث عن مكان يضع فيه الحقيبة، يتردد جيئةً وذهاباً مثل رجل يودّ التخلص من عبء يؤلمه. وفي النهاية وضعها بهدوء في زاوية متوارية. كانت لحظة مخجلة لم ينسها أيّ منّا أبداً.

نُسيت حقيبة الأب حيث هي، فلا حاجة للابن برؤية ما تحتويه ما دام الأب حياً، فكان فتح الحقيبة يضمّر رغبة الابن في موت الأب، وذلك أمر شائن يصعب قبوله، ويخرّب العلاقة المتخيّلة بين الأبوة والبنوة. لم يفكر الابن بذلك، وربما لم يرغب فيه فسكت عنه، ولكن «بعد أن توفي والدي، قضيت عدّة أيّام أمرّ إلى جانب الحقيبة، أجيء وأذهب دون أن ألمسها». ذكر أورهان سبباً غير مقنع لترك الحقيبة في مكانها، «أول الأسباب التي أبعدتني عن محتويات الحقيبة هو بالطبع خوفي من ألا أعجب بما سأقرأ».

لكنّه استدرك معدّلاً مضمون الاعتراف، وهو على قناعة بأن الآخرين لن يشاركوه فيما زعم، «كان خوفي الحقيقيّ، الشيء الحاسم الذي لم أكن أودّ أن أعرفه أو أكتشفه، هو احتمال أن يكون أبي كاتباً جيّداً. لم أستطع فتح حقيبة أبي لأنني كنت أخشى ذلك. بل أسوأ من ذلك، لم أستطع أن أعترف بذلك الخوف بيني وبين نفسي. فلو تحقّق خوفي وخرج أدب عظيم من حقيبة أبي، فإنّه كان لزاماً عليّ أن أعترف بأنّه داخل أبي كان يكمن رجل مختلف تماماً. وكان ذلك احتمالاً مرعباً، لأنني حتى مع تقدّمي في العمر كنت أريد لأبي أن يبقى فقط أبي، وليس كاتباً».

١. أورهان باموك، حقيبة أبي، ترجمة سعد البازعي، جريدة الرياض، ٢٠ و ٢٧/٣/٢٠٠٨

لا يريد الابن نظيراً له في الكتابة إنما يريدُه أباً فحسب ، وكانت علاقته بأبيه شائكة ، وقد خصّه بصفحات كاملة من كتابه «إسطنبول : الذكريات والمدينة» .

كان الأب أشبه ما يكون برحلة مغامر لا يعير اهتماماً كبيراً للحياة الأسرية ، فلا يلبث أن يسافر إلى خارج البلاد كلما حلّ فيها عائداً من سفر ، وقد جعل الأدب في رتبة ثانية بعد حياته الخاصة ، وهذا سبب كافٍ لجعله مخيفاً بالنسبة للابن الذي يرى «أنّ بداية الأدب الحقيقي هي رجل يغلق على نفسه الباب في غرفة مع كتبه» . اعتقد الابن أنّه لكي تكون كاتباً ذا شأن ، ينبغي أن تقبّع طوال عمرك بين جدران أربعة تنسج خيوط أسطورة أدبية ، ولأنّ الأب تخطى تلك الجدران برحلاته الكثيرة ، فقد ثلم تلك الصفة المجيدة ، وهي العزلة التي آمن الابن بأنّها السبب الوحيد وراء نبوغ الكاتب . ومع وجود ظلال من الخوف في أعماق الابن من منافسة الأب بوصفه كاتباً ، فإنّ حياة الأب اللاهية رجحت لديه أنّ محتويات الحقيبة مجرد نبد من أسفار ، وشذرات متناثرة من يوميّات ، ومقاطع متفرقة من تأملات ، وبمجموعها لا يمكن أن تجعل من الأب نداً أدبياً للابن ، فيحسن أن تظلّ مقفلة في زاوية الغرفة .

اعتكف الابن في غرفة مغلقة ليكتب رواياته ، فيما كان الأب يسافر من أجل أن يكتب انطباعاته وملاحظاته ومذكراته ، مودعاً إيّاها في حقيبة مقفلة . لا فرق في نهاية المطاف بين الاثنين ، فكلّ منهما يخفي نفسه أو تجاربه في مكان بعيد عن الأنظار . يعيش الأوّل حياة معلنة ، ثمّ يطمر تفاصيلها في حقيبة يدوية ، ويعيش الثاني حياة سرّية ، وينشر تخيّلاته على الملأ يكتب مطبوعة . ثمّة حامل للتجارب سواء أكان حقيبة أم كتاباً ، وكما أنّه يحتمل ألاّ تفتح حقيبة الأب ، فليس من اللازم أن تُقرأ روايات الابن .

لا يريد الابن الاعتراف بخطئه ، وهو ينسج رواياته معتكفاً ، لكنّه تجاسر وفضح خطأ الأب ، «حين أرسلت نظراتي إلى حقيبة أبي ، بدا لي أنّ ذلك هو ما سبّب انزعاجي . أحزنني أن أرى أبي يخبئ أفكاره العميقة في هذه الحقيبة ، أن يتصرّف كما لو أنّ العمل كان ينبغي أن ينجز سرّاً ، بعيداً عن أعين المجتمع والدولة والناس . ربّما أنّ هذا كان السبب الرئيس خلف شعوري بالغضب من أبي لأنّه لم ينظر إلى الأدب بالجدية التي نظرت بها» . لا تبدو الحجّة قويّة ولا متّسقة مع نفسها ، فالابن نفسه كان منزوياً في غرفة يعمل ليلَ نهارٍ على أن يكون كاتباً .

حدث كلّ ذلك والحقيبة مركونة إلى جوار الابن ، ولم يجرؤ على فتحها ، ثمّ

فجأة اكتشف الأمر ، « حالما فتحتُ الحقيبة استعدت رائحة الرحيل فيها ، تعرّفت عدداً من اليوميات . كان معظم اليوميات التي أخذتها بيدي ضمن ما كتبه حين تركنا إلى باريس في شبابه . كنت أتمنى أن أعرف ما كتبه أبي وما فكر فيه حين كان في عمري حينئذ . ولم يمضِ وقت طويل قبل أن أدرك أنني لن أجد شيئاً من ذلك . ما أزعجني أكثر من غيره كان عثوري هنا وهناك في اليوميات على صوت الكتابة لديه . لم يكن ذلك صوت أبي ، قلت لنفسي ؛ لم يكن صوتاً حقيقياً ، أو على الأقل لم تكن له صلة بالرجل الذي عرفته أباً . تحت مخاوفي ألا يكون أبي هو أبي عند الكتابة ، كان ثمة خوف أعمق : الخوف ألا أكون في أعماقي أصيلاً ، ألا أجد شيئاً جيداً في ما كتبه أبي ، كل ذلك زاد من مخاوفي من أن أكتشف أن أبي وقع تحت تأثير هائل لكتاب آخرين ، وأن أهوي نتيجة ذلك في حالة من اليأس التي عانيتُها بشكل سيئ حين كنت شاباً ، على النحو الذي أثار الأسئلة حول وجودي نفسه ، رغبتني في الكتابة وما أنتجته » .

ظنّ الابن أنه من الخطأ أن يكون امتداداً لأب كاتب وقع تحت تأثير كتاب آخرين ، فهذه سلسلة مزعجة من التأثيرات التي تُخفي موهبة الابتكار وتعوقها ، ولهذا رغب في أن يكون أبوه أباً فحسب ، كي تبدأ الأمور به ، أي بالابن . هذا شعور نفسي خطير عالجُه من قبلُ فرويد بطرحه فكرة « قتل الأب » ، أي عدم امتلاك الهوية الناجزة بوجود تبعيّة تربط الابن بأبيه . خالَج الابن هذا الشعور ، فظلّ يحوم حول فكرة الأب ، وحول الحقيبة المقفلة ، فهو لا يريد أن يعترف بقيمة محتوياتها ، ولا بأهميّة كاتبها . وبعد تردد أقرب منه للتكاسل فتح الحقيبة ، « قرأت المخطوطات واليوميات القليلة ، فما الذي كتب عنه أبي ؟ أتذكر بعض المشاهد القليلة التي رآها من شبابيك الفنادق الباريسيّة ، بعض القصائد ، المفارقات ، التحليلات » .

تحقّق ما رغب الابن فيه . هنالك عزوف لا يكافئ حال الترقّب المتصاعدة التي لازمت الابن تجاه الحقيبة ، ولأنّه خُذِل بتركة أبيه ، وهو ما كان قد رغب فيه ، وخان الاتفاق الضمنيّ حول عدم الإطّلاع عليها إلّا بعد وفاته ، فقد وارب في قول الحقيقة ، بل كذب ، « لم أخبره بأنني فتحت الحقيبة وحاولت قراءة محتوياتها ؛ بدلاً من ذلك نظرت جانباً ، ولكنّه فهم . تماماً كما فهمت أنّه فهم . ولكنّ كلّ هذا الفهم وصل إلى أقصى نقطة في ثوان ؛ لأن أبي كان إنساناً سعيداً ومرحاً وواثقاً من نفسه ، ابتسم لي بالطريقة التي يبتسم بها دائماً . وأثناء مغادرته البيت كرّر الأشياء الحلوة

والمشجعة التي كان دائماً يقولها بوصفه أباً». واضح أن الأب كان أكثر ثقة بنفسه من الابن؛ إذ غفر الخطأ وتخطّاه، ولم يجعل فكرة جودة الأدب حاكمة على العلاقة بينه وبين ابنه. لم يرد الابن أن يعثر في الحقيقة إلا على ما كان يتخيّله ويريده، وبذلك تأكّد من أنّه غير موصول بنسب كتابيّ ذي شأن، فقد كان أبوه مشروع كاتب لم يحالفه الحظ، أمّا الابن الذي انكبّ على تنقيح موهبته بصرامة كاملة، فقد تحقّق له ما أراد.

ربّما تكون «حقيبة الأب» كناية عن حافز مضمر رُكن في زوايا مكتبة الابن طويلاً، وفي وقت متأخّر دفعه الفضول لرؤية ما تحتويه، وربّما تكون رمزاً لعبء الأبوة التي يتجنّب فتحها كثير من الأبناء إلا بتأفّف، كيلا يعترفوا المديونية لأبائهم. وربّما يضمّر الأبناء كراهية لفكرة الاستمرارية عبر فكرة الأبوة، ويريدون أطرادها عبر البنوة. لم يشر أورهان إلى أبنائه، إنّما أشار إلى كتبه، ففيها انتسابه اللاحق، ومنها ينبغي أن تبدأ الأشياء المهمة، وفي هذه الحال ينبغي قطع دابر الأبوة.

عبر الكتابة أقام الروائيّ حواراً متعدّد المستويات مع نفسه ومع مجتمعه، ومع العالم. ليس له طريقة للحوار مع الذات والآخر إلا من خلال رواياته، ففيها تقبّع رؤاه ومواقفه وتجاربته وتأمّلاته وتخيّلاته، ولا يشفع لباموك اختزال أسباب الكتابة إلى مواقف شخصيّة عارضة تتصل بالغضب أو الاسترضاء، أو الرغبات العابرة أو ملء الفراغ أو الانخراط في كتيبة المؤلّفين أو إنتاج الكتب، فقد أصبح الروائيّ باحثاً عن موقعه في العالم، وموقع الثقافة التي يمثّلها، وقد شغل هو نفسه بهذا الموضوع، وانخرطت رواياته في الجدل الخاصّ بهويّة تركيا، وهي تعيد تعريف نفسها بين إرث إمبراطوريّ ثقيل من جهة، ودولة علمانيّة تبحث لها عن موقع في خريطة العالم المعاصر من جهة ثانية، ناهيك عن الصراعات العميقة في بنية المجتمع التركيّ حول الأقليات والمعتقدات والحريّات والهويّات والانتماءات الثقافية.

أرجّح أن باموك صمت عن السبب الرئيس للكتابة بوصفها حواراً وبحثاً واعترافاً وإعادة للتعريف بالهويّة، فنقّب عن لا شيء في حقيبة فارغة من أجل إبعاد تأثير الأب، واقترح انتساب بديل. فاقترح هويّة كتابيّة ضمن أفق ثقافيّ خارج نطاق الأبوة. هذا أمر مهمّ جداً على المستوى الأدبيّ، لكنّه شديد الأذى على المستوى الشخصي؛ لأنّه الخطوة الأولى في منطقة الاعتراف.

جرّو باموك على تقديم اعتراف مزعج كشف فيه معنى الهويّة من خلال المكان،



أي بالتأكيد على الصلة بين المكان بوصفه فضاء اشتياق مفقود ، والسرد باعتباره وسيلة تمثيل لتجربة شخصية ، ثم قيّد تجربته بحقيقة أبيه وبمكتبته وبإسطنبول ، إنّها هُويّة تبدأ بحقيقة وتنتهي بمدينة وموضوعها التاريخ ، وهذا اعتراف يضمّر الانزلاق إلى منطقة وعرة يشيخ بوجوههم عنها كثير من الكتاب ، فهو عبر الوصف المجازي لحقيقة الأب ، طرح قضية أبوة الأدب الغربي ومركزيته ، وموقع الرواية خارج ذلك النطاق ، ورسم حدوداً لهويّته عبر اعتراف كنائي . وقد أغضب باموك كثيراً من الأتراك حينما عرض تمثيلاً سردياً مركباً لهويّة بلاده ، وقلّب بعض المرويّات حول مذابح الأرمن ، وأشار إلى التركية التاريخية الثقيلة التي تلوح في الذاكرة القوميّة ، وتتدخل في تحديد مستقبلها .

بنى الكاتب بالسرد الاعترافيّ تاريخاً مستعداً لتجربة شخصية ، أو مكاناً أصبح ذكرى ، أو إنّ أعاد ترميم عالم في طريقة للزوال ، وكلّ ذلك جرياً وراء فكرة المعنى من هذه المغامرة التي اختارها أو دفع إليها . وكما يقول «جورج ماي» : الباعث وراء ذلك «حاجة المرء إلى العثور على معنى لحياته المنقضية أو على إعطائها شكلاً مخصوصاً»<sup>(١)</sup> .

## ٢. السرد والتشرد والافتقار:

البحث عن معنى لحياة انقضت موضوع ملازم لأدب الاعتراف ، وحينما يصل القارئ إلى الصفحة الأخيرة من كتاب «عراقيّ في باريس» لـ«صموئيل شمعون»<sup>(٢)</sup> ، سيكتشف عمق الارتباب الذي لفّ مصير المؤلف ، وهو يسعى للعثور على تعريف لهويّته السردية ، فقد ارتحل من العراق إلى أميركا ، يروم الوصول إلى هوليوود لصنع فيلم عن أبيه الأبكى والأصم «كيكا» ، ولكنّ ثمّة قطباً آخر اجتذبه ، فهو يريد أن يكون ذلك الفيلم بعنوان «الحنين إلى الزمن الإنجليزي» ، فعبر الكاميرا الأميركية تطلّع إلى تحويل ذكرى الأب إلى صورة إنجليزية . وفي سعيه المحموم لربط الحلم الشخصي بذكرى الأب ، علق صموئيل في منطقة ثالثة هي فرنسا ، فانتهى متشرداً في

(١) جورج ماي ، السيرة الذاتية ، تعريب محمّد القاضي وعبد الله صولة ، بيت الحكمة ، قرطاج

١٩٩٢ ، ص ١٠٦

(٢) صموئيل شمعون ، عراقيّ في باريس ، كولونيا ، دار الجمل ، ٢٠٠٥

باريس . وبدل أن يصل إلى أميركا ، ويعيد إنتاج حنينه للزمن الإنجليزي في العراق ، كتب «عراقي في باريس» وحوّل السيناريو إلى قصّة بعنوان «البائع المتجول والسينما» .

من الطريف أن يحلم المرء بمكان يوفر له استعادة مكان آخر ، لكنّه يسقط في مكان ثالث لم يكن في الحسبان ، فالأمر مربك ، ولكنّ الأكثر إرباكاً هو أن يحمل شخص اسم نبيّ يهوديّ ، ويحلم في أن يكون مخرجاً سينمائياً ، لكنّه ينتهي مشرّداً . ولا تخفى المماثلة بين المؤلّف وكتابه ، فالنصّ مشرّد ، وقد عثر على هويّته عبر الترحّل بين النصوص السردية ، كما هو كاتبه الذي ترحّل بين الأمكنة ، ففكرة الترحّل شملت حياة الكتاب ومؤلفه ، فكلاهما صاغ هويّة مترحلة . ليس الكتاب وصفاً لحياة المؤلّف فقط ، إنّما هو أيضاً وصف لكيفيّة تشكيله ، وليس النصّ وحده خليطاً من كتابات متعدّدة تتصل بهويّات جزئية ، إنّما مؤلّفه أيضاً خليط من شخصيّات كثيرة . إنّنا أمام مزيج من التنوّعات : أزمنة وأمكنة كثيرة ، لغات كثيرة ، بلاد كثيرة ، ونصّ تتزاحم مكوّناته ، فهو ينقض ضمناً فكرة الأبوة في السرد ، وفي التّأليف .

وتحكم الكتاب فكرة الاقتلاع عن التراث السرديّ ، واقتلاع المؤلّف عن العالم الذي يعيش فيه ، وبما أنّنا في مواجهة نصّ مقتلع هو ومؤلفه ، فينبغي أن نترقّب شيئاً مختلفاً . فكرة الاقتلاع مقترنة بأدب المنفى وبالهويّة القلقة ، وأدب المنفى يقوم بمجمله على فكرة الانشقاق عن نسق أيدلوجيّ مغلق أو شبه مغلق ، حيث تتبلور فكرة عدم القدرة على الاندماج ، وهي فكرة تدفع بأدب المنفى إلى منطقة مغايرة لمنطقة أدب الولاء والامتثال .

لكنّ كتاب «عراقي في باريس» لا يعرض دعاوى أيدلوجيّة ، وبراهين رفضيّة ، يتبنّاها منفيّ ، إنّما هو مسار صاعد لحلم فردّي يتشبّه به صاحبه ليحقّق هدفاً تتأكل من حوله أهميّة كلّ الأشياء الأخرى إلّا ذلك الحلم . نعم ، تتعرّض الشخصية لمضايقات كثيرة ، وتتعثّر في مسعاها ، ويُعتدى عليها ، وينحرف مسارها ، لكنّها قابضة على جمرتها ، فلم تعرض تفسيراً أيدلوجياً مقصوداً يحول دون حلمها .

يشغل المنفيّ بالحاجة لإعادة التوازن المفقود ، فقد اجتثّ من عالم ، وحيل بينه وبين إمكانية العودة إليه ، ولهذا يسعى إلى خلق عالمه الخاصّ الذي يتمكّن فيه من ممارسة الدور والنفوذ الشخصيّ ، ولأنّه يصعب عليه ممارسة تلك الحرّية في عالم المنفى

لكونه وافداً وطارئاً عليه ، فسيقوم بخلق عالمه الذهني الخاص به ، ولو عايناً كتاب «عراقي في باريس» في ضوء هذه الفكرة لوجدناه ينقصها ، فالشخصية لا تنتسب إلى جماعة متضامنة ، وهي ترفض أيولوجياً الواقع القائم ، وغير مشغولة بفكرة إعادة التوازن ، إنما هي منجذبة إلى حلم ، وساعية خلفه ، وغير معنية بغيره ، وقد كرّست حياتها من أجله ، فتواتر أهمية الأشياء الأخرى .

من الصحيح أن النصّ تضمّن إشارات متبرّمة ، وهو يصوّر الإقصاء الذي تعرّضت له الشخصية ، لكونها تنتمي إلى الأقلية الآشورية المسيحية في العراق في وسط إسلامي كثيف ، لكنّه محكوم بفكرة الحلم ، ومشمول بها ، وليس بفكرة الرفض والشكوى ، وهذا يدخله جزئياً في أدب اليوتوبيا الذي يسعى إلى بلوغ عالم لم يوجد بعد ، عالم الصورة الملازم لخيال المؤلف والشخصية ، فمن أجل تحقيق هذا الهدف شرع في الترحّل ، وقبّل بفكرة التشرد .

وفي وقت عمّق فيه الكتاب الفكرة الثانية ، فإنّما ليكشف استحالة التخلّي عن الفكرة الأولى ، ولا تني الشخصية تكافح من أجل بلوغ ذلك العالم ، ولهذا لا نجد حينئذٍ إلى الماضي ، ولا نعثر على شيء من الحسرات والعبرات ، وإنّما نلمس دفْعاً متواصلاً صوب المستقبل ، ولو حدث وانكفأت الشخصية وتراجعت وانكسرت ، لأصبحنا في خضمّ حكاية تراجيدية حيث يصبح الحاضر سيئاً ، فينبثق الحنين إلى الماضي الجميل ، فيظهر التعارض بين عالمين وفكرتين ، وتبدأ المقارنة والمفاضلة ، وينزل الكتاب إلى منطقة الحزن والذكرى ، ويفقد مفهوم الهوية معناه الثقافيّ .

لا تنتمي الشخصية المقتلعة في هذا الكتاب إلى مكان ، إنّما تسعى وراء طيف ، ولهذا لم يجرِ الحديث عن هوية ثابتة للشخصية ، إنّما جرى الحديث عن حالات تخصّها ؛ إذ تتغيّر أسماؤها «جويي ، سموئيل ، صموئيل ، سام ، سامي ، العراقيّ الضائع ، والآشوريّ الحزين ، والمشرّد ، والنحس ، والصعلوك الأميركيّ ، وبوليرو ، والدوماتشيوتي . الخ» . ويتغيّر اسم الأب «كيكا ، شمعون ، الأخرس ، الأطرش ، الأبكم ، الفران ، السكير . الخ» . وتتغيّر الأمكنة «العراق ، سوريا ، لبنان ، الأردنّ ، قبرص ، مصر ، اليمن ، فرنسا . الخ» . وتتعدّد لغات النصّ «عربية ، آشورية ، فرنسية ، إنجليزية ، ألمانية . الخ» . وتتعدّد علامات التواصل «الحوار ، الإيحاء ، الصورة ، الإخبار . الخ» . على أنّ الحلم ظلّ متماسكاً ولم يتصدّع . وهذا التعدّد في التسمية ينتهي بالشخصية إلى شفا المجهولية ، فكثرة التسميات ورغبة الارتحال وراء صبوة ،

تُسقط الشخصية في هوة العتمة .

في هذا النوع من الكتابة ليس من الصحيح البحث عن مركز ولا عن حبكة . فلكي تتسق فكرة الاقتلاع مع فكرة الحلم لا بدّ من تقوية النبض الحالم للشخصية ، وعلى هذا فجدوة الحلم لا تنطفئ . ولا حاجة إلى التفكير بقضية الانتماء ، فالشخصية ليست في حال صراع مع ذوات أخرى ، إنّما هي موشور يمر الآخرون من خلاله ، فتعكس ظلالهم المضخمة على خلفية من عدم اليقين ، وربما السقوط في هوة العدمية ، فالرؤية السردية محايدة ، والشخصية لم تعلن عن تدمر فكري من التنكيل الذي لحق بها جرّاء تشرّدها ، فكأنّه وقع لغيرها ، والصعاب ترتسم كصورة لا عمق لها ، وتقرّ كمشاهد سينمائية دون أن يراد منها استخلاص موقف سوى تحقيق الحلم .

تأسّس الحلم في أعماق الشخصية قبل أن تعي شروطه ومستلزماته ، فهي تريد الوصول إلى هوليوود ، لكنّها تجهل الوسيلة لتحقيق ذلك ، وبمضيّ السرد تتضاعف الرغبة ، وتتضاعف معها الصعاب ، والحالم ينتهي إلى عدم التفكير بظفر أيدلوجيّ لكي يدعي أنّه حقّق مبتغاه ، لأنّ فكرة الحالم في أساسها منبثقة من سياق رغبة أكثرّ ما هي مدفوعة بحاجة . ولهذا فالإمعان في تفصيل حالة التشرد في باريس يراد منها الإبقاء على الجدوة الملتهبة ، وليس تبرير الإخفاق . ويختم الكتاب دون أن ينتهي سعي الحالم .

لسنا إذن أمام نصّ مشغول بخبرة مؤلّف مجيد لصنعتة السردية ، فلا ذروات ولا خواتم ولا حبيكات ولا نموّ في الأحداث ، إنّما داخل الإطار السرديّ للكتاب خليط من نصوص مترافقة بعضها يقدّم بعضاً ، وبعضها يفسّر بعضاً ، وممتنه المكرّس لتصوير حالة التشرد يقوم على نصوص نُصّدت لتبعثر فكرة التماسك التي نجدها عادة في كتب السرد ، فهي لا تعكس نموّاً في الأحداث ، ولا تطوّراً في وعي الشخصية ، ولا تبلور موقفاً ، بل تهدم كلّ تلك المسلّمات المرافقة للسرد التقليديّة ، وهذه التقنيّة السينمائية في السرد - والمؤلّف شغوف بها- تضع المتلقّي أمام تقرير يسبب الصدمة ، وربما الاقشعرار والدوار لجرائته في الاعتراف ، ومباشرته وحيويّته وقدرته على تعميق المفارقة ، دون التركيز على تجربة الألم .

وتنزع هذه المزايا المبتكرة أهميّة العناصر التي يتوقّع القارئ وجودها بأثر من ترسّخ معايير التلقّي التقليديّ ، إنّّه قد يفاجأ بنصّ مسطّح لا عمق له ، نصّ وصفيّ يلهث

يلتقط المسار العابر لشخصية هامشية ، لكنه سرعان ما يتقبل ذلك ، ويتفاعل معه ؛ لأن النص في خلاصته النهائية يزدرى العمق الخادع في الكتابة ، ويربط نفسه بالممكنات والاحتمالات والمراثيات ، فيسهم في تعميق أهمية أدب الصورة ، ويندرج في عالم النصوص البصرية .

غاب العمق الحكائي في النص لأن عناصر السرد متناثرة ، فكل تقرير وصفي ينبغي عليه أن يتنكب لشروط السرد التقليدي ، ويقترح سرداً جديداً ، ولهذا نجد مزجاً بين الإخبار عن شيء ووصفه . لقد ألغى الكتاب العقد الضمني بين المؤلف والقارئ ، وحررهما من قيود التلقي المعروفة ، وبكل ذلك استبدل نصاً يتأرجح بين أدب اليوتوبيا وأدب الاعتراف وأدب الشتات ، لكنه نص إخباري متوهج بالقوة ، يدور بالقارئ في المدن والشوارع والحانات بسرعة خاطفة ، دون أن يعنى بالتفسير والتأويل ، ولا يأبه بأية عبرة ، والجزء الأكثر إثارة فيه تلك النبذ النصية المتناثرة التي تصوّر الشخصية هائمة في أزقة باريس وطرقاتها وحاناتها وفنادقها ومقابرها ، حيث تنبثق الفكاهة والسخرية من خضم متاهة ليلية ، وماراثون لا نهائي .

### ٣. طقس التحول وضرورة الاعتراف:

ولعلّ التحول هو أحد العلامات الفارقة في أدب الاعتراف ، وبعدّ الختان في الثقافات الدينية طقس عبور من حال إلى حال أخرى ، وهو نوع من إعادة تعريف الهوية ، والانتماء إلى جماعة . وفي اليهودية والإسلام يعدّ الختان انتقالاً من النجاسة إلى الطهارة ، فيما يؤدي في المسيحية وظيفة معاكسة ؛ لأنه نوع من التدخل في إرادة الخالق ، وانتزاع ما أوجده الله في الإنسان . ويوجد نزاع ثقافي حول موضوع الختان لدى كثير من المجتمعات والشعوب . والنظرة إلى الأقف هي غير النظرة إلى المختون . وفي العربية إنّ الفعل «قَلَفَ» يعني نزع واقتلع واجتث ، فالقلفة علامة بقاء وثبات ، وصاحبها يكاد يكون غفلاً وساذجاً .

وفي الثقافتين الإسلامية واليهودية يعدّ الأقف غير مؤهل للانخراط في الجماعة ، وبالأقف يبدأ الانتماء إلى الجماعة الكبرى ، فانزعاق القلفة علامة انتماء ، أمّا في المسيحية فيقتلع المرء من عقيدته باقتلاع تلك الفضلة . تسمّى تلك القطعة «القلفة» و«الغلفة» وتسمى في العبرية «الغرلة» . وكانت فكرة الختان مرتحنة بوعد ، فأول من قام بها النبي إبراهيم الذي ختن نفسه ، كما تقول المرويات اليهودية ، وهو

في التاسعة والتسعين من عمره . ويختلف المسلمون على ذلك العمر ، ويجعلونه بين ثمانين ومئة وعشرين سنة ، فطبقاً للتوراة «سفر التكوين» فإنّ الرب وعد إبراهيم ونسله بأرض كنعان ، وهي «الأرض الموعودة» إنّ بتر غرلته ، وغرلة كل ذكر من نسله<sup>(١)</sup> .

جاء وعد الله لإبراهيم صريحاً في «سفر التكوين» ، وقد رهن بالختان ، «ولما كان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لإبرام وقال له : أنا الله القدير . سر أمامي وكن كاملاً . فاجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيراً جداً . فسقط إبراهيم على وجهه . وتكلم الله معه قائلاً : أمّا أنا فهو ذا عهدي معك وتكون أباً لجمهور من الأمم . فلا يدعى اسمك بعد إبراهيم بل يكون اسمك إبراهيم . لأنّي أجعلك أباً لجمهور من الأمم . وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمّاً . وملوك منك يخرجون وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً . لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك . وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً . وأكون إلههم . وقال الله لإبراهيم وأمّا أنت فتحفظ عهدي . أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم . هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك . يختن منكم كل ذكر . فتختنون في لحم غرلتكم . فيكون علامة عهد بيني وبينكم . ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر في أجيالكم . وليد البيت والمبتاع بفضّة من كل ابن غريب ليس من نسلك . يختن ختناً وليد بيتك والمبتاع بفضّتك . فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً . وأمّا الذكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها . إنّّه قد نكث عهدي» .

كل من يقبل عهد الله ينبغي أن يدمغ بعلامة أبدية ، ويجب عليه أن يحمل بدءاً من تلك اللحظة ، كما يقول رينهارد لاوت «علامة ظاهرة لا تُمحي في جسده ، هي الختان . تضعه بداية هذه المرحلة في حياته في علاقة طاعة خاصّة ودائمة وعلاقة حماية مع الله الأسمى ، إله السماء ، كلّ القدرة ، وتميّزه عن باقي البشر» ويمضي كاشفاً مضمون عهد الله لإبراهيم ، وما يترتب عليه من ضرورة الهجرة من مكان إلى آخر ، «وجد العهد منذ اللحظة الأولى من تحقيقه نقطة مرساته في الختان ، ومن ناحية أخرى وجد الختان مكانه الطبيعيّ في ذريّة إبراهيم الجسدية . ومع ذلك

---

(١) سامي الذيب ، ختان الذكور والإناث ، دمشق ، دار الأوائل ، ٢٠٠٣ ص ٣٦ .

فإنّ العلاقة الطبيعيّة التي أقيمت بهذا الشأن هي علاقة مختلفة في الأساس عن العلاقة الطبيعيّة . فلاوّل مرّة يظهر ترابط وتظهر صلة تحلّ محلّ الأوصال الطبيعيّة . ولا شكّ في أنّ إبراهيم كان واعياً وعياً كاملاً بهذه الخصوصيّة ؛ فنراه يُدخل الختان بالفعل في فترة من فترات حياته إذ كان له ابن طبيعيّ وبالتّالي نسل أيضاً . فلو أنّه فهم العهد والوعد بالمعنى الطبيعيّ فقط ، لما كان من الضروريّ أبداً أن يكون الختان . ولكنّ كونه أُدخل كختم لعلاقة فوق طبيعيّة رغم ذلك ، فإنّ هذا خلق نظاماً روحياً فوق النظام الطبيعيّ ، كما سيكون ذلك بواسطة المسح والمعموديّة . إنّ الختان تمثّل لهجر شعار الوطن الطبيعيّ ، واختيار حرّ لأرض جديدة»<sup>(١)</sup> .

كان مضمون عهد الله الإيمان والطاعة ، لكنه انطوى على مكافأة عظيمة . فقد كان «إبرام» مجرد أب رفيع المقام ، وبالعهد تحوّل إلى «إبراهيم» فأصبح بذلك أبا لأُم كثيرة ، وثمن الانتقال من الحال الفردية للاسم إلى الحال الرمزية له هو الوفاء بعهد الله ، وعلى هذا اقتلع غرلته بسيف طامعاً بوطن بديل ؛ إذ كان قد ترك بلاد الكلدانيين ، أي العراق الجنوبي ، باحثاً عن وطن آخر ، فجاء وعد الربّ بأرض كنعان إن هو ختن نفسه وذريّته دلالة على الأخذ بميثاق الله . ولهذه الفكرة صدى يتردّد في كتاب «عراقيّ في باريس» .

لقد عاشت الشخصيّة ضمن مجال إسلاميّ مشبع بقيم الختان بوصفه علامة طهارة ، واسم المؤلّف يحيل على نبيّ يهوديّ ، لكنه مسيحيّ آشوريّ ، وينبغي عليه أن يحافظ على قلفته علامة على هويّة خاصّة في وسط يموج بصراع القيم . لقد كان متصالحاً مع نفسه في نطاق الأسرة الضيق ، وبخاصّة مع الأب الأبكم والأصمّ . وكانت القلفة دليل نقاء وانتماء ، ولكن بنموّه اكتشف رفضاً له في اسمه وقلفته ، وحينما رحل إلى سورياً أصبح الاسم دليل تهمة ، ولكنّ القلفة تدخّلت ، فأصبحت دليل براءة . بعد هذه المرحلة مرّ بارتحال سريع ومتتالية ، وفي تونس وهو في نحو الثلاثين من عمره ، ودون أن يقدّم تفسيراً لطقس العبور ، قرّر ختان نفسه ، وكأنّه مدفوع بنزوة أو رغبة طارئة ؛ إذ اقتاد صموئيل حلاقاً مسلماً متحمساً للقيام بذلك ، أمّا الوعد الذي كان ينتظره فهو الوصول إلى أميركا ، أرض الأحلام الموعودة .

(١) رينهارد لاوت ، إبراهيم وأبناء عهده مع الله ، ترجمة غانم هنا ، دمشق ، خطوات للنشر والتوزيع ،

سكت الكتاب عن فكرة الوعد الأميركيّ، ودفع بها إلى الوراء، ولم يكن الختان من أجل أرض موعودة، ولكن الإيحاء لا ينكر عبر المقارنة؛ إذ على عكس ما وقع لإبراهيم من تقدير؛ لأنّه اقتلع غرلته، أصبح ختان صاموئيل موضوعاً للسخرية من الأصدقاء والنساء، فحاول أن يمّوه على ذلك مدّة من الزمن إلى أن تُشفى جراحته. ومن المفهوم أنّ هذا جزء من سياسات جلد الذات، فالشخصيّة التي تنهار قيمة العالم في منظورها، لا تتردّد في أن تشمل نفسها بالسخرية، ولم يصمد خارج مجال الهزء شيء إلاّ الحلم الأميركيّ المتواري في منطقة خلفيّة. تُفهم الجراحة بالمعنى العميق، أنّها ليست بتر فضلة عضو اتّهم صاحبه بأنّه إمبرياليّ بسبب دينه، إنّما هي القبول بالاقتلاع من عالم، والاستعداد للضياع في عالم آخر، فهي اللحظة الفاصلة بين الانتماء وعدم الانتماء، واستبدال هويّة بهويّة.

كانت القلفة آخر علامة على ارتباط الشخصيّة بالعالم، وبإزالتها اقتلعت من عالم وجماعة مُعرّفين، ورميت في منطقة المجهوليّة الجماعيّة، فلم تعد ترتبط بأيّة جماعة، إنّما لاذت بنفسها وتوغّلت في منطقة الحلم الفرديّ. وكان الصبيّ صاموئيل قد تلقّى تحذيراً إيمائياً من الأب بأنّ المختون نجس، ومفتقر لأهليّة الانتماء الطبيعيّ، وبذلك جرى وصم المختونين قاطبة بالنجاسة لأنّهم انحرفوا عمّا قرّره الطبيعة من تقليد، لكنّ الابن لم يلتزم بوصيّة الأب، فأزال عنه علامة الطهارة الأخلاقيّة وهو على مشارف الثلاثين، فسقط في المنطقة التي حذّره منها الأب. لقد حاز على النجاسة متعمّداً، وبإزالة تلك «الفضلة» انتهكت عذريّته، فلم يبق أعذر، وفارق البراءة، وعاكس قانون الطبيعة، فسقط في المتاهة الكبرى للحياة، حيث لا حدود واضحة بين المتناقضات، لأنّ المتاهة نفسها لا نهاية لها.

تنتمي الشخصيّة إلى الأقلية الآشوريّة. وهنالك اعتقاد راسخ أنّ الآشوريّين هم السكان الأصليّون للعراق، وكلّ الأقوام تعتقد أنّها تتّصل بأصل خالد وعريق، وتؤمن بمرويات خياليّة، ولكنّ المفارقة تلوح حينما تعتقد شخصيّة أنّها عميقة الجذر، فتجد نفسها مقتلعة ومشرّدة. ينبغي ألاّ تغفل منطقة العتمة التي تسقط فيها الأقليات وسط ثقافة غالبية لا تتقبّلها إلاّ على مضض، فشأن الأقليات مرتبط بالمتغيّرات السياسيّة والدينيّة والثقافيّة. في العهد الملكيّ العراقيّ حيث لم تتوهّج بعدُ أيديولوجيّات الكراهية، اعتزّت الأقليات بأصولها، وبتحوّل العراق إلى العهد الجمهوريّ، وظهر ثقافة الكراهية للغرب الاستعماريّ، شملت تلك الثقافة أبناء بعض تلك الأقليات لمشاركتهم



المستعمرين في المعتقد الدينيّ. يتحوّل الأفراد إلى أنماط ويصبحون بعامّتهم خصوصاً ، وربما أعداء . تختزل ثقافة الكراهية الآخر إلى كتلة صماء ، وتعبّر عن نفسها كممارسة ضدّ الأقليات التي تشارك المستعمر بعض معتقداته .

تضيء هذه الخلفيّة مصير الشخصية ، فقد سقط الرصيد الرمزيّ عنها بسقوط الملكية ، وانتهاء الحقبة الاستعماريّة ، وهي معرّضة للانتهاك في أيّة لحظة بعد ذلك ، فقد تبدّدت الحماية ، وأصبحت عارية . كان الأب يخبئ صورة ملكة بريطانيّا في صندوق ، ويبالغ في إخفائها إعجاباً وحباً ، فلكي تعبر عن انتماذك لحقبة انقضت ينبغي أن يكون لك سرّ وعشق ، وإلاّ أصبحت مباحاً . تتسمّى الشخصية باسم نبيّ ، لكنّ ظلال النبوة في عالم متغيّر لا توفر لها أيّة حماية ، إنّما على العكس تسهم في انتهاكها . نُظر إلى صاموئيل في المدرسة بوصفه شخصيّة غريبة وغير مؤتمنة ، وتلك ربّما تكون من تحيّزات الطفولة ، ولكنّه اعتقل في سورياً بظنّ أنّه جاسوس يعمل لصالح إسرائيل ، فالاسم دليل تهمة ، أن يكون اسمك «شموئيل شمعون» فلا بدّ أن تكون يهوديّاً . أُلقي القبض عليه بعد أيّام من وصوله إلى دمشق ، وتعرّض لتعذيب ثمّ استجواب ثمّ إطلاق سراح وتبرئة .

قدمت البراءة من منطقة غير متوقّعة على الإطلاق ، فالضابط المستجوب طلب منه التعرّي كاملاً ، ولما وجد أنّه أقلف ، أطلق سراحه . اقتنع الضابط بأنّه ليس يهوديّاً عراقياً وفد إلى سوريا متجنّساً لصالح إسرائيل ؛ فلا يمكن أن يوجد يهوديّ بقلقة . ولطالما أكّد الأب أنّ كلّ مختون نجس ، ولكنّ القلفة في المعتقل السوريّ أصبحت دليل براءة من تهمة التجنّس التي تماثل في الثقافة الدينيّة المتزمّنة تهمة النجاسة .

أصبحت الطهارة المسيحيّة محلّ تبجيل ؛ لأنّها دفعت الشبهة عن صاموئيل /شموئيل ، لكنّ تلك الجلدة المتدلّية هي الأخرى دليل تهمة في عالم ختن معظم أفرادهم . فقد رحل بفضلته اللحميّة إلى عالم جردّ منها ، وفي تونس قرّر ختان نفسه ، لتوفير إمكانية الاندماج في عالم رافض للقلفة ، وغير معترف بأصحابها ؛ إذ يدعو حلاقاً ممارساً للختان ليقوم بذلك ، «ثمّ باشر الرجل العجوز بختاني دون بنج ، وقد ساعدته في ذلك ، ورغم أنّ العمليّة كانت مؤلمة جداً ، إلاّ أنّني كنت أنظر للرجل وكأنّه يقطع قطعة من جسد شخص آخر وليس من جسدي»<sup>(١)</sup> .

(١) عراقيّ في باريس ، ص ٣٢

أفعم الحلاق بالسعادة لأنه تمكن للمرة الثانية من إهداء ضال إلى الإسلام . وكانت الأولى ختن فرنسي في الثلاثين ، «ها إن الله قد أدخل الإيمان إلى قلبك» . وأضاف الحلاق ، وهو يشعل سيجارة : «أنا سعيد لأنك أصبحت مسلماً على يدي» لكن صاموئيل ، نطق في سياق التندر ، دون أن يدرك العواقب «لم لا أكون يهودياً يا حاج ، اليهود يختنون أيضاً» . سبب ذلك انزعاج الحلاق ، فطلب أجره وغادر مستاءً ، فهمس صاموئيل لنفسه : «لقد قطعت العضو المشبوه والامبريالي في جسدي»<sup>(١)</sup> .

ليس من الغريب أن يحصل صاموئيل على موافقة الدخول إلى الأراضي الفرنسية إثر عملية الختان ، فبعد أن يئس من الاندماج في عالم المحتوين ، استجاب له وامتلث لثقافته ، فإذا به يقتلع ويجد نفسه في عالم ينظر إلى الختان نظرة مختلفة . لا يورد صاموئيل شيئاً عن ذلك في فرنسا إلا مرة واحدة لسبب يتصل بالجراحة لا بالقيم الثقافية السائدة ، ولكن من المفهوم أنه وجد نفسه في عالم تحكمه المفارقة . إن عالماً يفاضل بين أفراد على أساس وجود قطعة لحمية خاملة أو عدم وجودها ليس جديراً بفكرة الانتماء أو الرفض ، إنما الحلم والعمل على تحقيق رغبة . ولكل ذلك صلة رمزية باقتلاع الشخصية عن عالمها . كانت الشخصية قلفاء وبريئة ، وبتحولها إلى مقلوبة فقد اقتلعت ، ورميت في مدار التشرّد .

#### ٤. نزاع الهويات وإعادة تعريفها:

تندرج كتابة صاموئيل شمعون في نمط من الكتابة التي تفضح التهميش عبر الاعتراف الساخر والفكاهة السوداء ، ولكنها كتابة كاشفة لموقع الأقليات الدينية والعرقية ، وفاضحة للتحيزات التي تمارسها ثقافة الأغلبية ضد الجماعات الصغيرة ، وفي السياق نفسه ، وعلى خلفية من التماثل ذاته تقريباً ، قدّم رؤوف مسعد كتابة سردية اعترافية مصممة لنقض تقاليد الكتابة الشائعة في السرد العربي الحديث . أولاً ، لأنه جهر بتجاربه الشخصية معترفاً بها بجرأة نادرة ، وأدرجها في أعماله الكتابية بلا موارد ، فكتابته مرآة لذاته ولرؤيته ولموقعه . وثانياً ، لأنه تقصّد تمزيق البنية التقليدية في السرد ، واقترح كتابة متشظية لا تحترم أيّاً من قواعد السرد المعروفة . وثالثاً ، لأنه تلاعب بالمادة الحكائية ، فجعلها تتأرجح بين حدين غامضين

---

(١) م . ن . ص ٣٢ .

هما التخيّل الروائيّ والتوثيق السيريّ، فأعماله السردية كولاغ يمزج الإعداد المسرحيّ، بالريبورتاج الصحافيّ، بالسيرة الذاتية، وبنترف من اليوميات الاعترافية والمذكرات والتجارب الشخصية، نهل معظمها من تجارب التشرد والنفي والترحال.

وعلى خلفية هذه الألاعيب السردية المبتكرة والمثيرة للدهشة تطرّق مسعد إلى أوضاع المهّمّشين والشاذّين والمضطهدين، ومعظم شخصياته من أصول سودانية تعيش في مصر، ناهيك عن عرض حال الأقليات المضطهدة، ومنها الأقباط في ظلّ تصاعد التأويلات المغلقة للدين الإسلاميّ، الذي تروّج له جماعات دينية تتبنّى مواقف متطرّفة ضدّ الأقليات الدينية، وفي كلّ هذا تتطّلع الكتابة عنده إلى إثارة مشكلة الهوية في عالم يموج بنزاع الهويات. فظهرت المادة السردية تجميعاً وخلطاً للغريب والمثير، فهي تقوم على المتناقضات المثيرة، وتستدرج مواقف تخصّ اليسار المصريّ على المستوى السياسيّ، ومصير الأقباط على المستوى الدينيّ، والاستبداد على المستوى الوطنيّ، ثمّ الفساد والنفاق على المستوى الاجتماعيّ.

ليست الرواية حكاية متخيّلة صمّم الروائيّ حبكتها السردية لإثارة اهتمام القارئ بوصفه متلقياً سلبيّاً، إنّما بحث سرديّ متعدّد المستويات في المشكلات الاجتماعية والسياسية والدينية، إلى ذلك لم تبق سلسلة مترابطة من الأحداث المتصاعدة صوب ذروة تحلّ عناصرها الفنية في الخاتمة، إنّما مشاهد متداخلة جرى تركيبها بدقّة لكشف الجوانب الخفية من الأحداث، وفضح العلاقات السريّة بين الشخصيات، ثمّ زجّ القارئ ليكون طرفاً فاعلاً في إنتاج الأحداث نفسها، وتأويلها حسب خبراته ومواقفه ورؤيته للعالم السردية الافتراضيّ الذي تسبح الشخصيات فيه.

جعل رؤوف مسعد من روايته «مزاج التماسيح» مختبراً لكثير من تلك الأفكار والتجارب والخبرات والاعترافات، كما فعل في رواية أخرى له هي «بيضة النعامة»، فلم يكتف بكتابة رواية، إنّما وصف كيفية كتابتها، وتابع ملاسبات عملية الكتابة، وما تلاها، بما في ذلك تحوّل النصّ إلى دليل اتّهام ضده. ولهذا قسم الكتاب إلى قسمين، قسم أوّل سمّاه «الكتاب الأوّل»، وفيه تخيّل الكاتب رواية بعنوان «مزاج التماسيح»، هي خليط من تجارب شخصية وخواطر ومذكرات واعترافات وتقارير تهكميّة مكتوبة باللهجة العاميّة المصرية، تقوم على خلفية العنف الدينيّ بين الإسلاميين والأقباط في مصر في العقد الأوّل من الألفية الثالثة، وهو عنف تطوّر إلى مواجهات مسلّحة بين ميليشيات تابعة لكلّ طرف، ممّا أفضى إلى تفكّك بناء

الدولة المدنية ، وظهور دولة عسكرية «الجمهورية العسكرية الديمقراطية» التي تحاول السيطرة على عنف الجماعات المسلحة .

وسرعان ما وردت أخبار عن تأسيس الحزب الملكي المنادي بعودة الملكية إلى حكم البلاد ، وذكر لجماعة المثمنين من غلاة الأقباط الساعين للانتقام من الجماعات الإسلامية المتطرفة ، ثم ذكر لجماعة فرسان السيّد العذراء وجماعة فرسان مار جرجس وجنود المسيح ، ومع أنّ بعض شخصيات هذا القسم حقيقيّة ، وتتصل مباشرة بالكاتب ، إلا أنّ الحبكة العامّة لهذا القسم متخيّلة وتدور أحداثها في عام ٢٠١٠ ، علمًا بأنّ الطبعة الثانية من الرواية نُقّحت في أمستردام عام ١٩٩٨ وصدرت في القاهرة عام ٢٠٠٠ ، وعليه فإنّ هذا المتن المتوقّع بيني على حدس المؤلّف لما سيفضي إليه تطوّر الأحداث قبل أكثر من عشر سنوات على وقوعها ، وسيكون للخلط بين الواقعيّ والتخيّليّ أثره في القسم الثاني من الكتاب .

وصوّر هذا القسم حال المؤلّف ومصيره خلال الصراعات المحتدمة بسبب الحرب الأهلية الدينية ؛ إذ تصبح مصر مسرحًا لتنافس أجهزة المخابرات العالمية ، وكلّ منها يريد أن يرجّح خيارًا يتّصل بمصلحته ، فضلاً عن السلطة التي تراقب حياة الأفراد بدقّة متناهية ، وتحاول ضبط حركتهم عبر المراقبة الدقيقة ، وتسقط أيّة معلومة لمعرفة ما يقع في البلاد ، وفي ظلّ هذه الظروف يختفي مخطوط رواية «مزاج التماسيح» .

يُسرَق المخطوط من طرف صديق للمؤلّف متواطئ مع الأجهزة الأمنية بوصفه عميلًا لها ، فيسلّمه إليها ظنًا منه أنّه تقرير سرّيّ عن الجماعات الدينية المتحاربة ، وبالنظر للوضع المتأزم من ناحية أمنية وسياسيّة ، يقع تفسير الرواية على أنّها «تقرير سرّيّ» حول الأحداث الجارية ، وبخاصّة أنّ للكاتب صلة بكلّ الأحداث المذكورة في روايته ، ناهيك عن خلفيّة الماركسيّة والقبطيّة . وقع تأويل كلّ الأحداث المتخيّلة في ضوء ما يناظرها من أحداث الواقع ، فألقي القبض على الكاتب بتهمة كونه ضالعًا فيما يحدث من فوضى واضطراب في البلاد ، وكونه على صلة مباشرة بطرفي النزاع ، وعبر سلسلة من المغامرات حاول المؤلّف أن ينجو بنفسه ، بما في ذلك التنكّر بشخصيّة امرأة سودانيّة ، لكنّ السلطات جدّت في البحث عنه ، بل ولا حقت سائر الشخصيات التي أدرجها في سياق روايته المتخيّلة .

طرحت رواية «مزاج التماسيح» قضيتين مهمّتين ، فمن جهة أولى أُنذرت بكلّ ما ستفضي إليه التنازعات الدينية المنفلتة في مصر التي توجّجها جماعات منتفعة ،

سواء أكانت من المسلمين أم الأقباط إلى درجة اضمحلت فيها مؤسسة الدولة ، ومن جهة ثانية رسمت الرواية مصير الأقليات في عالم يوج بنزاع الهويات المفتعلة ، كما أنّها فضحت الفهم السطحيّ للأدب حينما قامت مؤسسة السلطة بتأويل نصّ روائيّ متخيّل على أنّه تقرير أمنيّ خطير عن الجماعات المتحاربة ، فتلاحق الكاتب بتهمة ذلك .

حاول مؤلّف الرواية والشخصيّة الرئيسة فيها أن يضع نفسه خارج الاحتمالين المذكورين في كتابه : الاحتمال المتخيّل والاحتمال الواقعيّ ، وله الحقّ في ذلك ، فالتأويل السطحيّ الذي لا يقوم على خبرة يخلط بين الاثنين ، فليس ثمّة فرق من طرف السلطات الأمنية بين الشخصيات المتخيّلة التي تشكّل متن الرواية في قسمها الأوّل ، وبين الشخصيات الحقيقيّة التي تشكّل قوام القسم الثاني ، فينتبذ المؤلّف مكاناً يحاول فيه أن يبيّن موقعه من كلّ ذلك ، «في جلسته الآن في المقهى يقلّب في ذاكرته حياتين . وجسدين . ففي الحياة الأولى - حياته - يتمعّن ما ينتج عن هذا التقلّب ، بحذر وحياديّة أيضاً . أمّا في الحياة الثانية ، فقد بدأ يعيد تخليقها من حياته . الحياة الثانية ليست حياته بالضبط لكنّها حياته أيضاً . الفارق الوحيد بين الحياتين ، أنّه يستطيع في الثانية أن يفعل ما يريد بها وبمن فيها : أن يسمح ويضيف ، أن يجمّل ويقبّح ، أن يغيّر من الأماكن والأزمنة ، ومع ذلك أحسّ أن الحياتين تنزلقان من يده خاصّة الثانية ، التي تحاول أن تتماهى مع حياته هو ؛ كأنّها تبحث عن شيء مألوف تريد أن تطمئنّ إليه . هو الآن في منتصف الكتابة ، منتصف روايته ، روايتان . يعرف المحاذير التي يواجهها كاتب مثله ، حينما يخلط بين الخاصّ والعامّ . الحقيقة بالحقيقة الأخرى . الكاتب - مثله - الذي لم يحترف الكتابة ، لكنّه يمارسها أيضاً بانتظام ، خارج مؤسسة المحترفين الذين لا يحبّونه ؛ لأنّه يهدّد وجودهم المستقرّ البليد الساكن بتهوره ورعونته وتبؤله فوق خطوط التماس المقدّسة . . فمنذ قرّر أن يكتب هذه الرواية ، وأن يمزج بين الحياتين معاً ، وأن يعيد السيطرة متعمداً على حياته هو ، أن «يكتبها» من جديد ، اكتشف أنّه يستطيع ، وبمجهود غير بسيط ، أن ينسحب من الحياتين ، فيخلق لنفسه حياة ثالثة مؤقتة يتفرّج بها ومنها على الحياتين الآخرين»<sup>(١)</sup> .

(١) رؤوف مسعد ، مزاج التماسيح ، القاهرة ، ومكتبة مدبولي ، ٢٠٠٠ ، ص ١٧-١٨

## ٥. الهُويّة وانضراط العقد الاجتماعيّ:

ناقشت رواية «مزاج التماسيح» موضوع الهُويّة في مصر على المستويات كافة : هُويّة المؤلّف المهمّش سياسياً وثقافياً ودينياً ، وهُويّة الأقباط ، وهُويّة المسلمين ، وهُويّة النظام السياسيّ ، وفضحت التهيج الأيدلوجيّ الذي أسقط المجتمع المصريّ تحت سطوة من النفوذ أفضى إلى تمزيق النسيج الوطنيّ ، وتحويل المجتمع إلى جماعات متنافرة ، والأفراد إلى ذوات مرهقة ، وفاقدة لحسّ الانتماء . وصوّرت الرواية انسداد الأفق أمام المجتمع المصريّ ، وتوقّفت على ضروب الكراهية المتبادلة بين أشخاص وجماعات من الأقباط والمسلمين ، ففي حال غياب شراكة وطنية ترمي الجماعات الدينية في هُويّاتها اللاهوتية الضيقة ، وتوجّع تخيلات العدائية بعضها ضدّ بعض . تطلب الجماعات الإسلامية المتشدّدة استتابة الأقباط ، وتحوّلهم إلى الإسلام حال تأسيس الدولة الإسلامية ، أو فرض الجزية عليهم إحياءاً لتقاليد القرون الوسطى في التعامل مع أهل الذمّة ، وتتسلّل الكراهية إلى المسيحيّين ، فيشكّلون جماعات مسلحة تدافع عنهم باسم المسيح والسيدة العذراء والقديس مار جرجس .

كشف النصّ عن ضروب الكراهية منذ أوّل صفحة فيه حيث افتتح فضاء السرد على شخصيتين ، هما القمّص ملاك عبد المسيح وأخته تفيدة عبد المسيح ، وكلاهما يخدم المؤمنين في كنيسة «سيّدة الآلام» في حيّ «شبرا» في القاهرة ، وأوّل ما تقوم به الأخت هو إلغاء ماسورة المياه في المرافق الصحيّة ، وسد فتحتها بالعجين ، ووضع أوراق من جرائد قديمة للتنظيف بعد قضاء الحاجة ، «لأنّ غسل المؤخّرة بعد التبرّز طقس إسلاميّ لن تدخله إلى بيت القمّص خادماً الربّ»<sup>(١)</sup> . وكلّ كراهية تدفع بكراهية مقابلة ، أو تكون نتيجة لها .

لكنّ السرد الاعترافيّ ، شأنه في ذلك شأن كتاب «عراقيّ في باريس» مضى في درجة عالية من الفكاهة والتهكّم ، فالرؤية السردية فيها لا تجامل ، ولا تدّخر سخرية مهما كانت ، فهي حرّة ومتفلّنة ومنطلقة ، لا يردعها معتقد ولا عُرف ولا أيدلوجيّا ، ولا تعرف المحاباة وتتخطّى التكلّف والتصنّع ، فقد دمج المؤلّف في السياق السرديّ الناظم لكتابه نبذاً من التواريخ والتجارب والأحداث الكبرى ، وفضح الأخطاء وعزّى التناقضات وعمّق المفارقات ، وكشف التحوّلات الكبرى في بنية المجتمع المصريّ ،

---

(١) م. ن. ، ص ١١

وتحوّله من مجتمع مدنيّ إلى مجتمع دينيّ، فشمّل بنقده متعصّبي الأقباط بالدرجة نفسها التي انتقد بها غلاة المسلمين .

ولاح في العالم المتخيّل خوف مؤداه أنّ مصر فقدت بمرور الزمن هويّتها المدنيّة ، وانزلت إلى إعادة إنتاج هويّات دينيّة غالية ؛ لأنّها سقطت تحت طائلة تخيّلات جعلت من المجال الاجتماعيّ موضوعاً لاختبار قوّة الأيدلوجياّ الدينيّة ، فقد توارت الأديان ، وحلّت مكانها الأيدلوجياّات الدينيّة التي بدأت تستجيب لرهانات الهيمنة والسيطرة ، فظهر لاهوت جديد مزق النسيج الاجتماعيّ بدواعي الامتثال للقيم الدينيّة ، فارتسمت قطعة بين الجماعات المكوّنة للمجتمع المصريّ ، وأغلق باب الأمل أمامه .

تردّدت كلمة «مزاج» كثيراً في صفحات الرواية ، وهي تتّصل بالرغبة الجسديّة ، أكثر منها بالحالة النفسيّة للشخصيّات ، ففكرة الرواية تقوم على مبدأ «المزاج» وهو مبدأ حسّي مهيمن فيها ؛ إذ تسعى الشخصيّات الأساسيّة لتحقيق المتعة عبر «المزاج» وهو كناية عن «إحليل» التمساح الذي يستخلص منه عنبر يساعد الرجال على استعادة «امتيازهم الذكوريّ» ، ومنحهم قدرة جديدة «للحفاظ على مواقعهم في الفراش» .

ولم تقتصر تجارة «المزاج» على الرجال ، إنّما «النساء هنّ اللائي كنّ يقمن بالترويج لهذه التجارة» ، فيتابعن أخباره «وينشرن روعة نتائجه ، ويتابعن أسواقه الرائجة ، التي تتخطّى الحواجز المتقاتلة ، وأصبحت تجارته لا تعرف أو لا تعترف بحدود جغرافيّة أو دينيّة» . و«ظهر «الإحليليون» في وسائل الإعلام المرئيّة والمكتوبة «يتناظرون ويتجادلون ، ونقّبوا الكتب القديمة بحثاً عن نصوص تؤيّد أقوالهم وتدحض أقوال الجهة المعادية للإحليل التمساحيّ من أصدقاء البيئة ، وحراس الطبيعة» . أمّا «إحليل التمساح» فسّمته وسائل الإعلام «مزاج التمساح» لعدم إثارة الغضب في الوسط العامّ ، «باعتبار أن ذكر الأعضاء التناسليّة للبشر والحيوان معصية»<sup>(١)</sup> .

حدّرت الرواية من انفراط العقد المجتمعيّ لو احتكرت السلطة فئة واحدة ، وفرضت تفسيراً واحداً للتاريخ ، فالحراك الاجتماعيّ لا يمكن حبسه في إطار مغلق ، ولهذا تتمرّد الجماعات على الواقع ولا تعترف به ، وتتبني أيدلوجياّات متطرّفة ،

(١) م. ن. ص. ص ٢٧

وتبتكر فرضيات دينية تتحصّن خلفها للدفاع عن هُويّاتها المتخيّلة ، وسيفضي ذلك إلى صدام مؤكّد مع هُويّات مغايرة تحملها جماعات أخرى ، فيندلع تيّار العنف الذي يهيمن على المشاعر والمواقف والرؤى ، فتتهار الأنساق الثقافية الكبرى الحاضنة للجماعات ، فتلوذ بهُويّات ضيقة متّصلة إمّا بعقائدها أو بمذاهبها ، أو بأعراقها ، ولا يكاد ينجو أحد من تبني فكرة إعادة تعريف هُويّته على وفق الواقع الجديد .

## ٦. الهُويّات الثابتة والهُويّات المتحوّلة:

وعرضت رواية «اليهوديّ الحالي» لـ «علي المقري» لجوانب من هُويّة يهود اليمن ، فاختارت لذلك حقبة تاريخيّة تعود إلى منتصف القرن السابع عشر الميلادي وما بعده ، ونهجت في كثير من فصولها نهج الكتب الإخبارية ، ففتحت بذلك أفقاً للتخيّل التاريخيّ في تشكيل مادّتها السردية ، «ودخلت سنة أربع وخمسين وألف (١٦٤٤م) في ما يؤرّخ به المسلمون للزمن . وفيها ، بعد أن عصفت بي رياح الدهر ونكبنني الموت ، قرّرت أن أدوّن هذه الأخبار عن أيّام فاطمة وزمنها» (١) .

وزمن فاطمة هو المدّة التي جمعت الفتى اليهوديّ سالماً بالشابّة المسلمة فاطمة التي تكبره بخمس سنين ، وانتهت بزواجهما فرحيلهما عن قرية «ريدة» إلى صنعاء هرباً ممّا سوف يلحقهما من أذى مؤكّد لو قرّرا البقاء في القرية . ومن خلال ذلك جرى كشف العلاقات الشائكة بين الأغلبية الإسلاميّة ، والأقلية اليهوديّة في كثير من الأمور ، وأولّها فضح الكراهية التي استبدت بالجماعات الدينيّة بعضها ضدّ بعض ، فلا تتمكّن من تخطي حاجز المعتقد من أجل بناء علاقات إنسانيّة متكافئة تتيح لكلّ طرف قبول الآخر .

بلسان اليهوديّ سالم يوسف النقّاش استعيدت تجربة حبّ فريدة من نوعها بادرت إلى نسجها الفتاة المسلمة فاطمة بنت المفتي وانتهت بالزواج ، فرسم السرد لفاطمة دوراً فاق ما لسواها من الشخصيّات ؛ إذ خلعت على اليهوديّ اسماً وهُويّة ، وأخرجته من حالته المبهمة التي كان غاطساً بها ، وجعلته فاعلاً في العالم التخيّلّي ، حينما خصّته بتسمية «اليهوديّ الحالي» أي الجميل أو المليح ، ثمّ علّمت سرّ القراءة والكتابة ، فشرعت أمامه أبواب الكشوفات الكبرى لنفسه ولطائفته الدينيّة وللجماعة

(١) علي المقري ، اليهوديّ الحالي ، بيروت ، دار الساقى ، ٢٠٠٩ ، ص ٧



الإسلامية ، وانتهى مؤرخاً لتجربة حياته ولطائفه ولكثير من أحداث بلده التي عاصرها في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي .

أول ما شرعت به فاطمة هو تعليم سالم القراءة في ديوان بيتها ، وحالما عرف كيفية كتابة اسمه والجر به ، غمره شعور باكتشاف ذاته ، «كنت كمن يكتشف اسمه ووجوده لأول مرة» ، وبتسمية «اليهودي الحالي» أصبح عارفاً ومُعَرِّفاً ، «صرت أحسّ بأنّ هاتين الكلمتين هما سرّ حياتي ، إذا لم تكونا حياتي كلّها . معهما أصبحت أكتشف من أكون ، ومن سأكون»<sup>(١)</sup> . ومن أجل أن يتمرّس سالم بخبرات القراءة والكتابة بدأت فاطمة تعلّمه قراءة القرآن بهدف تحسين لغته لا بهدف إدخاله إلى دينها . وسرعان ما استوت خبراته في معرفة المتون الدينية والتاريخية والأدبية ، لكن النتيجة جاءت مخيبة لهما ، فقد توهمت الجماعة اليهودية أن فاطمة تريد إخراج اليهودي من معتقده ، وإدخاله إلى معتقدها الإسلامي ، وبذلك تكون «كمن أشعل حريقاً في الحيّ اليهودي» ، فاجتمعت الطائفة للبتّ في أمر سالم ، والتحذير بما انزلت إليه من خطر ، فكان هذا الحادث سبباً لتعليم أبناء اليهود القراءة في بيت الحاخام من أجل فهم المعتقد اليهودي والحفاظ عليه . وما لبث أن ردّ سالم جميل فاطمة فعلمها العبرية قراءة وكتابة ، فتمكّن كلّ منهما من معرفة عقيدة الآخر .

وما إن استوى أمر سالم في القراءة والكتابة وبلغ مبلغ الرجال ، حتى بادرت فاطمة بنفسها للاقتران به ، فوهبت نفسها له زوجة بعد أن نقبت في المتون الفقهية فوجدت رخصة تجيز ذلك ، «قراري هذا وصلت إليه بعد أن درست أقوال الشريعة ورأيت فيها بحر اختلاف يجمع علماء الإسلام بدون اتفاق . وكان دليلي لقراري الإمام الجليل أبو حنيفة الذي أبهجني بإجازته للمرأة البالغة الراشدة تزويج نفسها بدون وليّ أمر ، وزادني سروراً المجتهد اللبيب أبو المعارف بهاء الدين الحسن بن عبد الله ، بفتواه المدونة في التصاريح المرسلة التي يجيز فيها للمسلمة الزواج من يهودي أو نصراني . ولقد اكتملت لديّ الفتوى فاتخذت العبرة ، وعزمت بعدها على الحيلة بما يرضي الله ويمثل صفته ، الله الخالق لنا كلّنا : المسلمين واليهود والنصارى والمجوس والهندوس والكفار . أهب نفسي التي خلقها الله إلى أحد خلق الله ، إليك أيّها اليهودي الحالي . أهبك متعتي وبدني وأخطب قُربك مُتعتك وبدنك ، فإذا قبلت

---

(١) م . ن . ص ٢٧

قُربي وراقك بدني ، فلا تتأخّر عن نداء رغبتني ، وتدبّر أمر سفرنا من بلدة يضيق أهلها بلقائنا ويحرّمون زواجنا . وليكن مسيرنا إلى أبعد مكان يحطّ فيه الرحال»<sup>(١)</sup> .

لم تنضج ثمرة هذا القرار إلاّ بعد أن أجرت فاطمة تحويلاً جذرياً في هويّة سالم الشخصية والدينيّة ، فقد جهّزته بخبرة القراءة التي مكّنته من معرفة التراثين الإسلاميّ واليهوديّ ، ثمّ زوّدته بمهارة الكتابة ليصبح مؤرخاً لأحداث عصره . والحال هذه ، فقد أعيد صوغ هويّة اليهوديّ من أمشاج مبهمّة كانت تربطه من قبل بدينه وجماعته ، فانتقل بعدها إلى منطقة الوضوح والفاعليّة . على أن الوظيفة السردية لحكاية الحبّ التي جمعت بينهما كشفت الخلفيّة المركّبة من ضروب الكراهية السائدة بين المسلمين واليهود في اليمن ، وأمّاط اللثام عن الحلم اليهوديّ بالرحيل إلى أرض الميعاد حسب الرواية التوراتيّة . ولم تكن الجماعة اليهوديّة وحدها المسؤولة عن هشاشة انتمائها إلى أرض اليمن ، وانتظار الرحيل إلى فلسطين ، إنّما أسهم في تعميق ذلك الموقف العدائيّ للجماعة الإسلاميّة التي تعذّر عليها هضم الأقلّيّة اليهوديّة والاعتراف بها ، ثمّ دمجها في سياق شراكة تتيح لها العيش بدون تهميش . ولعلّ الرواية تكون قد أسهمت في فضح سريان المكوّن الدينيّ في تغذية مفهوم خاطئ للهويّة قائم على الانغلاق والثبات .

قدحت المسلمة فاطمة شرارة اللهب في مجتمع حامل قامت بنيته على قاعدة الفصل الدينيّ بين مكوّناته ، وتولّى اليهوديّ سالم رعاية تلك الشرارة ، فمدّها بوقود يديم وهجها بهدف ردم هوة سوء التفاهم بين المسلمين واليهود ، لكنّ تلك المحاولة فشلت على المستوى الجماعيّ ، وعدّت ضاللاً قام به مارقان عن معتقدات جماعيّة ، فزاد المسلمون واليهود تعنّناً وتصلّباً ، وأصبحت حكاية الحبّ خطأ مأساوياً دفعت الشخصيّات ثمنه الباهظ من الشقاء الذي عرفاه ، والأذى الذي تعرّضوا له . فقد أفردا عن جماعتيهما ، ورحلا إلى مناطق بعيدة ، ولاحتتهما لعنة الجماعة إلى ما بعد الموت ، فرسمت التجربة مظهر مغامرة غير مأمونة العواقب ، ويصعب تكرارها على المستوى الفرديّ .

أراد كلّ من فاطمة وسالم أن يؤسّسا لشراكة إنسانيّة تتجاوز حبسة المعتقد الدينيّ ، وتقوم على معرفة تقتضي قبول معتقدات الأفراد باعتبارها تصوّرات ثقافيّة

---

(١) م . ن . ص ٧٤-٧٥

جامعة لا تروج للقطيعة بينهم ، لكنّ هذه المعرفة القائمة على التسامح والشراسة اصطدمت بالمسلّمات التاريخية واللاهوتية القابعة في الخيال الجمعيّ ، ومنها الأقوال الدارجة بين المسلمين حول وجوب إخراج اليهود من جزيرة العرب ، والأخبار الشائعة بين اليهود بضرورة العودة الحتمية إلى أرض الميعاد . ووقوع الخلاف بين اليهود والمسلمين حول مدى صحّة تلك الأخبار والأقوال ، فتلوح مظاهر النزاع حول دلالة النصوص بما يخلق توترًا عامًا يكشف أنّ الجماعتين الإسلامية واليهودية محكومتان بمورث إخباريٍّ أكثر ممّا هي ممثّلة لأعراف التعايش المشترك في أرض واحدة .

يصرّ المتشدّدون من المسلمين ، ممثّلين بـ«صالح المؤذن» على وجوب إخراج اليهود من أرض العرب ، لكنّهم لا يوافقون على أن تكون فلسطين موثلاً لهم ، وفي مقابل ذلك ينتظر اليهود المتزمتون ممثّلين بـ«أسعد» بأن يستقيم لهم الأمر ، في نهاية المطاف بظهور المسيح المنتظر الذي سيحكم العالم من «أورشليم» ، فيبادرون إلى إبادة الجميع حتى الرّضع الذين هم مشاريع أعداء . لكنّ المجرى الواقعيّ لحياة البشر اتّخذ اتجاهًا مغايرًا ، ففاطمة المسلمة أحبّت سالمًا يهوديًّا ، و«نشوة» ابنة المتشدّد اليهوديّ «أسعد» عشقت «قاسمًا» ابن المؤذن المتزمت صالح ، ولما حال الأبوان دون ذلك انتحرت العاشقان معًا متعانقين ، ومتخطّين بذلك حاجز الأجساد الموهنة للعقائد . بل إنّ عشقًا أكثر أهمية ربط «صبا» ابنة أسعد الأخرى ، بـ«علي» ابن المؤذن صالح ، فهربا إلى صنعاء ، وكانا سببًا لاستمرار السلالة ؛ إذ قيّض لهما الحفاظ على علاقتهما ، وسوف يربّيان سعيدًا ابن اليهوديّ الحالي وفاطمة ، ويزوّجانه ابنتهما . ولم يقتصر الخلاف بين المسلمين واليهود حول أحقية المواطنة في أرض اليمن ، إنّما تعدّاه إلى المشاركة في فتن اندلعت حول الخمر والنساء ، فأريق النبيذ اليهوديّ المعتق وكُسرت جواره ، وقُتل الحسناوات من الغواني بسبب الرغبة في الاستحواذ على أجسادهنّ ، وفضح زيف الدعاوى الإيمانية ، فباسم الدين وقع تحريم الخمر والزنى ، لكنّ الجميع تقاتل بسببهما .

رحل اليهوديّ الحالي وفاطمة إلى صنعاء هارين من أفق اجتماعيّ ضاق بعلاقاتهما السريّة ، وكانت وجهتهما الحيّ اليهوديّ هناك حيث جرى الاتفاق على تخوير اسم فاطمة إلى «فيطماء» ، فهو بالعبريّة يحيل على مصدر العطاء ، أي «الثدي» أو «الحلمة» وعاشت معه باعتبارها يهوديّة ، فكانت تؤدّي شعائرها الإسلامية سرًّا ، لكنّها تموت وهي في حال مخاض بعد أن تنجب ولدًا ، وحينما أفشى سالم سرّ

زواجه من فاطمة المسلمة لأبناء طائفته لم يصدّقه أحد ، فقد ذهبوا كلّهم بما فيهم الحاخام ، إلى أنّه تحوّل إلى الإسلام ؛ إذ من المتعذّر زواج يهوديّ بمسلمة إلّا بعد إسلامه . وما لبث أن اكتشف بأنّ اليهود قاموا بنقل جثّة فاطمة من المقبرة اليهوديّة ، ودفنوها في طرف قصيّ منها باعتبارها «مسلمة كافرة»<sup>(١)</sup> . وسرعان ما طرحت قضية هويّة الوليد «سعيد» فهل هو مسلم أم يهوديّ؟ فاليهود يعتبرونه مسلمًا تبعًا لأُمّه ، والمسلمون يعتبرونه يهوديًا تبعًا لأبيه ، فأصبح مرفوضًا من اليهود والمسلمين ، لكنّ «صبا» و«علي» وافقا على إيوائه في بيتهما ، فقامت اليهوديّة بإرضاعه ، وقدم له المسلم الرعاية الكاملة .

بعد هذه التجربة الأليمة من الرفض يتمّ سالم وجهه إلى قصر الإمام «المتوكلّ» على الله إسماعيل بن القاسم» حاكم اليمن ، عارضًا عليه الدخول إلى الإسلام ، لا إيمانًا بالمعتقد الجديد ، وإنّما وفاء لما تركته فاطمة في نفسه من أثر طيّب ، فقد هجرت طائفته من أجله ، وتُبذت عن جماعتها ، وعليه الآن أن يحتذي فعلها في هجر طائفته والانخراط في طائفته ، فيسلم على ידי الإمام ، لكنّ ثمن ذلك لم يكن سهلًا ، فالعبور من طائفة إلى أخرى محفوف بالمخاطر ، ويحتاج إلى اختبارات طويلة ؛ إذ يظلّ المتحوّل دينيًا تحت رقابة طويلة ، وغالبًا ما يوصم بأن سيظلّ وفيًا لمعتقده الأصليّ ؛ إذ يعهد للقاضي أحمد بن سعد الدين السوري أمر تأهيله ليصبح مسلمًا كامل الأهليّة ، وأوّل اختبار يتعرّض له هو فحص ختانه للتأكّد من مطابقتها للشروط الإسلاميّة ، ثمّ قصّ زنّاريه ، وتلقينه اسم المذهب الذي سيتّبعه طوال حياته ، لكنّ الأهم هو هجر اسمه اليهوديّ واكتساب اسم موافق لحاله الجديدة ، فهذه هداية نادرة جعلته ينتقل من الكفر إلى الإيمان ، فيتسمّى بـ«عبد الهادي» لأنّ الله هداه إلى الطريق القويم ، فينبغي أن يقرّ بعبوديّة أبدية لله .

ثمّ تشفع له مهاراته الكتابيّة ، فيعفى من تحسين الختان لحسن خطّه وإجادته للكتابة ، وبسبب ذلك يلحق كاتبًا في ديوان الإمام ، وما يلبث أن يصبح مؤرّخًا لفتوحات الإمام ، فيقوم بـ«تدوين فتوحات الجيش وانتصاراته ضدّ العاصين والخارجين عن الدين والدولة»<sup>(٢)</sup> . ولأنّه أوّتمن على ذلك فقد راح يدوّن كلّ شاردة

(١) م . ن . ص ٩٥

(٢) م . ن . ص ١١١

وواردة من حروب الإمام ، بما في ذلك التنكيل الذي تقوم به جيوشه ضدّ الجماعات الأخرى ، وبخاصّة الممتنعين عن دفع الأموال ، فانتهى إلى تقييد تاريخ لذلك العهد فيه من الفظائع أكثر ممّا فيه من الحقائق ، فأصبحت مدوّنته الإخباريّة موضوعاً لتقريظ أتباع الإمام ، لأنّها وثّقت بطولات الجيش ضدّ الخارجين عليه ، ثمّ ألحق بعد وفاة المتوكلّ تابعاً لابنه المهدي ، وحينما طُلب إليه إعداد أربع نسخ من مخطوطه التاريخيّ سارع إلى تنفيذ الأمر ، لكنّه أتلف النسخة الأصليّة من التاريخ ، وأعدّ نسخة معدّلة نزع عنها الأخبار الزائفة التي وردت في المخطوط الأصليّ .

ثمّ شغل عبد الهادي/سالم إلى جوار عمله التاريخيّ بتأليف كتاب «حوليات اليهود اليمانية» ، الذي اعتنى بأحوال اليهود طوال النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجريّ . وأوّل ما ظهر فيه أخبار ظهور المسيح المخلّص ، بشخص مدّعي النبوة «شبتاي زيفي» ، وفرح اليهود بذلك لأنّ «الملّك سيصير إليهم وحدهم»<sup>(١)</sup> . فقد جاءت اللحظة التي سوف يتخلّصون بها من اضطهاد المسلمين لهم ، فاجتمع يهود صنعاء «ليختاروا وليّاً عليهم يتقدّمهم وينتزع الحكم»<sup>(٢)</sup> . لكنّ عاقبة هذا الوليّ الجديد تكون سيئة إذ ينكّل به ، ويعلّق جسده على أحد أبواب صنعاء ، وسرعان ما تصل الأخبار بأنّ المسيح المخلّص فشل في مهمّته النبويّة ، فقد قبض عليه في الآستانة ، وتحوّل إلى الإسلام ، وتخلّى عن ادعاءاته كلّها .

اتخذ القسم الثاني من الرواية صيغة الكتابة الإخباريّة الشائعة في كتب الحوليات القديمة ؛ إذ راح يورد على تعاقب السنين أخباراً تصف أحوال اليهود في اليمن ، ووجوه التضييق الممارس ضدّهم ، أو كيفيّة تخفيفها ، بما في ذلك نزوح كثير منهم عن صنعاء ، حيث ينتهز عبد الهادي/سالم الفرصة ليندسّ بين القوافل الراحلة ، فيعثر على ابنه «سعيد» بين النازحين . ويكتشف أنّه قد تزوّج فتاة ليست مسلمة ولا يهوديّة ، فأّمّها «صبا» ابنه أسعد اليهوديّ ، وأبوها «علي» ابن المؤذن صالح . فهي «يهوديّة لجهة الأمّ ومسلمة لجهة الأب» . وحينما عجز عن مواصلة الكتابة بعد أربعين عامّاً من ممارسة دور المؤرّخ ، ظهر حفيده «إبراهيم» ليصف السنوات الأخيرة من سلالته التي اختلطت دماؤها ومعتقداتها . فهو حفيد فاطمة وسالم ؛ إذ

(١) م . ن . ص ١١٧

(٢) م . ن . ص ١٢٢

ينتسب إلى سلالة يهودية وإسلامية ، ارتبط بها من خلال الانتساب المتبادل بين أزواج وزوجات من كلا المعتقدين ، فأصبح يُعرف بـ«الصنعاني» حيناً ؛ لأنه ولد في صنعاء ، أو «الريدي» حيناً آخر ؛ لأنه تحدّر عن «ريدة» أو «الحسيّ» مرّة ثالثة ؛ لأنّ نطفته تشكّلت جنيناً قرب «حسنّ» . وحينما طُرقت فكرة الأصول وأيّها يمكن أن يعدّ صحيحاً ، يكون جوابه : «لا أعرف ما هو الأصل ، وما هو المزيّف» . فقد عجز عن تعريف هُويّته بحسب المواصفات المورثة ، فلا يعرف إن كان مسلماً أم يهودياً ، لكنّه يعرف جيّداً إنّّه ينتسب إلى سلالة فاطمة واليهوديّ الحالي «إليهما أعود ، هما أصلي القديم ، ولسالتي القادمة»<sup>(١)</sup> .

شرع الحفيد في إيراد أخبار جدّه الذي جاوز التسعين من عمره ، ففي عامه الأخير ، «نقل رفات شريكته فاطمة من قبرها المعزول بجوار مقبرة اليهود إلى مقبرة المسلمين» ، فسارع أهلها حالما عرفوا بمثاوها إلى حفرة القبر ، وأخرجوا العظام ودفنوها في مقبرة اليهود ، «لا يوجد مكان لهذه الكافرة إلّا مع الكفّار اليهود في مقبرتهم»<sup>(٢)</sup> ، إذ وصفت بأنّها «معتزلة» لأنّها اعتزلت الطائفتين ، وكان مصير سالم/ عبد الهادي ممثلاً ، فبعد يوم من دفن رفاتة في مقبرة المسلمين باعتباره دخل الإسلام على يد إمام المسلمين حتى سارع المسلمون إلى إخراج جثته من المقبرة وإعادها إلى المقبرة اليهودية ، فما كان من الابن «سعيد» إلّا أن جمع بقايا عظام أبيه اليهوديّ الحالي ، وأمه فاطمة في صرّة ، بعد أن تعذّر عليه دفنهما لرفض الجميع يهوداً ومسلمين ، فاختم في جهة مجهولة حاملاً معه عظام أبويه . فلا بدّ من وقف حروب الموتى بحمل عظامهم إلى أماكن غير معروفة .

تداخلت حكاية الحبّ بين المسلمة واليهوديّ بأخبار الطائفة اليهودية في اليمن ، ويراد من ذلك لفت الاهتمام بموضوع الهوية في بعدها الثابت وفي بعدها المتحوّل ، فقد نظر إلى اليهود باعتبارهم جماعة دخيلة لها موقع دوني في العلاقات والتعاملات الإسلامية ، فهم في موقع التابع الذليل الذي ينبغي عليه أن يقدّم فروض الطاعة أمام المسلم في كلّ شيء ، وصار يهدّد بوجوب مغادرة أرض العرب ، وبإزاء ذلك نشب ضرب من التخيّل الدينيّ قوامه الوفاء للوعد التوراتي في النزوح إلى أرض الميعاد ،

(١) م . ن . ص ١٤٣

(٢) م . ن . ص ١٤٦

وصارت كلّ طائفة تعيد إنتاج مرويّاتها بما يغذّي الأحقاد فيما بينها ، فهذا مظهر من مظاهر الثبات في مفهوم الهويّة الذي ورثته الأجيال عبر التاريخ ، لكنّ طارئاً اخترق هذا الركود ، وهو الزواجات العابرة للمعتقدات ، فلم يقتصر الأمر على خرق للميثاق الدينيّ السائد ، إنّما ترتّب عليه ظهور سلالات جديدة يحار في تحديد هويّتها ، ومنها السلالة التي نتجت عن زواج سالم بفاطمة ، فلم يجر فقط الامتناع الكامل عن الاعتراف بهويّة أفرادها من الطرفين ، إنّما جرى نبذ الأحياء والأموات منهم ، فلم تقبل الطوائف بهم ، ونبشت قبور الموتى منهم وأخرجت رفاتهم ، ذلك أنّ الأعراف الثابتة أهدرت القيمة الإنسانيّة حيّة كانت أم ميّتة .





## الفصل الرابع

### الهوية الملوثة والنجوع التوراتي



## ١. الهوية والكراهية:

شكل موضوع الهوية وإعادة تعريفها ، المحور المركزي في الرواية اليهودية المكتوبة بالعربية ، أو التي كتبها روائيون يهود عاشوا في بلدان عربية وكتبوا عن أحوال طائفتهم ، أو تلك الروايات العربية التي كانت أحوال اليهود موضوعاً لمتونها السردية ، أقصد بذلك هوية الجماعة اليهودية في بيئة ثقافية عربية - إسلامية ، ففي تلك الروايات تعوم رغبة هوسية في ذكر التفاصيل الشخصية على خلفية من الشعور بالاقتلاع وعدم الاندماج ، والبحث عن هوية بديلة ، تخطياً لهوية ملوثة ، مع الرغبة في الابقاء على الهوية الأصلية .

وهذه ظاهرة لافتة للنظر ، فما هو موقع هذه الأعمال الروائية في خريطة السرد العربي؟ وهل تدرج في سياق الرواية العربية ، أم اليهودية؟ وهل يمكن تصنيفها استناداً إلى اللغات التي كتبت بها أم الموضوعات التي عالجتها بما فيها من رغبة صريحة في البيئات الأصلية لكتّابها؟ وكيف يمكن زحزحة مفهوم الهوية الكتابية لتستوعب نصوصاً كتبت عن حياة اليهود في بلادهم قبل ظهور دولة إسرائيل؟ وهل يمكن تأويل تلك النصوص على أنها مدونة حنين هوسي لحقبة تاريخية انتهت؟ اقتضت الإشارة إلى كل ذلك لأن معظم تلك الروايات عرضت شغفاً منقطع النظير بالبيئات الأولى ، وبخاصة العراقية منها ، فقد اشتبكت بالمرجعيات الاجتماعية الحاضرة لها على نحو يتعدّر معه فك الاشتباك بينهما ، فلا يمكن تعريفها إلا بتلك المرجعيات وأحداثها التاريخية ، فقد عدّت هجرة اليهود من العراق إلى إسرائيل في مطلع خمسينيات القرن العشرين نوعاً من الاقتلاع من وطن عاشوا فيه طويلاً ، وجرى تهجيرهم في ظروف سياسية بالغة الحساسية على خلفية ظهور دولة إسرائيل في فلسطين ، بما عدّه بعض الكتّاب هجرة قسرية مناظرة لتهجير اليهود إلى العراق في حوالي منتصف الألف الأول قبل الميلاد ؛ إذ اعتبروا حياتهم الجديدة في إسرائيل «نفيًا بابليًا ثانياً» وذلك يناقض الرواية الشائعة القائلة بأن إعادة اليهود إلى «أرض الميعاد» تحرير لهم من شتات طويل ، فثمة تنازع في صلب مفهوم الهوية ، وهو أمر سنقف عليه في ختام هذا الفصل .

ومن المفيد البدء من كتاب لا صلة مباشرة له بالمرجعية العربية لتلك الروايات ، ولكنه يعرض لمفهوم الهوية اليهودية من المنظور نفسه ، قصدت بذلك اشتقاق المفهوم وإعادة صوغه في ضوء المرويات التوراتية ، وفكرة الأرض الموعودة والروابط الدينية ، فقد أراد الكاتب الإسرائيلي «عاموس عوز» في سيرته الروائية «قصة عن الحب والظلام» ، تعديل مفهوم الهوية اليهودية التي قامت على جمع المتناقضات ؛ إذ اختصت بها جماعة مشتتة في أكثر من قارة ، وهو أمر تعذر حدوثه مع أية جماعة أخرى عبر التاريخ ؛ فالمكان الحاضن للجماعة يعدّ معطى أساسياً من معطيات الهوية ، لكن اليهود نجحوا في اعتبار المكون الديني هو الركيزة الأولى في هويتهم ، وفي ظلّ حقبة انتقالية لمفهوم الهوية من وضع الشتات إلى وضع الاستقرار ، لا بدّ أن تستعاد أحداث الماضي بوصفها تجربة اعتبارية داعمة للمفهوم الجديد ، وترفق بالحدث الانتقاليّ الخاصّ بالظروف الحاضنة لمفهوم الهوية ، وهو توفر «وطن» ضامن للهوية بعد فقدانه مدّة طويلة ، وأخيراً الإشارة الرمزية إلى الاحتمالات الممكنة في المستقبل ، وبإزاء ذلك جرى محو الارتباطات الأخرى كلّها ، فالهوية السردية اليهودية التي عملت المرويات التوراتية على صوغها طمست الهويات «التاريخية» للجماعات اليهودية حيثما كانت ، وبذلك انتصر السرد على الواقع .

عرض «عاموس عوز» تفاصيل الرواية الصهيونية لنشأة إسرائيل بوصفها دولة عبرية أعادت لم الشتات اليهودي ، فانسجم بسرده الاستقصائي مع المرويات التوراتية ، وعلى هذا لم يتوقّف على الآلام التي نتجت عن هذا الحدث ، ومن ذلك نزع الفلسطينيين عن الأرض التي عاشوا فيها ، إنّما انصرف اهتمامه إلى الاحتفاء ببطولة المتطرفين الذين أنجزوا وعدهم في محو الوجود العربيّ من الأرض ، وتثبيت اليهود فيها . أغفل كلية الحق التاريخي ، فعلى أرض فلسطين جرى استبدال جماعة بجماعة ، وهوية بهوية . وهذا النوع من تبادل المواقع بالعنف جاء بسبب روايات حول «تملك الأرض المقدسة» معظمها مستعار من سرود دينية وقع تضخيمها لإضفاء شرعية على الأعمال الشنيعة التي حدثت على الأرض .

أخفت الكتابة السردية الناعمة حقيقة المصائر التي انتهى إليها ملايين من الذين أبعدوا عن أرضهم ؛ إذ جعل «عاموس» من أسرته اليهودية المركبة من عدة أفرع وأجيال في بلاد شرق أوروبا ووسطها ، مركزاً للسرد طوال صفحات الكتاب ، فأخفى التبع الدقيق لقدم أفرادها إلى فلسطين أمر طرد أهلها الأصليين عن أرضهم ، فوصول

المهاجرين اليهود إلى الأرض الموعودة بالتوراة أخفى إبعاد الفلسطينيين عنها ، وقد جاء الاستبدال على خلفية بطولة دينية - قومية طمست في السرد الحقيقية التاريخية لوجود الخاسر . فلم يكن ثمة نزاع بين رواية منتصر ومهزوم في الكتاب ، إنما هو تقرير ديني لأبطال عملوا جادّين زمنًا طويلًا من أجل استعادة وطن توراتي انتزع منهم منذ أكثر من ألفي عام .

من الصحيح أنّ سيرة «عاموس عوز» ركّزت الاهتمام على عائلته وخلفياتها الثقافية المتنوعة ، وهي تعيد توطين نفسها في أرض موعودة ، لكنّها لم تكن بالخلفية الحقيقية لمجريات الأمور ؛ إذ اعتبر الحدث برمّته تعديلًا لخطأ قديم اقترف بحق اليهود منذ التخريب الثاني للهيكل . وإعادة الحق لا تلزم الوقوف على التداعيات الجانبية المؤلمة التي ترافقه ، فينبغي ألاّ تحجب آلامُ أفراد أبعدوا عن أرضهم بطولة الأمة اليهودية ؛ فذلك يخدش الفعل الملحمي العبراني ، وجاءت الرواية الدينية التي قدّمها عن نشأة إسرائيل جريئة ومباشرة ؛ لأنّها لم تخف التعصّب ، ولم تبال بالتاريخ ، وأشاحت بوجهها عن شبكة الوقائع المؤلمة التي رافقت ذلك وأعقبته ، فكأنّها رواية لاهوتية منقطعة عن سياق التاريخ العالمي المعاصر ، وتصادف ذلك مع بداية مراهقته حينما كان يتلقّى سيلاً من الإحياءات المتطرّفة بصهيونيته ، ممّا جعله يحلم بتدمير العالم من أجل حماية اليهود .

لكن «عاموس عوز» في طفولته أفكاراً عن الخوف من الآخر ، وتشرب بكرهية غير اليهود ، فارتسم العالم خارج الأرض المقدّسة في خياله معادياً ، ومصدر خطر مؤكد ، فالناس «لا يحبّون اليهود لأنّهم فطنون . . ولا يحبّون مشرّعنا في أرض إسرائيل لأنّهم يحسدوننا حتى على قطعة أرض صغيرة كلّها مستنقعات وصخور وصحارى . هناك في العالم جميع الحيطان كانت مغطاة بالكتابات المعادية : «أيّها اليهوديّ الحقير ، اذهب إلى فلسطين» ، وها قد ذهبنا إلى فلسطين والآن كلّ العالم يصرخ علينا : «أيّها اليهوديّ الحقير ، اخرج من فلسطين»<sup>(١)</sup> .

بدأ الصغير «عاموس» حلمه الطويل في أن يكون محارباً يهودياً يقود جيوشه لإبادة الأعداء في كلّ مكان ، ورفع العلم العبري إثر كلّ انتصار ، وقد خصّ العرب

---

(١) عاموس عوز ، قصة عن الحبّ والظلام ، ترجمة حمي غنام ، دار الجمل ، بغداد - بيروت ، ٢٠١٠ ،

والأقوام الشرقيّة بكثير من خياله الحربيّ، فقد أدته أحلام اليقظة إلى تكوين حلف مقدّس يقف في «وجه موجات الهمجيّة الشرقيّة الملتويّة الأحرف والمعوجة السيوف والمتوهّجة والمبحوحة، والتي تهدّد بالانطلاق من الصحراء لتذبحنا وتنهبنا وتحرقنا وهي تعول وتصرخ بعويل وصراخ يجمّد الدماء في العروق»<sup>(١)</sup>.

تشرّب الطفل بهذه الأحلام صغيراً في جوّ عائليّ مشبع بالخوف من الآخرين، ومولّد للكرهية ضدّهم؛ تبنّى العالم كراهية مركّبة لليهود؛ لأنّهم أذكى بني آدم، فيكونّ الفطنون والنابهون موضوعاً لكرهية البلهاء، وفيما كانت شعوب الأرض كلّها تعيش في أوطان سعيدة، فقد بخست حقّ اليهود في إحياء أرض صغيرة مهجورة وجعلها وطناً لهم، فعبرت عن كراهية مجرّدة عن أيّ سبب، وأطلقت نداء عامّاً تحقّره فيه وتطلب إليهم أن يذهبوا إلى فلسطين من أجل التخلّص منهم، وحينما أخذ اليهود بذلك، وأقاموا في تلك الديار، عاد العالم يصرخ بأن يخرج اليهود من فلسطين. جرح العالم الخارجيّ وجدان اليهوديّ، فقد أغرب بوجهه عن أمّة ذكيّة لا وطن لها، فلا يريد أن يكون لها موقع تحت الشمس.

أخفى هذا النمط من التربية التي تلقّاها «عاموس» كلّ ما ينبغي أن يصرّح به؛ إذ طمست الوقاحة كلّ الحقائق الصلبة، وبمكانها وضعت نسقاً متهافناً من الافتراءات جاءت بصورة شكاوى وأوجاع لاستدراج العطف، فكيف يستقيم أمر عالم ينكر على خيرة أبنائه وطناً؟ وما دام العالم يرتع في جهل بدائيّ فهو غير مؤهلّ للحكم على مصير النخبة الفطنة فيه؛ إذ لم يقدر قيمتها، واستكثر عليها الاجتماع في أرض هشّة قوامها المستنقعات والجبّال والصحارى، وحتى حينما استجابت لنداء الطرد واستوطنت تلك الأرض، فقد نكث العالم بما أراده وعاد يطالبها بالنزوح عن تلك الأرض. لا يضمّر العالم الغاطس في جهله غير كراهية مطلقة لخيرة الجنس البشريّ. وما دام الأمر بهذه الصورة البشعة والمتقلّبة فلا يلزم اليهود أن يعيروا انتباها لعالم يفتقر لكلّ المعايير السويّة، وعليهم أن يتفرّدوا بإقرار مصيرهم، ويمارسوا القوّة ضدّ الآخرين، ويعيدوا تعريف هويّتهم بالسلاح.

وعن هذه المقدّمة الزائفة تمخّضت نتيجة خاطئة صمت عليها «عاموس عوز» وقامت عليها فكرة الاستيطان، وهي الادّعاء بخلو فلسطين من أهلها، فهي

---

(١) م. ن.، ص ١٠٩

مستنقعات وجبال وصحارى ، فلا بأس ، والحال هذه ، من أعمارها وتحقيق الوعد التوراتي بامتلاكها . لقد جرى محو الفلسطينيين من العالم المتخيل للنص ، ولم يأت على ذكرهم إلا بصورة عابرة بوصفهم غاذج منتزعة من سياق لا يراد له الحضور في فضاء السرد . على أن تلك الكراهية كانت جامعة شملت العالم ، فلم يُستثن أحد من ذلك ؛ إذ غطيت جدران العالم كله بالشعارات المعادية لليهود ، مرة يطلب إليهم الذهاب إلى فلسطين من أجل إبعادهم والتخلص منهم ، وأخرى تريد منهم ترك تلك الأرض التي بنوها بالجهد والدم والمال . يا له من عالم تافه ينبغي عدم الالتفات لكل ما يصدر عنه ، ذلك ما تشبّع به الطفل من مسلمّات وهو يعيش مع والديه في القدس بيت معتم لا تزيد مساحته على ثلاثين متراً مربعاً حيث تلقن فيه الأفكار الصهيونية .

على أن تفاصيل إعادة بناء تلك الهوية جاءت معقّدة ، وفيها كثير من استبعاد المؤثرات الثقافية الخارجية ، وتحصين النفس من أخطارها ، وتضخيم الذات اليهودية وتغذيتها بالروايات الدينية ، فقد ذكر «عاموس» أن أباه كان يقرأ بنحو سبع عشرة لغة ، ويتحدّث بإحدى عشرة ، أمّا أمّه فتحدّث بخمس ، وتقرأ بسبع أو ثمان ، ولكنّ الأبوين أصراً على الحديث فيما بينهما بالروسية أو البولندية ليخفيا عنه أفكارهما وخصوصيّاتهما ، أمّا «أحلامهما في الليل فقد كانت بالتأكيد بالإيدش» . امتنع الأبوان عن تعليم الطفل أية لغة ما خلا العبرية التي لم يكونا يجيدانها خشية عليه من أن معرفة اللغات الأخرى قد تكشف له مغريات أوربا ، فالأجيال اليهودية الجديدة في إسرائيل ينبغي عليها أن تحبس في معتقد وثقافة ووطن ، ولا يجوز لها معرفة المعتقدات والثقافات والأوطان الأخرى . أراد الأبوان للابن أن يكون يهودياً نقيّاً غير ملوّث بأية ثقافة ، ما عدا الثقافة التي أصبحت اللغة العبرية وسيلة التعبير عنها ، وهي الثقافة اليهودية بحسب التعريف الصهيوني لها .

ارتبط ظهور العبرية بتجمّع اليهود في مكان واحد لتكون اللغة المشتركة بينهم ، حيث كانوا يعتبرون اللغة الواحدة من ضرورات اجتماعهم تحت سقف وطن واحد وعلم واحد ، جرى التخلّي عن «الأيدشية» لأنّها ملوّثة بالجرمانيّة ، وهي لغة قوم نكّلوا باليهود ، فلا يصحّ أن تكون وسيلتهم للتعبير عن أنفسهم ، فكانت العبرية الحديثة هي البديل المناسب لنشوء أمة جديدة على وطن جديد . ليس «عاموس» وحده من ينبغي عليه اجتناب التركة المريبة للشتات بلغاته وثقافته ، إنّما ينبغي على

«جيل الاستقلال» بكامله أن يلد ولادة جديدة بلغة ووطن وثقافة . فمن أجل تحقيق فكرة الانتماء ، لا بدّ من ممارسة عنف ضدّ اللغات الأخرى ، والإعلاء من شأن لغة واحدة تصبح علامة على الهوية . ومادام العنف ضد الثقافات الأخرى أضحي مشروعا ، فالأولى أن يمارس ضد الجماعات التي تعيش على الأرض التي سوف تصبح وطننا لليهود .

لا يخفى التوازي بين اللغات الكثيرة التي أجادها الأبنان وتعدّد البلاد التي قدما منها ، والاقتصار على العبريّة والإقامة في أرض الميعاد بالنسبة للابن ، فمن أجل إنشاء وطن لليهود فيه مواطن يجيد لغة واحدة ، ينبغي استبعاد كلّ ما يتّصل بشتات اللغات الأجنبيّة وبلادها ، وإذا كان توزّع اليهود بين البلاد واللغات قد هدّد بطمس هويّتهم الدينيّة ، فيلزم الابن أن يتمرّس بلغة أهله وقيم في وطنه ، فذلك يعصمه من أيّ ذوبان محتمل أمام الحراك العالميّ الذي يلتهم الهويّات الصغرى ، ويفكّك الأواصر الدينيّة والعرقية . ولم ترد في سيرة العائلة أيّة إشارة تعوق فعالية هذه المُسلّمة ، فالأجداد والآباء من النساء والرجال تشبّعوا باللغات والثقافات والمنافي ، وعلى الطفل وحده أن يخوض هذه التجربة ، فلا يسمح له إلاّ بلغة واحدة ووطن واحد ، ذلك هو مضمون الفكر الصهيونيّ الذي وجد سبيله للظهور في الكتاب من خلال عائلة «كلاؤزرن» ، وهي عائلة «عاموس» قبل أن يغيّر هو اسمه .

على خلفيّة الإطار الواسع لوقائع تلك السيرة ارتسم تفكّك داخليّ ، فقد تمرّقت الأواصر الداخليّة للأسرة الصغيرة التي تألّفت من الطفل وأمه وأبيه بعد «الاستقلال» ، ففيما رسم الكتاب الظروف الأيدلوجيّة والتاريخيّة والسياسيّة التي جمعت شمل اليهود في فلسطين ، وتأسيس دولة حامية لهم ، وصهر اليهود في جماعة واحدة تحامي عن نفسها الأخطار الخارجيّة كلّها ، وقع التمزّق في صلب الأسرة بعد تحقيق كلّ ذلك ، فقد انتحرت الأمّ يائسة ، وخرج الابن إلى معسكر العمل الزراعيّ «كيبوتس حولدا» ، وهو في الخامسة عشرة من عمره رافضاً السلطة الأبويّة ، ثمّ أخفق الأب في تحقيق حلمه في أن يكون باحثاً ذا شأن في الثقافة اليهوديّة ، وشغل بزواج ألهاء عن ذلك حتى سقط ميتاً بسكّنة قلبيّة .

نقض التفكّك العائليّ فكرة لمّ الشمل اليهوديّ الهادفة إلى تكوين هوية مخصوصة ، فإذا كانت فكرة جمع الشمل قد ربطت بين الشتات اليهوديّ والوعد التوراتيّ والكراهية التي نشأت ضدّ اليهود في أوربا بين الحريين العالميّتين ، فإنّ



التحلل العائلي حدث بعد زوال تلك الأسباب ، وانطفاء الأحلام المرجأة ، ومواجهة الظروف المباشرة للحياة على أرض الآخرين . لقد جرى الاحتفاء بإعادة تعريف الهوية اليهودية ، وأهملت نذر الخطر التي لاحت في الأفق ، فحينما لا يقع اعتراف بحق الآخر فهذه هي الوسيلة الوحيدة لجعله ممكناً .

هذا المنحى المضمّر للمصائر القابع تحت سطح السرد حيث تنقض الأحداث الواقعية فحوى المرويات التوراتية عبر التفكك الأسري يجعل الوفاء بوعود الهوية ملتبساً ، ومشكوكاً فيه ، وربما شبه متعذر ، وهو يفتح الأفق على ضرب من الكتابة السردية اليهودية-العربية حيث ترد الأحداث برمتها إلى أوطان ما قبل إسرائيلية ، فلا يقف السرد على أحوال اليهود في «الوطن التوراتي» إنما يرتد إلى وصف أحوالهم في الأوطان الأصلية ، وأفضل ما يتجلى ذلك في الرواية اليهودية التي كتبها روائيون يهود عراقيون بعد ترحيلهم إلى إسرائيل . إن الغاء الدولة الجديدة من فضاء السرد بصورة شبه كلية ، والانشغال بحياة اليهود في العراق ، يفهم منه الاعتراض الواعي أو غير الواعي على استبدال هوية بأخرى .

## ٢. اللغة وهوية التابع:

قدّم «نعيم قطّان» في سيرته الروائية «وداعاً بابل» ، كشفاً بأوضاع اليهود العراقيين في بغداد خلال أربعينيات القرن العشرين ، فقد جاء النصّ سيرة نشوئية لجيل من الكتاب الشباب عاصروا أحداث الحرب العالمية الثانية ، وما ترتّب عليها من نتائج داخل بغداد . وعبر قطّان -كما عبّر سواه من الكتاب اليهود العراقيين- عن الارتباك الذي أفرزته مفاهيم ثابتة للهويات العرقية والدينية والثقافية ، وشخصياته الأساسية تتنازعها رؤى مفارقة للجماعة اليهودية من طرف ، وامتنال لتقاليدها وطقوسها وإحساسها بالاقتراع ، فمكثت منحبسة في إطار ضيق ، ولم تتعدّها إلى طرح هوية مشتركة جامعة كانت تحلم بها ، وربما تريدها ، لكنها لم تجرؤ على تخريب حدود سوء التفاهم بين الجماعة الإسلامية الكبرى والجماعة اليهودية الصغرى ، إنّما شُغلت بما يمور داخل الجماعة الأخيرة من تطلّعات ، وما تعرّضت له من مضايقات ، وبخاصّة أحداث نهب (الفرهود) ممتلكات بعض يهود العراق في عام ١٩٤١ ، والتنكيل ببعضهم ، وما تركه ذلك من جرح نازف أدّى إلى تقويض صلة اليهود التاريخية بالعراق بوصفه وطنًا لجميع الطوائف .

ولم يلبث الكتاب أن فضح هشاشة العلاقة بين الجماعات الأساسية للمجتمع البغداديّ من مسلمين ومسيحيّين ويهود، لكنّه ركز الاهتمام على المكوّن اليهوديّ، وقدم رؤية مأساويّة للعالم اكتسب شرعيّتها من الجماعة اليهوديّة نفسها وتماهت معها، وقد عجزت عن بلوغ حالة الافتراق عنها؛ ذلك أنّ المسلمين ظهروا كتلة صماء لا يؤتمن أمرهم في كلّ ما يخصّ اليهود. وحرص الكتاب على اختزالهم إلى بدو لا يردعهم رادع، فرغباتهم العدوانيّة مكبّلة، وهي بانتظار أيّة فرصة لتنفلت، وتخرب كلّ شيء له صلة باليهود، والمثال المعياريّ لذلك هي أحداث الفرهود. وقبع مفهوم الهوية الأصليّة في الخلف متواريا، فالعراق وطن أصليّ للجماعة اليهودية وإن تناوشتهم فيه الأضرار، على أن هذا المفهوم للهوية جاء مبهما، فحينما تتوالى الأخطار على فئة معينة من الناس تنكفي على نفسها تلملم تصورا مضطربا للهوية يحتمل تعارض العناصر وتضاربها.

طُرحت الهويّة اليهوديّة في كتاب «وداعا بابل» من خلال اللهجة، أي طريقة نطق اليهوديّ العراقيّ للعربيّة، وهي طريقة مميزة يقع فيها قلب لبعض الحروف، واستبدال لبعضها، وادغامها، فضلا عن تنعيم خاص في مخارجها. بدا مفاجئاً أن يقدّم الأمر بنوع من القصدية والتصميم، ففيما كانت جماعة الأصدقاء من الكتاب تتجادل بالعربيّة في إحدى المقاهي البغدادية حول الطريقة التي ينبغي أن يكتبوا بها نصوصهم الأدبيّة، هل يجب عليهم محاكاة أسلوب سارويان وهمنغواي، أم استلهام أسلوب ألف ليلة وليلة، حدث أمر لم يكن في الحسبان، «لأوّل مرّة أخذ نسيم يتحدث باللهجة اليهوديّة». كان الحديث يتمّ من قبل بالعربيّة الفصحى، فتعبّر الجماعة عن أفكارها بتلك اللغة، لكن في ذلك المساء طرأ أمر جديد، فبعد أن وصل نسيم متأخراً، وحيّا أصدقاءه بطريقة مسرحيّة متكلّفة، لم يستطع أن يواصل المناقشة بالعربيّة، إنّما دفع بالنسخة اليهوديّة منها لتكون وسيلته للحوار مع أصدقائه. جرى اعتراض تيار الفصحى على ألسنة المتحدّثين بإحدى لهجاتها، لا ضير في ذلك فاللهجات العربيّة كثيرة، وكلها يستظل بالفصحى المعياريّة التي قد لا تناسب كلّ مقام، ولا تستجيب لكل مقصد.

تحدث نسيم قطّان عن «اللهجة اليهوديّة» ولم يشر للعبريّة بوصفها لغة اليهود، وبتلك اللهجة قصد العربيّة المحكيّة ليهود العراق، وبها يختلفون عن سائر ناطقي العربيّة في العراق وسواه، «في العراق يكفي حضور مسلم واحد في مجلس ما كي

تفرض لهجته نفسها على الجميع . ولكن هل هي لهجة عاميّة فعلاً؟ لكلّ طائفة دينيّة في بغداد طريقته في الكلام . وسواء كنّا يهوداً أم مسيحيّين أم عرباً ، فكلّنا نتكلّم العربيّة . نحن جيران منذ قرون إلّا أنّ اللكنة وبعض المفردات ظلّت علامات مميّزة وفارقة . . . يكفي أن يفتح أحدنا فمه ليشي بهويّته . في كلماتنا محفور شعار أصولنا . نحن يهود أو مسيحيّون أو مسلمون من بغداد أو من البصرة أو من الموصل . ولنا لغة مشتركة . . . معين لا ينضب للالتباس والتهكّم الشرس . . . وعادة ما يعتمد أنصاف الأميّين من اليهود إلى ترصيع جملهم بكلمة أو كلمتين من كلام المسلمين حتى وهم يتحدثون فيما بينهم ، فذلك يؤكّد أنّ لهم بين المسلمين معارف وعلاقات ، وأنّهم غير مقتصرين على عشرة اليهود البائسة . أمّا المسلمون فإنّهم لا يقتضون إلّا من العربيّة الفصحى . وليس لهم أيّ موجب لتسليط حكم سلبيّ على لهجتهم . بل هم لا يلتجئون إلى لهجات اليهود أو المسيحيّين إلّا للترفيه عن بعض الضيوف . وتتخذ آية كلمة يهوديّة خالصة في فم المسلم صبغة مرادفة لكلّ ما هو مثير للسخرية والازدراء . وإذا لم يقع التفكير في السخرية من اللكنة اليهوديّة في الأوساط المثقّفة والمتحرّرة ، فإنّه لا يقع التفكير في استعمالها أصلاً» (١) .

لوثّت لهجة اليهود من طرف لهجة البدو المسلمين ، هذا أمر مزعج لليهوديّ الذي يجد نفسه عريقاً في انتسابه التاريخيّ للعراق ، فيما البدو مجرد جماعة طارئة حديثة العهد فيه . وردت إشارة إلى ذلك أيضاً في رواية «فيكتوريا» لـ«سامي ميخائيل» لتعزّز هذه الفكرة التي شغل بها قطّان ؛ إذ تستعيد فيكتوريا الشخصيّة الرئيسيّة في رواية ميخائيل ، تميّزها اللغويّ وما يفصلها عن الجماعات العراقيّة الأخرى بوصفها يهوديّة ، وهي تتّجه إلى النهر للانتحار ، «كانت اللغة العربيّة التي جرت على لسانها لغة حضريّة قديمة ورقيقة بخلاف اللهجة الإسلاميّة البدويّة التي قدمت منذ عهد ليس ببعيد من الصحراء إلى الأماكن التي أصبحت خراباً وفقدت خصوصيتها . إذن فقد كان هناك جدار من الشكّ والجهل والنسيان يفصل فيكتوريا عن هذا الخليط من الشيعة والسنة والأكراد والآشوريّين والصابئة والفرس والتركمان الذين اجتازوا وإياها دجلة» (٢) .

(١) نعيم قطّان ، وداعاً بابل ، ترجمة آدم فتحي ، منشورات الجمل ، كولونيا ، ألمانيا ، ٢٠٠٠ ، ص ٧-٩

(٢) سامي ميخائيل ، فيكتوريا ، ترجمة سمير نقاش ، دار الجمل ، كولونيا ، ألمانيا ، ص ٧٣

لن يبعدنا هذا الاستطراد عن «نسيم» ورغبته المعلنة في طرح هويته اليهودية من خلال لهجته ، فهو يريد صون تلك الهوية بجعل لهجتها وسيلة للتداول يعترف بها الجميع ، ولن يقبل أن تكون موضوع انتقاص من أحد الأطراف ، فحينما يستخدم المسلم اللهجة اليهودية ، فإنما ليسخر ويزدري ، فلهجة المسلمين تستبعد لهجات الآخرين ، وتفرض حضورها ، فيتوارون خلف كثافة هذه اللهجة شاعرين بالإقصاء . وقد جرى التواطؤ على قبول هذه الإستراتيجية اللغوية في المحافل العامة ، لكن نسيمًا بتعمده النطق بلهجته اليهودية في أثناء الحوار عن الأدب الجديد في العراق ، إنَّما قصد أن يعيد النظر بكلِّ ذلك ، وزحزحة المسلّمات ، فالشراكة تقتضي مشاركة كاملة في وسائل التعبير ، ومنها تقاسم لهجات العربية .

حول هذا الأمر الخاصّ بصراع الهويات اللغوية قدّم الراوي الاستدراك الآتي : «في مجموعتنا لم نكن يهوداً ولا مسلمين . كنّا عراقيين مهمومين بمستقبل بلدنا ، وبالتالي بمستقبل كلّ منا . على أنّ المسلمين كانوا يحسّون بأنهم عراقيون أكثر من الآخرين . ومهما قلنا لهم : «هذه أرضنا ونحن هنا منذ خمسة وعشرين قرناً ، وإننا سبقناهم إلى هذا المكان» ، فإنّهم لا يقتنعون . نحن مختلفون . . . هويتنا ملوثة . فليكن . قررّ نسيم أن يتحمّل مسؤوليّة اختلافه وأن يفرض الاعتراف بهذا الاختلاف . لم يكن راغباً في الإقناع ولا كان يحاول تقديم براهين . كان يعرض أمراً واقعاً : نحن يهود ولا نخجل من ذلك»<sup>(١)</sup> .

تخيّل الراوي أنّ ذلك سوف يحدث صدعاً في الجماعة ، فمن الصحيح أنّ الأغلبية تتفاجأ حينما تقترح الأقلية موقفاً مغايراً ، فالتبعية ترسّخت بفعل الغلبة ، لكنّ صدعاً كالذي انتظره لم يقع ؛ إذ قُبلت الخصوصية المقترحة ، وهُضم الاختلاف الذي طُرح بغتة أمام الجميع ، وكسب نسيم رهانه في نهاية الجلسة ، «لأوّل مرّة أخذ مسلمون ينصتوا إلينا باحترام . صرنا لائقين بلهجتنا متألّقين في ملابسنا الخاصّة بنا . أفواهنا أخذت تستعيد أشكالها الحقيقيّة . تلك الأشكال التي ما انفكّت تستعيدها منذ أجيال في حميميّة البيوت . كنّا نتجلّى من خلال صورة في تناغم تامّ مع وجوهنا ودون أيّ نشاز مع تفكيرنا . أصبحنا غير مصبوبين عنوة في قالب جماعيّ غريب عنّا وغير واضح المعالم . كنّا هناك في فرادتنا الهشة والمتوهّجة . ولم تبق تلك

---

(١) وداعاً بابل ، ص ١٠

الفردة علامة إهانة ولا رمز ازدراء . وبكلمات يهودية خالصة أخذنا نضع خططاً لمستقبل الثقافة العراقية . أصبحنا غير مضطرين إلى التخفي وراء ستائر مساواة وهمية . صارت ملامحنا تخرج من الظل وتتشكل دون أن تشبه أحداً . كنّا هناك بوجوهنا السافرة ، وقد تمّ تعريفها والاعتراف بها أخيراً»<sup>(١)</sup> .

قُبلت الشراكة على مستوى الجماعة الأدبية ، على أنّه ينبغي إلّا نتوهم بأنّها قُبلت في صورتها النهائية على مستوى المجتمع بكامله ، فذلك وقع بين جماعة من الكتاب الشباب الذين كانوا يتطلعون إلى مغادرة انتماءاتهم الأهلية الضيقة ، وقبول بعضهم بعضاً ، لكنهم سينتهون إلى محاكاة الأغلبية ، والانخراط في مروجياتها الكبرى عن نفسها وعن غيرها . تعبّر الأغلبية عن نفسها بصورة مباشرة ، فيما تلوذ الأقلية بطرائق ملتوية . ويختلف رهان التعبير عن النفس عند الأغلبية عمّا هو عليه عند الأقلية . يريد نسيم أن يتطابق مع هويته اليهودية في محيط إسلامي كبير ، وذلك حقّ مكتسب ، لكنّه يتسبّب في خدوش متواصلة للآخرين ، فهو يريد أن يقف معهم على قدم المساواة بوصفه مواطناً وبخصوصية يهودية ، لكنّ الآخرين يريدون تكبيله ضمن يهوديته التي وضعت في موقع أدنى . ولهذا يلزمه نوع من الاستفزاز ، وما لا يقبله سواك ، فليس من العدل أن تقبله .

كان نسيم مسرحياً شاباً شغل بكبار الكتاب اليونانيين والفرنسيين والإنجليز إلى درجة أصبح فيها «فريسة لحمى شبيهة بحمى نماذجه» . وللتعبير عن علاقته بالمرح كتب مسرحية تراجيدية بملامح معاصرة ، وجعل شخصياتها بأسماء هيلينية ، فقد أراد أن يوارب بمقاصده ، ويدكّ الصعاب بطريقة رمزية ، ولكن بسبب عدم وجود مسرح لتحويل النصّ إلى عرض مسرحي ، فقد رغب في نشرها أولاً . نوّهت إحدى الصحف بقرب صدور المسرحية في كتاب ، وظهر اسم المؤلف «نسيم إبراهيم» بدل «أبراهام» . لم يكن التحريف كبيراً على المستوى اللغوي ، فالمقصود كما يقول الراوي ، هو «الشيخ نفسه أبو إسحاق وإسماعيل الذي وردت أخباره في التوراة والقرآن»<sup>(٢)</sup> . لكنّ استئثار إبراهيم باسم أبراهام ، ودفعه إلى منطقة النسيان ، أحدث ردّة فعل قويّة عند نسيم الذي أخذ على حين غرة ، فقد أريد بالتحريف أسلمة عائلته ، «كان

(١) م . ن . ص ١١-١٠

(٢) م . ن . ص ١٣

يهودياً ، وكان يريد أن يظهر إلى القراء كيهوديٍّ ، ولن يسمح لأحد بأن يحجب وجه أبراهام تحت قناع تنكّرٍ لإبراهيم»<sup>(١)</sup> . لم يع نسيم طبيعة التحوّل الصرفي في الاسم كما ورد ذلك في التوراة ، وما ترتب عليه من الانتقال من رتبة خاصة إلى رتبة عامة ، فقد أراد من الصيغة اليهودية للاسم دعماً لهويته اليهودية في مجتمع يتشكك فيها .

التمايز اللغوي الذي يحيل على الهوية الثقافية توارى خلف نزاع رمزيّ حول الهوية الدينية . لم يقع تفهّم للتغيّرات الصرفيّة في اسم العلم ، إنّما وقعت خصومة دينيّة ، فأن تنطق الاسم «إبراهيم» فهذا يعني أنك تريد به أبا الأحناف ، أي الجذر الأعرق للإسلام ، وبمجرد إقرارك بأنّه «أبراهام» ، فإنّك تؤمن بالرواية التوراتيّة القائلة بأنّه الأب الشرعيّ لأنبياء اليهود ، ثم الأمة اليهودية ، وفي هذه الحال يصبح الإسلام في الهامش ، أي ملحقاً بأصل يهوديٍّ . ارتسم سوء تفاهم عميق بين شخصيّات مثقفة حول صيغة صرفيّة لرجل رُجّح وجوده قبل نحو أربعة آلاف سنة ، وذلك متّصل بمعنى الهوية المغلقة على نفسها . لم تصمد علمانيّة الشخصيّات أمام تلك الرواية ، سواء كانت قرآنيّة أم توراتيّة ، فكأنّ الحاضر بكلّ ادعاءاته يستسلم لمرويّات الماضي التي تكرّس سرداً متماسكاً لم يزل يغذّي الحاضر بكلّ ضروب التعصّب والغلوّ .

### ٣. فرضية الارتياح الجماعيّ:

يحيل هذا الاختلاف حول الهوية على نوعين من الاندماج/النزاع في المجتمع العراقيّ خلال تلك الحقبة ، اندماج بين النخب الثقافية الحديثة التي تريد تخطي حبسة طوائفها ، وانتماءاتها الدينيّة والعرقية من أجل بناء مجتمع حديث تنصهر فيه الأطياف كافّة ، لكنّها تفشل بسبب تصاعد الأيدلوجيّات القوميّة والدينيّة ، والإيمان بالمرويّات التأسيسيّة حول الأديان والعقائد ، فهو اندماج يضمّر نزاعاً مبطناً تدفع به الأفكار القوميّة العربيّة ، والأفكار القوميّة اليهوديّة ، وهو ما أدّى إلى انقسام المجتمع حول تلك الأيدلوجيّات وغاياتها ، ثمّ نزاع أشمل وأعمق يتّصل هذه المرّة بالتشكيلات الكبرى للمجتمع ؛ لأنّه يستمدّ فاعليته من التمايز المبنيّ على سرد

---

(١) م. ن. ص ١٣

خياليّ يقول بالتفاضل ، ويضمّر شيئاً من التوجّس والخوف والكرهية ، وقد تفجّر بطريقة بشعة في أحداث النهب في عام ١٩٤١ .

وقف قطّان على ذلك في «وداعاً بابل» ، لكنّه صاغه بطريقة مباشرة في روايته «فريدة» ، قائلاً : «مهما تفانى اليهود في التعبير عن وطنيتهم ، وفي نفي أيّ ميل للصهيونية ، وفي إنكار أيّ صلة بالصهيونيين القادمين من الغرب ، فإنّهم يظلّون يهوداً ، أي مشكوكاً في ولائهم»<sup>(١)</sup> . يتغذّى الارتباب الجماعيّ من فرضيّة لها صلة بالرواية التوراتيّة للتاريخ ؛ إذ تدّعي الجماعة اليهوديّة أنّها عراقية أصليّة ، وأنّ العرب طارئون قدموا من الصحراء . وثمة دمج لا يخفى بين تاريخ الجماعة اليهوديّة وتاريخ العقيدة اليهوديّة ، فطبقاً للرواية التاريخيّة فإنّ الجماعة اليهوديّة سُبّيت من مملكة «يهوذا» ودمّر هيكلها في عام ٥٨٧ ق. ب. ، واقتيدت إلى بابل في عهد الملك الكلدانيّ «نبوخذ نصر» ، حيث دوّن الأخبار من الأسرى كتاب التوراة ، ثمّ كُتبت شروحاته الأصليّة المتمثلة بالتلمود . وهذا يقصد به ظهور جماعة دينيّة منفيّة بلا وطن وقد اكتسبت وطناً بالمعيشة التاريخية الطويلة . لكن فكرة المنفى ظلت قابضة في الخيلة العامّة كجزء من فكرة الشتات ، وهي فكرة مكينة من المرويات اليهودية ، وينبغي وضع حدّ لها في نهاية المطاف طبقاً للوعود الغزيرة في تلك المرويات .

عُرض هذا الأمر بصورة ملتبسة في سياق نزاع الهويّات ، «لا صلة للعرب ببابل . حين فتحوها كنّا سكانها الأصليين . جئنا إلى هنا أسرى . عبيداً لنبوخذ نصر» ، إلّا أنّنا انتصرنا على الرغم من هزيمتنا . وعلى هذه الأرض كتبنا التلمود»<sup>(٢)</sup> . عُدتّ بابل موطناً يهودياً ، فهم سكانها الأصليّون ، وهذا لا ينسجم مع الرواية الرسمية التي روجت لها الصهيونية ، ونظر إلى العرب على أنّهم عصبة غازية تدفقت من صحراء شبه الجزيرة ، فقد جاؤوا حاملين تقاليد الغزو الصحراوي ، وعند حدوث أيّ احتكاك يكشف العربيّ المسلم عن معدنه البدويّ الأصيل : النهب والسلب والقتل «مع أوّل انفراط للقوانين والرقابة يستعيد المسلمون غريزة الذبح»<sup>(٣)</sup> .

ولهذه الصورة المعتمدة رديف في رواية «فيكتوريا» ، ففي سياق الحديث عن بغداد

(١) نعيم قطّان ، فريدة ، ترجمة آدم فتحي ، منشورات الجمل ، كولونيا ، ألمانيا ، ٢٠٠٦ ، ص ١٣٠

(٢) وداعاً بابل ، ص ٦٦

(٣) م. ن. ص ٢٤

ورد الآتي : «بغداد راسخة في مكانها لأكثر من ألف عام . وتلك المدينة الكبيرة التي تطوّرت عن قرية نائية في أطراف الإمبراطورية الساسانية تدين بالكثير لآباء فيكتوريا (اليهود) . لقد ساهم الأطباء والعلماء والمفكرون والسياسيون والأدباء اليهود مساهمة كبيرة في بلورة الحضارة العربية التي نشأت هناك . لكنّ أجيالاً من الغزاة والفيضانات والأوبئة والملاحقات والمذابح لم تعمل فقط على إضعاف القوى الروحية للطائفة اليهودية بل وجعلتها تفقد ذاكرتها . وقد انزوى اليهود كذلك في حيّ ضيّق جداً ، فولد الكثير منهم وكبروا ثمّ هرموا وماتوا دون أن يغادروه ، تلك الطائفة التي ألّف أجدادها التلمود البابليّ وطفقت طموحاتهم الآفاق ، تقلّصت آفاقها إلى حدّ كبير»<sup>(١)</sup> .

يبدو العراق وطناً لأبنائه اليهود ، فيما لم تقع الإشارة لإسرائيل . ولكن ارتسمت صورة سلبية للمسلمين بوصفهم غزاة بالطبيعة ، وينبغي الحذر منهم . ففي عمق الخيّلة اليهودية يترسّخ خوف من المسلمين ، ولطالما حذّرت الجدلّة أبنائها وأحفادها من مغبة الذهاب إلى الأحياء الإسلامية كي لا تقع المخالطة الكاملة ، وحتى زيارتها لبعض الأسر الإسلامية كانت تتمّ بكثير من الحذر والبرود ، فكلّ تفكير بعلاقة مع المسلمين قد يتبعه توثيق الروابط والصلات ، وذلك يعني دخول المسلمين في المنطقة اليهودية . وكانت الجدلّة حذرة من أن تقابل زياراتها بزيارات مماثلة ، فذلك يقضي إلى اندماج غير مرغوب لا تريده هي . وفي المقابل نظر المسلمون إلى الجماعة اليهودية بريبة ؛ لأنها غير حائزة على سمة المواطنة الكاملة ، ولكونها حسب تصوّرهم تغلب الانتماء للعقيدة على الانتماء للوطن ، وهي موصومة بالدونية من لدن المسلمين ، وغير مؤهلة لأن توضع موضع المساواة معهم ، وذلك من التركة التي خلفها مفهوم «أهل الذمة» .

حدّد الموروث الدينيّ المواقع والرّتب وقرّر الأدوار ، وفي ضوء ذلك بدا الاندماج اليهوديّ داخل الجماعة الإسلامية متعذراً في الرواية اليهودية ، وإن حصل فهو مصطنع يقوم على فكرة الخداع ؛ لأنّه من الباطن نزاع مؤجلّ سيعبر عن نفسه في ظلّ أية أزمة . لا تحوز الشخصيات استقلالية كاملة فهي رهينة التحيزات الدينية ، ولهذا يتعرّض الراوي ونسيم إلى مضايقات بوصفهما يهوديين في مدرسة إسلامية ، إذ لم يقع هضم الأغيار في ثقافة نهضت على مبدأ الفصل بين الأديان والمذاهب والأعراق .

---

(١) فيكتوريا ، ص ص ٧٤



ولم يرد ذكر لوجود مسلم في تجمع يهودي سواء أكان مدرسة أم كنسياً أم منزلاً ، فيما أتيح لليهود التجوال في أماكن المسلمين بوجود نوع من الرفض المبطن لهم . فوحدهما المبغي والمقهى كانا المجالين اللذين تتشارك فيهما الشخصيات جميعها بغض النظر عن خلفياتها الدينية ، فالمومسات والقوادون والرواد من طالبي اللذة وجلاس المقاهي ، يتوغلون في تلك الأماكن ، عابرين الحدود الوهمية بين طوائفهم ، وغير أبهين بخلفياتهم الدينية والعرقية ، فما يعينهم بالدرجة الأولى هو الاستمتاع والمناقشات الذهنية .

طور قطن هذا الموضوع في رواية «فريدة» ؛ فالمغنية اليهودية الشهيرة تصبح عشيقاً لأحد أهم رجالات بغداد ، فالمتعة الجسدية لا هوية لها . وتراجع التخيلات الفاسدة إلى الخلف حينما تحضر متع الجسد ، وينبغي على التابع أن يستجيب لرغبة المتبوع . فقد عرضت مصائر ملتبسة لمجموعة من الشخصيات في ضوء الأوضاع المزعزعة للطائفة اليهودية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين في العراق ، فاختيارات الشخصيات حددها الوضع الهش لليهود في وسط إسلامي متوجس ، وطائفة منكفئة على نفسها .

شكلت أحداث «الفهود» اختباراً فاصلاً بين المضي في انتماء اليهود للعراق وطننا لهم ، أم البحث عن وطن بديل حيث ترتسم دولة إسرائيل في الأفق ، ففي الأرض «المقدسة» كمن الوعد الأخير بالطمأنينة والشعور والانتماء ، وكل ما سوى ذلك عارض ولا سبيل لاختبار صلابته . فقد ناجى «سليم عبد الله» نفسه وهو يتأهب للرحيل باتجاه إيران : «طهران ليست سوى محطة ، بضعة أشهر ويغادرها نحو مكان آخر حيث سيكون عليه أن يخترع لنفسه عالماً آخر ، وحيث سيكون عليه أن يولد من جديد رجلاً جديداً . هناك سيتلاشى ماضيه في ماضي شعب بأسره»<sup>(١)</sup> . فكرة اختراع وطن تنفي فكرة الوطن الطبيعي ، لكنه أفصح عن حلمه التوراتي ، وهو يخاطب عشيقته «فريدة» قبل وقت قصير من مغادرة بغداد : «سنلتقي في بلد جديد بنبيه بأيدينا ، سنشيد لنا بيتاً ونعيش حياتنا الجديدة . لن يكون لأحد أن يشهر في وجهنا إصبعه . لن يكون لأحد أن يشعر تجاهنا بالغيرة أو الاحتقار . سنكون أشباهاً

---

(١) فريدة ، ص ٢٣٦

ونظراءَ وستنكلم لغة واحدة . اللغة التي سنتعلمها . وسيكون لكل كلمة المعنى الذي نراه»<sup>(١)</sup> .

وكان الراوي في «وداعاً بابل» قد ناجي نفسه بعد زيارة إلى بابل اكتشف فيها أنّها هي موطن اليهود إثر سبيهم ، فاستعاد رحلة النفي لشعبة اليهودي ، كما صورتها المرويّات التوراتيّة ، «ونحن في طريق العودة ، لم أحسّ برغبة في الأكل ولا في الغناء . كنت في صفّ المتناومين إلّا أنّي لم أكن نائمًا . أغمضت عينيّ وأخذت أرى نفسي حافي القدمين ، ماشيًا على الرمل الحارق ، وعلى الظهر حمل ثقيل ، إلى جانب إخوتي الأسرى ، ونحن نعبر الصحارى والأنهار والسهول دون أن نحني الظهر أو نخفض الرأس . كنّا نغمض الجفون على مشهد ذلنا ، مهثئين أنفسنا لنمنح العالم التلمود ، ذلك الكنز من الحكمة الأبديّة»<sup>(٢)</sup> .

وجدت صورة الإذلال التي تعرّض لها اليهود في سبيهم مكانة في الرواية اليهوديّة ، فمن ذلك ما ورد في رواية «فيكتوريا» من خوف كامن في المخيطة اليهوديّة من سبي جديد ، فخلال الحرب العالميّة الأولى دُعر اليهود ، وخيّم عليهم خوف من أن يكونوا ضحايا للحرب ، لكنّ العارفين ببواطن الأمور هدّؤوا خواطرهم قائلين بأنّ ميدان الحرب بعيد عن بغداد ، فالحرب «تدور رحاها على بعد شاسع أبعد ممّا يتصوّر الخيال ، ولا خوف من نبوخذ نصرّ جديد يهدم أسوار بغداد ويسوق يهودها إلى العبوديّة في المنفى»<sup>(٣)</sup> .

وقد أصرّ «سليم عبد الله» على أن يظهر بوصفه ضحيّة دينيّة ، وتجاهل الأخطاء الشخصية التي سقط فيها ، ومن الصعب تخريج هجرته من العراق على أنّها نتيجة اضطهاد مقصود يقتضي مغادرة الوطن ، فهي بحث عن حلّ لشخص هارب من وجه العدالة . قد يقع خلاف في كونه متورّطاً في جريمة قتل صديقه اليهوديّ «ساسون قره غولي» ، ويحتمل أن يكون ثمّة توريط سببه المال أو مجرد اختلاق تهمة ، لكنّ سيرته الشخصية وعلاقته بالقتيل من جهة ، وصلته بالمغنّية «فريدة» من جهة ثانية ، ترجّح أن تلفيق سبب دينيّ لهروبه لا يمكن الأخذ به ، فلطالما كان شخصية دينيّة ، عاشر

---

(١) م . ن . ص ٢٤٣

(٢) وداعاً بابل ، ٦٦-٦٧

(٣) فيكتوريا ، ص ٩٤

المومسات وضارب بالأموال ، ثم سقط في سلسلة من الأخطاء أنقذته منها عشيقته ، وتمكّنت من تهريبه من السجن بعد حكم بالمؤبد وإيوائه في منزل عشيقها «جواد هاشم» مدير شرطة بغداد لمدة طويلة ، وهيّأت له الفرصة ليعيش بعيداً عن الأنظار ، وقد تنكّر بأزياء النساء لممارسة حياته في قلب بغداد ، وطاف أزقتها متخفياً ، وهو ما سهّل له أمر الهرب إلى طهران تجنباً لإلقاء القبض عليه . فكيف تلتصق بتأمّلاته ومناجاته أسباب أخرى للهجرة لها صلة بهويّته اليهوديّة؟

قضيّة إنتاج هويّة زائفة لسليم ، بوصفه يهودياً مضطهداً على خلفيّة من أوضاع قلقة ليهود العراق ، أمر لا تدعّمه أسباب سرديّة متينة في النصّ ، فقد كان خروجه أقرب ما يكون إلى عمليّة تهريب قامت بها عصابة غامضة . وبعبارة أخرى إذا كانت المنظّمات الصهيونيّة النشطة في الوسط اليهودي ، قد دفعت كثيراً من اليهود الساخطين نتيجة التميّز الدينيّ في العراق ، بسبب تصاعد الأيدلوجيّات القوميّة والوطنيّة ، للهجرة إلى «أرض الميعاد» ، وهو ما أشارت إليه روايتنا «قطّان» بصورة واضحة ، فإنّ سليم عبد الله لم يكن يندرج ضمن هؤلاء ، فهو لم يكن حاملاً للرسالة اليهوديّة التي تقتضي تضحية ، إنّما هو رجل مغامر سقط في هفوات دنيويّة ، وليس من العدل أن يبحث عن تخريج يهودي لقضيّته . فكلّ الشخصيات اليهوديّة المجاورة له في العالم السردّي الافتراضيّ للرواية - وبخاصّة «فريدة» و«ساسون»- تمكّنوا من شقّ طريقهم في الحياة ، وسط مصاعب عامّة تماثل ما يواجهه غيرهم ، وإذا كان ساسون قد ذبح في مسلخ اللحم ، وأصبحت «فريدة» أشهر مغنيّة في العراق ، فذلك إنّما لأنّ السرد تعقّب المسار الشخصيّ لمصائرهم ، أمّا سليم فقد جاءت نهايته ملفّقة .

تنجرف شخصيات قطّان في تيّار الحياة البغداديّة ، وتلامس روح النزاع الكامن بين الطوائف والأقليات ، ويدّعي بعضها أنّه منخرط في المشروع الوطنيّ العابر للانتماءات الدينيّة والعرقية ، لكنّها تنتهي أسيرة هويّتها الدينيّة الضيقة ، ويظهر المسلمون بدواً أشراراً اكتسحوا المجال العامّ ، وسيطروا عليه ، ف«فريدة» تتوجّس من جواد هاشم لكونها يهوديّة ، فيما لم يبادلها الخوف نفسه ، ومع أنّه منحها ثقته ، وخصّها بمنزل كبير وخدم ، فإنّها استغلّت ثقته لتوريط حرسه وأتباعه في تهريب عشيقها سليم من السجن ، ونقله إلى البيت الذي خصّصه لها دون أن تفكّر بالتبعات المتربّبة على ذلك لو كشف أمره .

لقد جرى استغلال مدير الشرطة ، فأوى في بيته من حيث لا يعلم ، متهمًا هاربًا من السجن ، وورّط حرسه في أمر تهريبه ، وأجبر خدمه على طمس السرّ ، وإخفائه عنه داخل بيته . وهو أمر له ما يناظره في «وداعًا بابل» ، فنسيم والراوي ينخرطان في علاقة متوازنة مع الجماعة الإسلامية من أصدقائهما ، ولا يظهر أن مسلماً ينوي سوءاً بهما ، ومع ذلك ظلّ توجّسهما قائماً . وفي الروایتين تستعاد أحداث النهب على أنّها رفض لجماعة غريبة ، فتلك حادثة بصمت في الأفق خطراً ماحقاً ، وصار ينبغي على كلّ يهوديٍّ أن يفكرّ بالهجرة ، فالهوية اليهودية غير معرّفة إلّا بوصفها مصدراً لعدم الثقة ، وفي ضوء هذا التأويل يشعر اليهوديّ بدونيّته ، وبأنّه غير مقبول ، وينبغي عليه مغادرة وطن معروف إلى آخر مجهول .

لم تكن الجماعة الإسلامية بريئة من استشراف ثقافة الكراهية في أوساطها وفي علاقاتها بأصحاب الأديان الأخرى ، لكنّ انكفاء الجماعة اليهودية على نفسها في أحياء خاصّة ، رسّخ في الخيال الجماعيّ أنّها تشكيل هشّ في علاقته بالآخرين ، وإقرار بعدم الرغبة للانتماء في الجماعات الكبرى ، بغية الحفاظ على الهوية اليهودية ، ففكرة «الغيتو» تقليد ملازم للأخلاقيات اليهودية العامة ؛ لأنّ الجماعة موعودة بأرض أخرى طبقاً لرواية التوراة ، ويزداد الأمر تعقيداً بالنسبة للعرب ، حينما يدركون أنّها تتطلّع إلى إقامة «وطن قوميّ» على حساب جماعة عربية من السكان الأصليين ، فيقع صدام بين المرويات يغذي سوء التفاهم بمزيد من الشكوك ، وذلك يؤدّي إلى توتر دائم في العلاقات . يشعر اليهوديّ بأنّه مقتلع ، وقد أجبر على العيش في منفى مؤقت ، لكنّه موعود من الربّ بتصحيح الخطأ في يوم ما ، والعودة إلى الوطن ، فيما يرى المسلم أنّ الأخذ بهذا الوعد سيؤدّي إلى اقتلاع جماعة عربية من فلسطين .

#### ٤. الهوية الفردية والهوية الجماعية:

ظلّ «نسيم» هشاً في انتماؤه العراقيّ ، ولازمته فكرة الاقتلاع اليهودية ، وأطبقت على أفكاره وأحاسيسه ، فتزامن بحثه عن هويّته الدينية ، مع بحث مواز عن الهوية الثقافية ثمّ الهوية الجسدية ، فهو يتطلّع إلى استكمال هويّاته كلّها ، لكنّه يتعرّض في مساره الصاعد شأن أيّ شابٍّ يمرّ بالحقبة الرومانسية ؛ إذ ينزلق إلى مناطق الدهشة الدائمة ، والاكتشافات الشخصية المحمومة ، سواء كان ذلك على المستوى الثقافيّ أو

الجسديّ ، فما يشغله هو الكتب والنساء ، لا لبس في عراقيته لكنها هوية قلقة تنتظر سببا لانحسار زخمها .

كان قد بدأ يتعلّم الفرنسيّة كجزء من المقرّر الدراسي في مدرسة «الأليانس» ، وهي مدرسة علمانيّة أسّستها الإرساليّة اليهوديّة الفرنسيّة لتعليم اللغات والعلوم الدنيويّة ، فتعرّف هوغو ولامارتين وألفريد دي موسيه ، ثمّ درس حكايات لافونتين ، لكنّه تخطّى كلّ ذلك وقرأ أندريه جيد ومالرو ، وتخيّل ألاّ أحد سواه في بغداد يعرف الكتاب الفرنسيّين المعاصرين في أربعينيّات القرن العشرين . لكنّه شغف بأراغون ، وبسببه «بدت لي فرنسا أرضاً مختارة لم أشك لحظة واحدة في أنّها المكان الذي تتحقّق فيه الرغبات كلّها ويشبع فيها كلّ ظمأ مهما بلغ من الحدة»<sup>(١)</sup> .

كانت فرنسا ، خلال الحرب العالميّة الثانية ، تعيش نزاعاً بين حكومة فيشي التي أقامها الاحتلال الألمانيّ ، وحكومة فرنسا الحرّة بقيادة «ديغول» ، التي تمكّنت من السيطرة على لبنان وسوريّا ، فجاء لاختبار الطلبة اليهود في بغداد معلّمون أرسلتهم سلطات فرنسا الحرّة . طُلب من التلاميذ في موضوع الإنشاء أن يشرحوا معنى لبّيت شعريّ قاله «ألفريد دي موسيه» تغنّى فيه بالعذاب والألم ، لكنّ الراوي استغلّ ذلك فعرج على ذكر جيد ومالرو ، وبما أنّه تخوّف من ألاّ يكون الممتحن قد سمع بهذين الكاتبين ، فقد ذكر من باب الحيلة لقباً أمام كلّ منهما : «الكاتب الفرنسيّ المعاصر المعروف» .

أمّا في درس المحفوظات فطُلب تدوين ثلاث قصائد من الشعر الفرنسيّ ، فكتب هو قصيدتين لأراغون وبودلير ، ولسدّ الذريعة خطّ نصّاً من خرافات لافونتين . أراد بذلك أن يزحزح موقعه ، ويلفت النظر إليه ، وينخرط في مغامرة غير مضمونة ، فربّما يكون الممتحن من أنصار القدماء ، فيقع هو في المحذور ، وربّما يكون سمع بأراغون أو مالرو ، فيكون قد ربح المغامرة . خيّم عليه قلق كامل ، وحينما التقى الممتحن ، وتأكّد أنّه فرنسيّ ، وصف حاله كالاتي : «ظللت أنظر إلى ممتحني بلهفة شديدة . كان أوّل فرنسيّ حقيقيّ أراه بلحمه وعظمه . هذا الرجل ينتمي إلى جنس موليير وبودلير . كنت أرى له قدرات سحرية هائلة ، وأكاد أوقن بأنّه ليس مثلاً إطلاقاً»<sup>(٢)</sup> .

(١) وداعاً بابل ، ص ص ١١٦

(٢) م . ن . ص ١١٧

حينما يشعر المرء بأنه مقتلع يفقد توازنه ، ويجد في رغباته نوعاً من الخلاص النهائي لمصيره ، بدا له المعلم الفرنسي كائناً جاء عبر الأثير . وفي الامتحان الشفوي طُلب إليه شرح قصيدة بودلير ، فتلعثم ولم تسعفه ذخيرته من استحضار المرجعية التي عبر بودلير عنها في قصيدته ، فتطوَّع المعلم وشرح له مقاصد الشاعر ، فغمره شعور مفاجئ ، «اكتشفت من خلال حديثه أن فرنسا تحتوي على آلاف التفاصيل الملموسة ، وأن لها حياة يومية وتقاليد دينية كنت أجهل عنها كل شيء ، ولم يكن وفي وسع أي كتاب أن يجعلني أعرفها» (١) .

فضحت شروحات الأستاذ جهل التلميذ ، «صدمت باتساع معلومات ذلك الشاب الفرنسي البسيطة والحقيقية التي جعلتني أتعرف مدى جهلي . في بغداد وفي مجال الفرنسية الذي لم يكن لي فيه معارضون كثر لقلّة المطلعين عليه ، كدت أتصور أنني أصبحت حقاً مرجعاً لا يعلى عليه . كنت متربّعاً على عرش معرفة أتضح أنها موهومة . فجأة تداعت ثقتي في نفسي دفعة واحدة . أثبت لي الفرنسي بالدليل المفحم أنه لا يكفي أن نعرف أسماء بعض الكتاب ، ولا حتى أن نقرأ بعض كتبهم» (٢) .

لا يخفى التوازي بين هوية متوهمة وهوية حقيقية ؛ فقد الطالب توازنه ؛ إذ تعرّض لطعنة من المعلم الذي كشف له كل ما تضمّره قصيدة بودلير ، وباختصار فقد فضح ادعاء تبجّج به مع نفسه ، ولكن الفتى الذي تراجع تحت ضغط جهله بالمرجعية الشعرية لصاحب «أزهار الشر» ، تقدّم ثانية تحت إحساس خادع بأنه أعرف من المعلم بأراغون ، «لا شك أنه لم يسمع حتى بوجود مواطن فرنسي يحمل هذا الاسم» . ولو كان المعلم قد سمع بهذا الشاعر ، فلا بد أن يكون قد «أعجب بتكريمي لأحد منشدي فرنسا الحرة التي ينتمي إليها» . فقد كان أراغون من أنصار المقاومة الفرنسية ضدّ النازيين .

بدا الممتحن الفرنسي وكأنّه لم يهتمّ بصاحب «عيون إلزا» ، فلمّا وضع الطالب القصيدة تحت نظر الأستاذ بزهو ، اكتفى هذا بأن قال : إنها «قصيدة جميلة» . حاول الطالب دفع أستاذه إلى منطقة حرجة معتقداً أنه بجوابه السريع ربّما يكون يجهل

(١) م . ن . ص ١١٧

(٢) م . ن . ص ١١٧-١١٨

الشاعر ، فطرح سؤاله بصيغة الإيجاب «تعني أنك سمعت به» . وجاء الجواب صاعقاً خرب كل شيء ، «طبعاً إنه أحد أصدقائي» . اضطرب الطالب وأصيب بالدوار وهزته المفاجأة ، فهذا هو بجوار شخص يعرف أراغون مباشرة ، «لم أصبح الشخص الواقف أمامي غير ممتحن ولا فرنسي» . كان أحد المختارين الذي ينتمون إلى جنس العظماء ويعيشون إلى جانب الآلهة والأنبياء»<sup>(١)</sup> .

ومضى الشاب مسحوراً بتبعيته ، «نسيت الامتحان والقصائد وأراغون نفسه . كنت في حضرة ممثل حي عن تلك المملكة السحرية التي ينتمي إليها أصحاب أروع الأسماء التي تتصدر الكتب الفرنسية . أصبح ذلك الحضور حقيقة ملموسة . أصبحت غير مجرد منصت إلى تلك الأصوات القادمة من بعيد ناشرة المعرفة والحكمة . ها هي تلك الأصوات الجبارة لرجال حقيقيين تصلني عن طريق هذا الخيط المضيء»<sup>(٢)</sup> . ولما طلب إليه الأستاذ مرافقته إلى الفندق ، «فجأة خيل لي أن بغداد تنفجر بألف بريق جديد . اتخذ هذا القادم من عالم مخفي في بطون الكتب في نظري هيئة كائن هوائي نوراني ، أصبحت غير قادر حتى على رؤيته بالعين المجردة . أحاطت به هالة من صنع انفعالي الشديد»<sup>(٣)</sup> .

تطلع الشاب للعثور على هويته الشخصية في ثقافة أخرى ومكان آخر ، غزاه السحر الفرنسي ، فتخلخلت علاقته بالمكان وباللغة ، وخيمت عليه آمال الصبا في أن يجد ذاته في مكان آخر . إن عجزه عن العثور على نفسه في بغداد المضطربة بصراع الهويات دفع به للبحث عن مكان بديل ، لكن ذلك لم يكن منقطعاً عن جانب آخر كان يتفاعل في أعماقه ؛ إذ ينمو لديه اهتمام بالكتابة القصصية ، ويفوز بجائزة ، ثم يشرع في إرسال نصوصه إلى الصحف ، فلا يجيبه أحد ، وقبل أن يستسلم لليأس يصله خطاب من رئيس تحرير إحدى المجلات يطلب إليه زيارته . تلك بارقة أمل أحدثت فيه خضة ، تماثل ما ستكون عليه خضة الفرنسي ، وكل ما شغل به ، وهو على عتبة الاعتراف الأدبي ، أنه كان صغيراً ، ومجرد مراهق بسرّوَال قصير ، فلكي يعترف به فلا بد أن يكون كبيراً ، ولا يسمح ليهودي مراهق من ارتداء بنطال ، إلى

(١) م . ن . ص ١١٨

(٢) م . ن . ص ١١٨

(٣) م . ن . ص ١١٩

كلّ ذلك فإنّه يخفي عن أهله الأمر ، كي لا يكون مثار سخرية .  
 غادر المدرسة في الموعد المحدّد ، واتّجه إلى المجلة في دار عتيقة يسكنها رئيس التحرير وهو كاتب مشهور ، وخلال الطريق مرّ بحيّ البغاء ، ورأى الماخور فاستشير ، وتلوى جسده بالرغبة المؤجّلة . ليس ما يحتاج إليه فقط اعتراف أدبيّ ، بل هو بحاجة أيضاً إلى اعتراف جسديّ ، ولا يمكن له أن يبلغ المكانة الأولى ، إن لم يمرّ بالتجربة الثانية ، فتزاحم في داخله أمران ، رغبته في أن يعترف به كاتباً ، ورغبة جسده المكبوتة لأن تخوض تجربة جنسيّة ، «صرت على مقربة من الحيّ الذي يوجد فيه الماخور . ودون أن أشعر قلّلت من سرعتي وقد غلبني الفضول . أمام مكان التيه والضيق ذاك كانت فحولي الناشئة تنسيني المخاوف والمحاذير . النساء هنا يتمتعن بكلّ ما يمكن أن يحلم به المرء . ليس عليّ سوى أن أعبر الشارع . إنهنّ جاهزات للاستعمال ، لا ينتمين إلى عالم الأحلام والخيال . ولكن هل أجروّ على اجتياز العتبة؟»<sup>(١)</sup> . سقط في منطقة الحيرة والارتباك ، فهو يريد طقساً شخصياً للعبور قبل الاعتراف به أدبياً . وضعته الرغبة أمام سؤال جوهرّي مفاده البحث عن اعتراف جسديّ ، فذلك يؤهّله للاعتراف الثقافيّ ، ولما خانت شجاعته الطريّة ، راح يبحث عن عذر لفشله ، إنّه السروال القصير الذي فضح عمره . لقد مرّ بجوار الحقيقة العظمى ، لكنّه انعطف هارباً من تعرّفها ، فانفلت مسرعاً وخائفاً من أن يضبط بنخاوطه المحرّمة .

توازت في كتاب «وداعاً بابل» هويّتان ملتبستان ، هويّة الراوي وهويّة طائفته اليهوديّة ، وكلتاهما مرتهنة بوعد ، ومنجرفة إلى مصير غامض بسبب صعاب الاندماج في الوطن الأصلي ، لا تعثر الطائفة على أيّ نوع من الطمأنينة في بلد يعاد فيه تعريف الهويّات ، ولا يجد الراوي إنّه قادر على العثور على نفسه ، لا في المكان ولا في اللغة ولا في المجال العامّ ، وباستثناء المبعي والمقهى ، فهو بانتظار سبي جديد كما سبي أجداده إلى بابل ، سوف يختار فرنسا بوصفه فرداً ، لكنّ جماعته سيعاد أمر ترحيلها مرّة أخرى إلى «منفى» جديد بمزيج من التهريب والترغيب . هذه الدائرة من الارتحال الدائم العابر للأزمنة والأمكنة نجد لها مثلاً باهراً في شخصيّة «شلومو» التي تمثّل المركز الجاذب لكلّ شيء في رواية «شلومو الكرديّ وأنا والزمن» لـ«سمير نقاش» .



## ٥. محاولة لاسترضاء الله:

تشير رواية نقاش مثل روايتي قطّان ، جملة من الأسئلة المتّصلة بهويّة اليهوديّ الذي كلّما توهم أنّه وجد ملاذاً في بلد ما اقتلع من جديد ، فكأنّ ثمّة سخطاً ربّانياً لا يزول إلّا بعودته إلى أرض الميعاد ، لكنّها تختلف عمّا يقترحه قطّان من حلول ، فالشخصيّة الرئيسيّة فيها تواجه بالدين والمال شعوراً مترسّخاً بالهشاشة . يتنازع اليهوديّ المساكن للأغليبيّة الإسلاميّة انتماءً ، انتماء خاصّ لطائفة دينيّة ، وانتماء عامّ لثقافة كبرى ، فشلومو بن يهوذا كتّاني الكرديّ ، تلازمه الطقوس اليهوديّة وأدراج التوراة وصرر المال حيثما كان ، ولا ينفكّ يحمل معه كتاب الصلوات وشال الصلاة (الطاليت) ، ثمّ الحزامين الجلديّين اللذين اعتاد المؤمنون من اليهود على لفّهما حول رؤوسهم وأذرعهم في أثناء الصلاة (التفيلين) . وهو شديد الحرص على تناول اللحم الحلال (الكاشير) ، وكلّ ذلك من التقاليد التي ترسّخت خلال العصور الوسطى عند اليهود ، ويعاد تمثيلها في هذه الرواية بوصفها جزءاً من هويّة اليهوديّ .

لا يخفى التماثل بين شلومو الكرديّ وبين المؤلّف ، فهما يعرضان رؤية مأساويّة حول الاقتلاع والتشرّد ، فكما أنّ سمير نقّاش عاش في العراق وإيران والهند وإسرائيل ثمّ بريطانيا ، فإنّ بطل روايته يُدفع إلى خوض تجربة مناظرة في عالم سرديّ افتراضيّ يغطّي هذه الأمكنة ، باستثناء الأخير . فالرواية شهادة سرديّة ذاتيّة على ترحّل بين مدن وبلدان يستعيدها شلومو الذي عاصر نحو قرن من الأحداث ، وهو شيخ هرم في مستعمرة «رامات غان» في فلسطين ، حيث ختم مسار حياته الطويلة في هذه المستوطنة ، وهي التي توفي فيها نقّاش في عام ٢٠٠٤ ، فتطابقت نبوءة الشخصيّة مع حال المؤلّف . وكان شلومو حريصاً على رواية سيرة حياته ، بوصفها حكاية اعتباريّة ليهوديّ عاصر أحداث القرن العشرين في إيران والعراق ، «يحلولي أن أعيد حكايتي ألف مرّة قبل أن يطويها معي الموت والنسيان»<sup>(١)</sup> .

وصف شلومو نفسه بأنّه الذي «رأى بعينيّ عقله ميلاد الأحداث وهي في رحم الغيب وتكهّن بمسارها ، فافتدى بماله نفوساً كثيرة»<sup>(٢)</sup> . فقد تنبأ بما سيحدث لطائفته اليهوديّة ، مؤمناً بأنّ ذلك قدر إلهيّ ، فإيمانه الدينيّ أعمى بصره عن التصرفات

(١) سمير نقّاش ، شلومو الكرديّ وأنا والزمن ، كولونيا ، منشورات الجمل ، ٢٠٠٤ ، ص ٢٥

(٢) م . ن . ص ٣٠٩

الدينيّة للبشر . من الصحيح إنّه شغل بتفسير النزوع العدوانيّ الذي استبطن بني الإنسان ولازمه طويلاً ، لكنّه أحال ذلك إلى رغبة إله عازف عن الرحمة ، وهو ما يذكرّ جزئياً بموقف إله اليهود ، فتفسيره للصراعات الإمبراطوريّة في أذربيجان بين العثمانيّين والروس لا يعزوها إلى مصالح دينيّة ، إنّما إلى أنّ تلك القوى مساقاة لتنفيذ رغبة شريرة غامضة . لم يبد شلومو معارضة معلنة يفصح فيها عن موقف رافض لاحتلال مدينته ، وجلّ ما كان يقوم به هو الذهاب إلى الكنيس ، وقراءة الصلاة «القدّيش» على أرواح الموتى . وكنز المال لدرء مجاعة متوقّعة .

ولكن بموازاة هذه القدريّة الدينيّة ، برهن شلومو على أنّه يهوديّ متسامح ، فقد تعالى عن انتمائه الدينيّ الضيّق ، وشمل بحبّه المسلمين والنصارى في صבלاخ (مهاباد) ، وأخفى في منزله طوال مدة الاحتلال الروسيّ الأخيرة للمدينة ، أسرة شريكه «مير علي» وهي أسرة مسلمة ، وتشارك معها الطعام والمصير ، فيما كانت صבלاخ تهوي تحت ظلال مجاعة مميتة وموت شامل . وبإزاء درجة عالية من التفاني الأخلاقيّ كوفئ شلومو بتشرّد دائم ، فقد هرب إلى العراق في نهاية الحرب العالميّة الأولى ، على خلفيّة تهمة ملفّقة مؤدّاها تعاونه مع «الغرباء» ، فقرّر شاه إيران إعدامه ، ثمّ رحّل من العراق إلى إيران ، بعد أن استقرّ به المقام في بغداد لثلاثة عقود ؛ لأنّه كان إيرانيّاً ، ولم يحز الوثائق العراقيّة ، وأخيراً توجّه إلى إسرائيل لأنّه فشل في أن ينخرط ضمن النسيج المجتمعيّ العامّ ، وفي محطّته الإسرائيليّة شرع يروي كلّ ذلك .

لاحت في أفق العالم المتخيّل للرواية قوى غامضة تكافئ العمل الخير لشلومو بانتقام فادح ، فعلى المستوى الشخصيّ بدا مكافحاً في بسط فكرة التسامح والأخوة والشراكة بين الجميع ، مهما كانت أديانهم وأعراقهم ، ولكنّه على المستوى الرمزيّ كان منقاداً لقوّة مبهمّة دفعت به إلى ترحّل متواصل . فقد رجّحت رؤيته للعالم أنّ الإنسان مُساق بقدريّة إلى مصير مأساويّ ؛ إذ لم يمت أحد في الرواية موتاً سعيداً بين أفراد أسرته ، وسائر الشخصيّات لاقت حتفها في ظروف صعبة تراوحت بين القتل والموت البطيء جوعاً . وخيّمّت مشاهد الموت على أجزاء كثيرة من النصّ ، ف«شلومو» خاضع لقوّة غامضة ، وكلّ فعل بشريّ مرجعه إرادة إلهيّة غاضبة لا يمكن استرضائها ، فإلى جواره يتساقط مئات القتلى ، جراء نزعات مدعومة برغبة الله ، وكأنّهم يفتدون بأنفسهم شعباً متعالياً . سعى شلومو طوال الرواية إلى جمع أدلّة تؤكّد عبثيّة الوجود البشريّ على الأرض ، وما دامت الحياة سلسلة طويلة من الأحزان

تنتهي بالفناء ، فلا حاجة بالإحساس الدينيّ المبهج ؛ لأنّ الجميع بانتظار موت محتّم .

استندت تجربة شلومو على المبدأ الآتي : «في غبش الأشياء وجدت الذريعة ، وفي غمرة الإعياء عثرت على الحجّة»<sup>(١)</sup> فهو باحث عن ذريعة لتصرفاته قبل أن تتّضح معالم الأسباب ، ومتعلّق بحجّة حينما يكون عاجزاً عن الفعل ، فالسلام الداخليّ الذي يغمره ، وله صله باسمه (شلومو= سلام) يقابل ببحر من دماء وجوع قاتل وحروب ونزوح لا نهائيّ وفرضيّته عن مصائر البشر معلّقة برغبة إلهيّة غاضبة ، لا تني تطلب مزيداً من التضحيات . ولهذا ظلّ أميناً على طقوسه الدينيّة ، وحمل أدراج التوراة في هجراته . وبقيت روحه معلّقة بخيط رفيع إلى سماء شغوفة بالدم ، وحيثما يصل فثمّة يهوديّ يقدّم له المساعدة الأولى ، قبل أن يشرع هو بكفاحه الشخصيّ . وهو كفاح لم يتعدّ الحصول على المال الذي وجد فيه دريئة لعوز قادم لا محالة . فاقترنت لديه الطقوس الدينيّة بالإيمان ، وجمع المال بالكفاية .

كشفت الرواية المسار الفرديّ لحياة شلومو ، وهو ليس فقط الشخصية المركزيّة فيها ، إنّما الراوي الرئيس لأحداثها ، وسائر الشخصيات الأخرى جاءت لاستكمال النواقص التي يستحيل تقديمها بدون تلك الشخصيات الثانوية ، فظهرت عصاميّة شلومو في عالم مهووس باقتراف الأخطاء ؛ إذ لم يجد نفسه في سياق تفاعليّ مبهج إلّا مع زوجته الأولى «أسمر» دون أن يصرّح بذلك ، فحياته سلسلة متواصلة من الجهود المرهقة لجمع المال بهدف درء غائلة جوع لا يعرف متى تحلّ ، وحينما تقع الواقعة فعلاً تكون قد تحقّقت نبوءته . فهو يتحرّك في محيط معلوم ، ولا تنتابه إلا مخاوف يوميّة حول ما سوف يقع ، أمّا على مستوى وعيه العامّ ، فكلّ شيء قرّر مسبقاً بإرادة عليا لا سبيل لكشف نواياها . يدفع اليهوديّ ثمناً لعذاب دائم لا يمكن تفسير أسبابه .

من الصحيح أن شلومو تعرّض لتمييز دينيّ وعرقيّ بوصفه يهوديّاً كرديّاً ، ولكنّ ذلك التمييز نفسه جزء من ثمن ينبغي تسديده لإله لا يعرف الرضا ، فقد لاحقه وجماعته غضب الله حيثما كانوا . وهو في الوقت الذي تشارك فيه مع الآخرين ببعض متع الحياة الدينيّة ؛ فإنّه انضمّ في الآخرة إلى جماعة تفانت من أجل إله

---

(١) م . ن . ٣٥٢ .

غاضب ، لكنه ظلّ عازفًا عن إمكانية الاسترضاء ، وعلى هذا ينبغي عليه أن يتواطأ مع جماعته اليهودية في قبول سخط إلهيٍّ غامض لا سبيل لمعرفة غايته ؛ فالترحال والأذى والشعور بالظلم ، كلّها مظاهر دنيوية رافقت مصيره ، وجرى قبولها كأمر لا بدّ منه .

إبان الحرب العالمية الأولى اقتحمت القوات الروسية شمال غرب إيران ، واحتلت مدينة صبالاخ ، وذلك دفع بالإمبراطورية العثمانية المدعومة من طرف ألمانيا لاحتلال المدينة التي تسكنها جماعات إسلامية ومسيحية ويهودية معظمها من الأكراد . كان شلومو تاجرًا كرديًا ويهوديًا ، فاختير ليكون مسؤولاً عن طائفته ، على الرغم من صغر سنّه ، فأمرته القوات الروسية بإبلاغ اليهود بالتزام الهدوء ، وسيكون موضوع مساءلة أمامها عن كلّ حالة تخلّ بالأمن . خرج شلومو لتبليغ الجماعة اليهودية فرداً فرداً عن مضمون الالتزام الذي فرض عليه أمام الروس ، وبما أنّ ليلة الشتاء كانت مظلمة ومثلجة ، فقد تجمّدت قدماه ، وشعر بتصلّب ساقيه ، وراح يرتجف ، فعاد إلى بيته بصعوبة وطلب من زوجته «أسمر» دفن الجزء الأسفل من جسده تحت روث البهائم . تزامنت صعابه الشخصية مع صعاب أهل المدينة قاطبة ، وتفسيره بأنّ ذلك غضب إلهيٍّ ، فقد خشي أن تغرق المدينة بالنار والدم . كان شلومو مؤمناً بالمصير اليهودي ، وفي حالته المزرية تلك استعاد مرويّاته الدينية ، «تذكرت الطوفان وغربة بني إسرائيل في مصر وخراب الهيكل الأوّل وخراب الهيكل الثاني وسبي آشور وسبي نبوخذ نصر»<sup>(١)</sup> . وتحقّقت مخاوفه ؛ إذ سرعان ما وقعت المدينة تحت أهوال الحرب من نار ودم . فما حدسه تحقّق طبقاً للنبوءة على غرار أحداث التاريخ .

لم يفهم شلومو طبيعة النزاع بين الروس (الكفار) وبين الأتراك (المسلمين) ؛ لأنّ ذاكرته التوراتية خارج المجالين ، ولم يصرّح بطاعته العمياء للجيش الروسي ، لكنّه شغل كثيرًا بوصف آلام قدميه المتجمّدتين ، فكأنّه دفع ثمن الخطيئة على المستوى الشخصي ، فكان علاجه بروث الأبقار والحمير والجياد والبغال ، وراح يتساءل : «أيمكن أن يحقّق المعجزة ، الدنس وقذارة الحيوان؟»<sup>(٢)</sup> . تقاسمت القوات المحتلة المدينة صبالاخ ، وتقاتلت في أطرافها ، وكانت تتبادل مواقعها أكثر من مرّة حسب

(١) م . ن . ص ١٦١

(٢) م . ن . ص ١٥٣

طبيعة الحرب ، وفي كل مرة ينكل أحد الطرفين بخصوصه من الجماعات الدينية في المدينة . يقتل الروس المسلمين ، ويفتك العثمانيون باليهود والنصارى ، فوقع على الأهالي حيف كبير بين قوات إمبراطورية متحاربة . فكان أن انتدب شلومو نفسه لوضع حد لهذه المشكلة ، وسعى لإعادة اللحمة للمدينة المستباحة من إمبراطوريات متنازعة . ذهب إلى الكنيس ، وطرح فكرته في خطبة للجمهور اليهودي ، « لا يخفى على أحد منكم يا إخواني ، أن بلدتنا المحروسة صبالاخ ، تعاني منذ زمن محنة عصبية لم نسمع من أسلافنا عن محنة تضاهيها ألت بها من قبل ، ولولا إخواننا المسلمين قد جمعوا وأجاروا الكثير منا في صبالاخ ، لمألت قبورنا مقبرتنا ، ولتضاعف عدد قراء صلوات الميت «القدش» في كنيسنا هذا . والآن ، وكلنا يسمع رعود المدافع المقتربة واللغط الشديد في الشوارع القريبة ، ندرك أن الجيش الروسي قد أصبح على أبواب صبالاخ حفظها الله ، وهذا يعني أن محنتنا وأخوتنا النصارى ، ستنقل ، لو دخل الروس البلدة ، إلى إخواننا المسلمين ، ومحنتهم كما تعرفون أشد وأقسى من محنتنا ، فللروس معهم ، كما يزعمون ، ثأر يريدون استيفاءه ، ولقد سبق ورأيت ما حل بهم ، حين احتل الروس صبالاخ في المرة السابقة ، فسارعوا يا إخواني كلا إلى جاره المسلم وصاحبه وصديقه ، فأووهم ببيوتكم قبل فوات الأوان ، كان الله في عونهم وعوننا وعون صبالاخ وكل من بها ، وليبارك الله كل من يؤوي جاره الساكن في وسطه ، أمين»<sup>(١)</sup> .

أظهر شلومو تسامحاً ، فرسم خطة جنّب بها بعض المسلمين الإبادة ؛ إذ فتحت بيوت اليهود للمسلمين ، فأوى شريكه «مير» وعائلته في منزله ، ثم تمكّن من نقل أثاث بيته برشوة الجنود الروس بقناني من النبيذ . وقد ظهر الختان بوصفه وسيلة للتمويه ، وليس طقس عبور واعتراف ، فقد فكّر شلومو باحتمال أن يعثر الروس على العائلة المسلمة لاجئة في بيته ، فوضع خطة مضللة لحمايتها ، «إذا بحثوا في بيوتنا ، فسنخبئكم بعيوننا يا مير . ثم إن أهل صبالاخ لا يخالفون في السيماء ، كما أنك على ما أذكر خنت ثلاثة من أولادك . لم يبق إذن إلا أن أعلمك شهادتنا اليهودية ، كي يرتبك الروس ونضج عليهم كل فرص الدنيا في القتل والإجرام داخل

(١) م . ن . ص ٢٧٥

بلدتنا»<sup>(١)</sup> . أصبح الطقس اليهودي سبباً لنجاة المسلم ، فأمام الموت جرى تخطي الهويّات الضيقة المميّزة للطوائف . وفي الختان يتشارك اليهود والمسلمون ، والى ذلك ينبغي تلقين أسرة «مير» الشهادة اليهودية .

## ٦. ذعر، ومجاعة، وأكلة لحوم البشر:

تتحرك الشخصيات في الرواية اليهودية العربية على خلفية شعور جماعيّ بوقوع كارثة ، فمصير الشخصيات الأساسية فيها غامض ، وعلاقاتها بالمكان طارئة ، وغالباً ما تلوح مظاهر ذعر جماعيّ يكون مصدره الآخرون أو الطبيعة أو التاريخ ، ففي رواية «فكتوريا» يفتح المشهد السردى الأول على فيضان نهر دجلة في بغداد خلال العقد الثاني من القرن العشرين ، ونزوح الأسر اليهودية الساكنة على ضفته خوفاً من الغرق . يتزايد الفيضان خطورة ، وتكتسح المياه الأزقة ، فتهرب الأسر تاركة المنزل العتيق في مسيرة جماعية ليلاً على ضوء الفوانيس .

وضمن هذا الإطار الذي يمثله خطر طبيعيّ ماحق ظهر اليهود باعتبارهم الضحايا دون سواهم من أهل بغداد ، فقد تكدّسوا جيلاً بعد جيل في بيت قديم من عدة طبقات لم تراع فيه الخصوصيات الفردية ، فنشأت أجيال من النساء والرجال معاً في نوع من الحياة المشتركة أقرب إلى المشاعية ، تتخللها نزاعات يومية حول الطعام والعمل والجنس والخوف ، فالشخصيات فاقدة لخصوصياتها ، إنّما يمكن الإحساس بالكتلة البشرية الضخمة التي يهددها خطر الفيضان وخطر الأتراك ، ثمّ الخروج بقافلة جماعية للنجاة وسط البرد والظلام . اتّضح تضامن المستسلمين بين أفراد الجماعة حينما لاحت نذر الخطر ، فالبيت المتهالك قبر كبير حشر فيه الجميع دونما تمييز ، بما في ذلك الحبأ السريّ الذي حفر تحت الأرض وخصّص لإخفاء نحو عشرة من الرجال المتوارين عن أعين السلطات التركية كي لا يقع سوقهم للمشاركة في حروبها الإمبراطورية .

وخيمت فكرة الخوف من مجاعة ماحقة في الفضاء السردى لرواية «شلومو الكرديّ وأنا والزمن» ، ولتجنّب ذلك شغل شلومو باكتناز المال ؛ فلا يُكبح الجوع إلا بالنقود حسب تصوّره ، وقد بذل جهداً كبيراً لترسيخ هذه الفكرة بين أهالي المدينة ،

---

(١) م. ن. ص ٢٦٠

فلم يأخذ بنبوءته إلا قلة قليلة منهم؛ إذ تجاهلت الأغلبية توقعاته المتبصرة، «الذين سمعوا تحذيري أو تكهنت عقولهم بما سيحدث، فحزنوا الطعام منذ البداية، نجوا من غائلة الجوع، لكن المعدمين ممن لم يصلهم ذوو القربى والحسنون، والمؤمنين بسحر الذهب وبقدرته على الإتيان بحليب الطيور، فقد أخذوا يبحثون عن الطعام بكل وسيلة، وحتى بخلاء الأثرياء في صبالخ شرعوا يبذلون مالهم بسخاء للحصول على اللقمة. كانت تلك أياما سوداء كالفحم نقشت في الذاكرة سطوراً داكنة لا تمحى»<sup>(١)</sup>.

جاءت الحرب بالجماعة، فالقتل يحمل معه أسبابه ونتائجه. تناوب الأعداء على احتلال المدينة «التي تحترق أطرافها وهي مطوقة بالنار، يصلبها الرعب والحرمان والجوع». وكان الموت مترصاً بالجميع، فالتهمت الحيوانات: الكلاب والقطط والفئران، «أكل الجياع كل ما يؤكل، وما كانت تعافه النفوس أصبح يلتهم بنهم وشراسة كأشهى الولائم، ثم وبسرعة خاطفة لم يبق في صبالخ سوى الخشب والحجر والحديد، فحتى الجلود طبخوها والتهموها، وشرع الجوع ينقذ وعيده بلا مبالاة. وأثبت أن معظم الناس في صبالخ لا يختلفون عن غيرهم من البشر في أرجاء العالم، وأن حالهم اليوم مثله مثل حالهم بالأمس البعيد وعلى مر العصور، وفي محك التجربة يُمحي الحب، وتُمحي القرابة، تُمحي الصداقة، وتُمحي الأمومة والأبوة، وتبقى الأنا في سياق البقاء»<sup>(٢)</sup>.

مرّق الجوع شمل الجماعة، وأعادها إلى حقبة التوحش الأولى في تاريخ البشرية، لا يستثنى من ذلك إلا قلة ارتقت إلى مصاف «الإنسان الحق» الذي لا يقبل أن يهوي إلى قرار الوحشية، ومن هؤلاء شلومو الذي ارتقى منبر الكنيس داعياً «طائفته إلى التعاون»، لكن العقد التضامني الذي يصونه الاكتفاء تمرّق جراء الإملاق الذي نهش الجميع، «فجأة بدأت مواكب الجنائز تتدفق في رحاب البلدة المنكوبة قاصدة مقابرها، وفي الطريق إلى المثوى الأخير لضحايا الجوع، كان يتساقط ضحايا من المشيعين. لقد أخذوا يشتهون لحوم موتاهم، وتحت جناح الظلام، حيثما وارى التراب أخاً أو زوجاً أو قريباً، كان الشكلى ينهلون على التراب الرطب، يزيحونه

(١) م. ن. ص ٢٧٥

(٢) م. ن. ص ٣١٥

بأظافرهم ثم يستخرجون أمواتهم ويقطعون أوصالهم ثم يلتهمونها وليمة شهية دسمة ستهبهم الحياة بعض الوقت ، وإلى حين تتسنى للمحظوظين وليمة اللحم البشري الأخرى . إنهم أولى بأحبائهم من الدود ، بل هم ينقذونهم من التعفن والتفسخ ويحمونهم من سطوة الدودة الحقيرة ، فيغيّبونهم في أحشائهم حيث يكمن اللحد الجدير بالأحباء ، أما الآكلون فقد وهبهم أحبائهم شهداء الجوع ، فرصة يحزنون بها عليهم ، بامتزاجهم بهم وتحويلهم إلى جزء منهم . وفوق هذا فهم يقيمون عليهم ما يليق بهم من الحداد . إنهم الآن اللحد والحزن والعرفان»<sup>(١)</sup> .

مضت غائلة الجوع تكتسح في طريقها كل شعور إنساني بالرافة ، فتهاوت أمامها الجموع ، «أخذت حشود الجياع - الشكالى تتنازع فيما بينها ، وكل يدعي ملكية الجثث وأحقّيته في التهامها . واكتشفت امرأة أنّ جارتها تأكل زوجها ، وحاولت اختطاف جثته من ترابها ، فدارت مشادة بين المرأتين الواهنتين تغلب فيها الخور والضعف ، فسقطت المرأتان ميّتين ، وجاء الورثة فدار صراع بينهم حول الأحقيّات والأولويّات ، وثارَت مشكلة «لن أوصت المرأتان بجثتيهما» . أصبح نزاع الجائعين حول المعايير الوراثية ، فتقدّم الموت خطوة أخرى ؛ إذ «نظرت امرأة إلى ابن لها ينازع الجوع ، وقبل أن يذرف آخر أنفاسه ، نفد صبرها فاحتزّت رقبتة واستحالت سحننتها إلى سحنة سعادة معتوهة ، فتلمّظت وسال لعابها ، ثم انهالت على «فلذة كبدها» بسكين ، ومضت تقطّع أوصاله وترمي أشلاءه شلواً شلواً في قدر من نحاس كبير ، يغلي ماؤه على نار متلظية ، وشم زوجها المريض هو الآخر جوعاً رائحة اللحم ينضج فوق النار ، فنضح الجنون من خلايا جسمه ، خلية خلية ، «فطالبها بحصته دون أن يعرف أنّها من لحم ابنه ، فتمنّعت الزوجة ، وأخبرته إنّ له لم يكن ابنه ، إنّما حملت به من رجل آخر ، واتّهمته بالجنون والخرف ، وردّ متّهماً إيّاها بالزنى ، وعقوبتها القتل ، وبما أنّه لم يكن قادراً على ذلك طلب منها أن تفتدي نفسها بقطعة من لحم الابن . مضغت الأمّ قطعة أخرى «بشراة الوحوش المتصورة ، ويجنون لا مثيل له» ، وأخبرت زوجها إنّ من المحال أن يكون ذلك ، «هيا الفظ أنفاسك يا مأفون ، لأستمع أنا بالحياة»<sup>(٢)</sup> .

(١) م . ن . ص ٣١٧

(٢) م . ن . ص ٣١٧-٣١٩



جردت المجاعة بني البشر من سويّتهم الإنسانيّة ، وأعادتهم وحوشاً في غاب يفتك بعضهم ببعض طلباً لنجاة مؤقتة ، فذلك قدر إلهي يختبر فيه الله مخلوقاته ، ويصبّ عليهم حمماً من غضبه ، وقد وقع إبعاد السياق المسبّب للمجاعة ، وجرى التركيز على الألم ، وخلال ذلك ظلّ شلومو يكتنز المال ، ويخزّن الغذاء بالأطنان ، فهو مدفوع برغبة جارفة لمقاومة جوع رآه كثيرون متخيلاً ، ولطالما أندر أهل المدينة بحقبة من الجوع والعوز والموت . وقدّمت الرواية تفاصيل مروّعة عن الكيفيّة التي تفنى بها الأرواح البشريّة ، وهي تلهث سعيّاً للحظات معدودات من الحياة ، فالموت الذي قدّرت النبوءة لا بدّ أن يجد له سبباً ، وهو الجوع الذي به ختمت حقبة شلومو في صבלاخ . وسط كلّ ذلك حامت فكرة الاقتلاع التي توازت مع وهم الاعتقاد بوجود استقرار ثابت ، «كنت رغم فطنتي على أكبر قدر من السذاجة ، لقد كان يخيل لي أنّ الإنسان إنّما يولد في بيت ليموت فيه ، وأنّ بلد المرء وحيّه وزقاقه وبيته ، هي قدره الملتصق فيه مدى الحياة ، إلّا أنّ ما جرى لي فيما بعد حطّم بي مفاهيم وأوهاماً كثيرة وأكّد لي على أشياء لم تكن تخطر على بالي»<sup>(١)</sup> .

## ٧. تضافر الدين والمال:

وجود شلومو في صבלاخ أو بغداد أو بومباي ، إنّما هو حلقات متعاقبة في مسار طويل من الاقتلاع المتواصل ، إنّهُ مربوط بعجلة دوران كبيرة تلفّ به ، وتأخذه حركتها الدائمة ، وتطويه معها ، وبإزاء عالم لا ينفكّ يدفع به صوب نهايات كارثيّة ، انكفاً على دينه وماله ، فهما الثروة الرمزيّة والفعليّة التي كان يدرأ بهما غضباً إلهياً ماحقاً وأطماعاً دنيويّة شرهة . عاد شلومو من موسكو إلى صبلاخ إثر رحلة تجارية مربحة ، فاستقبل بحفاوة مع قافلة التجار على أطراف المدينة ، وفرحت به زوجته «أسمر» ، فأخبرها بما أتى به من بلاد الروس ، ومن ذلك شراء بعض الأسلحة ، وفي استقباله كانت فتاة مغناج جميلة اسمها «إستير» . شغل شلومو بالصبيّة ، فبادرت «أسمر» إلى تزويجها إيّاه . إنّها نزوة فحل وينبغي أن تكافأ بعقوبة ؛ إذ يأتي الزواج المتعجّل بفأل سيئ ، ففي صبيحة اليوم التالي يُطرق الباب ، فإذا برسول الشاه قادماً من طهران يحمل أمراً بحضوره إلى البلاط الشاهنشاهي .

(١) م. ن. ص. ١٩٤

انصاع شلومو للأمر ، ووعده الرسول أن يمهله يوماً للحاق به إلى طهران ، لا تشغله هذه الأحداث عن فكرة جني المال ، ولا عن أداء طقوسه الدينية ، فأخذ معه حمولة ثلاثة بغال من «العفص» وكتاب صلواته ، والتيفيلين (التفليم) والطاليت (الصصيد) . قرّر شلومو أن يمرّ بـ«تبريز» للمتاجرة قبل التوجه إلى طهران ، وطوال الطريق كان يتصرّع إلى الله أن يوفّقه في تجارته ، وقد نسي أمر الشاه ، وبجوار عين ماء ، تعرّض لمحاولة سطو من قبل لصّين ، لكنّ الموقف تغيّر حينما عرف اللصان الأخوان «جعفر أكبر» و«وحسين أكبر» أنّه شلومو بن يهودا كتاني ، فقد أنقذهما أبوه من موت محقق ، بعد أن ألقت السلطات عليهما القبض ، وحكما بالموت . وبدل أن يخسر شلومو بغاله ، عرض عليه الأخوان ثمنًا مضاعفًا لها . رميا له بصرتين مملوءتين بالمال ، فغذّ السير إلى طهران ، حاملاً معه صرتي المال والرموز الدينية .

مثل المال والتيفيلين والطاليت وكتاب الصلوات ، جزءاً أساسياً من هويّة شلومو اليهوديّة ، فلا سبيل للفصل بينه وبينها ، وحينما وصل قصر الشاه تعرّض لتفتيش دقيق ، فجرّد من ملابسه ، لكنّه أبى أن تنزع عنه أشياءه ، «أوقفني حاجب الحضرة وأمرني بنزع ثيابي ونبش خرجي ، رأيت وما زلت أذكر عينيّه تلتمعان ببريق شهوة وحيرة ، شهوة المال والحيرة إزاء سيور جلديّة سوداء متّصلة بمكعبات كصناديق جلديّة ، إزاء قطعة قماش مخطّطة بطرفيها المحفوفين بخيوط الإبريسم المعقودة ، قلت له : «رفقاً باسم مولاي ومولاك ، وأبعد فظاظة يدك عن اسم الله كي لا يعاقبك ربّي وربّك بشلّ يديك» ، وصحيح أنّ عينيّه وجهتا إليّ سهاماً ناريّة إلاّ أنّ يده ما لبثت أن ارتدّت عن معدّات صلاتي مرتعدة ، وأعاد كلّ شيء لمكانه في الخرج ، وقال «ضع هذا هنا حتى تخرج ، فأجاب شلومو بالرفض» لا . لا . المال سيضيع ، ومعدّات صلاتي أستعملها ، ثمّ من قال إنّي سأخرج من هذا الجحر بأقدامي؟! سيبقى الخرج معي ، ويغادر القصر معي ، سواء إلى صبالخ أو القبر . لن أترك الخرج هنا ولو قطعت رقبتني»<sup>(١)</sup> .

انتزع شلومو الخرج من الحاجب وضمّه إليه ، وهو يُدفع إلى غرفة الشاه حيث أمر بالركوع أمامه . وجّه الشاه إليه تهمة تهريب الأسلحة إلى المتمرّدين في أذربيجان ، «بلغني أنّك تحرّض في كردستان على الثورة والعصيان» . في إشارة لمتاجرته بالسلاح

(١) م . ن . ص ١١١-١١٢

حينما عاد من موسكو . اعترف شلومو على مضض بأنه كان تاجرًا فحسب ، وليس من شأنه إثارة العصيان ضدَّ الشاه ، فكان جواب الشاه «لعلَّك في هذا صادق ، فلولا أنك يهوديّ وينحصر تفكيرك في المال وحده لأمرت الآن بتعليقك في الشارع العام . لكنني لن أتخلّى عن تأديبك ، كي لا يعمي المال بصيرتك في المستقبل ، اختر إذن بين خمسين جلدة عصا مرنة ، وبين مئة جلدة عصا جافة»<sup>(١)</sup> . أحدثت العقوبة تحديًا في نفسه ، فتمادى في حوارهِ مع الشاه الذي أمر بفرض العقوبتين عليه بسبب صلافته . وخلال عمليّة الجلد ، تماهى شلومو مع ربّه اليهوديّ ، «كان الله أمامي وورائي ، كان فوقِي ومن حولي ، وكنت مبتلغًا بغشاء واق من ظلّه سبحانه ، وأمنت بصمودي المستوحى من إيماني به ووقوفِي في وجه الظلم ، نزعت عني ثيابي العليا ، لكنني تشبّثت بمعدّات صلاتي ، أمسكت بها وعليها اسم الله ، وتركت المال في الخرج بجواري وسط حضرة الشاه وهو يتسلّى الآن بتعذيبِي ، وسيمزج بخمرته الدم الذي سينزف من ظهري»<sup>(٢)</sup> .

ظهرت صورة الشاه كشارب دم ، فهو يحتسي دم ضحاياه ممزوجًا بالراح كأنّه وحش أسطوريّ ، دون أيّة إشارة إلى الذنب ، فتعاقبت صور التعذيب التي بدا أنّ شلومو كان يلتذّ به ، ففقد وعيه جراء ذلك ، وحينما استعاده ، فأول ما تذكر كتاب الصلوات ومعدّاتها وصرّتي المال ، فوجدها بجواره ، لذلك غمره سرور داخليّ «لم يعبث الأوغاد بدينيّ ومالي» . وإثر التعذيب عولج شلومو ، وقدم له طعام «الكاشير» طبقًا للطقوس اليهوديّة ، فأصيب بالحيرة ، فقد استدعي من طرف الشاه الذي وجّه إليه تهمة مهلكة ، وعوقب إلى أن فقد وعيه ، وحينما استفاق فوجئ بطبيب معالج ، وبطعام حلال ، فظنّ أن ربّه أنجده وقت الضيق ، ولم يكن مخطئًا ، فسرعان ما تعرّف الشخص الذي قدّم له هذه التسهيلات ، إنّه «جلال رافضي» . فتساءل إن كان من الممكن أن تقع معجزتان في رحلة واحدة ، معجزة نجاته من الموت على يدي الأخوين أكبر ، ومعجزة نجاته من الموت في بلاط الشاه ، وتقديم العلاج والطعام من قبل رافضي؟

لم يكتف رافضي بذلك إنّما قام بتهريبه من السجن خلال غياب الشاه في

(١) م . ن . ص ١١٤ .

(٢) م . ن . ص ١١٥

رحلة إلى سان بطرسبرغ لقضاء الصيف مع قيصر روسيا نيكولاي رومانوف . لم يأخذ شلومو الأمر على أنه ردّ لجميل أبيه كما ادّعى رافضي ، بل طمع بماله ، « كانت نظراته تتسلّال عبر القضبان وكأنّه يبحث عن شيء ما . ساورني إحساس بأنّه يبحث عن خرجي - الدين والدنيا - كان الخرج ينحسر في زاوية الزنزانة ، ونظرات جلال رافضي ذبابة تحوم هناك ، حتى لأكاد أسمع طنينها ، وأخيراً قال ، وهو يبتلع ريقه « اسمع ! إنني أردّ جميلاً ، ولن أبقى لنفسى شيئاً » ، ضقت به ذرعاً وهتفت : « إن كنت ستخرجني حقاً ، فلماذا لا تخبرني ، كيف ومتى ؟ » لكنّه لم يعبأ بسؤالني ، بل قال : « أعطيت للطبيب حقّه ، وأعطيت للحاخام اليهوديّ حقّه ، ويجب أن أضمن سكوت الحراس ، وأشتريهم ، وذوي الشأن ببعض النقود كي ينسوك إلى الأبد »<sup>(١)</sup> .

توهم شلومو بأنّه اكتشف سرّ البلاط ، فبوسع المرء افتداء نفسه بماله ، لكنّه يريد أن يعرف مقدار المال الذي ينبغي عليه أن يدفعه لرافضي . قارن شلومو بين ابني أكبر ، وبين رافضي ، وظهرت له المفارقة بين لصّين محترفين ، وموظّف في بلاط الشاه ، فقد ردّ ابنا أكبر جميل أبيه بصرتين مملوءتين بالمال ، فيما أصرّ رافضي على أخذهما مقابل خدمة عامّة . في هذه المرحلة طوّر شلومو مفهوماً جديداً للمال ، بوصفه وسيلة افتداء ، دوغما ذكر للدين ، ففي داخله اتّهم رافضي باللصوصيّة لأنّه حرص على الاستئثار بالصرتين لنفسه ، « ببلاط الشاه تتربّع عصابة الصفوة ، يترأسها من ملأ خزائنه بكنوز سرقها من عرق شعوب إيران وكدحها » . ثمّ وجه خطابه الداخليّ إلى رافضي « وسواء عرفت أبي أو لم تعرفه ، وسواء أسدى لك المعروف الذي تتحدّث عنه ، أو كان هذا محض حديث خرافة ، فإنك بذكائك عرفت كيف تحافظ على مالي وإبقائه عندي لتأخذه منّي من بعد ، مصروراً لم ينل منه أحد غيرك قراضة فضّة واحدة » . وأضاف مناجياً نفسه هذه المرّة : « إنّي أحبّ المال ، فهذا المال قد رفع من شأنني وحباني وأهلي ببجوحة العيش . وستأتي أيّام تحرق الأخضر واليابس وسأستعمله في إنقاذ ناس حين يجفّ ضرع الدنيا فيموت جوعاً من ينجو من حدّ السيف وقذيفة المدفع »<sup>(٢)</sup> .

(١) م . ن . ص ١١٩

(٢) م . ن . ص ١٢٠

اعتقد شلومو أن الله أنجاه من الموت لأنه تسلّح بموروث اليهوديّ المؤمن ، فكتاب الصلوات ومعدّاتها أبعدت عنه الخطر ، وماله حرّره من السجن . أي الأحجية والأموال التي حرص على حملها معه ، وهو يتّجه لمقابلة الشاه القاجاري ، ولكن بعد أربع سنوات ، تفاجأ بزيارة غير منتظرة لرافضي في خضمّ أجواء الحرب ؛ إذ جاء يخبره بأنّ الشاه قرّر التخلّص منه نهائياً لتعاونه مع «الغرباء» ، وعليه الهرب للنجاة بحياته ، فاستحضر أمر المال الذي أخذه منه في السجن ، لكن رافضي خيّب ظنّه ، فقد أسره بأنّه يتحدّر من أسرة يهوديّة ، وعلى الرغم من أنّه أسلم ، فإنّ «العرق دسّاس» ، وينبغي عليه أن ينقذ يهودياً من الموت . يماثل ظهور رافضي ظهور «يهودا بحر» في بومباي ، الذي فتح أمام شلومو سبيل التجارة بين الهند والعراق ، وهذا نسق تكراريّ نجد له نظائر في الرواية اليهوديّة ، فمصدر الخطر يأتي من خارج الجماعة اليهوديّة ، وغالباً من طرف المسلمين ، فيما اليهوديّ هو الوحيد الذي يمدّ حبل النجاة لليهوديّ آخر يعيش المحنة .

وعلى غرار ما رأينا في حالة شلومو ، نجد في رواية «فيكتوريا» لسامي ميخائيل ، أنّ يهودياً كردياً هو الذي حال دون مقتل «إياهو بن ميخال» الذي ساقه ضابط تركيّ متعجرف ضمن فرقة من المجنّدين اليهود ، للمشاركة في الحرب العالميّة الأولى على الجبهة الروسيّة . فحيثما مرّ الجند كانوا يستولون على ما يحتاجون إليه من القرى في طريقهم إلى ميدان الحرب ، وفي كردستان لا يكتفي الضابط التركيّ بنهب الطعام ، إنّما يعتدي على ابنة أحد وجهاء الأكراد ، فيقومون بإبادة الفرقة كيلا يبقى شاهد يشي بهم عند الأتراك ، ولم ينج إلاّ إياهو الذي قدّم روايته للنجاة بالصورة الآتية : «لما تسلّقنا جبال كردستان ارتكب رئيس فرقنا خطأ فادحاً ، حيث مدّ يده ليس فقط على طعامهم ، بل على ابنة مختار كرديّ أيضاً ، فقتلوه على الفور هو وباقي رجال الفرقة كي لا يكونوا شهوداً . ورأيت أمامي فوهة بندقية وخلفها سحنة كأنّها الحجر ، فصرخت «اسمع يا إسرائيل الربّ إلها واحد» ، وتحركت الفوهة إلى الأسفل وظلّت مصوبة لمدة طويلة إلى أسفل البطن ، وكان في داخلي شخص ما يصرخ ، «لا تخصني ، اقتلني ولا ترحمني ، اسمع يا إسرائيل» . واضح أنّ يهودياً من نفس القرية أمسك بيد الكرديّ وأقععه بعدم قتلي . ركعت على ركبتيّ أبكي وأصبت بالإسهال . وخبّؤني في مغارة ، وبعد أيّام أخذني اليهوديّ إلى عين ماء وطلب منّي أن أنزل للماء حتى يصادفني جدول ، فأطلب الطعام من القرى التي على طول

الجدول حتى أصل إلى دجلة»<sup>(١)</sup> .

نجا إلياهو من الموت ، ومن المشاركة في جهاد المسلمين ، فهو غير معنيّ بكلّ ذلك ، وعاد متخفّياً إلى بغداد . وإذا كان شلومو قد حمل تعويذة النجاة الدينيّة معه ، فإنّ إلياهو قد نطق بشهادة الموت اليهوديّة ، فخطب إسرائيل بأن ينجيه مرّة ، وبألاً يفقده ذكورته مرّة ثانية ، واستجيب دعاؤه بظهور اليهوديّ المجهول الذي لم نجد له أثراً بعد ذلك في عالم السرد ، كما لم نجد أثراً لرافضي ويهودا بحر ، فالوظيفيّة السرديّة لهذه الشخصيّات هي تقديم المساعدة ، وعرض النجاة ، فالشخصيّة اليهوديّة تمخر عالماً مملوءاً بالأشوار ، ومع أنّها حذرة ومتأنية ، فإنّها تتخطّى الهلاك بمساعدة يهوديّ آخر لا دور له غير ذلك .

اصطحب شلومو معه إلى بلاط الشاه كلّ ما جنبه الموت ، حمل التيفيلين والطلالوت وكتاب الصلاة وصرتين من الليرات الذهبيّة ، وكان حريصاً على تناول اللحم الحلال «الكاشير» وهو في السجن ، وهذه عناصر متلازمة عند اليهوديّ المؤمن . ولكي تأخذ النجاة دلالتها ينبغي الوقوف على كلّ ذلك . يعد التيفيلين أو التفليم ، من مستلزمات الإيمان في الشريعة اليهوديّة ، وهو عبارة عن صندوقين صغيرين من الجلد الأسود يثبتهما اليهوديّ البالغ بشرائط من الجلد على ذراعه الأيسر مقابل القلب وعلى جبهته مقابل المخ ، وذلك في أثناء الصلوات الصباحيّة كلّ يوم ، فيما عدا أيّام السبت والأعياد .

ويحتوى الصندوقان على فقرات من التوراة من بينها شهادة التوحيد ، ويكون ارتداء التيفيلين بعد ارتداء «الطاليت» ، فتوضع تفيلاه الذراع أولاً ثمّ تفيلاه الرأس ، وتتلّى الصلوات في أثناء وضعهما . واعتمد الفقه اليهوديّ في فرضه لهذين التيفيلين على فهم حرفيّ ظاهريّ لآية جاءت في سفر التثنية ، «واربطهما علامة على يدك ولتكن عصائب بين عينيك» . ويعطي اليهود أهميّة كبرى للتيفيلين فيعتبرونه عاصماً من الخطأ ومحصناً ضدّ الخطايا ، وله قيمة رمزيّة عالية عندهم ، ففي رواية «فيكتوريا» يجري القسم به<sup>(٢)</sup> .

أمّا «الطاليت» فهو شال الصلاة . وتُستخدَم الكلمة في التلمود والمدرش بمعنى

---

(١) فيكتوريا ، ص ٩٩

(٢) م . ن . ص ٨٠

«ملاءة»، أو أيّ رداء يشبه الملاءة . وهذا الشال يكون مستطيل الشكل ، والضلعان الأصغران منه محلّيان بالأهداب ، وعادة ما يختار المصلّون شالاً يصل إلى تحت الركبة . ويكون الشال عادة من الصوف أو الكتّان ، ولكن الحرير كثيراً ما يُستخدم ، وخصوصاً بين الأثرياء . كما كان شال الكهنة يُوشى بخيوط من الذهب . وقبل أن يرتدي اليهوديّ الطاليت ، يتلو الدعاء التالي : «مبارك أنت يا إلهنا ، ملك الدنيا ، يا من قدّستنا بوصاياك العشر ، وأمرتنا أن نلفّ أنفسنا بالرداء ذي الأهداب» . وعلى المصلّي أن يرتدي شال الصلاة قبل أن يضع تائم التيفيلين . وكان من عادة اليهود المغالين في تديّتهم أن يرتدوا الشال والتمايم قبل الذهاب إلى المعبّد ، ويسيروا بها في الطريق . أمّا «كاشير» فكلمة تشير إلى مجموعة الأعراف الخاصّة بالأطعمة وطريقة إعدادها وطريقة الذبح الشرعيّ عند اليهود ، وهي قوانين مصدرها التوراة ، ولحوم الكاشير هي لحوم من ذبح اليهود بموجب الشريعة اليهوديّة ، وأكلها حلال بعكس لحوم الطاريف التي هي من ذبح غير اليهود وأكلها حرام يهوديّاً<sup>(١)</sup> . ذهب شلومو مسلّحاً بهويّة قوامها الدين والمال . ولقد نجح ، فلا يمكن أن يخذل مؤمن بموروث الأجداد .

## ٨. الهويّة والعجّة:

إنّ وصوله إلى بغداد هارباً من صبلاخ ، وعمله المذلّ في نزح مراحيض الجيش الإنجليزيّ في العراق ، توجّه شلومو في عام ١٩٢٤ إلى بومباي على ظهر سفينة مملوءة بخليط عجيب من الناس . لم يقدّم وصفاً للرحلة التي يفترض أن تكون طويلة ومرهقة في باخرة بدائيّة ، لكنّه شغل بالعجز عن التواصل مع الآخرين ، وهو عجز ارتقى إلى رتبة نزوع سلوكيّ وموقف أخلاقيّ . كان شلومو يجهل مزيج اللغات على الباخرة المتّجهة إلى الهند ، ويوصفه يهودياً وكردياً ، فيجهل الآخرون لغته سواء تحدّث بالعبريّة أو الكرديّة ، فبدا عليه القلق والتوتر وسلسلة طويلة من تدمر لا نهاية له ، «أنا أنطق العربيّة بصعوبة . وعليّ أن أقويّ أحياناً لأقول كلمة ذات مغزى ، من هذا الكلام المبرق من حولي كتفقّو فقاعات قليلة السمن الحرّ على النار . كلام غليظ حام

(١) للتفصيل ينظر ، عبد الوهاب المسيري ، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونيّة ، مركز الدراسات السياسيّة والإستراتيجيّة بالأهرام ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

كأنه متبل بالكاري والبهارات . بهارات! أتراني فيك سأعود وأعثر على كرامتي الضائعة؟! بهارات! والغربة من هنا بدأت . مع هؤلاء الهنود انقطع لساني ، ولكن حتى متى؟! قالوا إنَّ الدرب إلى بومباي ، لو حالفنا الحظَّ أسبوعان ، فسأصوم أسبوعين عن الكلام . . . الصمت في الصمت ، في الحزن ، في الإفحام ، والضجّة من حولك والأمل كفرخ حمامة داخل بيضة يجب أن تفقس ، وأنت لست مريداً «هندياً» معزلاً في صومعته عن الدنيا . معرضاً عن الأشياء ، «ابحث يا شلومو! ابحث! افتش عمّن يفهمك» ، الكلام هنا أهمّ من الماء والزاد . الكلام صلة والصلة معرفة والمعرفة هداية ، وإذا اهتديت بلغت الضلالة وحققت المرام ، فقم وتجوّل بين الناس . . . أفسمعت بكرديّ يركب البحر من البصرة قاصداً بومباي؟! إلا أنا . جبيليّ على هذا المركب . كأنني أبحث عن هنديّ يعتمر كوفيّة وعقالاً؟! وهؤلاء أعاريب الخليج ، يرمقونني بعداء وريبة وأحدقّ فيهم بتحفظ . ولو فتحت فمي فإنّ الأمور قد تتعقد . لكن ومخنون وهجين وكرديّ يهوديّ وفارسيّ أذريّ وبغداديّ ومسافر إلى الهند . أنا! كلّ هذا أنا . ومهاجر وأفاق ومتاجر ومغامر . أنا وحدي السندباد في مطلع القرن العشرين . أفحقاً انقطع لساني ، وأصبح كلّ ما أعرف من لغات مجرد لعلعات قرد عجماء على ظهر هذا المركب؟!»<sup>(١)</sup>

وبعد هذه السلسلة من الحوارات الداخلية التي تصوّر حاله في المركب ، مضى شلومو في تعميق حالة العجز عن التواصل حينما وصل إلى سوق بومباي ، «تتخيّل أمارات غموض واستفهام على وجهك ، أطرش في زفة الصخب الأعجم . الكلمات من حولك تتلاطم وتتصادم كأمواج المحيط والناس تأخذ وتدفع النقود ، الناس تتناهب ما في البالة ، وإذا بالبالة ينفد ما فيها في طرفة عين . ما هذا؟ تستوقف ذاك وهذا . بأصابع يديك تسأل . وإذا بمقاطع من حديث مبهم ينصبّ في أذنيك . ييه . . كيه . . هيه! أهكذا يتفوّهون أم أنّك واهم؟ لا . لا . فما من فائدة . ها قد عرفت المكان فأسرع إلى اللسان الذي وهبه الله لك ، حين انقطع لسانك وكفّت أذناك عن التمييز بين الأصوات»<sup>(٢)</sup> .

وفي المدينة حيث انتهى به الأمر باحثاً عن العمل وهو غريب ، راح يقول :

(١) شلومو الكرديّ وأنا والزمن ، ص ١٧-١٨

(٢) م . ن . ص ص ٣٠-٣١



«وخرجت أبحث عن عمل ولساني مقطوع ، أحاول أن أعيد زرع داخل فمي بصمغ من كلمات عربيّة أتعلّمها . صعب! صعب! والعمل أصعب بدون لسان ولا أذنين! لا بدّ أن أفهم وأن أفهم! والوقت كفيل بمداواة خرسى الوقتيّ وصممي القابل للشفاء! والحاجة خير حافز . . والضرورة تدفعك بقفزات قد تبدو مستحيلة في بعض الأحيان . وسرعان ما جعلتني الحاجة أرطن ، وبها فهمت أنّ العمل متوافر بمعسكرات الجيش البريطاني»<sup>(١)</sup> . صمت مكتوم وقلق مضمّر وتنويع متعدّد المستويات على موضوع العجمة حيث يتعثّر التواصل ، وتتفجّر المناجاة الداخليّة في ظلّ غياب للحوار المعلن ، أو المناقشة الجماعيّة الصريحة .

فصل «المعجم» العربيّ مشتقّات الفعل «عَجَمَ» فخصّ ذلك ولكنه في اللسان وافتقار الفصاحة والإبهام في القول ، و«التعاجم» هو عدم الإفصاح بالمراد إلّا على سبيل الكناية والتورية ، أمّا «الاستعجام» فهو السكوت ، ومن استعجم الكلام عليه فقد خفي واستبهم ، ومن هذا الجذر الدالّ على الإبهام والغموض والعجز عن الإفصاح بالمراد ، ظهرت مفردة «الأعجميّ» ، وهو الأخرس ، ثمّ هو غير العربيّ ، ومن ذلك «العجماء» أي البهيمة ، فمن هو أعجميّ فإنّما هو بمثابة البهيمة المبعدة التي لا سبيل للكشف عمّا تضمّر . ترسم هذه الاشتقاقات في أفق الانتظار عجزاً عن التعبير عن النفس ، وانكفاءً على الذات بسبب عدم القدرة على التواصل ، ولكنّ الفعل «عَجَمَ» في العربيّة يدفع بمعنى آخر ، فهو يحيل على إزالة الإبهام والغموض ، واختبار الصلابة وامتحان القوّة والتمعّن . وبهذا ، فإنّه بمجرد تغيير بسيط في البنية الصرفيّة للكلمة تتضارب الدلالات .

أحدث الفقر والعوز عجمة لدى شلومو ، فاعتراه عجز كامل عن التواصل ، وغمره إحساس بالضياع . كان ذلك في طريقه إلى بومباي ، في مبتدأ عمله في تجارة الملابس العتيقة وتوريدها من بومباي إلى بغداد ، وبعد ست سنوات أصبح ثرياً ، فتجاوز هامشيّته العرقيّة والدينيّة . أصلحت الثروة شعوراً بالاغوجاج ، وأنطقت اللسان المعقود ، وأصبح النقص مجرد ذكرى تحيله على مرحلة الكفاح الأولى ، «وتوالى الرحلات إلى بومباي ، ولم أبقَ بذاك الأفاق المنزوي مع الأجلاف وذوي الجلايب . ولا الأخرس المتحدّث بإشارات قرود وقوقأة دجاج ، بل بالبذلة الأوربيّة والقبّة

(١) م . ن . ص ٣٧

الإفرنجية أدخل قمرتي الفخمة مصطحباً معي الذبّاح والطاهي وصندوقاً يحوي كلّ أدوات المطبخ ، كي لا أتناول البيض المسلوق على مدى أسبوعي الرحلة . ودرج لساني فضلاً عن الآرامية والكردية والفارسية والروسية ، على اللغات المنطوقة بين بغداد وبومباي ، ما بين عربية وهندية وإنجليزية»<sup>(١)</sup> .

استعاد شلومو وظيفة اللسان بالمال ، كما كان قد درأ المجاعة به في صبالخ ، وأصبح تاجراً معروفاً في بغداد ، ولم يرد ذكر للحبسة في أيّ سياق بعد ذلك ، فازدهرت تجارته ، وغمره شعور بأنه تخطّي حقبة النزوح والارتحال ، لكنّ تلك كانت مجرد فاصلة زمنية للخداع ، فسرعان ما أجبر على ارتحال آخر إلى إيران ، ومنها إلى الأرض الموعودة التي تخيل أنها ستكون الملاذ الأخير لتطواف لا ينتهي .

## ٩. خاتمة

وقع خلاف كبير فيما يخص المرجعية التاريخية والاجتماعية والثقافية الحاضنة للسرود اليهودية-العراقية ، بسبب التداخل بين مفهومي الهجرة والمنفى فيما يخص حالة اليهود العراقيين ، ففي بحث استقصائي كتبه «زفي بن دور» بعنوان «النفي اللامرئي : اليهود العراقيون في إسرائيل»<sup>(٢)</sup> جرى عرض حقائق التهجير في ضوء جديد مخالف للرواية الاسرائيلية الرسمية القائلة بعودة اليهود إلى وطنهم الأصلي بعد شتات طويل ، ووقع كشف الظروف الصعبة التي رافقت تلك العملية التي جاءت أقرب ما تكون إلى حالة انتزاع من الوطن تحت طائلة الخوف المبالغ فيه ، وعلى هذا اعتبروا في إسرائيل نوعاً من من اللاجئين-المواطنين ، فهذا «الوضع الغريب الذي فرض على يهود العراق من حيث كونهم مواطنين ولاجئين في آن ليكشف عن الفجوة المعيقة التي ما فتأت تتسع بين أنموذج العودة اليهودية التي تروج لها الأيديولوجية الصهيونية ، والتاريخ الفعلي المعاش للعديد من هؤلاء اليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل . يبيّن هذا الوضع على نحو جليّ أن الصهيونية وهي الأيديولوجية التي استندت في وجودها إلى مفاهيم الخلاص وإنهاء النفي والعودة

(١) م . ن . ص ٤٢-٤٣

(٢) زفي بن دور ، النفي اللامرئي : اليهود العراقيون في إسرائيل ، ترجمة هناء خليف غني ،

مجلة الأعلام ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية ، ع ٢٠١١/١ ، ص ٢٥-٤٨

والإعادة أنتجت في جوهرها أشكالا جديدة من النفي ، تحرص هذه الأيديولوجية على إبقائها لا مرئية لأن المعنيين بها هم الأشخاص أنفسهم الذين أسهم خلاصهم في إنكار احتمالية النفي ذاتها . على وفق ذلك ، فإن حالة النفي الدائم التي عبّر عنها السواد الأعظم من الكتاب اليهود من أصل عراقي لا يمثل نفيًا من العراق فحسب ، ولكن والأهم نفيًا عن الحل . وفهمهم الغريب هذا لوجودهم بوصفه نفيًا مزدوجًا يبدو متوافقًا إلى حدٍّ بعيد مع السرد المزدوج لدولة إسرائيل . وكما يترك السرد الصهيوني قصة نفي يهود العراق غير محسومة على نحو يثير الاستغراب ، يلاحظ الأمر ذاته على السرد الذي صاغته النشاطات التخيلية للقيادة اليهودية العراقية المعينة ذاتيا . وعلى نحو يثير السخرية ، فإن العراق ، أو بابل ، الموقعان التاريخيان بامتياز للذات أثرا بفاعلية في الفهم الغربي للنفي ، الذي أنتج هذا النوع من الأشخاص المنفيين واللاجئين والعائدين في آن .

وقد تركت هذه الحالة الملتبسة أثرها في وعي ولا وعي الكتاب اليهود من أصول عراقية ؛ إذ ذهب «شمعون بلاص» إلى أن مغادرة اليهود للعراق كانت «مأساة إنسانية لا سبيل إلى الخلاص من آثارها» . ولم يعترف «بلاص» بانتمائه للأدب العبري . بل إن سيرته الذاتية الحوارية جاءت بعنوان «وطن في المنفى» . واعترف «سمير نقاش» الذي رفض الكتابة بالعبرية ، بأن الرحيل من العراق كان «بمشابة صدمة شكّلت سنوات حياته اللاحقة وتركت أثرا لا يمحي فيها» ثمّ دعاه إلى الهروب من إسرائيل بصحبة عمّه عائدين إلى العراق ، لكن وشاية أدّت إلى اعتقالهما في لبنان مدة ستة أشهر ، أعيدا بعدها إلى إسرائيل ، بعد أن صودرت مخطوطاته التي كان يحملها معه ، وكل ما نشره «نقاش» من نصوص سردية ، فيما بعد ، عكست «الآفاق الواسعة لخياله الفكري وتعلّقه العاطفي بوطنه الأم ، العراق» ، ومنها كتابه «قصص وأشواق لبغداد» .

ولم يكن الإحساس بالنفي الجديد من العراق إلى إسرائيل مقتصرًا على «نقاش» وحده ، إنما شمل ذلك «سامي ميخائيل» المعروف بغزارة إنتاجه السردية ، وحنينه الدائم إلى العراق ، وقد صرّح معبّرًا عن خطأ قبول الهجرة «ما إن وصلتُ إسرائيل حتى نشبتُ الحرب بين دولة سامي ميخائيل ودولة إسرائيل» . وعلى هذا يبدو «أن العراقيين في إسرائيل هم أبطال المنفى وضحاياه في آن» . وطبقا لـ«زفي بن دور» فإن أية نظرة سريعة على السرود التي كتبها يهود العراق تكشف «ولع الغالبية

العظمى من الكتاب اليهود من أصل عراقي بموضوعة المنفى» ، فمعظم تلك الآثار الأدبية وقف طويلا على «لحظة محدّدة من تاريخ اليهود العراقيين : لحظة الرحيل عن العراق» ولم «تترك شاردة ولا واردة إلا ووثقها وصورتها» . وكانت لحظة المغادرة هي المنعطف التاريخي بين ضريين من الحياة : أليف اعتاده اليهود ، ومضطرب لم يكن محسوبا ، وقد وصف «النقاش» ذلك بقوله «إن الوصول إلى إسرائيل لم يكن يعني شيئا لليهود العراقيين ، بل إنها لحظة الرحيل عن العراق بكل تفاصيلها ومدياتها ونتائجها التي صيّرت لحظة الرحيل الحدث الأكثر إيلا ما في حياة اليهود العراقيين» . وعلى هذا تميزت «الكتابات العراقية في روعة تعبيرها عن تلك العلاقة الفريدة التي تربط مؤلفيها بوطنهم الأم-العراق» . ظهر تلازم بين كثير من الأعمال السردية وحاضنتها العراقية مما جعل فصم الصلة بينهما لا فائدة منه .

## الفصل الخامس

### هُويّات سرديّة أم أقنعة للتتكّر؟



## ١. مدخل

طرح السرد العربيّ موضوع الهوية السردية المتحوّلة ، فالجماعات تتعرّض لتحوّلات قيمية كبرى ، تدفع بها لاكتساب هويّات جديدة والتخلّص من القديمة ، ويستعير الأفراد أقنعة يتنكّرون بها من أجل تخطّي الصعاب التي يواجهونها . وفي الحالين الجماعيّ والفرديّ ، يقع تحوّل في الهويّات على مستوى الأقليات العرقية أو المذهبية أو الفردية ، فتعيد الجماعات إدراج نفسها في سياق هويّات جديدة ، ويختبئ الأفراد وراء أقنعة يحتمون بها من الأخطار . ومن الصعب إغفال أثر المرجعيّات الدينية والسياسية في كلّ ذلك ، فالتحوّلات السردية الكبرى لا تقع بمعزل عن خلفيّاتها الثقافية ، لكن لا يشترط بالتمثيل السرديّ أن يقدّم وصفاً مباشراً لتلك التفاعلات ، إنّما يعيد تركيبها ليكشف ما تتمخّض عنه ، ويتأدّى عن ذلك تغيير في مصائر الجماعات والأفراد ، يتبعه تغيير في علاقاتها مع العالم المحيط بها .

## ٢. إستراتيجية الهويّات المتحوّلة:

تصلح رواية «حارس التبغ» لـ«علي بدر» أن تكون مثلاً على كيفية طرح موضوع الهويّات السردية المتحوّلة ، حيث تُخرّب ركائز المطابقة مع الذات كما هي ، فتتقنّع الشخصية بأقنعة تنكّرية في كلّ زمان ومكان تكون فيهما . يصبح الوطن في وقت واحد ، مكاناً للجذب بوصفه مسقطاً للرأس ، وللطرد بوصفه مكاناً للحياة . لا تتوافر للشخصية مُكنة نفسية على هجره ، ولا على نسيانه ، ولا يمكن العيش فيه إلّا بالتخفي .

لم تتمكن الشخصية الرئيسية في الرواية ، وهي يهودية ، أن تعيش خارج العراق ، لا في إسرائيل ولا في إيران ، وتعذّر عليها العيش في العراق إلّا بعد أن انتحلت اسماً وديناً ومذهباً لا صلة لها باسمها وعقيدتها . هذا ضرب من المنفى الداخليّ الذي يتخطّى الدلالة الجغرافية لمفهوم المنفى ؛ فالعلاقة المركّبة بين إحساس الشخصية بالانتماء للوطن ، وبند الوطن لها ، وضعتها في منطقة متوتّرة لا تستطيع فيها أن تكون هي بصورة معلنة ، ولا تتمكّن أن تكون غيرها بإرادتها ، فتبتكر فكرة الأقنعة المتعدّدة .

لا تعتمد رواية «حارس التبغ» على عنصر الحكاية المتخيّلة ، إنّما تلجأ إلى تقنيّة البحث والتقصّي ، وهي تقنيّة حديثة في السرد الروائيّ بدأت تحلّ بالتدريج محلّ المبدأ القديم القائل بضرورة إنشاء حكاية مغلقة ، ولهذا فلا يكتفي الراوي بموضوعه إنّما يردفه بشروح نظريّة وفكريّة توضّح خلفيّات كثير من الوقائع والأحداث ، وتضع لها تفسيرات مختلفة ، ويستأثر موضوع الهويّة باهتمام الراوي- المؤلّف ، فلا يلبث أن يعرض وجهة نظره حيثما وجد فرصة لذلك .

تنشر الصّحافة العراقية في الخامس من شباط/ فبراير عام ٢٠٠٦ خبراً قصيراً حول العثور على جثّة عازف الكمان العراقيّ «كمال مدحت» ، مرميّة على شاطئ دجلة الشرقيّ وسط بغداد . تلك كانت حقبة الحرب الطائفية التي لامس العراق ضفافها . نشر الخبر مجرّداً عن أيّ تأويل مقصود ، لكنّ سرّاً كبيراً عُرف حينما كشفت إحدى الصحف الأميركيّة بالتفصيل خلفيّة مثيرة للخبر ، فكمال مدحت كان في الحقيقة الموسيقار اليهوديّ «يوسف سامي صالح» من عائلة «قوجمان» الموسويّة ، وقد هاجر إلى إسرائيل في عام ١٩٥٠ بعد أن أسقطت عنه الجنسيّة العراقيّة ، جرّاء النزاع السياسيّ المتّصل بنشوء إسرائيل في فلسطين ، وهو زوج السيّد «فريدة روين» وله ولد منها اسمه «مئير» .

لم يطلق يوسف سامي العيش في تلّ أبيب ؛ لأنّه كان متعلّقاً بالعراق موطنه ، فهرب إلى إيران عن طريق موسكو في عام ١٩٥٣ وانتحل شخصيّة شيوعيّة ، وتسمّى بـ«حيدر سلمان» ، ثمّ تزوّج في طهران من «طاهرة» ابنة التاجر إسماعيل الطباطبائيّ ، وأنجب منها ولداً سماه «حسين» . وبهذه التسمية التي أخفت أصوله اليهوديّة عاد متنكراً إلى بغداد مع عائلته ، ومكث فيها أكثر من عشرين عاماً ، حتى تمّ تهجيره من العراق في عام ١٩٨٠ عشية الحرب العراقيّة - الإيرانيّة باعتباره من التابعيّة الإيرانيّة .

بقي حيدر سليمان في طهران لاجئاً مدة سنة ، فهرب إلى دمشق بجواز سفر مزوّر باسم «كمال مدحت» ، وتقمّص شخصيّة عراقيّة سنّية في بلاد الشام ، وتزوّج من سيّدّة عراقيّة ثريّة اسمها نادية العمري يعود أصلها إلى مدينة الموصل ، وأنجب منها ابنه «عمر» . وبهذه الشخصيّة الثالثة عاد إلى العراق ، وبقي فيه نحو عقدين من الزمان إلى أن قتل في عام ٢٠٠٦ في أحداث العنف الطائفيّ . وخلال تلك الفترة الطويلة قرّبه السلطة الحاكمة في بغداد ، فتمتّع بالحماية ، وغرق في الملذّات



الشخصية ، وأصبح أحد أهم الموسيقيين في العراق وفي الشرق الأوسط . هذا هو الإطار السردى لرواية «حارس التبغ» .

طلبت الصحيفة الأميركية من الراوي أن يتقصّى حقيقة هذا الموسيقار المتنكر بأفئدة كثيرة . وأن يكتب عنه تقريراً بألف كلمة ينشر باسم محررها «جون بار» لا باسمه . ثم كلفته «وكالة التعاون الصحفي» بوضع كتاب كامل عنه ينشر باسمه . وتكفلت بتسهيل مهمته ، وتغطية تكاليف رحلته إلى بغداد وطهران ودمشق ، حيث أمضى الموسيقار معظم حياته متنقلاً بين هذه العواصم ، فأول ما شرع بذلك أن غادر الراوي «عمّان» حيث يقيم ، وتوجّه إلى «المنطقة الخضراء» في بغداد حيث وفّرت له سلطات الاحتلال الأميركي إمكانية البحث في سيرة هذا الرجل الغامض . حصل من « فريدة روبين» على ملفّ برسائله التي حرص على إرسالها إلى زوجته الأولى في إسرائيل أينما كان . وشرع الراوي في تعقب حياة الموسيقار وارتحالاته وتحولاته ، ومجمل أحداث رواية «حارس التبغ» تصف كيفية كتابة سيرة هذا الموسيقار ، وحمله لأكثر من اسم ، ولأكثر من هوية دينية وطائفية .

### ٣. مماثلات سردية زائفة:

طُرحت قضية الهوية على خلفيتين متداخلتين ، الأولى خاصة بالراوي ، والثانية خاصة بالشخصية ؛ فأول ما يلفت الانتباه درجة التماثل بين الراوي والشخصية ؛ إذ يطابق «علي بدر» بين الراوي والموسيقار . الراوي حامل لرؤية المؤلف وخبراته ، ويقوم بدور كاتب مأجور (BLACK WRITER) يعمل لصالح الصحافة الأميركية إبّان احتلال العراق ، وقد جرى شرح المقصود بـ«الكاتب المأجور» بأنه «كاتب يذهب إلى المناطق الخطرة لكتابة تقرير صحفي عن موضوعات ساخنة لكنّ التقرير ينشر باسم أحد الصحفيين الكبار في الصحيفة ، أمّا الصحفي المحلي فلا يتقاضى سوى ثمن أتعابه»<sup>(١)</sup> .

يقايس الكاتب المأجور بحياته وخبرته المال . هذا وجه أول من المطابقة ، أمّا الثاني فإنه يطابق بين شخصيات ذلك الموسيقار المتعددة وشخصيات ديوان «دكان التبغ» للشاعر البرتغالي «فيرناندو بيسوا» . هذه المطابقة بركניה مهمة جداً ، لكونها

(١) علي بدر ، حارس التبغ ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ٢٠٠٨ ، ص ١٠

تتدخل في توجيه مسار الأحداث إلى نهاية الرواية ومن خلالها يُطرح مفهوم الهوية . يأتي التعليق الأول بخصوص «الكاتب المأجور» واختلافه عن شخصيات «بيسوا» ، عدنا مرة أخرى إلى لعبة الأسماء المستعارة والهويات الملتبسة ، فالشخصية التي تغير أسماءها هي شخصية حارس التبغ كما هي في قصيدة بيسوا ، أما «البلاك رايتز» ، فهو الذي يرهن وجوده إلى وجود آخر . إذن هنالك اختلاف نوعي بين البلاك رايتز وحارس التبغ ، فحارس التبغ كما هو في قصيدة بيسوا يحتفظ الشخص الواحد بثلاث شخصيات أو أكثر ، بينما البلاك رايتز يغير وجوده إلى اسم آخر ، وفي الغالب اسم غربي ، ومن هنا من وجهة نظري يبرز ما يطلق عليه بالنصبة الاستعمارية ، وهي نوع من أنواع الامتصاص ، أو نوع من أنواع الشفط التي تقوم على محو وجود الكائن كلياً وتركه خالياً<sup>(١)</sup> . ويعود الراوي إلى الحكم على شخصية «الكاتب المأجور» ، هي الشخصية المسحوقة على الدوام ، وهي الغائبة الوجود كلياً وظاهرة في وجود آخر لا يمت لها بصلة<sup>(٢)</sup> .

يبحث الكاتب المأجور عن دور في العالم التخيلي للنص ، ويستأثر بنحو ثلث المتن السردية للرواية ، فيزاحم الشخصية التي تؤلف موضوع الرواية ، ويظلّ يبعدها عن الحضور إلى أن يستنفد طاقة الاستعراض لديه قبل أن يبدأ بحثه في سيرتها . تسقط الشخصية بين شركي الرغبة الاستعراضية التي لا تشيع عند الراوي ، وشخصيات كتاب بيسوا التي تتوارى خلف أسماء متعددة . فينشغل الراوي بتجاربه الشخصية ، ويستمتع بذلك عارضاً خبراته ومعارفه وأسفاره وتجاربه ، وحينما يتحتم عليه البحث في سيرة الموسيقار ، يشغل بمدى تناظر الشخصيات الثلاثة التي ظهر فيها مع شخصيات ديوان «دكان التبغ» .

عرضت الرواية أدلة على وجود التناظر الثلاثي الأبعاد بين متنها السردية والتمثيلي الشعري لكتاب «دكان التبغ» . فمن ناحية أولى ظهرت شخصية اليهودي يوسف سامي المرتابة والمستنيرة ، وهي تناظر شخصية البرتو كايرو في ديوان بيسوا ، ثم يتلاشى حضورها حينما تبرز شخصية الشيعي حيدر سليمان ، وهي كثيرة الاحتفاء بالعلامات وأشكال التعبير ، ومتعلقة بالأنظمة الرمزية الموروثة ، فتكون مناظرة

(١) م. ن. ص ٢٤

(٢) م. ن. ص ٨٧

لشخصية ريكاردو ريس ، وأخيراً تنبثق شخصية السنيّ كمال مدحت الحسيّة ، المغرقة بمتعتها ورغباتها ، لتناظر الشخصية الثالثة ، وهي الفارو دو كامبوس في ديوان الشاعر البرتغاليّ . شخصيّات تتحوّل في هويّاتها وأدوارها ، وتتقدّم الزمن لتلتهم الشخصية اللاحقة تلك التي سبقتها ، ويأتي القتل ليلتهم الأخيرة .

كُتبت الرواية بقصدية معلنة للتعبير عن هذه الفكرة ، وجرى تكرار كثير لذلك في تضاعيفها ؛ فحينما قبل الراوي عرض إحدى الوكالات الأميركية البحث في حياة الموسيقار العراقيّ المقتول وإصدار كتاب عنه ، عثر في بيته على نسخة إنجليزية لديوان «بيسوا» ، وعليه كثير من الحواشي والتعليقات والشروح ، فهاله ما وجد ؛ إذ أدرك فوراً «أنّ في هذا الكتاب الكثير من أسرار حياته حينها تحولت إلى دراسته وفهمه ؛ لأنّ فيه إلى حدّ كبير بعض المفاتيح الأساسية لحلّ أسرار حياته وألغازه»<sup>(١)</sup> .

حفّز الديوان المذكور الراوي على تقسيم سيرة الموسيقار إلى ثلاثة أقسام : حارس القطيع ، المحروس ، وحارس التبغ . ثمّ بدأ يشرح التماثل : «يقدم بيسوا في ديون دكان التبغ ثلاث شخصيّات مختلفة ، وهم (وهي) عبارة عن ثلاث حالات تقمّص ، وكلّ شخصيّة من هذه الشخصيّات المخترعة هي وجه من وجوه بيسوا ، مقدّماً لكلّ واحدة منها اسماً خاصاً بها وعمرًا محدّدًا وحياة مختلفة وأفكارًا وقناعات ، وملامح مختلفة عن الشخصية الأخرى ، وكلّ مرّة يطوّر شكلاً للهويّة أعمق وأكثر اتّساعاً ، ولكننا نصل فيما بعد إلى التباس حقيقيّ للهويّة ، الشخصية الأولى لحارس القطيع واسمه البرتو كايرو ، والثانية للمحروس ريكاردو ريس ، والثالثة للتبغجيّ وهو الفاردو دي كامبوس ، فنجد أنفسنا أمام لعبة ثلاثيّة الأطراف ، أو رسم تكعيبيّ ثلاثيّ لوجه واحد»<sup>(٢)</sup> .

هذا عرض نقديّ موفق لحالات تقمّص بيسوا لشخصيّاته يقدّمه الراوي ، وهو يبحث في تناسل الشخصيّات . فما علاقة ذلك بعازف الكمان العراقيّ؟ يمضي الراوي كاشفاً المماثلة : «وهكذا فعل كمال مدحت ، فكانت له ثلاث شخصيّات ، وكلّ شخصيّة لها اسم وعمر وملامح وقناعات ومذهب مختلف عن الشخصيّات الأخرى ، فسامي صالح هو الموسيقار اليهوديّ ، الليبراليّ والمتنوّر . . . وحين دخل

(١) م . ن . ص ١٤

(٢) م . ن . ص ١٢

طهران اتخذ لنفسه شخصية حيدر سلمان ، وهو موسيقار ولد في عائلة شيعية متوسطة . وحين دخل من دمشق إلى بغداد دخل بشخصيته الثالثة وهي شخصية كمال مدحت ، ولد في عائلة من التجار تقطن في الموصل . وهي من كبار العائلات السنية ، وقد ارتبط بعلاقة خاصة مع السلطة السياسية في بغداد في الثمانينيات ، وأصبح من المقربين من الرئيس صدام حسين»<sup>(١)</sup> .

لا يكشف هذا التناظر إلا أقلّ مظاهر التماثل بين بيسوا الشاعر البرتغاليّ وكمال عازف الكمان العراقيّ ، فقد انزلق السرد إلى منطقة لا علاقة لها بين الاثنين ، إذا وافقنا الراوي بأنّ الشخصيات الثلاث في «دكان التبغ» هي فعلاً «ثلاث حالات تقمّص ، وكلّ شخصية من هذه الشخصيات المخترعة هي وجه من وجوه بيسوا» ، فذلك يقودنا إلى ماثلة بين فيرناندو بيسوا وعلي بدر ، وليس بين بيسوا وعازف الكمان . ابتكر بيسوا حالات متعدّدة لتقديم رؤى متباعدة عن العالم ، وعلى غرار ذلك قام المؤلّف بإعادة تركيب شخصية الموسيقار بما يطابق رغبته للتعبير عن ثلاث هويّات سردية .

انفصمت الصلة بين بيسوا والموسيقار ، وحلّت محلّها ماثلة بين مؤلّفين يريدان التعبير عن حالات تقمّص ، هما الشاعر والروائيّ المختبئ في إهاب الكاتب المأجور . وذلك ربّما هو الذي يعطي للتناظر قيمة في هذا السياق ، وليس التناظر الزائف الذي تكرّرت الإشارة إليه كثيراً في تضاعيف الرواية بين بيسوا والموسيقار ؛ ذلك أنّ بيسوا وبدر يقعان ضمن رتبة سردية واحدة ، هي رتبة التأليف ، فيما شخصياتهما تقع في رتبة سردية أخرى هي رتبة التخيل ، ويحظر في الدراسات السردية الخلط بين هاتين الرتبتين .

على أنّ هذا إنّما هو منزلق خاطئ أوّل ، ولكنّ الخطأ الأكبر هو عدم الانتباه إلى فارق أشدّ خطورة ، فقد جرى تضخيم الوجوه المقترحة للشخصيات في ديوان شعريّ ، لتبرير نزاع الهويّات اليهودية والشيعية والسنية ، وهنا تعرض قضية أخرى لا صلة لها بشخصيات بيسوا ؛ إذ جرى الحديث عن هويّات ثابتة أدرج الموسيقار في إطارها . تحدّث بيسوا عن نزعات تأملية وتعبيرية عند شخصياته الثلاث ، فهل الهويّات التي أجبر الموسيقار العراقيّ على الانخراط فيها لها تلك السمات؟

---

(١) م. ن. ص ١٢-١٣

#### ٤. الهُويّة والبراهين الناقصة:

لا بدّ من الإفصاح بأنّ القول بوجود هُويّات راسخة سنّية وشيعيّة أمر يحتاج إلى إثبات غير متوافر ، لا خارج النصّ ولا في داخله ، فذلك من نتاج المنازعة على الأدوار السياسيّة ، وليس بسبب الرؤية إلى الذات والعالم ، وهو لم يرتقِ إلى مستوى الهُويّة المغلقة الصلبة الأركان ، فجاء ذكر ذلك بأقرب ما يكون إلى اختزال سريع لمفاهيم رائجة حول التعارض الكامل بين تلك الرؤى التي فيها درجة من الخصوصية ، غير أنّها دون مستوى الهُويّة ، وعلى خلفيّة هذا الخطأ الثقافيّ الذي كلّما تقدّمنا معه ظهرت لنا جسامته ، ركّب السرد حكماً خطيراً ، فالهُويّة اليهوديّة ليبراليّة تأمليّة وتنويريّة ، والهُويّة الشيعيّة تقويّة متعلّقة بالرموز والطقوس والحنين والمثاليّة ، والهُويّة السنّية دنيويّة مغرقة في الحسيّة ومشغولة بممارسة السلطة .

تشير الرواية إذن على مستوى التأويل الثقافيّ أسئلة كثيرة . يظهر أولاً اليهوديّ الكائن المفكّر ، ولكنّه يبقى متعلّقاً بيهوديّته إلى النهاية عبر زوجته «فريدة روبين» التي أصبحت أستاذة في قسم اللغة العربيّة في جامعة القدس ، وهي التي تعيد تركيب شخصيّته من خلال الملفّ الكبير الذي ترسله إلى الوكالة المموّلة لإصدار سيرته ، وفيه رسائله ويوميّاته ووثائقه خلال المراحل الثلاث من حياته ، ولها دور كبير في إضاعة جوانب حياته كافّة ، فملاحظاتها سدّت الثغرات الغامضة في حياته . وذلك ما تقوله في رسالتها للوكالة الراعية لمشروع الكتاب .

وعلى تلك الوثائق التي جاءت من أسرته الإسرائيليّة اعتمد الراوي في تأليف كتابه . وخلفه الشيعيّ الممثل للطقوس والمؤمن بأشكال الموروث الرمزيّ حول الهُويّة الشيعيّة ، فاسمه حيدر وابنه حسين ، وتاريخه مسار من الاستبعاد والتظلم والتزام مبدأ التقيّة . ولم تظهر عليه مباحج الحياة خلال هذه الفترة من حياته ، وانتهت بترحيله من بلاده ، فهو ممثل لقدر غامض بأنّه ضحيّة . وعلى أنقاض هاتين الشخصيتين ظهر كمال السنّيّ الدنيويّ ، والمنقاد لنوازع الحياة ومتعها ، وقد خلف ابناً سمّاه «عمر» . فعزف عن استحضار أيّ عنصر من مكوّناته السابقة ؛ إذ لا يمكن لشخص قرّر تبنيّ مبدأ المتعة إلّا إذا كان ذلك على أنقاض شخصيّات مشرّدة أو مظلومة . وهي الهُويّة التي تلتهم ما جاورها وسبقها من هُويّات . هذا هو الغطاء السرديّ الذي تمّ خلعه على شخصيّة الموسيقار .

افتترضت الرواية هُويّات ناجزة ألبستها لشخصيّة لم يقع أيّ تغيير في هُويّتها

الحقيقيّة ، فقد ظلّت حاملة للرؤية ذاتها ، والأيدلوجيا نفسها ، والنظرة إلى الحياة عينها . فلماذا تريد أن تبرهن على هُويّات مفترضة بإسقاطها على شخصيّة لم تتعرّض فعلاً لتغيير في هُويّتها؟ ثمة احتمالان ، إمّا أن يكون قد جرى تزييف في مفهوم الهُويّات وأسقطت بتعسف على الشخصيّة ، أو أن تكون قد طرحت فكرة غير قابلة للإثبات ، وهي هُويّة الضحيّة بإزاء هُويّة القاتل . ولطالما قيل بأن الهُويّة اليهوديّة ضحيّة الهُويّة الإسلاميّة ، والهُويّة الشيعيّة ضحيّة الهُويّة السنيّة ، وعلى خلفيّة هذه الأفكار جرى إسقاط الأقنعة على الشخصيّة لتنتهي بأن تكون حاملة لهُويّة قاتلة .

كيف إذن تنتهي هذه السلسلة الطويلة من القتل والضحايا؟ لا سبيل إلاّ بقتل الهُويّة الأخيرة ، أي إباحة مبدأ القتل . ولهذا جاء حسين ومثير إلى أبيهما في العراق إثر الاحتلال الأميركيّ بوضع تحكمه مصالحته بين اليهودي والشيعي في ارتباطهما بأصل أبويّ مشترك ، فيما عاد عمر بنقمة من يحمل ثأراً . جرى إغفال كون «مثير» ضابطاً رفيع الرتبة في المارينز ، وأتّه جاء ضمن حملة احتلال ، وأغفل سياق حضور «حسين» ، وجرى التركيز على نقمة «عمر» ، واختزل موقفه من كلّ ما جرى لبلاده إلى غضبه من انحلال سلطة السنّة في العراق ، وطمس موضوع احتلال بلاده .

لم تقع إشارة إلى أنّ العراق هو بلد «مثير» أو «حسين» لكونهما ولدي الموسيقىار ، وبما أنّ «عمر» عاد ناقماً ، فظهر وكأنّه هو الابن الحقيقيّ . ولم يمس النصّ إلى منطقة المفارقة السرديّة الكبرى لو التقى الأبناء الثلاثة معاً وجهاً لوجه بأبيهم ، وماذا سيكون عليه الموقف بين الأخوة الأعداء؟ هل سيكون ولاؤهم لأبيهم أم لوطنهم؟ وهل من المناسب أن يكتفوا بأسمائهم المجردة فقط ، أم أنّهم سيتحصّنون بهُويّاتهم الدينيّة والمذهبيّة ، لكون أحدهم جاء محتلاً ، والآخر مقاوماً ، والثالث يكاد يكون بلا موقف؟ وهل سيحلّ بينهم سلام الأخوة أم احتراؤها؟ وأين كلّ ذلك من وطنهم ومن عقائدهم ومذاهبهم وأدوارهم وهُويّاتهم؟

## ٥. تعميم سرديّ غامض:

وقعت الرواية أسيرة التصورات الجاهزة لنزاع الهُويّات التي هي أعقد بكثير ممّا جرى تمثيله بالسرد . وبهذا الغطاء الخارجيّ جرى طمس الأزمت الكبرى التي شهدتها العراق طوال حقبتَي الاستبداد والاحتلال ، وتحول الأمر إلى نزاع هُويّات بين الجماعات الفاعلة فيه ، وهذا الاستبدال له نهاية على غاية من الخطورة ، فهو يشيخ

بوجهه عن الحقائق الكبرى ، بما فيها الاحتلال ، وبها يستبدل صراعاً بين هُويّات لم يقع تركيزها في بنية النصّ . وحينما تعوز ذلك الاستبدال البراهين السردية الداعمة ، يتمّ تخطّي المكوّن اليهودي ، وبه يستبدل المكوّن الكرديّ بطريقة تخربّ فيها فرضيّة الهُويّات الثلاث المذكورة ، « كان الانقسام الاجتماعيّ واضحاً ، لقد وجد كمال مدحت الجميع وحتى أوساط الفنّانين بدأت تعكس هذا الانقسام الثنائيّ ، وكان الجميع يهودون الانقسام ولكنه يدهّ بعون ساكن . كمال الذي كان يعتقد أنّ لهذه البلاد قصّة واحدة ورواية واحدة ، وبالتالي لها هُويّة واحدة ، فجأة وقف على ثلاث روايات متعارضة ومتناقضة ، كلّ واحدة من الجهات تكتب تاريخها وتروي وجودها بمعزل عن الجهة الأخرى ، فجأة وجد للشيعية رواية ، وللسنة رواية ، وللأكراد رواية ، وهذه الروايات لا يتمّ بعضها بعضاً ، ولكنها تتناقض ، ويقف بعضها بمواجهة بعض أيضاً» (١) .

أخفيت الهُويّة اليهوديّة ، وهي الأصليّة الملازمة للشخصيّة ؛ إذ لا مكان لها في السجل الجديد الذي فتحه الاحتلال . ولم يشر للهُويّة الكرديّة إلا في تلك الفقرة ، ولو كانت الشخصيّة من أصول كرديّة لا تسق الأمر ، ولكن المناقلة بين الهُويّة اليهوديّة والكرديّة تمّت في غياب أيّ مبدأ سرديّ ناظم ، يعطي شرعيّة فنيّة لتلك المناقلة . وتثار هذه القضية بأجمعها ، أقصد الهُويّات المتعارضة ؛ لأنّ الشخصيّة صمّمت لتمثيل ذلك كما جرى التأكيد على ذلك أكثر من مرّة . وكلّ هذا إسقاط استباقيّ لم يبرهن عليه نمو الشخصيّة في العالم المتخيّل للرواية ، وليس ثمة مستندات سرديّة تحيل عليه ، إنّما جرى وضع الشخصيّة في إطار جاهز لتبرهن عليه ، وذلك آخر ما يسمح به في عمليّة السرد الذي يحرص على إنتاج «الهُويّة» ؛ إذ تشقّ الشخصيّة طريقها في خضم صعاب وتجارب ، لا أن تكون مكتملة سلفاً ، ثمّ ترمى في إطار مرتّب لمعنى للهُويّة .

متابعة هذا التحليل إلى نهايته سيخربّ الادعاءات السردية الشارحة حول معنى الهُويّة في كلّ الرواية ، ولكننا نقف على ظاهرتين : الأولى حول الهُويّة الأخيرة ، الهُويّة السنيّة ، التي التهمت الهويّتين الأخرين اليهوديّة والشيعيّة ، حيث قتل الموسيقار وهو عليها ، فهل هي هُويّة قاتلة؟ والثانية ، وهي الأشدّ ظهوراً ، وتخربّ

(١) م . ن . ص ٣٢٩

الافتراضات كافة ، وهي أنّ شخصية الموسيقار بكلّ هويّاته التي ذكرت ، كانت ثابتة في رؤيتها لنفسها وعالمها وعلاقاتها ، ولم تعرف أيّ تحول ذي أهميّة يعطف بها إلى مستوى الهوية المتميّزة التي تختلف عن هويّاتها الأخرى ، ولهذا تنبذ أساطير الهويّات في النصّ ، وتحلّ محلّها قضية الأقنعة التي ارتداها الموسيقار ليجنّب نفسه الأذى ، وليبقى في موطنه . والقناع غير الهوية .

تريد الرواية أن تجد لها صلة بموضوع الهويّات السردية ، فتخلص إلى التوضيح النقديّ الآتي حول شخصيّات الموسيقار : «هكذا بيّنت حياته بشكل لا لبس فيه ، زيف ما كانوا يطلقون عليه الهوية الجوهرية ، ذلك لأنّ حياته تبين إمكانية التحول من هوية إلى هوية عبر مجموعة من اللعبات السردية ، فتنحوّل الهوية إلى قصّة يمكن الحياة فيها وتقمّصها ، وهنا يطلق هذا الفنان ضحكة ساخرة من صراع الهويّات القاتلة عبر لعبة من الأسماء المستعارة والشخصيّات الملتبسة والأقنعة ، وفي غمرة الحرب الطائفية في بغداد قبل مقتله ، زاره أبنائه الثلاثة ، فكشفوا عن هذا الإسقاط الهويّاتيّ بصورة واضحة ، فمثير يهوديّ من أصل عراقيّ هاجر من إسرائيل إلى أمريكا ، والتحق بالمارينز وجاء ضابطاً في الجيش الأمريكيّ إلى بغداد ، وهو ثمرة شخصيّته الأولى ، وحسين بعد تهجيرهِ إلى طهران ارتبط بهوية شيعية ، وانتظم في الحركة السياسية الشيعية وهو ثمرة شخصيّة الأب الثانية ، وعمر كان سنياً يحاول أن يدعم هويّته من تراجعياً إزاحة السنّة عن الحكم في العراق بعد عام ٢٠٠٣ ، وهو نتاج شخصيّة الثالثة ، وكلّ واحد منهم كان يدافع عن قصّة مصنوعة ومفبركة ومزوّدة بالكثير من العناصر السردية والوهمية ، التي يعيش كلّ واحد منهم فيها بوصفها حقيقة» .

ثمّ يستيقظ المؤلّف القابع وراء الراوي ، فيجمل أطراف القضية بكاملها : «تبين حياة كمال مدحت أنّ الهوية ترتبط على الدوام بواقعة سردية ، فهي حكاية تلتق أو تفبرك أو تسرد في لحظة هي مطلقة الاعتبارية ، في لحظة تاريخية موضوعة يتحوّل الآخرون فيها إلى آخرين وغرباء وأجناب ومنبوذين أيضاً . وهكذا تبين حكاية هذا الفنّان أنّ الهوية هي حركة من حركات التوضع وسياسته ، فما إنّ تجد لها موضعاً في حركة تاريخية معيّنة ، حتى تغيّره في لحظة تاريخية أخرى ، فكلّ هذه المجاميع



التخييلية تبدأ بسرد مفبرك ومخترع لتنفي الاختلاط وتداخل الهويّات ، كما أنّها تكشف عن هذه الأطر المتوهّمة والمصنوعة والمفبركة في لحظة تاريخية معينة ، فهي مفتريات روائية fiction ، وهي سرد Narration ، فكلّ جماعة وهي تفقد جذورها في الزمان ، تعتمد إلى استعادة أفقها المفقود ، ولا يمكن لها استعادته إلاّ من خلال السرد والخيال»<sup>(١)</sup> .

ويضيف شارحاً «عاش يوسف في غمرة صراع الهويّات في الشرق الأوسط ، وشعر أنّ حاضره يهيمن عليه شبح الحرب أو الاقتتال الأهليّ ، شعر أنّ الهويّات منذرة بنهاية كلّ شيء . شعر بالاختناق وقتها أو بالموت ، كانت البلاد سفينة تغرق شيئاً فشيئاً ، ومخاوفه تزداد أضعافاً مضاعفة ، كان العالم المحيط يتقهقر وينهار ، الهزائم المتتالية في بلد ممزّق تفترسه الإيديولوجيات الكاسحة ، فوضى مريعة ، غياب كلّيّ للعقل وللقيم ، ووجوده الشخصي مهتدّد كلّ لحظة . بدلاً من أن يشعر يوسف بأنّه المركز الثابت للأشياء ، أخذ يشعر بالخوف ، وشعر بأنّ هنالك قوّة هائلة قذفته إلى العتمة ، أخذ يشعر بأنّ الزمن يمضي ، وهنالك نوع من التقهقر والتراجع إلى وراء ، شعور بالاندحار والسقوط . أصبحت الأعياد كئيبة ، والأفراح أخذت تتلاشى ، وهنالك شعور بالخوف الخفيّ ، أصبح المجتمع الذي يعيش فيه لا يتمتع بحضور شامل وجميل ، بل أصبح متاهة معقّدة ومخيفة . كلّ شيء ضيّق قليل الاتّساع ، يجتاز سوراً فيرتطم رأسه بسور آخر ، عالم جديد ولكنّه مخيف ، يشمّ منه رائحة الدم . تسارع ولكنّه نحو الهاوية»<sup>(٢)</sup> .

## ٦. معالم الهوية المرتبكة:

وتقدّم رواية «الحفيدة الأميركية» لـ «إنعام كجه جي» تمثيلاً سردياً لموضوع الهوية المرتبكة ، وأحوال الأقليات العرقية والدينية التي يهتزّ انتماؤها حينما تعمّ الفوضى وسط الجماعات الكبرى الحاضرة لها ، وكلّ ذلك على خلفيّة وضع العراق الذي زعزعت أحداث الاستبداد ثمّ الاحتلال ، فتنهار أساطير الانتماء القديمة ، وتُسحّط أساطير بديلة ، وتتغيّر الأسماء ، ويقع التلاعب بالمصائر ، وتُفترح هويّات ضيقة جداً ،

(١) م. ن. ص ١٤

(٢) م. ن. ص ص ١٥٤-١٥٥

أو هُويّات كونيّة واسعة جداً . لا مكان لامرئٍ سوىّ في هُويّة مغلقة ، ولا في هُويّة متوهّمة ، ولا يمكن أن يكون بلا هُويّة . يحتاج المرء إلى هُويّة مفتوحة هي مزيج من هُويّات موروثّة ومستحدّثة ، هُويّة قابلة للتحوّل بتحوّل الأحداث والأزمان ، تطوّر نفسها بنفسها .

هذه هي الخلفيّة الثقافيّة العامّة التي تركز عليها رواية «الحفيدة الأميركيّة» . وتنفّث على المتغيّرات التي شهدتها العراق في تاريخه المعاصر . وبانتقاء شخصيّات متّصلة بذلك التاريخ وتحوّلاته تطرح الرواية جملة من الرؤى والمواقف . لم يبق العراق أرض انسجام اجتماعيّ وتماسك أخلاقيّ ، إنّما تناهسته الأيدلوجيّات والمصالح والرهانات الكبرى . صار العراق بحاجة إلى إعادة تعريف نفسه . ذلك ما تقترحه الرواية بطريقة واضحة ؛ فخلف نسيج الأحداث تقبع مواقف الشخصيّات لتعبّر عن رؤى جديدة مغايرة لرؤى الأجيال القديمة .

زينة فتاة عراقية آشورية مسيحيّة ، في حوالي الثلاثين من عمرها ، أزيح جدّها العقيد الركن المتقاعد يوسف الساعور عن منصبه في الجيش العراقيّ بُعيد ثورة عام ١٩٥٨ ، وهو ينتسب إلى عائلة عريقة من الموصل . كان الجدّ مسكوناً بالغيرة على وطنه . أمّا جدّتها رحمة فتّوحي ، فكرديّة من «بيخال» في أقصى شمال العراق . ارتبط الجدّان بوطنهما وماتا فيه . جاءت زينة إلى الحياة ثمرة زواج أمّها بتول الكلدانيّة «التي خالفت ملّتها وتزوّجت آشورياً» ، وأبوها صباح شمعون بهنام ، مزيّع وعاشق للغّة العربيّة ، تعرّض للتنكيل لأنّه أفصح سرّاً لصديق له عن ملله من طول نشرّة الأخبار في التلفزيون ، فكان جزاؤه أن قُرّض لسانه من الجانبين بكلابتين ، وحطّمت أسنانه ، وأطفئت أعقاب السجائر على جسده . لا ينبغي إبداء أيّ تدمّر في حقبة الاستبداد .

هرب الأب من بغداد ، مع زوجته الجامعيّة وطفليه زينة ويزن إلى شمال العراق ، فتزوّدوا بجوازات سفر مزوّرة ، ثمّ وصلوا الأردنّ ، وانتظموا في طوابير الباحثين عن اللجوء الإنسانيّ ، وتمكّنوا من الوصول إلى أميركا ، وبصعوبة بالغة عثروا على شقّة خشبيّة عتيقة في حيّ سكّتي بائس قرب ديترويت ، وانتظروا أعواماً للحصول على الجنسيّة ، وترديد قسم الولاء لأميركا ، وبذلك أصبحوا مواطنين أميركيّين بالوثائق . ولكن بوصول الأسرة إلى أرض الأحلام ، راح يتفكّك تماسكها الموروث : نُسي الجدّان في بغداد ، وانفصل الزوجان ، واجتاحت الأمراض جسد الزوجة التي أدمنت

التدخين الرخيص . الابن يزن أدمن المخدرات ، ثم أضاعت زينة أيّ ملمح للأمل ، فانخرطت مع جماعات من الشباب المحبط تدور على الملاهي والمطاعم بلا هدف ، وعثرت على عشيق أمريكيّ سكّير ، كان يناديها «زانيا» .

لم تصبح أميركا ملاذاً تعيد به الأسرة جمع شملها ، كما توقعت ، إنّما عملت على تمزيق النسيج العائليّ الموروث . فقد أطلقت في أعماق أفرداها نوازع العبث والأناية . كانت الأسرة مهدّدة بحياتها في العراق ، لكنّها حافظت على تماسكها ، وما إن عثرت على ملاذ آمن حتى فقدت روابطها الحميمة ، وأصبح من غير الممكن القول بأنّها أسرة واحدة . عزّز الاستبداد تماسكها ، وفكّكت الحرّيّة روابطها . كانت مهدّدة بحياتها وصارت مهدّدة بقيمها وعلاقاتها . إنّها حكاية انتساب إلى أقلّيّة عريقة في بلد متنوّع الأعراق ، ونزوح رمزيّ إلى مكان آمن بسبب القهر الوطنيّ ، وضياح في هويّة كونيّة . لم يكشف النصّ أيّ إحساس حقيقيّ بالانتماء لأميركا عند الشخصيّات . كانت ملاذاً فحسب ، ومانحة لوثائق حماية .

حجبت فوضى الحياة عن زينة التفكير ببلدها الأصليّ ، وأصبح لا يعني شيئاً بالنسبة لها . لم يبق العراق سوى ذكرى متراجعة إلى الوراء . وبوقوع أحداث ١١/٩/٢٠٠١ اصطنعت زينة لنفسها سبباً ، وتعمّدت ابتكار هويّة في لمح البصر . فكّرت في كيفة ردّ الجميل لأميركا التي منحتها الجنسيّة . وبداية الحملة العسكرية استجابت لعروض الترجمة التي تقدّمت بها وزارة الدفاع ، والتحقّت مترجمة بالجيش الأميركيّ . عادت زينة إلى العراق بهذه الصفة لتقوم بعمل جليل : تخلص بلاد الرافدين من طاغية . شرعت تستعدّ في ظلّ حملة تقول بتحرير البلاد من الاستبداد ، واختلقت هدفاً يوافق ذلك ، «إنّني ذاهبة في مهمّة وطنيّة . جنديّة أتقدم لمساعدة حكومتي وشعبي وجيشي ، جيشنا الأميركيّ الذي سيعمل على إسقاط صدام وتحرير شعب ذاق المر»<sup>(١)</sup> . عزّز الهدف بمبلغ ١٨٦٠٠٠ دولار ، هو أجرها السنويّ ، وكان كما تقول ، هو «ثمن لغتي النادرة ، بل ثمن دمي» . دمجت زينة بطريقة نفعيّة بارعة بين شعور وطنيّ زائف استثير فجأة ، وأجر ماليّ مجزٍ ، وتغيير في مسار حياة عابثة .

لم يكن هذا الغطاء السميّك من البلادة الأخلاقيّة قادراً على طمس المشاعر

---

(١) إنعام كجه جي ، الحفيدة الأميركيّة ، بيروت ، دار الجديد ، ٢٠٠٨ ، ص ١٨

المتوارية في منطقة نائية من أعماقها ، فلم تتخلص بصورة قطعية من ذاكرة كانت تجرّها أحياناً إلى الوراء ، وتحدث فيها اضطراباً ، فمع بدء الغزو تولدت في نفسها مشاعر متضاربة ، «رغم حماستي للحرب ، أكتشف أنني أتألم ألماً من نوع غريب يصعب تعريفه . هل أنا منافقة ، أميركية بوجهين؟ أم عراقية في سبات مؤجل مثل الجواسيس النائمين المزروعين في أرض العدو من سنوات؟ لماذا أشعر بالإشفاق على الضحايا ، وكأنني تأثرت بالأم تيريزا ، شريكتي في اسم القديسة شفيعتي؟ كنت أنكمش وأنا أشاهد بغداد تقصف وترتفع فيها أعمدة الدخان بعد الغارات الأميركية . كأنني أرى نفسي وأنا أحرق شعري بولاعة سجائر أمي ، أو أخز جلدي بمقصّ أظفري ، أو أصفع خدي الأيسر بكفي اليمنى»<sup>(١)</sup> . دخل مؤثّر جديد ، فاهتزّ التوازن القديم ، دفعت الحرب زينة إلى موقف غير محسوب . وقع صراع بين المشاعر والمصالح ، وبين الماضي والحاضر . هذا مقوم من مقومات الهوية المركبة .

## ٧. الهوية والتركة الوطنية:

حينما أعلنت الحرب ، اكتشفت زينة أنها يمكن أن تكون مفيدة ومستفيدة ، فهي تجيد الإنجليزية والعربية . تريد أن تخدم وطنها الجديد بغزو الوطن القديم . ولم يغب عامل المال . رحلتها للمشاركة في احتلال مسقط رأسها رسمت لها معنى الهوية وفقدانها . كانت سعيدة في ملاذها الجديد ؛ لأنها لا تعرف معنى الانتماء ، فالامبالاة تغذي صاحبها بالفرح لأنه ليس مشدوداً إلى هدف ، وغير مثقل بمعنى ، وخارج مدار الذكريات . يعوم كفقاعة في وسط غامض ، وبإعادة تعريف هويتها كأميركية - عراقية بدأ الشقاء . جاء تعريف الهوية على خلفية قضية الغزو والاحتلال . وإذا كان جيل الأجداد قبل ظلماً وسكت عليه ، وجيل الآباء هرب منه ، فجيل الأحفاد عاد لينتقم .

عادت زينة غازية تحمل المشروع الأميركي لإعادة تعريف العراق ، وتحريره من مستبد . لم يكن ذلك واضحاً عندها ، فهي لا تعرف عن جدّها وجدّتها إلاّ نبذاً من ذكريات الصبا . لكنّها تعرف عن أمّها وأبيها الكثير . بيد أنها لم تكن تعرف نفسها كما ينبغي . وطوال حياتها الأميركية كانت تبتذل أية معرفة ، وتسخر منها .

(١) م. ن. ص ٢٣

وبوصولها العراق بدأت تعيد بناء تجربتها الشخصية .

حرص الأب على تعليم الأبناء اللغة الآشورية حفاظاً على خصوصية الهوية التاريخية ، فيما ظلت الأم تتحدث بالعامية العراقية ، أما الإنجليزية فكانت لغة الحياة اليومية خارج البيت بالنسبة لزينة . يريد الأب الحفاظ على اللغة القومية ، والأم على اللغة الوطنية ، والبنات على اللغة الكونية . لكن الأميركيين في وزارة الدفاع كانوا ينتقون من يعرف العربية لتأسيس التواصل بينهم وبين العراقيين في المعتقلات ، وفي أثناء الاستجوابات والتحقيقات وخلال العمليات العسكرية . ولم ترد أية إشارة إلى أن زينة قامت بالترجمة لغرض يتصل بغير ذلك . إنه تضارب عميق يأخذ دلالة من السجال الناشب بين الهويات المتنازعة .

تمثل زينة أيقونة الحيرة في الحالة العراقية الواقعة بين الاستبداد والاحتلال . لقد تركت جذتها وجدّها في بغداد ، ورافقت والديها إلى أميركا . أصرّ الجدّان يوسف ورحمة على أن يبقىا عراقيين ، وفصلاً بصورة قاطعة بين الاستبداد والوطن . أمّا الأبوان صباح وبتول فتركا البلاد هارين من أخطار مؤكّدة ، وأصبحا أميركيين ، لكنهما سقطا في منطقة الحنين إلى مسقط الرأس . خرب المنفى علاقتهما الزوجية ، فترك الأب البيت ، وعانت الأم صعاب الحياة . أمّا الأحفاد زينة ويزن ، فعاشا عالماً لا صلة له بالذاكرة . آدمين يزن المخدرات وهو في مقتبل عمره ، وأصبح اسمه «جازين» وانخرطت زينة وقد أصبحت «زانيا» في عبث الشباب وعدم الانتماء . لم تحتفِ بالتاريخ . كان العراق بالنسبة لها «حاوية لعظام الأجداد» (١) .

أبت الجدّة مغادرة بلادها ، فمكثت وحيدة في بيتها الكبير في بغداد ، تستعيد صورة زوجها العقيد ، وتتمسّح بأزيائه العسكرية بعد وفاته ، وتصلّي من أجل أن يحمي القديسون بلادها . تقوم على خدمتها عجوز شيعيّة تدعى طاووس ، عاصرت نصف قرن من حياة الأسرة المسيحيّة . وقبل قرابة ثلاثين عاماً ، حينما تعرّضت بتول لحالة حمّى ، قامت طاووس بإرضاع زينة . أنجبت طاووس ستة أبناء ، أصبحوا جميعاً أخوة لزينة بالرضاعة . أكبرهم «مهيمن» عاشق للموسيقى ، الذي سيق إلى الحرب مع إيران ، وأخذ أسيراً ، وخلال الأسر غدّي بالأيدلوجيّة الدينيّة المتشدّدة وتشبّع بها ، وحينما أطلق سراحه وعاد ، فأول ما قام به إحراق صندوق الأشرطة الموسيقية التي

---

(١) م. ن. ص. ٤٩

احتفظت به له أمّه ، «ذهب شيوعياً بالوراثة ، وعاد فقيهاً يجادل في أمور الجنّة والجحيم»<sup>(١)</sup> . وباحتلال العراق التحق بجيش المهدي . الأخت زينة مترجمة لدى الجيش الأمريكي المحتلّ ، وأخوها مهيمن في جيش المهدي المقاوم . ثمّة انتساب وثمرّة عداء . اتّصال وانفصال .

أولّ تغيير لحق بهويّة العراقيّين الجديدة في أميركا يتّصل بالتسمية ، أصبحت «زينة» هناك «زانيا» وتحوّل «يزن» إلى «جازين» . حُجزت الفتاة في تسمية أميركيّة ، فيما كانت أيام طفولتها في بغداد ترتع وسط تسميات محبّبة كثيرة : زينة وزين وزوينة وزبونة وزبون وزنن . وعلى خلفيّة هذه التحوّلات الصرفيّة في الاسم وقع تحوّل جذريّ في الهويّة . انشطرت الأسرة إلى جيل الأجداد المتمسكّ بالهويّة العراقيّة ، وجيل الأبناء الذي هرب منها لكنّه يحنّ إليها بالشعر والغناء والذكريات ، وجيل الأبناء الذي قطع الصلة عن كلّ ذلك ، فانخرط في العبث ، ولم يجد أمامه سوى الإحباط ، وقد رمى على هامش الحياة الأميركيّة .

## ٨. عشق محرّم:

جاءت الحرب فخلطت الأجيال بعضها ببعض ، وأعادت تعريف هويّتها . فانبثق جدل حول الوطن والمنفى ، وحول الاستقرار والهجرة . ترى زينة أنّ «الهجرة هي استقرار هذا العصر ، والانتماء لا يكون بملازمة مسقط الرأس» . أمّا مهيمن الأخ بالرضاعة ، فيرى أنّ «الهجرة مثل الأسر؛ كلاهما يتركك معلقاً بين زمنين ، فلا البقاء يريحك ولا العودة تواتيك»<sup>(٢)</sup> . كلّ يدافع عن تجربة يعرفها ، فتتوارى عنه تجارب الآخرين . لم يتأسّس أيّ نوع من الاتّصال العميق بين الشخصيّات لعزوفها الكامل عن تعرّف تجارب سواها . نبذت زينة - زانيا في بغداد من طرف جدّتها ، ولم يتقبّل مهيمن وجودها في عالمه ، فأمضت أيامها مجنّدة في المنطقة الخضراء . حاولت كسر الحلقة المغلقة لكنها فشلت ، كانت تتصرّف بطريقة مستعارة من هويّتها الجديدة . ولكنّ هذا التمايز الواضح بين زينة ومهيمن في الرؤى والمواقف لن يحول دون شعور غامض بالرغبة والخوف يغزو زينة ، ويشدّها إلى مرغوبها وأخيها .

(١) م. ن. ص ١٣٨

(٢) م. ن. ص ١٤٤

تميّزت زينة بسلوك شرس وروح قيادية ، لا تعبر بالاً للأنوثة والنعومة ، وبانخراطها في الجيش الأميركي ، وارتداء الملابس العسكرية ، تلاشى ما تبقى من أنوثة فيها ، فتحوّلت إلى كائن عدواني ومباشر لا يعرف الجمالة . وما إن التقت أخاها بالرضاعة حتى تكسّرت دفعة واحدة كلّ تلك العناصر ؛ إذ انبثق في عالمها «الرجل المستحيل» الذي هو «أول رجل في حياتي يشعرني بالخجل . كلّ الآخرين كنت ندّاً لهم . ينكّتون فأنكّت ويشتمون فاشتّم وبيتذلون فأبتذل . وهو الوحيد الذي يمتلك الهيبة . هذا العصبيّ النحيل الملتحي ، الذي ينضوي تحت لواء حركة طائفيّة متخلّفة ، قلب أحوالي ومارس عليّ سطوة المعشوق . تكفي نظرة منه لكي أبتلع صوتي وقاموسي المتفلّت»<sup>(١)</sup> .

عرضت زينة على مهيمن أن تقيم معه علاقة جنسيّة تتخطّى تخوم الرضاعة التي جمعتهم قبل ثلاثين سنة صدفة ، فلجأت إلى إغوائه وهما وحيدان في «عمّان» . بل إنّها تجرّأت وعرضت عليه الزواج : «أتمنى لو يتزوّجني رجل هنا ، وأبقى في بغداد قطعة أنيسة تحت قدميه» . فقابلها بعزوف بارد ، مراعيّاً الحرمات ، فعاشت خيالات الأنثى التي تتعرّض لكبح في رغباتها «كأنّ خيالاتي المستحيلة هي كلّ ما أقدر عليه . لكنّ هذا يكفي منه . قشّة الحياة هي كلّ ما يلزم الجندیّة المهذّدة بنذر الموت»<sup>(٢)</sup> .

كانا ينتميان إلى عالمين مختلفين ، فمن الصعب أن تكون الأميركيّة المسيحيّة المجنّدة في جيش الاحتلال قد سقطت أسيرة في حبّ رجل شيعيّ متطرّف في جيش المهدي ، فهي غير قادرة على المنح الحقيقيّ ، وهو يرفض بإصرار بدلاً أخوياً يعدّه سفاحاً ، فقد ناصب أميركا بأجمعها العداء ، إنّما هو خوف القويّ من الضعيف . وفيما كانت القوات الأميركيّة تنكّل بجيش المهدي في الأحياء المدممة شرق بغداد ، كانت إحدى مجنّداته تتودّد في عمّان لأحد أفرادها . يتصاغر الجلاّد أمام الضحيّة ، فتنهّار رمزيّة الاحتلال بكاملها .

وقعت زينة أسيرة تخیلات بأنّ أخاها سوف يقتلها لكون العداوة بينهما أشدّ من رابطة الأخوة ، فجاء تودّدها له ، ومحاولتها ابتذال جسدها له احتماء به ، إنّ نوع من

(١) م. ن. ص. ١٣٠

(٢) م. ن. ص. ١٣٦

الخداع النفسي: «أفكر أن قاتلي قد يكون مهيمن أو أحد رفاقه . فكرة جامحة تضعني على شفير الهاويات الكبرى . سيتقدم نحوي مجاهد مثلث من أولئك الذين أرى صورهم على المواقع الأصولية ، وحالما يحاذيني يغرز سكيناً في خاصرتي . وسأتشبث به ، وأنا أتهاوى على الأرض وأكشف لثامه . ثم أبتسم مستريحة للموت الذي زارني على يده . وسيرفع هو خوذتي ويطلق صرخة خرساء حين يرى وجهي . سيدرك أنه أسال بسكينه دم أخته . حلم أراه وأنا مفتوحة العينين فينشف ريقى وتيبس كفاي»<sup>(١)</sup> .

ليس هذا حباً إنما هو خوف مبهم . يُمسي القاتل خائفاً من القتل . وتتناثر الشخصيات في العالم الافتراضي للسرد ، فلا تعرف معنى للودّ وصلة الرحم ، ولم تفكر بالمصالحة ، فتستقطبها مواقف متطرفة ، وتتغذى بأيدولوجيات رهابية . ولو أتاحت لها الفرصة لنكّلت بعضها ببعض . مساراتها متوازية ، ولم تلتق في أية نقطة جامعة لتعيد ترتيب علاقاتها ، ولم تتفق على شيء . ينتهي النص كما بدأ موزعاً بين محتل ومقاوم . حتى الأحاسيس الإنسانية الدفينة كُبتت في الأعماق ، وطُمرت وفسدت ، ولم تحفر مجرى للتواصل والألفة .

تعود زينة إلى بلادها ضمن حملة غزو ، ويكون أخوها مقاوماً . تحاول هي إخفاء علاقتها بالاحتلال فيما يصرّح هو بمقاومته . تستدرجه للاستمتاع الجنسي ، لكنه يحترم القواعد الرمزية للأخوة . تعرض نفسها بشهوة عليه فتقابل بصدوده . يمثل مهيمن لقيم دينية وانتسابية ثابتة ، فقد تعلّق بإيمان ديني ، وقاوم غزواً أجنبياً لبلاده ، فيما حاولت زينة بعودة معاكسة أن تسهم في احتلال بلدها الأصلي ، وتخطي مفهوم الأخوة امتثالاً لرغبة جسدية صارت تحتاحها شغفاً بأخيها وخوفاً منه . لا تبحث زينة عن تفسيرات لأفعالها ، فيما ظل مهيمن أميناً لشروط وجوده الوطني والشخصي . وترتب على ذلك أن بقيت زينة إلى النهاية تخادع ، وتخفي صلتها بالاحتلال ، فيما كان يجهر الآخرون بمواقفهم . الحلقة الواصلة بين الطرفين كانت رحمة وطاوس .

التقت الجدّة رحمة بطاوس على خلفية إنسانية تجاوزت حسبة الانتماءات الدينية والعرقية والطائفية ، أما الأحفاد فتقاتلوا بأوهام الهوية الجديدة . حلّ السلام بين الأجداد ، وحكمت الحرب عالم الأحفاد . لم تلمس أية حساسية على الإطلاق

---

(١) م . ن . ص ١٣٩



في علاقة المسيحية الآشورية رحمة بالمسلمة الشيعية العربية طاووس ، فقد تألفتا مدة نصف قرن ، وأثمر ذلك عن أخوة . جيل الأحفاد هو الذي افتعل الصراع على الهوية . حينما انتهى عقد زينة كترجمة في الجيش ، وعادت إلى أميركا «انشطرت نصفين ، ما قبل بغداد وما بعد بغداد» . إنها ليست قادرة على استرجاع حياتها السابقة ولا التألف مع حياتها الحالية . وبوصولها ديترويت اغتسلت ، فلم يتساقط عنها «غبار الشجن» الذي جاءت به من العراق ، «ظلّ عالقاً بي مثل قريني . سيبقى معي يكمل تربيتي»<sup>(١)</sup> .

## ٩. أحلام الغزاة:

وتدخلت الأحلام في صوغ الدلالة الأخيرة للراوية ، وهي ترصد كثيراً من الأحداث قبل وقوعها . نقلت زينة من أميركا إلى قاعدة عسكرية في ألمانيا ، ثم بطائرة شحن عسكرية إلى بغداد للالتحاق بالجيش مترجمة . خلال الرحلة الطويلة شعرت بالقرف ، لكن بدخولها الأجواء العراقية تغير مزاجها ، «خيّل لي أنني أشم عبق زهر القداح على أشجار النارج في الحدائق ، والرائحة الشهية للدخان المتصاعد من السمك المسقوف . حالة لم تدم أكثر من دقيقة ، أطفئت بعدها الأنوار الكاشفة لأننا بدأنا نحلّق في سماء بغداد»<sup>(٢)</sup> . هبطت الطائرة في مطار بغداد ، فاكتشف الجميع أنهم دفعوا إلى تهلكة مؤكدة . كانت الفوضى تعم المكان ، وثمة عاصفة رملية حمراء غير مسبوقة ، فهي الحرب بعينها .

تعذر على زينة فتح عينيها لترى بلاداً غادرتها منذ خمسة عشر عاماً ، وجاءت الآن لتخدم في جيش احتلّها ، تعثرت وشعرت بالضيق ، فكأنّها عمياء . زحفت بصعوبة إلى قاعة مهشمة الزجاج ، وهناك «لمحت في كلّ زوايا الصالة الكبيرة جنوداً أميركيين يحتضنون خوداتهم ويغطّون في نوم مستغرقين في أحلام لا علم لي بها . ولم يكن منظرهم منظر من ينام نومة متقطعة تقلقها الهواجس والكوابيس ، بدوا لي ، أنا التي يكاد ظهرها ينقص من الألم ، أنهم يرقدون في أحضان حبيباتهم بعد مضاجعات عنيفة امتصّت قواهم ، يغفون غير مباليين بالزلازل الذي هزّ المدينة ، ولا بما

(١) م . ن . ص ١٩٥

(٢) م . ن . ص ٣٩-٤٠

ينتظرهم فيها عندما سيفتحون أعينهم في الغد . والغد كلمة غامضة في قواميس الحروب»<sup>(١)</sup> .

بان التذمر على خلفيّة إجهاد كبير ، وجوّ رمليّ عاصف وحيرة . كلّ من يتهيّأ لخوض تجربة جديدة مثل هذه لا بدّ أن يظلّ في حالة من الترقّب . ولكن ماذا فعلت زينة التي كانت عراقية من قبل ، وأصبحت الآن أميركيّة غازية؟ دفعت حقيبتها إلى الجدار واستلقت ثمّ نامت حتّى الصباح ، فحلمت بحلم عجيب ، وهي بعد لم تر من بغداد إلّا المطار المخرب ، «رأيتني أطرق باب جدّي يوسف في شارع الربيع وأنا مرتدية فستان عرس بنفسجيّ اللون . لم يكن البنفسجيّ من ألواني المفضّلة ، لكنّ الأحلام لا تترك لنا رفاهية الاختيار . وقد فتح جدّي الباب ولم أخف منه رغم علمي ، وأنا في الحلم ، بأنّه قد مات . وسألته :

- متى جئت من السفر؟

ردّ :

- قمت من يومين . أردت أن أحضر عرسك يا سناء .

لم أصحّح له اسمي ، ولم أقل له إنّني زينة ، أو زينة كما اعتاد أن يناديني ، لكنّ جدّتي رحمة أطلّت من وراء كتفه ، وقالت :

- هذي زُنُن ، ألم تعرفها؟ المارودة تزوجت وأنت غائب ، وها هي تعود إلينا بعد أن ترمّلت . . . يا عيني عليها .

اجتزت باب الحديقة وتقدّمت من جدّي لكي أقع على يده وأقبلها . لكنّه سحبها ، فانسحب جسده بالكامل من المشهد . وفي اللحظة نفسها تحوّل فستان عرسي إلى الأسود ، وبقيت جامدة في مواجهة جدّتي ، نتبادل نظرات الأسى في الحلم»<sup>(٢)</sup> .

يكتنز هذا الحلم سائر الإشارات الدلاليّة المتناثرة في الرواية حول علاقة زينة بجدّيها وبالعراق القابع في خلفيّة الذاكرة متوارياً . ولا يحضر شيء له صلة بأميركا ملاذها الجديد . ظهرت زينة الحاملة بفستان بنفسجيّ ، ولم يكن هذا لونها المفضّل . فقابلها جدّها ، وكانت تعرف أنّه توفي ، تسأل هي عن العودة ، ويتحدّث هو عن

---

(١) م . ن . ص ٤٣

(٢) م . ن . ص ٤٤

القيامه . يناديها بسناء فيما كانت هي زينة ، يتحدث هو عن الزواج وتحدث الجدّة عن الترمّل . وبإزاء هذه التعارضات تتقدّم لتقبيل يده كأنّها تعتذر عن كونها جاءت غازية ، فيأبى ويتلاشى وجوده . يتحوّل ثوب الزفاف البنفسجيّ إلى رداء الحزن الأسود ، وتتبادل الحفيدة والجدّة نظرات الأسى .

يرصد الحلم سائر الأحداث التي تخصّ علاقة زينة بموطنها القديم ، فقد قطعت عن جذر عميق ، وظهرت كأرملة ، وانسحب الجدّ من عالمها حينما شرعت في تقديم الاعتذار ، وتحوّل فستان الزواج إلى رداء للحزن .



## الفصل السادس

### السيرة الروائيّة والهويّة والتهجين السرديّ



## ١. مدخل

السيرة الروائية كتابة مهجّنة من نوعين سرديّين معروفين ، هما : السيرة والرواية . ولا يقصد بالتهجين معنى سلبياً ، إنّما يقصد به التركيب الذي يستعير عناصره من أنواع لها شرعيّة معروفة في تاريخ الأدب ، وإعادة صوغها على وفق قواعد تناسب الكتابة الجديدة ، وفيها يمكن إعادة إنتاج الهويّة السردية للأفراد بمزيج من خلط الوقائع بالتخيّلات ، فلا تتقيد الشخصية بشروط السيرة الذاتية التي تقتضي مطابقة مع أحداث التاريخ ، ولا تتحلّل منها كما هو الأمر في الرواية ؛ إذ لا ينصّ ميثاق السرد تلك المطابقة ، فيدمج الخطاب بين الروائيّ والراوي ، فهما مكوّنان متلازمان لعلامة جديدة هي «السيرة الروائية» . لا يفارق الراوي مرويه ولا يجافيه ولا يتنكر له ، إنّما يتماهى معه ويصوغه ويعيد إنتاجه طبقاً لشروط مختلفة عن شروط الرواية والسيرة ، لكنّها غير منقطعة عنهما ، فتكون الهويّة السردية مرنة وغير مقيّدة .

السيرة الروائية هي «نوع» من السرد الذي يتقابل فيه الراوي والروائيّ ، ويندرجان معاً في تداخل مستمرّ يكون الروائيّ مصدرّاً لتخيّلات الراوي ، فالكيان الجسديّ والنفسيّ والذهنيّ للروائيّ يُشرّح ويعاد تركيبه ، فتُشحن التجربة الذاتية بالتخيّل ، فينزغ عن الهويّة السردية شرط المطابقة مع المرجعيّات الخارجيّة . وتوفّر هذه الممارسة الكتابيّة حريّة كبيرة في تقليب التجربة الشخصية للروائيّ ، وإعادة صوغ الوقائع واحتمالاتها ، دون خوف من الوصف المحايد للتجربة ، ولا الانقطاع عنها ، وبشكل من الأشكال ، فإن السيرة الروائية هي سرد ذاتيّ مباشر ، حتى لو استعان الراوي بالصيغ الموضوعيّة .

ثمّة خرق لتجربة الروائيّ الذاتية ؛ إذ يمارس الإغواء فعلة دون موارد ، في نوع من الكشف الداخليّ الجريء . إنّ صيغ الوعظ والاستعلاء والنبد والاستبعاد والخفض لا تجد لها مستندات تمنحها الشرعيّة . ولا توفّر إمكانيّة لأيّ شيء سوى الذات ، وما يمرّ عبر منظورها ، فكلّ شيء يستمدّ شرعيّته الفنّية من اتصاله بذات الروائيّ ، فرويته تشعّ في فضاء السرد ، فنضفي على الآخرين أهميّة ، ليس لأحد استقلال وقيمة إلّا بمقدار ما يتيح السرد المتمركز حول الكاتب ، الذي هو بؤرة النصّ .

يقتضي الحديث عن السيرة الروائية الإشارة إلى أهميّة التجربة الذاتية المستعادة والمصوغة صوغاً أدبياً مخصوصاً يناسب متطلّبات السرد والتخيّل ومقتضياتهما ، ذلك أنّ المادّة التي يفترض أن تكون حقيقيّة وأصليّة ، لا يمكن أن تحتفظ بذلك ، فما إن تصبح موضوعاً للسرد حتى يُعاد إنتاجها طبقاً لشروط تختلف عن شروط تكونها قبل أن تندرج في سياق التشكيل الفنّي ، وعليه لا يمكن الحديث عن مطابقة حرفيّة بين الوقائع التاريخيّة المتّصلة بسيرة المؤلّف الذاتيّة والوقائع الفنّيّة المتّصلة بسيرة الشخصية الرئيسيّة في النصّ ، هنالك تداخلات كثيرة ، فالوسيط السرديّ يعيد ترتيب العلاقة بما يوافق العالم المتخيّل ، وهو يختلف عن العالم الواقعيّ .

يمكن أن نحيل على وقائع خارج نصيّة ، استناداً إلى الإشارات المعترف بها كالتواريخ والوثائق والأحداث ، لكنّ تلك الوقائع كُيفت وأُنِتجت ، لتكوّن عناصر في نظام مغاير ، مع أنّها ما زالت توحى إذا قرئت في ضوء مرجعيّات محدّدة بتلك الأحداث والوقائع ، ومهما يكن من أمر ، فيلزم التأكيد أنّ الأهميّة في موضوع السيرة الروائيّة لا تتّجه إلى البحث المباشر عن المطابقة بين الشخصية الواقعيّة وسيرتها والشخصيّة ، وقد أصبحت عنصراً في تكوين فنّيّ آخر ، إنّما يظهر الاهتمام بكيفيّات الاستثمار ودرجات الاستلham .

ومع الأخذ في الحسبان الإكراهات والانزياحات التي تلازم كلّ تحوّل من حالة إلى حالة أخرى ، وهي تغييرات يفرضها تداخل أساليب السرد ونظام الأزمنة والضمائر والأسماء والمنظورات ، فاستعادة تاريخ حياة شخص تخضع في الغالب لشروط زمن الاستعادة ، ووعي المستعيد ووجهة نظره ، ومستلزمات التعبير عن ذلك ، أكثر ممّا تخضع لشروط المسار التاريخي لتلك الحياة ، ذلك أنّه في الأدب لا نكون أبداً بإزاء أحداث أو وقائع خام ، وإنّما بإزاء أحداث تُقدّم لنا على نحو معيّن ، فرؤيتان مختلفتان لواقعة واحدة تجعلان منها واقعيتين متميزتين ، ويتحدّد كلّ مظهر من مظاهر موضوع واحد بحسب الرؤية التي يقدمها لنا<sup>(١)</sup> . وذلك يفضي بنا إلى أنّ تأكيد أمر المطابقة الكاملة بين الوقائع التاريخيّة والوقائع النصيّة في السيرة الروائيّة مستبعد ، ولا يؤدّي إلى نتيجة مفيدة لكلّ من التاريخ والسيرة والرواية .

(١) طودوروف ، الشعريّة ، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة ، الدار البيضاء ، توبقال ، ١٩٩٠



## ٢. ميثاق السيرة الذاتية وميثاق الرواية:

على خلفيّة التاريخ الأدبيّ لكلّ من الرواية والسيرة حدّد «جورج ماي» علاقات التداخل والتخارج بين هذين النوعين الأدبيين؛ فذهب إلى أنّ السيرة قد استثمرت أساليب السرد التي أشاعتها الرواية، ولكنّ الرواية قد استثمرت بدرجة واضحة السرد المباشر الذي يعتمد على ضمير المتكلم، وهو أسلوب ظهرت بذوره في المذكرات، وسرعان ما دفعت به الرواية إلى مركز الاهتمام، وأصبح جاهزاً لأن يُعاد استخدامه وبتنوّع شديد الثراء في السيرة، وهنا يُلاحظ عمق الاقتباس والملاحقة، لكنّ الأمر لا يقتصر على ذلك، فالرواية والسيرة ربطهما جامع مشترك آخر، وهو أنّ فصيلة كاملة من الروايات قد حذت حذو السيرة في أنّ أحداثها تتمركز حول شخصيّة، والاختلاف فيما إذا كانت الشخصيّة حقيقيّة أو خياليّة، أو شخصيّة الكاتب أو غيره يبدو أقلّ أهميّة، فيما لو تمّ الأخذ بالاعتبار الخصائص النوعيّة لكلّ منهما (١).

فصيلة روايات الشخصيّة الواحدة تجدد نفسها، مهما اعترضتها من صعاب، شديدة القرب إلى السيرة، فكلاهما يعنى بشخصيّة مركزيّة. على ألاّ يفهم من ذلك أنّ الرواية إنّما هي هذه الفصيلة، إذ أنّ هذه المماثلات لا تحجب أنّ الرواية على العموم تتنازعها انتماءات عدّة، حدث يؤطر أفعال الشخصيات، أو شخصيات متضافرة في علاقتها ترفد الحدث بأفعالها، فيما السيرة تقتزن بحياة فرد، وعبر منظوره الشخصيّ تشكّل الحيات الأخرى. وعلى الرغم ممّا يمكن عدّه تمايزاً بينهما، فإنّ ذلك التمايز لا يخفّض من درجة التفاعل المستمرّ بين الاثنين، وصيغة السرد المباشر إنّما هي إحدى الخصائص التي تصلهما. صحيح أنّ مسار التلقّي يدفع بسلسلة من الاختلافات، من ذلك أنّ أفق انتظار القارئ يحدّد نوع التلقّي، ففي نهاية الأمر، لا يمكن لأحد أن يخرق قناعات المتلقّي، في أنّ الرواية عمل متخيّل، والسيرة وثيقة لها بعد واقعيّ، ذلك الأفق بما يرتبه من هواجس، يوجّه سير القراءة إلى هدف محدّد في أثناء قراءة كلّ من الرواية والسيرة.

وعلى أية حال، لا يمكن تخطّي الاستعدادات القرائيّة للمتلقّي، إنّّه فيما يخصّ

---

(١) جورج ماي، السيرة الذاتية، ترجمة محمّد القاضي وعبد الله صولة، تونس، بيت الحكمة،

الرواية يندفع للتماهي مع تجربة خياليّة ، ولكنّه في السيرة مدفوع بفضول معرفة حقيقة ما حصل للآخرين ، والخلاف حول درجة استثمار الجانب الشخصي في حياة الكتاب ، لتكون مغذّيات في نصوصهم ما زال يستأثر بالاهتمام ، ويلاقي نوعاً من القبول أحياناً من لدن القراء والنقاد على حدّ سواء ، وهنا لا يمكن إغفال درجات التمويه والتضليل الضروريّة في كلّ فنّ ، تلك الممارسات التنكّريّة التي تكتسب شرعيّتها لأنّها تندرج في سياق فعل إبداعيّ .

صاغ «جورج ماي»<sup>(١)</sup> نسق العلاقات الجامع بين الرواية والسيرة الذاتيّة استناداً إلى درجة حضور أو غياب التجارب الحقيقيّة في النصوص ، وافترض وجود سلّم من الألوان المعبرة رمزياً عن تلك العلاقات ، سلّم تندرج فيه الألوان من البنفسجيّ إلى الأحمر ، ففي الرقعة الأولى البنفسجيّة توضع الروايات التي يكون حضور شخصيّة عليها بالروايات التاريخيّة ، مثال ذلك «الفرسان الثلاثة» و«الحرب والسلام» ، وتأتي مباشرة بعد هذه الرقعة رقعة ثانية نيليّة اللون ، نجد فيها الروايات الشخصيّة أو السيريّة التي مدارها تطوّر شخصيّة رئيسة ، لكنّ هذه الشخصيّة الرئيسة بعيدة عن شخصيّة الكاتب ، بعداً يمنعنا من أن نعتبرها صورة منه ، ومثال ذلك «أوجيني غرانده» .

وفي الرقعة الثالثة ذات اللون الأزرق توضع روايات السيرة الذاتيّة المكتوبة بضمير الغائب ، ومدارها على شخصيّة رئيسة ، لكنّها بخلاف روايات الرقعة السابقة ، تكون الشخصيّة المركزيّة هنا صورة للكاتب تكاد تكون مطابقة له ، وهنا يمكن إدراج رواية «مدام بو فاري» بدلالة تأكيد فلوبيير أنّه هي ، ويمكن أن توضع في الرقعة الرابعة ذات اللون الأخضر رواية السيرة الذاتيّة المكتوبة بضمير المتكلّم ، وتصلح رواية «اعترافات فتى العصر» أنموذجاً يبرهن على هذا الشكل من أشكال الرواية ، وفي الرقعة الخامسة الصفراء توضع السيرة الذاتية الروائيّة ، وهي لا تنتسب إلى الرواية ، إنّما تنتسب إلى السيرة الذاتية ، وإن شابهها لا محالة قسط من الخيال الكبير ، كما يلاحظ في كتابات «رستيف» و«بانيول» و«لامارتين» .

أما الرقعة السادسة ذات اللون البرتقاليّ فهي خاصّة بالسيرة الذاتية التي يستخدم كاتبها اسماً مستعاراً . كما عمل «أناتول فرانس» في رباعيّته «نوزيار» . وأخيراً في الرقعة السابعة ذات اللون الأحمر نجد السيرة الذاتية التي تصرّح بأسماء

---

(١) م . ن . ص ١٩٩-٢٠٥ .

أصحابها ، وتطرّق إلى وقائع مطابقة لما حصل حقيقة في الواقع الذي عاشه كتابها . وأمثلتها كثيرة ؛ إذ تدرج فيها كثير من «قصص الحياة» ، ويمكن إعادة صوغ رقع الألوان المتدرّجة التي رمز بها «ماي» إلى مسار التعبير السرديّ من الروايات التاريخية ؛ إذ تتوافر درجة الموضوعيّة بعيداً عن ذات المؤلّف وصولاً إلى السيرة الذاتيّة الصريحة بالأفعال والأسماء ، بواسطة الشكل الآتي :

اللون	البنفسجيّ	النيليّ	الأزرق	الأخضر	الأصفر	البرتقاليّ	الأحمر
نوع الكتابة	الروايات التاريخية المركزية الغائب	روايات الشخصية بضمير المتكلّم	روايات السيرة بضمير	روايات السيرة الروائيّة مستعار	السيرة باسم صريح	السيرة الذاتية باسم	السيرة الذاتية

يلاحظ أنّ مسار التدرّج المتّجه من اليمين إلى اليسار يأخذ في الاعتبار مجموعة من العناصر ، فاتّباع المسار من بدايته إلى نهايته يكشف تضاداً لا يخفى للخواصّ الموضوعيّة ، وحضوراً متدرّجاً للخصائص الذاتية التي تبلغ أوجها في السيرة الذاتية التي تصرّح باسم صاحبها ، وكلّ ما يتّصل به من أفعال ، ويتساوق مع كلّ ذلك استبعاد متدرّج لأساليب السرد غير المباشرة ، وحضور متدرّج لأساليب السرد المباشرة ، سواء أكان ذلك بالكشف التدريجيّ عن الذات الكاتبة بوصفها المركز الذي تبلور حوله الأحداث ، أم بالظهور المتدرّج للصيغ التعبيريّة المباشرة ، إلى ذلك يلاحظ أنّ مفاصل التداخل بين الرواية والسيرة تنحصر في الرقع الزرقاء والخضراء والصفراء ، لكنّ الحدّ الفاصل بينهما يقع بالضبط بين الرقعتين الخضراء والصفراء ، ففي الأولى ما زالت الرواية هي النوع المهيمن ، وفي الثانية يغيب النوع الروائيّ لتظهر «السيرة الذاتية الروائيّة» . أي السيرة التي تستعير كثيراً من مستلزمات الرواية . تستمدّ «السيرة الروائيّة» عناصرها إذن من «الرواية» ومن «السيرة الذاتية» . إنّها تؤسّس وجودها مجازياً في التخموم الفاصلة فيما بينهما .

ذهب «فيليب لوجون» إلى أنّ السيرة الذاتية : سرد نثريّ يقوم به شخص واقعيّ عن وجوده الخاصّ ، وذلك حينما يركّز على حياته الفرديّة ، وعلى تاريخه

الشخصي<sup>(١)</sup>، ومن أجل أن تكون هناك سيرة ذاتية يجب أن يكون هناك تطابق بين المؤلف والراوي والشخصية، وذلك يتحقق إما بصورة ضمنية بالتصريح الواضح بأن النص سيرة ذاتية، وهذا شكل أول، والشكل الثاني أن يتقدم الراوي بجملة التزامات للقارئ بأنه سيتصرف على أنه المؤلف، بحيث لا يترك تأكيد أي شك في أنه يحيل على المؤلف المثبت اسمه على غلاف الكتاب، أو بصورة جلية وذلك من خلال التطابق الواضح في كل شيء بين الراوي والشخصية، بما في ذلك - وهذا أهم ركن - أن يكون الراوي هو الشخصية.

هاتان هما الطريقتان للتطابق، وفي الغالب يتم دمج الطريقتين معاً، وهذه البراهين تكون كافية لإبرام عقد بين القارئ والنص يثبت بأن ما يقرؤه القارئ هو سيرة ذاتية، وهو ما يصطلح عليه «ميثاق السيرة الذاتية». وبإزاء هذا الميثاق يصبح من اللازم الإعلان عن «الميثاق الروائي»، أي العقد الذي يضبط مسار تلقي القارئ ويوجهه ناحية اعتبار النص رواية، وهنا يقدم «لوجون» مظهرين لذلك الميثاق، أولهما: إعلان عدم التطابق بين المؤلف والشخصية في الاسم، وثانيهما: التصريح بالتخيّل، وغالباً ما يكون ذلك من خلال مصطلح «رواية»، الذي يعبر عن وظيفة أساسية في اعتبار النص تخيلاً<sup>(٢)</sup>.

لا يفترض عدم تطابق الميثاقين تعارضهما، وعليه فلا يمكن أن توضع السيرة الذاتية والرواية في تضاد سردي، فمن ناحية عامة يصبح الحديث عن نوع من التوازي الذي لا يتنكر للتداخل ولا يرفضه، ولا يعدّه إثماً، ففي كل أثر أدبي سردي ثمة درجة من حضور العنصر الذاتي، سواء تم الأمر على مستوى الرؤية والمنظور أو تم على مستوى الصيغة والأسلوب، أو تم على مستوى مكونات المتن السردي، ولكن من المفيد التقيّد الآن بعدم التطابق الكامل بين السيرة الذاتية والرواية، دون القول بالتعارض، فلتكن السيرة الذاتية «خبراً» بالمعنى البلاغي، بما يفهم إمكانية التدقيق فيما وراء النص، ولتكن الرواية نوعاً من «الإنشاء» بالمعنى نفسه. إنّ الإمكانية المنطقية لدمجهما تفضي إلى دمج «الخبر» بـ «الإنشاء» وإنتاج نصّ خبر-إنشائي، هو «السيرة الروائية».

(١) فيليب لوجون، السيرة الذاتية، ترجمة عمر حلي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٤ ص ٢٢.

(٢) م. ن. ص ٣٩ - ٤٠.

### ٣. استثمار التجربة الذاتية:

نشأت الرواية العربية الحديثة في محضن التجارب الذاتية ، سواء أكانت تلك التجارب وقائع وأحداثاً أم سيراً وتاريخاً شخصياً أم تأملات ومواقف فكرية ، ومن الطبيعي أن تدمج هذه المعطيات لحظة التشكيل السردية بالتخيّل الروائي الذي هو شرط لازم لأيّ إنشاء يندرج ضمن النوع ، وهذا التأكيد لا يأخذ معناه الدقيق ، ولا يكتسب مشروعيته النقدية إلا إذا أخذنا في الاعتبار أن «التجارب الذاتية» بكلّ تنوعاتها ومكوّناتها وعناصرها وأمشاجها الوقائعية أو الفكرية ، كانت تُستثمر بوصفها مكوّنات جزئية في بناء عالم متخيّل شامل ، وتوظّف حينما يعاد إنتاجها طبقاً لمقتضيات ذلك العالم وحاجاته الفنية ، فالمادّة الذاتية تندمج في المادّة التخيلية مشكلة المتن الذي يؤلّف نسيج العمل الروائي ، ومع ذلك فإنّ هذا العالم المجازي لا يتقبّل أحياناً كلّ أجزاء تلك المادّة ، فتظهر أفكار الروائي على لسان الراوي بما يشكّل نوعاً من السرد الكثيف الذي يفصل نسبياً بين الراوي وما يروى ، ويظهر الراوي بوصفه قناعاً للروائي ، ولكنّه قناع يفصح أكثر ممّا يخفي ؛ ذلك أنّ بعض الروائيين يكونون أكثر ميلاً ، وهم تحت ضغط تجاربهم الذاتية والفكرية ، إلى خرق السياج الذي يحتمي خلفه الراوي ، فتنهّار الحواجز بين الروائي والراوي ، وتطفو على السطح نبذ من تجارب الروائيين ، وشذرات من أفكارهم ، وفي حالة كون التجربة شديدة الحضور ، يواكب السرد مسارها ، ويقدمها بكلّ تشعباتها .

من الطبيعي أن تتباين درجات الإفادة من تلك التجارب بين روائي وآخر ، ففي رواية «زينب» لمحمّد حسين هيكل لا يخفى التطابق بين شخصيّة بطل الرواية «حامد» وهيكل المؤلّف الشاب آنذاك ، وبخاصّة التأمّلات الفكرية التي تفتح مسار السرد ، وتعمم فوق الأحداث ، وتوافق منظور هيكل الفكري ، على أنّه لم يمض وقت طويل إلا وقد شاع ما هو أكثر من ذلك ، فالمماثلة بين إبراهيم المازني وبطل روايته «إبراهيم الكاتب» ، كانت مثار تشخيص من النقد . وبعدها بسنوات قليلة أعاد طه حسين جانباً من تجربته في «أديب» ، وهو عمل سرديّ مختلف عن المسار الذاتيّ المباشر الذي استخدمه في «الأيّام» .

وسرعان ما أقحم توفيق الحكيم ، بعد ذلك بقليل ، المكوّن السيريّ كمادّة في أعماله الروائية ، كما هو الأمر في «عصفور من الشرق» و«يوميات نائب في الأرياف» ، حيث استلهم جوانب من تجاربه في فرنسا ومصر . ومع أنّ نجيب محفوظ

كان يوارب في منح الجانب الذاتي سلطة الإعلان عن نفسه ، فإنّ منظوره الفكريّ يتغلغل ويبرز أحياناً ، في «الثلاثيّة» و«أولاد حارتنا» و«اللصّ والكلاب» و«ثرثرة فوق النيل» و«حبّ تحت المطر» ، ويفصح عن نفسه كمحصّلة للتجربة الإبداعية والذاتية في «أصداء السيرة الذاتية» .

وفي مرحلة لاحقة ، وجد كثير من الروائيين العرب في استخدام تجاربهم محاور لرواياتهم ، قضية تتصل بتكوّنهم وانتماءاتهم ومعاناتهم ومنافيتهم ، واختلفت بين روائي وآخر الكيفيات التي أعيد بها بناء تلك التجارب ، وعلى العموم فإنّها شكّلت خلفيات لا يمكن اختزالها بأيّ معنى من المعاني لدى : جبّار إبراهيم جبّار في «صيادون في شارع ضيق» و«السفينة» و«البحث عن وليد مسعود» ، وسهيل إدريس في «الحيّ اللاتيني» وصنع الله إبراهيم في «تلك الرائحة» و«نجمة أغسطس» و«وردة» ، وغالب هلسا في «الروائيين» و«سلطانة» ، وعبد الرحمن الربيعي في «الوشم» و«خطوط الطول . خطوط العرض» . وإدوار الخراط في «يا بنات إسكندرية» . وعشرات سواهم من الروائيين في الأدب العربيّ الحديث ، ولا يمكن إخفاء تلك الأنساق المتصاعدة في روايات الطيّب صالح وإبراهيم الكوني وفؤاد التكرلي وغادة السمان وأحمد إبراهيم الفقيه وحنان الشيخ والطاهر وطار ونوال السعداوي وسليم بركات وواسيني الأعرج وهيفاء بيطار وإسماعيل فهد إسماعيل ولطفية الدليمي وبهاء طاهر وعبد الرحمن منيف . . إلخ .

تكشف هذه اللائحة التي تعرض جانباً من جهود الروائيّات والروائيين العرب ، بهدف التمثيل وليس الإحصاء الدقيق ، أنّ المكوّن الذاتيّ وجد حضوره في المادّة الروائيّة ، وأنّ ذلك المكوّن ظلّ يزداد ظهوراً مع التطوّر التاريخيّ والفنيّ للرواية ، الأمر الذي أدّى إلى بروز مساحة كبيرة بين ما يمكن اعتباره رواية محضّة ، وما يمكن اعتباره سيرة ذاتيّة ، أخذين بالاعتبار الخصائص السردية لهذين النوعين الأدبيين ، وفي هذه المساحة استنبت ضرب جديد من الممارسة السردية المهجّنة من مصدرين أساسيين هما الرواية والسيرة الذاتية . وهذا التهجين الذي ركّبت عناصره بنجاح ، استأثر باهتمام كثير من الكتاب والكاتبات ، فمازجوا ونوعوا بين المكوّنات الذاتية والمكوّنات التخيلية ، فأثمرت الملاقحة كتابة جديدة ، هي «السيرة الروائيّة» التي سنحاول فيما يأتي الوقوف على بعض نماذجها ، في محاولة لالتماس خصائصها السردية والنوعية .

#### ٤.٤ الاكتشاف والانتهاك؛

أعاد محمد شكري في سيرته الروائية «الخبز الحافي»<sup>(١)</sup> و«الشطار»<sup>(٢)</sup> استكشاف جوانب من تكوينه الجسدي والثقافي في مراحل الطفولة والصبا والشباب ، ويبدو الاهتمام في الأول طاغياً ، فيما لا يستأثر الآخر إلا بأهمية ثانوية ، تكاد تطمسها هيمنة الجسد الذي شكّل مكوناً مركزياً في النص ، حيث قام المؤلف بعملية مزدوجة : فهو من جهة يتابع تكوينه الجسدي ، ومن جهة ثانية يستكشف وظائفه ورموزه وطوقسه وتضاريسه ، وتمارس اللغة لعبة استرجاع ذكية ، فهي تستحضر وقائع مضت لكنها تعيد إنتاجها وكأنها تقع الآن .

ولا تخفي هذه اللعبة أمر الاسترجاع الزمني لتجربة الحياة ، فوعي محمد شكري بها بوصفه مؤلفاً ، لا يتطابق معها حينما عاشها طفلاً وشاباً ، وهذا لا يستبعد المهارة التي جرت بها عملية الاسترجاع إلى درجة ظهر التماهي كبيراً بين ما هو عليه الآن وما كان ، وهذه الحركة المكوكية حول الذات جعلت المؤلف يوظف الأسلوب الروائي وتقنيات السرد الحديثة ، وبخاصة المشاهد السردية - الحوارية في إضفاء بعد روائي على سيرته ، فيظهر من جهة وثائقية أكثر طموحاً من سيرة مباشرة ، وأقل تطلعاً من رواية ، ذلك أنه يستثمر تقنيات السيرة الذاتية والرواية ، ولعل ما يلاحظ أن درجة التخيّل تؤدي وظيفة فنية لصالح الجانب الوثائقي السيري ، مع أنها مستعارة لتؤدي وظيفة مضادة ؛ فالمشاهد المصوغة صوغاً روائياً تعمق الإحساس لدى القارئ بواقعية الحدث ؛ لأنها تركز على التفاصيل الجزئية والدقيقة في المشهد السري .

مارس التخيّل وظيفة تقرير الأشياء بدل الإحياء بها ، ومع أن المؤلف أبدى حرصاً لا يخفى في تضاعيف النص على البعد التاريخي لتجربته ، لكنه لا يقع ضحية إغواء التوثيق . إن التجربة ذاتها تسترجع باعتبارها مكوناً فنياً مزج بأصل واقعي تدخل فيه المؤلف ، فأخضعه لسلسلة من الانكسارات بما يوافق الوسط التخيلي الذي يظهر فيه ، ومع أن الارتباك في تسمية النص ظهر في القسمين ؛ إذ الأول وصف بأنه «سيرة ذاتية روائية» والثاني «رواية» ، فإن تكرار الإشارة إلى السمة الروائية دعم ما أشرنا إليه من توفر للجانب التخيلي ، على أن ذلك لم يبلغ العنصر السيري في النص

(١) محمد شكري ، الخبز الحافي ، لندن ، دار الساقي ، ١٩٩٣ .

(٢) محمد شكري ، الشطار ، لندن ، دار الساقي ، ١٩٩٤ .

الذي هو المدار الأساسي فيه ، وأثره في إعطاء صورة مقرّبة عن الأحداث .  
 لم ينكر شكري أنّه استعاد ما كان قد عاشه في طفولته ، وقد خضعت تلك  
 الاستعادة لانطباع المرحلة التي تشكّلت فيها الصورة ، وقد استعان بالتخيّل لتقريب  
 الصورة التي كان قد رآها ، فأشار إلى ذلك في «الشطّار» ، فحينما زاره المستشرق  
 اليابانيّ «نوتاهارا» الذي كان يعمل على ترجمة «الخبز الحافي» عام ١٩٩٥ ، طلب  
 إليه أن يرافقه في زيارة الأماكن التي وصفها في «الخبز الحافي» . وقاده شكري من  
 تطوان باتجاه طنجة ، وأوّل ما شاهدا «الصهريج» الذي وصفه في «الخبز الحافي» ،  
 فتفاجأ اليابانيّ قائلاً : «في كتابك تصف هذا الصهريج ، وما حوله بكثير من  
 الجمال ، مع أنّه ليس كذلك ، ولا يدلّ على أنّه كان جميلاً» . فكان ردّ شكري «هذه  
 هي مهمّة الفنّ : أن نجمل الحياة في أقبح صورها . إنّ هذا الصهريج انطبع في ذهن  
 طفولتي جميلاً ولا بدّ لي من أن أستعيده بنفس الانطباع حتى ولو كان بركة من  
 الوحل ، ثمّ إنّني كنت بعيداً عنه زمنياً ومكانياً ، عندما وصفته»<sup>(١)</sup> .

رؤية الصهريج من قبل شكري كانت في الأربعينيّات من القرن العشرين وهو  
 يعيد تركيب تلك الرؤية في مطلع السبعينيّات حينما كتب «الخبز الحافي» ، ويرافق  
 اليابانيّ لرؤية الصهريج في عام ١٩٩٥ ، وهو يكتب «الشطّار» . يبحث اليابانيّ عن  
 المطابقة بين المرجع الواقعيّ وصورته السردية ، فيما لا يحرص شكري على ذلك ، فهو  
 يعيد إنتاج حياته وتجاربه ومشاهداته كما يعتقد أنّها كانت عليه في لحظة تشكّلها .

احتفت سيرة شكري الروائية بالتشردّ ، ودمجت أحزانه بأفراحه ، وظهرت الذات  
 كأنّها نهر ينساب في تضاريس وعرة وشاقّة ، تلتفّ وتدور ولكنها تتقدّم ، تخرق  
 الزمان أحياناً إذ تسبقه ، ولكنها سرعان ما تعود وتندرج في مساره الخطّيّ ، وقد خرق  
 النصّ بصراحته القاسية كلّ ضروب المواربة والتقنّع ، وطعن التصورات السائدة عن  
 التكوّن الذاتيّ للفرد وجسده ، تلك التصوّرات التي اختزلته في الغالب إلى مكوّن  
 شفّاف وأثيريّ ، وفي تضاعيف الأحداث التي كان مدارها الراوي - الروائيّ ، وبمرور  
 الزمن لوحظ تطوّر المنظور الذاتيّ للعالم الذي تتحرّك فيه شخصيّة المؤلّف وهو ينقبّ ،  
 متسلّحاً بالرغبة الساخرة ، ولذة الاكتشاف ، في الطبقات المنسيّة والمسكوت عنها في  
 تاريخ حياته وجسده وعلاقاته الاجتماعية .

(١) م . ن . ص ٩٤ .



على أنّ الفكاهة المرّة ، والنقد التهكمي ، والسخرية من الذات ، لم تكن حكراً على محمد شكري الروائيّة ، إنّما أنجز رؤوف مسعد في «بيضة النعامة»<sup>(١)</sup> سيرة روائية انتهاكية ، فيها جرد مفصل للأفعال الانتهاكية في حياته في مصر وخارجها توزعت في النصّ من أوّله إلى نهايته ؛ إذ افتتح بممارسة جنسيّة شاذّة دلّت على انتهاك عرف أخلاقيّ ، وختم بمشهد العودة إلى الطبيعة في بكارتها الأولى ، وهو انتهاك للثقافة . وبين الافتتاح والختام ، كوّن نصّ «بيضة النعامة» نفسه في تعارض بنائيّ وأسلوبيّ ودلاليّ مع قواعد النوع الروائيّ والنوع السيريّ ، لكنّه انتزع من خضم تلك التعارضات هويّته النصيّة بوصفه سيرة روائية .

تمثّل الخروج على النوع الروائيّ بتهشيم متقصّد للبناء التقليديّ ، ومساراته الزمنيّة والمكانيّة ، ولطرائق السرد الشائعة التي حلّت محلّها باقة متنوعة من المستندات الشخصية كالملذّكرات والسيرة والمدوّنات الذاتيّة والتجارب والأسفار والرحلات ، ورميت كلّ هذه المكونات في النصّ بلا نظام ، لكنّها أضفت عليه تنوعاً باهراً ، فالتقدّم والارتداد وقوّة الاستكشاف ، والانعطافات الحسيّة الغنيّة ، والعلاقات الجنسيّة التي تعرض بلا مواربة ، تتناثر هنا وهناك ، وجميعها أفعال انتهاكية جريئة ، يعاد إنتاجها بوصفها عناصر من سيرة ذاتيّة استكملت شروطها التاريخيّة ، وأنجزت ذاتها في الزمان ، وأصبح الخداع غير ممكن في عرضها طبقاً لشروط الأعراف الاجتماعيّة .

ويحوم السرد ، سواء أكان وثيقة شخصيّة أم تخيلاً متّصلاً بتجربة ما ، حول الجسد الذي يمارس فعله الملهم في نظم كلّ الأحداث والوقائع ، فالجسد الذي يمارس الاكتشاف أو ينتظره يفضح التواطؤ الأخلاقيّ حوله ، ويطمح إلى حرّيّة لا خداع فيها . يريد الجسد أن ينتهك العبوديّة المفروضة عليه ، وكلّ الأطر والحواجز التي تؤطره وتحتجزه وتحتزله إلى عورة ، والنصّ سعياً لتحقيق هذا الهدف ينتهك كلّ الحرّمات التي تحول دون ذلك ، بما فيها السرد التقليديّ الذي يتحرّج من الاقتراب إلى حالة الجسد الإنسانيّة ، فيهمّشه إلى أوجاع عاطفيّة ووجدانيّة وانفعاليّة ، وهنالكَ خروج على السيرة بوصفها تجربة اعتباريّة .

دار نصّ «بيضة النعامة» حول التجربة الذاتيّة لرؤوف مسعد ، التي عرضت بلا

(١) رؤوف مسعد ، بيضة النعامة ، لندن ، رياض الرّيس للنشر ، ١٩٩٤ .

ادعاء ولا غواية أيديولوجية ، أراد المؤلف أن يبحث في مشكلة الجسد ، فاقترض ذلك كتابة تاريخ روائي لجسده الذي كان حضوره مهيمناً منذ الطفولة وفي المنفى وفي السجون ، والكتابة عن الجسد واكتشافه في ضوء خبرة مغايرة للأعراف القائمة أمر يدرج هو ذاته ضمن الانتهاك ، وإلى ذلك أشار المؤلف بوضوح في تصدير الكتاب ، حينما سخر قائلاً إنه يقترب خطيئة إخراج هذا النص إلى الوجود ، الذي قد يضعه تحت طائلة مسؤولية جنائية باعتباره «كتابة إبداعية إبيروتيكية»<sup>(١)</sup> .

توحد الراوي في النص مع الشخصية التي هي المؤلف ، فظهر الثلاثة في كل واحد بحثاً عن الطبيعة الغامضة للجسد ، إلى درجة يمكن تجاوزاً القول فيها إن «بيضة النعامة» سيرة جسد . تتضاءل الأشياء في العالم إلا بما لها علاقة بالجسد ، وتظهر ممارساته المثلية أو السوية بوصفها جزءاً من تاريخية وجوده الطبيعي . ليس ثمّة حرج إذ لا خوف ولا مواربة ، والنص يطور تمجيذاً متصاعداً لمبدأ اللذة ، وتبجيلاً للمتعة ، وهو لا يخوض جدلاً حول ذلك ، ولا يعرض حججاً ، إنما ينهمك بالفعل الجسدي ، وكأن الجسد يكتب تجربته ويمحوها ويعيد كتابتها ، ولهذا فالنص لا يوقر الذاكرة ، ولا يعطي أهمية تذكر لثقافة اجتماعية ترسبت فيها ضغوط قاهرة وقامعة ، يتفكّه بسخرية من ذلك ؛ إذ يطرح فعل الجسد في عنفوانه المتنوع .

طرح النص حلاً لمشكلة الجسد وهو الطبيعة . ولا يفهم هذا الحل إلا في ضوء مشكلة الجسد منذ بدايتها ، حيث الثقافة الكنسية التي لها منظورها الخاص لتلك المشكلة ، وهكذا يعلن الجسد تمرده على «ثقافة الكنيسة» ، وعلى الثقافة الأوسع الحاضنة لها . يحتاج هذا الأمر إلى انتهاك مستمر يواظب النص على الإغلاء من شأنه ، ويجعله هدفاً من أهدافه ، وحالما يخرج رؤوف مسعد من سيطرة الأسرة الكنسية ، حتى يجد نفسه في نزاع مع أسرة الثقافة التقليدية ، ومهما تنوعت التجارب وتعددت ، فالحلم يقوده في نهاية المطاف إلى الطبيعة حيث لا ثقافة تضمّر في تضاعيفها إقصاء للجسد ، وهنالك في جبل اسمه امرأة ، يقال له «جبل مره» تقوده الفتيات عذراوات الطبيعة ، إلى الدرب الذي كان قد ضيعه ، وعلى سفح ذلك الجبل مارس فعله الإنساني : الحب والكتابة .

يمكن النظر إلى هاتين السيرتين الروائيتين لمحمد شكري ورؤوف مسعد ، بوصفهما

---

(١) م . ن . ص ١٢ .

نصّين ينتهكان العرف الموروث الذي يرى في وصف التجربة الجسديّة الذاتية قضيّة اعتباريّة ، تتّصل بفعل رمزيّ ، وهو استرجاع تكوّن الذات في ضوء وعي مغاير لما كانت عليه في رحلة نموها الطبيعيّ ، وذلك ما سنقف عليه في الفقرة الآتية استناداً إلى نجيب محفوظ ، وحنّا مينه .

## ٥. أصداء ذاتيّة وبقايا صور:

اقترح نجيب محفوظ في «أصداء السيرة الذاتية»<sup>(١)</sup> نمطاً جديداً من الكتابة السيريّة ، لا يستجيب لقواعد الفنّ المعهودة ، فيغيب التدرّج التاريخيّ ، ويختفي البعد الذاتيّ الذي تمثّله تقليدياً في السيرة الذاتية الشخصية الفرديّة وهي تعرض تجربتها الفعلية والوجدانية والفكرية ، وتتناثر عناصر السياق الذي ينظم الوقائع والأحداث ، وذلك يفرضي إلى تشظّي مكونات التجربة في الزمان والمكان ، ويأخذ ذلك التشظّي شكل شذرات لا يضمّنها نسق محدّد .

ومع أنّ العنوان «أصداء السيرة الذاتية» يدفع القارئ إلى اصطناع أفق انتظار خاصّ ، بأنّه سيتعرّف نبذاً من التجارب والمواقف والآراء المتّصلة بالمؤلّف إلا أنّ نجيب محفوظ يفصل بين موحيات العنوان وتوجيهاته وجملة الإشارات التي يتضمّنها النصّ ، إلى درجة يصعب فيها اختراق الحجب المحيطة بشخصيّة المؤلّف ، ذلك أنّه يلجأ إلى المواربة والتميز والإيحاء ، ولا يميل إلى التقرير والإحالة . ومعلوم أنّ شحن التخيل ، والتعمية على البعد الذاتيّ - الوقائعيّ يبعد فنّ السيرة الذاتية عن أهمّ قواعده ، وهي استثمار تجربة شخص ما ، وعرضها سردياً .

ينبغي التريث إزاء كلمة «أصداء» الواردة في العنوان ، فوظيفتها مزدوجة ؛ إذ هي من جهة أولى تخفّف من درجة التصريح بأنّ ما سيتضمّنه النصّ سيرة ذاتيّة ، ولكنّ هذا لا يعني أنّها لا توحى بأنّ النصّ ليس سيرة ذاتيّة ، ومن جهة ثانية فإنّها تمارس فصلاً رمزيّاً بين ما يمكن توقّعه من أحداث مباشرة وأخرى غير مباشرة ، وفي الأخير فإنّ ما ينتظره القارئ هو «أصداء» لوقائع ، وليس الوقائع ذاتها . وبذلك يترتّب تسلسل الأحداث باعتبارها أحداثاً من الدرجة الثانية في التصريح ، فالمؤلّف لا يريد الوقوف على أحداث الدرجة الأولى ، إنّه مهوم بأصداء تلك الأحداث ، وهذا الاختيار غاية

(١) نجيب محفوظ ، أصداء السيرة الذاتية ، القاهرة ، مكتبة مصر .

في الأهميّة لأنّه يبذر تعارضاً داخل النسيج الدلالي للنصّ ، فالوجه الأوّل لذلك التعارض يتّجه إلى أنّ النصّ متّصل بوقائع حياة المؤلّف ، وعليه فللقارئ كامل الحقّ في تلقّي النصّ باعتباره سيرة ذاتيّة غير مباشرة إنّما جملة أصداء ، والوجه الثاني يتّجه إلى دفع النصّ إلى مضمار التخيّل الروائيّ الذي لنجيب محفوظ فيه دور لا يختلف عليه .

تغذّي نصّ «أصداء السيرة الذاتية» من هذه التعارضات الدلاليّة ، وانطلق في مجاز خياليّ ذاتيّ خصب ، فكلّ من التجربة والتخيّل زودتا النصّ بإمكانات إيحائيّة كثيرة ؛ لأنّ التنافذ فيه مفتوح على مغذّين أساسيين هما : السيرة الذاتية والتخيّل الروائيّ ، وعلى هذا فإنّ مصطلح «السيرة الروائيّة» ينطبق عليه ، ويعبر عن سلسلة الأمشاج التي يتركّب منها .

يتكوّن متن النصّ من ٢٢٥ فقرة مرقّمة ، ولا تخضع تلك الفقرات إلى علاقات منطقيّة أو سببيّة ، إنّما يأتي تنفيذها دون ترتيب ، فتربطها علاقات سرديّة ، بحيث إنّ البحث عن صلة في النسيج الداخليّ بين الفقرات لا يظهر ، ولكنّ المناخ التأمليّ التجريديّ سيكون حاضناً يحلّ محلّ السياق المتدرّج . وبسبب كلّ هذا نفضّل أن نستخدم على تلك الفقرات بـ «الشذرات» مستحضرين في الذهن «الشذرات الفلسفيّة» التي دشنت لظهور غط من التفكير الفلسفيّ في العصور القديمة ، فتلك الشذرات كانت في غالبيتها تأملات فكريّة أخذت أحياناً شكلاً عملياً محسوساً ، وأحياناً شكلاً تجريدياً مطلقاً ، ومن خلالها بُنّت جملة الآراء والمواقف والانطباعات والتجارب والرؤى .

تتضمّن «شذرات» نجيب محفوظ كلّ هذا ، وربّما يكون الانتقال المتدرّج من الحسّيّ الملموس إلى المجرّد هو المظهر الوحيد الذي يمكن تلمّسه في هذا النصّ ، فالشذرة الأولى ، التي يمكن اعتبارها أوّل مفاتيح النصّ ، تلمّح إلى طفولة المؤلّف ، وهو دون السابعة ، ويرجّح أن الإشارة تتّصل بثورة ١٩١٩ في مصر التي بالمقارنة مع ميلاد الكاتب ، تكون الحدث الذي يرجّح أنّ المؤلّف يقصده في استهلال النصّ . بعد أن تنتهي هذه الشذرة يجري تجاوز البعد الذاتيّ ، لكن دون التعالي على الأحداث الملموسة التي منها ذكريات متقطّعة عن زيارات عائليّة ولقاءات وحوارات وذكريات وهموم ذاتيّة أو جماعيّة .

وكلّما تقدمنا في قراءة الشذرات تزداد شحنة التجريد ، وفي الشذرة العاشرة يردّ

على لسان الحكيم- وهو صديق الراوي- قوله «ما الحبّ إلّا تدريب ينتفع به ذوو الحظّ من الواصلين». وفي الشذرة الثالثة عشرة يقول الحكيم: «قسوة الذاكرة تتجلّى في التذكّر كما تتجلّى في النسيان». ويغيب الحكيم، فيما يكون السرد مباشراً بضمير المتكلّم، ولكنّه يعاود الظهور هنا وهناك، إلّا أنّ الشذرة رقم (١٢٠) تحمل عنواناً لافتاً للنظر «عبد ربه التائه». وسوف يتوالى ظهوره في معظم الشذرات المئة الباقيات، ولا يمكن إخفاء التماهي بين الراوي الذي كان شديد الحضور إلى الشذرة ١٢٠ وانحساره بعد ذلك، واندماجه رمزياً بشخصيّة «عبد ربه التائه».

ويحسن إيراد هذه الشذرة المفصليّة في النصّ: «كان أوّل ظهور الشيخ عبد ربه في حينّا حين سمع وهو ينادي «ولد تائه يا أولاد الحلال»، ولما سئل عن أوصاف الولد المفقود، قال «فقدته منذ أكثر من سبعين عاماً فغابت عنيّ جميع أوصافه»، تعرّفت بعبد ربه وكنتنا نلقاه في الطريق والمقهى أو الكهف، وفي كهوف الصحراء يجتمع بالأصحاب حيث ترمي بهم فرحة المناجاة في غيبوبة النشوات، فحقّ عليهم أن يوصفوا بالسكارى وأن يسمّى كهفهم الخمّارة. ومنذ عرفته داومت على لقائه ما وسعني الوقت وأذن لي الفراغ، وإنّ في صحبته مسرّة وفي كلامه متعة، وإن استعصى على العقل أحياناً».

ظهر الشيخ عبد ربه التائه في منتصف النصّ تقريباً باحثاً عن طفولته التي غادرها منذ سبعين عاماً، وسيستأثر بأهميّة استثنائيّة في القسم الثاني من النصّ، ولا يخفي الراوي مداومته لقاء الشيخ، ومسرّة صحبته والمتعة التي يثيرها كلامه، ومن المهمّ الإشارة إلى أنّ ذلك الكلام قد «يستعصي على العقل أحياناً». فعلاً، فإنّ الشذرات الحكميّة والوعظيّة التي ستردّد على لسان الشيخ ستكون تجريدية في الغالب. إنّ الشيخ لا يظلّ قناعاً للراوي، إنّما الراوي يتماهي معه، ويتحوّل السرد شيئاً فشيئاً إلى سرد موضوعي غير مباشر.

يغيب الكلام المباشر والراوي الذي يعلن عن وجوده وانطباعاته، ويظهر الشيخ الحكيم بشذراته المكثّفة الموجزة، التي تعدّ ذخيرة تجارب تعرض بشكل تجريديّ على أنّها تأملات تستعصي على العقل أحياناً، وسوف يوزّع النصّ بين الراوي والشيخ والمؤلّف. ولكننا نرجّح أنّه في القسم الثاني من النصّ سيندمج هؤلاء الثلاثة، فالشيخ هو الراوي وهو المؤلّف، ما أشدّ الشبه بين الشيخ وبعض الشخصيات التي ظهرت في «ملحمة الحرافيش» و«أولاد حارتنا»! ما أقرب أن يكون الشيخ قناعاً

لنجيب محفوظ! ومن الملاحظ أن اسمه المركّب يعتبر مثار فضول للبحث ، إنّه الشيخ الضالّ منذ سبعين عاماً ، أيكون حقاً هو نجيب محفوظ الذي لم تمكث في ذاكرته - في تضاعيف هذا النص - إلاّ الذكرى التي أشار إليها في الشذرة الأولى ، فغادر طفولته إلى الآن ، وأصبح شيخاً تائهاً يبحث عن حقيقة يعرف أنّها غير موجودة؟ وفي «بقايا صور» وقف «حنّا مينه» على طفولته القروية قبل مرحلة الوعي ، وضمن إطار التشرّد الأسريّ ظهر الراوي - الطفل وهو يلتقط أو يعيد التقاط وقائع علقت في ذاكرته ، وتُبتت بوصفها صوراً شكّلت جزءاً منها ، وقد صرّح حنا مينه بذلك كاشفاً آلية تكون سيرته الروائية ، «إن بقايا صور ستغدو ، في الوعي الذي نما بنموّ العمر ، صوراً شبه كاملة الآن ، قد يظلّ فيها بعض الفجوات ، وقد تستعين الخيّلة ببعض المسموع من الأهل لتظهير طرف مكمل من هذه الصورة أو تلك ، ولكن الأشياء تصبح في الضوء مستخرجة بجهد الاسترجاع من قاع بئر قديمة معتمة ، لذاكرة رسخت الأحداث فيها على طفولتها ، كأنما هذه الأحداث القاسية قد حفرت بسكّين الشقاء المتصل لأسرة يعصف بها الإعصار من كلّ جانب ، وهي تدور في الدوامة الزوبعية ، كسفينة شرّاعة قطعت مرساتها وانكسرت دفتها ، فتخبّطت في الموج العاصف بغير قيادة ، أو بوجود قيادة مع ربّان غير مؤهل لأن يكون ربّاناً ، أو أنّه لا يبالي أن يكون ، لأنّه حرم مزية التقدير والتدبير ، ولم يحسّ بأنّه يحمل مسؤوليتهما أساساً (الإشارة إلى قصور دور الأب في الأسرة) . أنا لا أزعّم أنّ سفينة عائلتنا وحدها التي عرفت هذا التخبّط في لجة بحر الفقر الكبير ، ولكنّها ، بسبب من لا مبالاة ربّانها ، كانت أشدّها اضطراباً في مصطرع النوء وأسرعها إلى الضياع في اللجة ، وقد ضاعت فعلاً ، وحين سيكتب لها أن تعود إلى الشاطئ ، ستكون قد فقدت بعض أفرادها ، برغم أنّها كانت لا تزال في الصفحات الأولى من سفر التيه الذي عاشته» (١) .

ما اصطلح عليه حنّا مينه بـ«سفر التيه» ، هو الذي سيكون مادة «بقايا صور» . ومن الواضح أنّ الراوي الذي يعدّ الشخصية الأساسية في النصّ ، وهو المؤلّف في قناع سرديّ ، يعزو ذلك التشرّد والضياع والتخبّط إلى عجز الأب وقصوره في بسط حمايته على الأسرة ، ولكنّ الراوي ظهر أكثر رحمة بأبيه من الراوي في «الخبز

(١) حنّا مينه ، بقايا صور ، بيروت ، دار الآداب ، ١٩٩٠ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

الحافي» ، ففيما رُفرت في كتاب «محمد شكري» صورة الأب المجرم الذي قتل ابنه الصغير ، ورغبة الراوي الصريحة في الانتقام ، فإن الراوي في «بقايا صور» كان يبحث أحياناً عن أعذار لأبيه ، على الرغم من معرفته بأنه أسير «الثالوث المصائبي» ؛ إذ «يشرب حيثما تسنى له ، ويسكر كلما شرب ، وينام في أي مكان ، ولو في الفلاة أو الخمارة تاركاً نفسه وما معه لرحمة المارة والعابثين والمخمورين»<sup>(١)</sup> .

من الصحيح أن الراوي حمل أباه كل مصائب الأسرة ، لكنه تحاشى إنتاج صورة كاملة السوء له ، فكان يرأف به ، متفهماً حالاته النفسية المتذبذبة بين الدور الأبوي المسؤول والدور العابت الذي يهرب به من حياته الأسرية ، فهو «يرحل وكله قصد أن يعود كما رحل ممارساً كل مشاعر الزوج والأب ، وكل مسؤوليته تجاههما ، ولكنه بنفس القصد ، والأصح دونه ، ينسى كل ذلك ، كأنما هو ليس زوجاً ولا أباً . يعيش في أي مكان ، كما في كل مكان يسكر وينام ، كما لو أنه في بيته ، وكما لو أنه بلا بيت . ينسى طوال غيبته ما كان قبل الغيبة ، يفقد بطريقة ما ذاكرته ، يحيا فقدان الشعور بالمسؤولية كما كان يحيا الشعور بالمسؤولية قبله»<sup>(٢)</sup> .

ثم رسم الراوي موقفه النهائي من أبيه ملتصقاً له المغفرة ، «واني لأغفر لوالدي كثيراً من الأذى الذي ألحقه بنا بسبب من هذه اللامبالاة تجاه الحياة التي كان يظهرها . ولست ألومه على شبقه المرضي ، ما دام ليس مسؤولاً عنه ، ولا على سكره ، هو الذي في السكر كان يغرق تعاسات دنياه ، لكنني كطفل ما كنت قادراً على فهم ذلك ، وكان احتجاج أمي عليه هو احتجاجي ، ثم صار الاحتجاج ألماً وقرفاً وعجزاً في آن»<sup>(٣)</sup> .

من الواضح أن الراوي رغب في تسوية الأمر ، فأدرج سلوك الأب في سياق الشقاء العام الذي ضرب الأسرة كالإعصار المدمر ، فلم يرد به أن يكون قطباً مضاداً للأب كما هو الحال عند محمد شكري ، فدفعه هذا الأمر إلى تخفيف العبء عن كاهل أبيه ، الذي لم يشكّل حضوره أو غيابه في سياق الأحداث أمراً ذا شأن ، فقد انحصر التراسل بين الطفل وأمه وأخواته ، إن شقاء الأم ، بفعل وجودها مع الطفل ،

(١) م . ن . ص ١١٠ .

(٢) م . ن . ص ١١ .

(٣) م . ن . ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

وحيرتها وعطفها وتردّدها ومهادنتها وحسن طويّتها إلى جانب كونها ذخيرة حكايات ، استأثرت باهتمام الابن وهو يروي ، فمعظم بقايا الصور التي استرجعها الراوي ارتبطت بالأُمّ المعذبة ، فلا غرابة أن يظهر إهداء المؤلف في مقدمة الكتاب «إلى مريانا ميخائيل زكور ، أمّي» . الإهداء مفتاح للولوج إلى عالم النصّ ، وصورة الأُمّ المشعّة تفسر أهميّة الإهداء ووظيفته .

تميّز الراوي في «بقايا صور» بأنّه راو اندماجيّ ، لم يجعل من فرديّته هاجسًا يشغله ، فأسلوب السرد المباشر الذي قام على استخدام متنوّع لضمير المتكلم في السير الروائيّة العربيّة ، اختفى وظهرت صيغة واحدة فقط من بين صيغه ، وهي ضمير المتكلم بصيغة الجمع ، وهذا أمر له دلالته ، فالراوي لم يهتمّ بذاته ، إنّما انصرف اهتمامه إلى تصوير أسرته ، فكان يذوب في كيان الأسرة ، ويتحدّث باسمها ، ويستعيد تجربتها بعيداً عن أي نزوع نرجسي ، إنه لا يشكل أبداً محورا أساسيا في تلك التجربة ، لا يقف على أفعاله إلا في أقل درجة ، لا يعنى بتطوراته النفسية والجسدية إلا بشكل عابر وثانوي وفي سياق غير مقصود لذاته ، فهو غير ميال للتعليل لأنّه لم يبلغ مرحلة تمكّنه من ذلك ، وقد عرضت أفعال الآخرين وتجاربهم ومواقفهم على شاشة ذاكرته بوصفها «بقايا صور» .

لم يلجأ حتّى مینه إلى إسقاط وعيه الحاليّ على تجربته الأسريّة المبكّرة ، ولم يرد أن يجعل ذلك موضوعاً للتحليل والإسقاط والتأويل ، وفي مرّات قليلة تدخّل في إبداء موقف أو رأي ، ولكن دون تورّط ، إنّما بشفافية عابرة ، من ذلك مثلاً إشارته الموجزة لموضوع الجنس ، الذي لا تظهر له أهميّة في النصّ ، فهو لا يخفي كرهه للتهتّك الجنسيّ و«مقت مقترفيه» . لقد أردت الأشياء شاعريّة ، سامية دائماً لا بدافع أخلاقيّ متزمت ، بل بفعل رومانتيكيّة شفّافة جبلت عليها ، رومانتيكيّة ترى في الجنس ، في أقصى شبقه ممارسة إنسانيّة رفيعة ، وتغضب حتى الصراخ ، أن تنحط هذه الممارسة فتصبح ابتذاليّة كريهة»<sup>(١)</sup> .

صرّح حتّى مینه بوجهة نظره ، ويبدو تغييب موضوع الجنس واستبعاده ، وكأنّه نوع من الانتهاك للاحتفاء به كما ظهر في «بيضة النعامة» و«الخبز الحافي»

---

(١) م . ن . ص ٢٧٣ .



و«الشطّار» ، ويغالبه أسى في مكان آخر ؛ لأنّه في طفولته لم يكن يصلح لشيء ؛ لأنّ أحدًا لا يقبل أن يستخدمه كما حصل لشقيقاته اللواتي عملن خادِمات ، الإحساس بأنّه يقتات من تعبهنّ الجسديّ ، يؤرّقه إنّهُ تعلّم على حساب جهلهنّ ، يقول : «كنت أقتات من جسد أخواتي ، من طفولتهنّ من حرّيتهنّ ، وإنّني تعلّمت القراءة والكتابة ، في الصفوف الابتدائيّة الوحيدة ، من جهلهنّ ، وظنّني أنّهنّ لن يقرأن هذه الكلمات أبدًا لأنهنّ أميّات ، ولأنّ أحدًا لن يتطوّع كي يقرأها لهنّ»<sup>(١)</sup> . إنّ مثل هذه الإشارات قليلة ، وكأنّ الراوي مدفوع بإحساس خفيّ بالذنب لأنّ الآخرين من أسرته قدّموا أكثر منه ، وقد يفسّر هذا أمر عزوفه عن تسليط الضوء على نفسه ، وهو أمر جعله كائنًا اندماجيًّا لا يرغب بالإعلان عن فرديته .

اطّردت الأحداث السردية في تسلسل خطّي متصاعد لا يعوقه شيء ، فلا ميل للعودة إلى الوقوف على وقائع تجاوزهها سياق وقوع الأحداث ، ولا رغبة في الإيحاء بورود أحداث لم تقع بعدُ إلّا في حالات نادرة لم تخلخل ذلك النظام المتدرّج ، كما لاحظنا في «أصداء السيرة الذاتية» . وهذا النسق التقليديّ الشائع في السيرة الذاتية والرواية يوافق الطابع الانسيابيّ والجبريّ والمهادن للشخصيّات الأساسيّة في النصّ ، ذلك أنّ الشخصيّات مستكينّة ومسوقة بإرادة قدريّة ، وكأنّ الخلق الفنيّ لم يتدخل في صياغتها ، كالأب في غيابه وحضوره ، وفي خسائره المتلاحقة ، وإهماله ولا أبايّة ، والأمّ في استكانتها وقبولها الأمر الواقع ، وعطفها حتى على الأرامل من عشيقات زوجها ، والأخوات الصاغرات الخادِمات ، والطفل الذي لا يملك إلّا الذاكرة ، وجميعهم محكومون بإرادة غامضة تسيّرهم حيث شاءت ، مرّة إلى أعمال السخرة ، وأخرى إلى التشردّ والضياع والجوع والارتحال . وحدها الأرملة «زنوبة» اخترقت هذا الركود ، وظهرت كشخصيّة فاعلة في مزاجها ورغباتها وشفقتها ، ونهاية حياتها التي اختارتها لتغيّر كلّ التوازنات والتواطؤات القائمة في مجتمع النصّ ، وبسبب ذلك قرّرت أسرة الراوي الهجرة إلى المدينة .

دمج الراوي في ذاكرته مكوّنين رئيسيّين شكّلا متن النصّ ، أولهما ما روي له ، وما سمعه من خلال وسطاء ، وما أضافته مخيلته إلى ذلك ، وبخاصّة مرويّات الأمّ

---

(١) م . ن . ص ٢٥٧ .

الخرافية والأسطورية والدينية والتاريخية ، وشكّل هذا المكوّن جانباً كبيراً من الفصول الأولى من النصّ . وظهرت فيه مرويّات الأمّ وكأنّها مغالبة للقهر والإذلال ، ومعادل للإخفاق الأسري والاجتماعي ، فكانت تمضي في مرويّاتها وكأنّها تروي لنفسها ، وحول الموقد وسط زمهرير الشتاء ، ووسط عواء الكلاب وبنات أوى ، وصرير الريح والعواصف الممطرة ؛ إذ الجوع والخوف والتحفّز ، تبدأ الأمّ حكاياتها ، إنّها مدفوعة بأحاسيس دفيئة لإعادة التوتّر إلى نفسها وأطفالها في ظلّ غياب مستمرّ لزوجها ، من أجل ذلك « كانت تبذل جهداً في حملنا على السهر . تغرينا : « الليلة سأحكي لكم عن الشاطر حسن » ، ومنذ هبوط الليل نغلق الباب ، ونضع وراءه جذع شجرة التوت ، وبعد أن نتناول ما لدينا من طعام تجلس الوالدة على حصير أمام الموقد ونحن حولها وتشعر في سرد حكاياتها . كنا نعدّها ألاّ ننام . الشقيقات يحاولن ذلك . وعلى صوت المطر ووهج النار وعالم الحكايات الساحر ، تشرع الأخوات بالتثاؤب ، ثمّ تنطبق الجفون ، وفي منتصف الحكاية نكون قد نمنا ، وتجد أنّها تحكي لنفسها . كانت تنبهنّا تنذرنا بالألّا تحكي لنا شيئاً بعد الليلة ، فنفتح عيوننا ، نلتقط عبارة أو عبارتين وبعدها يلتوي رأس على الكتف ، ثمّ آخر ثمّ آخر ، ومن جديد تكتشف أنّنا نمنا ، وأنّها تحكي لنفسها . كان سهرنا معها يعطيها بعض الشجاعة في مواجهة خوف يتمطى عبر الحقول ، يزأر مع الريح يندسّ في المطر والظلمة ويزحف صامتاً كالهول فتلتقطه حواسّها ، وتتيقّظ مجفلة متوقّعة في كلّ لحظة أن تسمع نقباً في الجدار أو طرقاً على الباب» (١) .

شكلت هذه المرويّات ذخيرة سردية في ذاكرة الراوي ، راح يتمعّن فيها ، فتلهب خياله ، وتقربّه إلى عالم المرأة - الأمّ ، وتبعده عن عالم الرجل - الأب ، فوجد نفسه مندمجاً في أسرته الأنثوية التي ظهر فيها الأب فيها طارئاً وغير فاعل ، فقد كان منذ البدء «الطفل الوحيد والأثير في العائلة» . لا يظهر الراوي تمرّداً من أيّ نوع ما ، هنالك استبعاد كامل لكلّ التوتّرات التي ترافق نشأة الطفل الذكر ، فمصادر تخيّلاته أنثوية ، والإطار الأسري الذي يحتويه نسائيّ ، والأفق العامّ لحياته متأثر في هذا المناخ ، وهو يتقبّل كلّ ذلك بوصفه قدراً لا شأن له به .

---

(١) م . ن . ص ١٠٠ .

أما المكوّن الثاني فقوامه المشاهدات والملاحظات والتجارب الأسريّة البسيطة التي استأثرت باهتمام الراوي ، وهي وقائع نصّدت متسلسلة ونظّمت في إطار الارتحال الدائم للأسرة ، وبدا الجانب الوقائيّ فيها واضحاً ، فهي توثيق سرديّ لتجربة الأسرة ، ومحاولة إعطاء تلك التجربة بعداً واقعياً ، ويندرج في هذا السياق انتقال الأسرة بين «السويديّة» و«اللاذقيّة» و«الإسكندرونة» والقرى التي مرّت بها العائلة أو استوطنتها بعض الوقت ، وتصحيح تاريخ ولادة الراوي ومسقط رأسه ، وأعمال الأب الخاسرة وتهوّراته ، وعمل أخواته كخادمات ، وأفعال الراوي الطفل وأعباء البيتية ، وقد جاء كلّ ذلك على خلفيّة من الصراعات والأزمات الاجتماعية بين الفلاحين الفقراء والأسياد مالكي الأرض والمال والسلطة . وقد استكمل حنا مينة سيرته الروائيّة في كتابي «المستنقع» و«القطاف» ؛ إذ انفتحت أبواب العالم الخارجيّ أمام الصبيّ في «بقايا صور» .

## ٦. التخيّل والتنكر:

توظّف السيرة الروائيّة الإمكانات المتنوّعة التي تقدّمها السيرة والرواية ، ففي «خلسات الكرى» قدّم «جمال الغيطاني» تنويحاً دمج بين تلك الإمكانات ، لكنّه دمج يذكر بالأصول والموارد التي تركّب منها النصّ ، ذلك أنّ المؤلّف حافظ على الوقائع التي كانت مثار اهتمامه ، فلم تذب في منظومة التخيّل السرديّ . لم يقدم الغيطاني سيرة بالمعنى الشائع ، إنّما انتخب تجارب ومشاهدات وعلاقات ، كان الطرف الآخر فيها امرأة ، ملكتّ عليه أحاسيسه وجذبتّه إلى مدارها ، وغطّت التجارب عمر المؤلّف ، فلا يجمعها إلّا سياق واحد هو ذهوله وإحساسه بالمباغته بإزاء نسوة اخترق حضورهنّ سكونه ، فكنّ يتعالين على الزمن والتاريخ والمكان ، ويتّصلن بسلالة رفيعة : الجمال الذي يبعث الدهول والحيرة .

وقد مزج الغيطاني بين الوقائع والرغبات ، وبين الأمانى والتوقعات ، وبين ما كان ينبغي أن يكون ، وإذا انتظمت تجاربه في خيط متدرّج ، فإن النصّ يصبح سيرة موضوعها الحبّ والعلاقة بالمرأة ، وقد شحنت بالتخيّل الذي لا يقطعها عن أصلها ؛ إذ يعيد الغيطاني ترتيب علاقته بالمرأة مكتفياً بالوصف وملذّاته ، وتورّقه الأفعال المؤجّلة ، فيتمزّق الراوي - المؤلّف بين ما تحقّق ، وما كان ينبغي تحقيقه ، ومحو مدوّنته كما يقول : أن يقصّ ما تمّنّى أن يكون لا ما كان بالفعل ، وهو مورد

تفاصيل رؤيته وتوقعاته<sup>(١)</sup> .

ثمّة نساء يظهرن فجأة في المطارات والمحطات والقطارات والطرق والأزقة والبيوت ، أو ينتظرن على المقاعد ، أو يتكئّن على النوافذ ، أو يتهادين ماشيات ، في طليطة والقاهرة وسمرقند وبغداد وإسطنبول وموريليا وموسكو ، وحيثما يظهرن يتعلّق بهنّ الراوي الذي يؤخذ بحضورهنّ ، فيوقف مسار الأحداث ، وتنشط أحاسيسه وانفعالاته في التعبير عمّا لا يستطيع قوله ، تُدخله الحال فوراً في ذهول عجيب ، فتشغله التكوينات الجسديّة ، فيدقّق في التفاصيل ، ويستعين بخبرته كمتخصّص في نقوش السجّاد وتصاميمه ، ويتحوّل التكوين الأنثويّ إلى منظر مفعم بعالم المتعة واللذة والشوق ، وينشط الوصف ، فيما يستأثر الإخبار السرديّ بالاهتمام عند المؤلّف ، حينما يقدّم ملابسات اللقاء وظروفه ، والرغبة المؤجّلة تستحوذ على اهتمامه ، إنّه كثيراً ما صرّح بأنّه لا يستطيع تجاوز حدود التمنيّ إلى الفعل ، ولجأ في مرّات قليلة إلى ربط حالات ذهوله بعضها ببعض ، فتذكّره امرأة بأخرى .

ومع أنّ النصّ يُقطّع إلى عنوانات معبّرة عن حالات أو نساء بعينهنّ ، فإنّ وجود الراوي- المؤلّف واضح ، إنّه جمال الغيطاني الذي يعلن عن وجوده بلا موارد ولا تنكّر ، فهو يشير إلى كتبه ، كلّما وجد ذلك ضرورياً ، فالتجارب التي لا يتمهّل بوصفها يحيل عليها في كتبه ، وأحياناً يعدّ أنّه سيعود إليها في مدوّنات أخرى ، كلّ تجربة تتأرجح بين بعدها الرغبويّ الحسيّ المتفجّر وبعدها التأملّيّ الصوفيّ ، مسار الرغبة ينتهي غالباً بنهاية مقفلة ، فيما ينفّث مسار التأمل ، فيتحوّل النصّ إلى مناجاة داخلية شفافة تتوسّع دوائرها فتكاد تغرق كلّ شيء ، فالمؤلّف مأخوذ بالتفاصيل والتكوينات والتشكيلات والأطياف والانحناءات والانعطافات ، وعينه المبصرة المدقّقة تقلّب الأشياء وتشرّحها وتعيد تكوينها بمهارة لا تخفى ، العين في النصّ أكثر فاعليّة من الذاكرة والخيّلة ، إنّها عين بليغة متطلّعة حادّة ، وهي عكاز الجسد الأعمى ودليله ، عين مدربة فاحشة ، تمارس فجورها وتصرّح به ، لكنّها تحجب فعل الجسد وتدمّر رغباته ؛ لأنّها تقوده إلى عذاب دائم ، وفيما تلتذّ هي بفعل الإبصار ، يترنّج هو تحت ضربات الرغبة .

بقيت معظم عناصر النصّ مفكّكة ، فالمؤلّف لا يسعى إلى إنشاء نصّ محكوم

(١) جمال الغيطاني ، خلّسات الكرى ، القاهرة ، دار شرقيّات ، ١٩٩٦ ص ١٣ .

بوحدة الوقائع وأطرها الزمانية والمكانية ، إنه هو الشخصية - المرأة ، وفيه تنعكس صور النساء ، وعليه تنطبع بصماتهن الجاذبة ، فهو العنصر الوحيد الثابت في النص ، وكل شيء يتغير ، الأزمنة تتضارب وتتداخل ، والأمكنة تتعدّد وتتكاثر ، وفي كلّ مرّة تظهر امرأة و تتمرأى صورتها كأنّها طيف ، وتحلّ أخرى ، ويتواتر حضورهنّ ، فيصبح المؤلف طرساً تكتب كلّ واحدة منهنّ عليه تعويذتها وبهاءها ، وتتداخل الأشياء بعضها مع بعض ، تجربة تُكتب فوق أخرى ، تمحوها وتعيد إنتاجها ، وبسبب كلّ هذا تتشكّل هويّة النصّ ، بوصفه سيرة روائية تحرص على أن تكون مكوّناً جديداً ، لكنّها تحرص أيضاً على أن تصرّح بتواصلها مع السيرة ومع الرواية ، ومع حرص الغيطاني الذي لا يخفى على توثيق تجاربه وملاحظاته وتحديد الأبعاد الزمانية والمكانية لها ، فإن التخيّل السرديّ ينشط أحياناً متدفّقاً ليصوغ تلك التجارب صوغاً روائياً .

لكنّ هذا النشاط التخيّلّي في إعادة صوغ التجربة الذاتية ، ظهر بوضوح أكثر في نصوص أخرى ، منها ما نجده في «خطوط الطول . خطوط العرض»<sup>(١)</sup> لعبد الرحمن مجيد الربيعي ، الذي قدّم مزيجاً سردياً استثمر جانباً من سيرته الذاتية في إطار روائي ، وتكوّن مجمل النصّ من الوصف المتدرّج لنشأة الشخصية الأساسية «غياث داوود» وتكوّنه الجسدي والثقافي ، وانصبّ التركيز على تجاربه الجنسية مع مجموعة كبيرة من النساء اللواتي مرّرن في مدار حياته ، وترتّب كلّ ذلك ضمن خطّ سيرته الذاتية ، فالتجارب المذكورة هدفت إلى استكشاف الأوجه المتعدّدة لغياث داوود ، ومعظمها انبثق كتداعيات تتصل بحياته التي تشهد ثلاث محطات رئيسيّة : العراق ولبنان ووتونس ، وتوزّعت الشخصيات النسائية على تلك البلدان ، وكأنّها تؤدّي وظيفة تتصل مباشرة بالشخصيّة الرئيسيّة غياث داوود ، فهنّ خرزات انتظمن في عقد حياته ، وبهنّ كانت تضاء جوانب تلك الحياة ، فلا يؤدّين وظيفة فنيّة غير ظهورهنّ مرتبطات بغياث المهموم بجسده أولاً ، وبتطوّر الفكريّ ثانياً ، فالبنية النرجسيّة مسيطرة على مكوّنات النصّ ، وكلّ الأحداث والشخصيات تتركّب إمّا عبر منظور غياث ، أو من خلال علاقة مباشرة معه ، فهو المركز ، وكلّ العناصر الفنيّة الأخرى تدور في فلكه ، وتستمدّ وجودها وأهميّتها من خلال علاقتها به . وتبدو المطابقة واضحة بين الراوي والمؤلف ، بين غياث داوود وكاتب النصّ ، والإشارات

---

(١) عبد الرحمن مجيد الربيعي ، خطوط الطول . خطوط العرض ، تونس ، دار المعارف ، ١٩٩٣ .

التاريخية التي ترد في النصّ تبرهن على ذلك .  
على أنّ ذلك ينبغي ألاّ يختزل أهميّة التخيّل السرديّ ، فقد استثمر المؤلّف الخطّ العامّ لسيرته الذاتية ، ولكنّه يشبع التفاصيل بمقتضيات التخيّل وحاجاته ولوازمه ، وهذا يفضي إلى القول بأنّ «خطوط الطول . خطوط العرض» في خطّها العامّ ، وهيكلها السرديّ ، باعتبارها رواية تولي الاهتمام لشخصيّة لها موقع مهيم في النصّ ، هي سيرة روائية ، توظّف إمكانات السرد الروائيّ في إثراء عالمها ، من ذلك تنكّر المؤلّف باسم غياث ، والاستخدام المتنوّع لصيغ السرد واستحداث وقائع تفصيليّة لا يمكن البرهنة على بعدها الحقيقيّ .

وعلى الرغم من كلّ هذا ، فإنّ إعادة ترتيب أطراف النصّ ، يظهر السيرة المتدرّجة لغيث داود ، والحرص على أن تكون هي مركز النصّ ومحوره الأساسيّ ، على أنّ هنالك نصوصاً أخرى تدفع بالتحوّلات الفكرية للشخصيّات الرئيسة فيها إلى واجهة الاهتمام ، بهدف عرض الانكسارات الداخليّة ، وانهيار القيم ، فالنصّ ، من خلال الوقوف على التجربة الذاتية للمؤلّف واستثمارها ، يسلّط ضوءاً على المتغيّرات الاجتماعيّة والثقافيّة والأخلاقيّة ، وهو أمر يندرج هو الآخر في سياق دمج الذاتيّ بالموضوعيّ ، كما نجد ذلك عند «بهاء طاهر» في «الحبّ في المنفى»<sup>(١)</sup> فقد تمحور النصّ حول شخصيّة تخيل على المؤلّف ، وهو يعيش اغترابه الطويل بعيداً عن بلاده ، ولكنّ النصّ تجاوز البعد الذاتيّ المباشر الذي رأيناه في «خطوط الطول . خطوط العرض» إلى تقديم سيرة روائية ذاتيّة فكريّة ضمن إطار شامل من الوقائع التاريخية في مصر طوال الستينيّات والسبعينيّات من القرن العشرين ، ثمّ تدمج في مسار الأحداث وقائع الحرب الأهليّة في لبنان .

فجرّ النصّ سلسلة الانهيارات والإخفاقات الفكرية والسياسيّة في العالم الذي تعيش فيه الشخصيّة الرئيسيّة التي استبعدت عن بلادها بأسلوب غير مباشر بعد أن أُجهز على المرجعيّة الثقافيّة التي احتضنت نشأته ، وهنالك في المنفى يتمّ استرجاع جانب من التكوّن الفكريّ لتلك الشخصيّة ، ولكنّها ستكون منطقة جذب لكثير من الأحداث المتّصلة بها ، من جهة أولى الحبّ الذي يعصف بالبطل ، ومن جهة ثانية الانكسار الداخليّ الذي يداهمه بسبب انهيار كلّ المثل والقيم التي كان قد آمن بها ،

---

(١) بهاء طاهر ، الحبّ في المنفى ، القاهرة ، دار الهلال ١٩٩٥ .

بما يفرضي إلى حرب أهلية مريرة تفضح كلّ الادّعاءات التي عاصرها البطل ، وكانت في وقت ما بالنسبة له مجموعة من المسلّمات التي لا يمكن التفكير بعدم صحتها . وحول هذه التمرّقات تحتشد الوقائع ، فتضيء لنا الأزمة الفكرية والأخلاقية للبطل الذي وجد أنّ الأحداث تتّجه به إلى غير ما كان يريد ، وتقوده إلى حيث لا يتوقّع ، فتندغم في شخصية البطل جملة الأفكار التي استأثرت باهتمام مبالغ فيه في حقبة تاريخية ، ثمّ انهيارها دفعة واحدة مخلفة إحساساً مرّاً باليأس والضياع والحيرة واللاجدوى ، وظهر الحبّ بوصفه حلاً فردياً لمواجهة أزمة البطل التي تتصل بتربيته السياسية والفكرية .

ربط المؤلف بين خسائره الشخصية والخسائر الرمزية لبلاده على جميع الأصعدة ، ولعب التخيل دوره الكامل في جمع المسارات الشخصية والعامة ، فالسرد المباشر يكون ذاتياً أحياناً إلى أبعد الحدود ، حينما يصار التركيز على الأعماق المضطربة للشخصية ، لكنّه يأخذ طابعاً حيادياً ، وربّما تسجيلاً حينما ينصرف إلى عرض الإطار العام الذي تترتّب داخله الأحداث ، لكنّ العنصر الأكثر فاعلية وسط ذلك الإطار هو الراوي - الشخصي المؤلف الذي تطوف تجاربه وتأمّلاته وأحكامه حول الحدث الرئيسي في النصّ ، وتتماهى معه ، وتوجهه ليكون جزءاً متّصلاً بتلك الشخصية التي تنغم في خضمّ بحر من الأحداث التي لها علاقة مباشرة بتصوّراتها وأفكارها وارتباطاتها في بلادها وفي الغربة حيث تعيش .

يلاحظ أنّ هذه النصوص ، بتنوعاتها الخصبية ، تستفيد من كشوفات السيرة والرواية ، ولكنّها تظهر بوصفها نصوصاً مختلفة عن تلك الأنواع المعروفة ، ولكنّ السيرة الروائية قد تنحو منحى آخر في وظيفتها التمثيلية ، فتقوم بتمثيل التجربة الفكرية عبر السرد ، تعبيراً عن رؤية ثقافية ، كما ظهر ذلك في كتاب «نساء على أجنحة الحلم» لـ «فاطمة المرينسي» .

## ٧. استكشاف عالم الحريم:

من بين كتبها الكثيرة جاء كتاب «نساء على أجنحة الحلم»<sup>(١)</sup> لفاطمة المرينسي وثيقة سردية - تخيلية تستكشف عالم الحريم في النصف الأوّل من أربعينيات القرن

---

(١) فاطمة المرينسي ، نساء على أجنحة الحلم ، ترجمة فاطمة الزهراء أزرويل ، المركز الثقافي ، ١٩٩٨ .

العشرين في المغرب ، ذلك العالم المنسيّ خلف بوّابة ضخمة يحرسها رجل صارم .  
عُرّض ذلك العالم من خلال رؤية طفلة في السابعة من عمرها ، صرّح الكتاب مرّة  
واحدة باسمها «فاطمة» . ومثل أيّ نصّ يريد إنتاج سيرة ذاتيّة مستعادة تتداخل فيها  
مستويات الحقيقة بمستويات التخيل ، فإنّه بقدرته البارعة على الاختلاق ، يوهّم  
بالحقيقة .

حمل النصّ أفكار المرنيسي عن المرأة ، لكنّه عبّر عنها من خلال تجربة شخصيّة  
للمؤلفة في طفولتها وصباها ، ودعم النصّ بهوامش توثيقية ، وحرص على إنزال  
الأحداث في إطار تاريخيّ يعود إلى النصف الأوّل من القرن العشرين ، مع التركيز  
على وقائع الحرب العالميّة الثانية من خلال الوجود الفرنسيّ والإسبانيّ والأمريكيّ  
في المغرب ، وكلّ ذلك جاء بوصفه خلفيّة لإعطاء معنى لمضمون النصّ ، فالرسالة  
التي تنبثق من خضمّ النصّ أرادت كشف النسق الثقافيّ السائد في عالم الحرّم ، ثمّ  
بداية تخلخل ذلك النسق بسبب المؤثرات الثقافيّة الخارجيّة . ولكيلا يقع المتلقّي في  
وهم الوثائقيّة التي يوهّم بها الكتاب ، سارعت فاطمة المرنيسي إلى الإعلان عن  
الصفة التخيليّة لكتابها «هذا الكتاب ليس سيرة ذاتيّة ، وإنّما أحداث متخيّلة على  
شكل حكايات ترويها طفلة في السابعة»<sup>(١)</sup> .

زاد هذا التوضيح اللبس في هويّة الكتاب ؛ لأنّ النصّ تخطّى التبسيط الذي  
أكّده التوضيح ، فهو سيرة روائية تعتمد السرد لكشف العالم المغلق الذي عاشت فيه  
المؤلفة : قصدتُ بالعالم المغلق ذلك الكيان القصيّ الذي دارت حوله خطابات رغبيّة  
شغلت بإثارة الشهوات الحبيسة ، لكنّها أخفقت في تمثيل التراتب الثقافيّ فيه ، ولم  
تتجرأ على الدخول في تفاصيله النفسيّة ، وفي كشف نمط العلاقات السائدة فيه ،  
وفي تأثير العلاقة المتكسّرة بينه وبين العالم الخارجيّ الذي احتلّ الرجل المركز  
الأساسيّ فيه .

لا يمكن لكتاب توثيقيّ أن يؤدّي هذه المهمّة ، فعالم الحرّم مجاز رمزيّ لا يعبر  
عنه بلغة وصفيّة ، لكونه قد غادر بفعل الزمن حقيقته الموضوعيّة ، وأصبح موضوعاً  
مشبعاً بتقاطع الرؤى الأيدلوجيّة المتنازعة التي تصدر عن منظورين ثقافيين  
متعارضين ، أحدهما : مشغول بالحفاظ على الهويّة الثقافيّة بمعناها التقليديّ ، والنظر

---

(١) م . ن . ص ٢٥٥



إلى المرأة كقطيع من الحريم ، والآخر : مهموم بفكرة تدّعي التغيير ، بتأثير من استعارة نماذج أخرى دون النظر في اختلاف السياقات الثقافية . الأول يريد إعادة صياغة ذلك العالم بما يطابق التهميش الثابت لدور المرأة ، والثاني يسعى إلى إلغاء هذا المفهوم من أساسه . يريد التيار الأول تكييف دور المرأة بما يوافق تعليمات «الماضي» ، ويريد الثاني إعادة دمج المرأة في الوسط الاجتماعيّ استجابة لتعليمات الآخر . وتتقاطع هذه الرؤى والمواقف في وعي الطفلة الصغيرة «فاطمة» .

ثمّ فجّر النصّ مشكلات أعمق ، فالطفلة التي تحبو في عالم الحريم منقسمة على ذاتها بين الاستجابة لرغبات الأم الحاملة بأن تكون ابنتها منفكة من قيود الحريم ، ومتخطية لأسواره ، وبين الامتثال لروادع «للاّ أطام» التي تتعهّد دروس التربية الدينيّة ، وتزرع في قلب الطفلة فكرة مؤداها : كلّ خرق لسياج الحريم إنّما هو خرق لسياج الدين . لكنّ النصّ يثير إلى ذلك مشكلة إجرائيّة ، فمن الواضح أنّ فاطمة المرينسي تسقط وعيها اللاحق بوصفها إحدى العاملات في مجال قضايا المرأة على طفولتها المبكرة ، لتجعل من تلك الطفولة مجالاً لمناقشة هذا الموضوع البالغ الأهميّة ، وهي تصرّح في الكتاب بأنّ تلك الطفولة مختلفة عمّا ارتسم في صفحاته ، «لو حاولت أن أحكي لكم طفولتي لما استطعتم إتمام الفقرتين الأوليين لأنّ طفولتي كانت مملّة إلى حدّ كبير»<sup>(١)</sup> .

من الصعب تخطّي كلّ هذا إلّا إذا تحرّرت القراءة النقديّة من شرط المطابقة الكاملة بين «فاطمة المرينسي» و«فاطمة» الشخصية الرئيسيّة في الكتاب ، وهو تحرّر يهدف إلى مطابقة من نوع آخر ، يعدّ من شروط السيرة الروائيّة ، ففاطمة الصغيرة طفلة الحريم إنّما هي قناع لفاطمة المرينسي التي تنوء بوعي ناقد يشرّح الإكراهات التي شوّهت وضعيّة المرأة في الثقافة العربيّة - الإسلاميّة قديماً وحديثاً .

ركّب الكتاب لكي يلامس التشكّل الداخليّ لعالم الحريم ، وليضيء الأزمة الداخليّة فيه بسبب المتغيّرات العصريّة ، ولينتهي عند البوابة المشرّعة للتحديث ، لكنّه لا يهمل بأيّ معنى من المعاني عوامل الجذب الكامنة في ذلك العالم ، تلك العوامل التي تسوّغ شرعيّاً ، وعبر منطق صارم لكنّه مغلق ، التمسك بعالم الحريم ، أو في الأقلّ بأشكال من العلاقة لا تتقاطع معه . وكلّ هذه الأفكار تترشّح عن

الكتاب ، وتنهض كخلفية للجدل الموجود فيه .

طرح الكتاب قضية الحريم كموضوع مركزيّ وسط دائرتين متراكبتين : دائرة مدينة فاس كبؤرة رمزيّة للأحداث ، ومن ورائها ينبثق المغرب في صراعه ضدّ الفرنسيّين والإسبان في أربعينيّات القرن العشرين ، وكيف أنّ الرجال كمجتمع وتقاليد وثقافة وذاكرة يتخطّون وجود الغرباء ويشغلون بالحفاظ على «الغريبات» ، فيبدو الرجل -بدلالته الرمزيّة- خائفاً من نصفه الآخر أكثر من خوفه من الغريب الذي يحتلّ البلاد ، ويقسّم المدينة إلى قسم فرنسيّ وآخر مغربيّ . فالرجل مشغول بحجز النساء في «البيت الكبير» ، ولكنّه لا يظهر تمللاً من وجود الأجنبيّ ، حتى إنّ المرأة «طامو» هي وحدها التي تخترق حاجز الخوف ، وتكاد تغيب صورة الرجل في الصراع ضدّ الأجانب . ودائرة أخرى أكثر سعة يمثّلها الصراع الثقافيّ بين غطين من القيم : القيم الموروثة من الماضي كتقاليد وفلكلور ، والتي تؤمن بشريعة حبس النساء كحريم ، ويمثّلها الرجال إجمالاً ، ومعها فئة متنفّذة من النساء ، مثل : «للاّ الطام» و«للاّ مهاني» و«للاّ راضية» وهنّ الجيل الأكبر ، جيل الجدّات ، وقيم مستحدثة غزت الجيل الأصغر بفعل المؤثرات الغربيّة ، وبفعل الحركة الوطنيّة المغربيّة الناهضة في تلك المرحلة ، وهي تريد تخليص المرأة من الأسر الاجتماعيّ ، ثمّ دمجها في مسار المجتمع كعنصر فاعل ، ويناصر هذه القيم كلّ من : الأمّ والخالة «شامة» .

تقاطعت هذه التيارات المتعارضة في شخص الطفلة الصغيرة ، ابنة السابعة «فاطمة» ، فكشفت عن نظام متراتب ومحكم من القيم ، لكنّه متصارع يفضح المآزق الثقافيّ الذي يتخبّط فيه المجتمع ، فالأجنبيّ والنساء الأحداث سنّاً يقفون باطراد مع حرّيّة المرأة ، والرجال والعجائز من النساء يرفضون ذلك . فأين تقف فاطمة وهي تُخترق من ثقافتين وغطين متنافسين من القيم الاجتماعيّة؟ وما موقف جيل فاطمة المرنيسي من النساء ، وهنّ ينشطن بين عوالم ثقافيّة متضادّة؟ وكيف يمكن هضم هذه المتناقضات؟ وكيف للمرأة أن تتخطّى أسوار الحريم تجاه العالم الرحب؟ أسئلة شائكة يرفع درجة أهميّتها كتاب «نساء على أجنحة الحلم» ، ويسعى إلى دمج المتلقيّ في العالم التخيليّ المشبع بها .

تبدو الحرّيّة لنساء أسرهنّ مفهوم الحريم ضرباً من الأحلام المستحيلّة ، ولهذا يلجأن إلى محاكاة أولئك الذين يتمتعون بها ، تقوم بهذا الدور «شامة» إذ تعيد عبر التمثيل والحكي عالم الحرّيّة الخارجيّ داخل أسوار بيت الحريم ، ومصادرها الكتب

الخرافية والسحرية والإذاعة التي يُسترق إليها السمع سرّاً ، حينما يخلو البيت من الرجال ، وتفلق النسوة في اقتحام غرفة الذكور ، حيث يقبع المذيع الكبير القديم ، الذي يخرق صوته هذا الجدار الصلب لعالم الحرم ، وثمة عرض مسرحيٍّ أو حكائيٍّ شبه يوميٍّ ، تتعهده «شامة» أمام الحرم اللواتي ينزلن بسهولة بالغة إلى التماهي مع الأحداث والشخصيات ، التي تقوم «شامة» بعرضها بالسرد أو التمثيل المباشر ، والحكاية الأثيرة مستلّة من «ألف ليلة وليلة» ، إنها حكاية الجارية «بدور» والبحث المثير عن الحبيب الغائب . ما أشدّ وقع حكايات الحبّ والمغامرة على نفس حبيسة الأسوار! ولكنّ الكتاب يُعنى أكثر بنموذج من نوع آخر يؤدي دوراً لا يختلف في مغزاه ، لكنّه يختلف في تفاصيله . إنّهُ نموذج الفنانة «أسمهان» الطالعة لتوّها آنذاك في سماء الفنّ .

وقع تناوب بين التمثيل والسرد في أسلوب محاكاة العالم الخارجيٍّ ، سواء أكان واقعياً أم متخيلاً . تُغرم «شامة» بتقمّص دور «أسمهان» ، فتوقد شرارة الأحلام في أفئدة الحرم ، وكانت تحاكي التهنّيدات الحبيسة للمغنيّة الساحرة التي تحمل النساء على أجنحة الأحلام إلى فرسان غائبين إلى الأبد . كانت «أسمهان» قد غزت قلوب الحرم على النقيض من «أمّ كلثوم» المتجهّمة ، التي تترفع عن فضح الضعف الإنسانيّ ، وتتخطّى بسهولة تحسد عليها الرقّة الأنثويّة .

وفي مجال المقارنة يكون تأثير «أسمهان» أشدّ وقعاً في نفوس الجيل الثاني والثالث من الحرم من «أمّ كلثوم» ، إلى ذلك فإنّ «شامة» تعرض لأفكار : عائشة التيموريّة وزينب فوّاز وهدي شعراوي ، الرائدات المطالبات بحريّة المرأة . وعلى الرغم من تحذيرات «للا أظام» من أنّ حالة من التهنّك والانفراط قد اجتاحت عالم الحرم ، فإنّ النساء من الأجيال الطالعة لتوّها يستغرقن في حالة عميقة من التماهي مع ما يعتبرن رموز الحريّة ، سواء أ جاءت من الحكايات الخرافية أم من الأوساط الفنيّة أم من النساء المطالبات بحريّة المرأة ، وكلّما جرّد النموذج من أبعاده الواقعيّة كان يلهب خيال الحرم . تحتاج ذهنيّة الحرم إلى نوع خاصّ من الاستثارة .

كانت «أسمهان» هي النموذج الذي احترق عالم الحرم ، يصل صوتها عبر الأثير إلى الحرم خلصة ، يفعل فعله في تأجيج الرغبات الخفيّة ، فتعلن عن نفسها في جوّ احتفاليٍّ راقص حول نافورة الدار ، كانت أغنية «أهوى . أنا أهوى» تثير رعدة في الأجساد ورغبة في النفوس ، فكان «الطرب يبلغ مداه ، كانت كلّ منهنّ تتخلّص من

خفيها وترمي بهما ، ويرقصن حافيات حول النافورة ، الواحدة تلو الأخرى ، وهي ترفع قفطانها بيد وتضم صدرها باليد الأخرى حبيباً متخيلاً» (١) .

تقارن الطفلة فاطمة بين «أم كلثوم» و«أسمهان» وتكشف الانطباعات التي تشكلت في وعيها آنذاك ، «يا له من فرق بين أم كلثوم الفتاة الصغيرة ذات الصوت الذهبي القادمة من إحدى القرى المجهولة في مصر ، التي حققت النجاح بفضل الانضباط والعمل الدؤوب ، وبين أسمهان الأرستقراطية التي لم تبذل جهداً لنيل الشهرة! كانت أم كلثوم تتوقّر على هدف في الحياة ، وتعرف ما تريده وما تسعى إليه ، في حين كانت أسمهان تهزّ قلوبنا بضعفها البادي ، أم كلثوم «كما رأيناها في أفلام سينما بوجلود» قوية وسمينه ترتدي دائماً فساتين طويلة واسعة تخفي صدرها الممتلئ . . . كانت أسمهان عكسها تماماً ، مخلوقة نحيفة ذات صدر نافر ، مظهرها يوحي بأنها ضائعة غارقة وسط الضباب ، متجذّرة في الأحلام أكثر من ارتباطها بواقع يتجاهلها ، كانت بالغة الأناقة في قمصانها الغريبة المفتوحة على الصدر ، وتنوراتها الضيقة ، لم تكن مهووسة بالأمة العربية ، وكانت تتصرّف كما لو أنّ القادة العرب الذين تتغنّى بهم أم كلثوم لا يوجدون ، ما كانت تريده هو أن تحصل على أزياء جميلة ، وتضع ورداً على شعرها ، وتحلم وتغنّي وترقص بين ذراعي رجل محبّ رومسيّ مثلها ، رجل عاطفيّ رقيق تكون له شجاعة خرق التقاليد ، ومراقصة المرأة التي يحبّها في العلن .

كانت أسمهان تهمل الماضي وتنغمس في حاضر مليء بالرغبات الهوجاء ، حاضر يستحيل القبض عليه ، يفلت من قبضة العرب كعشيق متهرّب . لم تكن أسمهان إلاّ بحثاً مستمراً ومأساوياً عن لحظات سعادة بسيطة ولكنها أنية ، والنساء العربيات اللائي حكم عليهنّ بالرقص في ساحات مغلقة معجبات بها ؛ لأنها تجسّد حلمهنّ برجل وامرأة عربيّين متعانقين يرقصان على نغم غربي» (٢)

تبيّن المفاضلة بين أم كلثوم وأسمهان أثر الدرس الثقافيّ في مجتمع الحريم ، فالأولى حينما تغنّي تضع مسافة رمزيّة بينها وبين المستمعين ؛ لأنها تهدف إلى إيقاظ سباتهم ، ولهذا فثمة تباعد بينها وبين أولئك المستمعين ، أمّا أسمهان ، فمع

(١) م . ن . ص ١١٤

(٢) م . ن . ص ١١٤-١١٥

الحرص على الصورة الأرستقراطية المترفعة التي رسمتها لنفسها ، نجحت في دمج النساء في عالمها ؛ لأنها تخطت الدرس الثقافي الذي تلقينه في بيت الحریم ، فقد داعبت ذلك الجزء الكامن في نفس كل امرأة مقهورة ، وهو التطلع إلى تحقيق الذات ، وأوقدت فيهن شرارة الأحلام الكبيرة ، حينما احترقت هي بنفسها سياج التقاليد المحكم ، فقبلت الفن وتخلت عن لقب أميرة ، وبذلك فالتماهي معها يكون أكثر حرارة ؛ لأن المطابقة بينها وبين الحریم قائمة في الأصل ، سوى أنها نجحت في تجاوز عالمها الحریمي ، وفشلن هن في ذلك ، فأصبحت مثالا يحتذى . تلوح صورة أسمهان في النص ، وكأنها «بدور» الخرافية ، أو «هدى شعراوي» .

رُكبت لأسمهان صورة توافق الأحلام المستحيلة في عالم الحریم ، ولهذا فإن تقليد أدوارها هو نوع من التماهي في عالمها الذي فهمته الحریم على أنه الحرية الحقيقية . لقد أسهم نقص الحرية أو انعدامها في شيوع أيدلوجيا محاكياتية ، عبر عنها مجازياً من خلال التماهي بشخصية أخرى . والحال هذه ، فهذا قانون اجتماعي يظهر حينما تشح بئر الحرية ، فيتحول الأفراد إلى قطع من المحاكين لا يعرفون من أمرهم شيئاً حقيقياً سوى الاستغراق المتواصل في وهم الحرية عبر المحاكاة ، وهو مظهر من المظاهر الأشد حضوراً في مجتمعاتنا المعاصرة .

وفي كتاب «نساء على أجنحة الحلم» ، تمثيل سردي عميق لهذه المعضلة الاجتماعية-الثقافية ؛ إذ تقوم «شامة» بتلك المهمة تحت وهم امتصاص الإحباط التاريخي الخيم على نفوس الحریم ، لكن تلك المحاكاة تتحول إلى ممارسة مغلقة ، وفي النهاية تختفي «شامة» . ووحدها «فاطمة» تواجه الواقع . فمن تعارض القيم الممثلة بقطبين : التقليدي الذي تمثله «للا أطم» ، والحديث الذي تمثله «شامة» ، تركب «فاطمة» خيارها الفكري . ومن أجل الوصول إلى هذه النتيجة كان من اللازم عليها أن تمر في حالة الازدواج الحقيقي ، وقد ارتسمت التفاعلات غير المرئية في نفوس بشرية تقطعت سبل اتصالها بالحاضر ، بالدرجة نفسها التي تقطعت بها سبل انفصالها عن الماضي ، فبترت عن حاضرها وعن ماضيها ، وظلت معلقة في الأفق كطيف لا يختفي ، وشاهد على التوتر العميق في البنية الاجتماعية للمجتمع العربي في القرن العشرين .

## ٨. السيرة الروائية والوظيفة المராوية:

على أن بعض نصوص السيرة الروائية تقوم بالوظيفة المராوية ، وهي حالة مختلفة عن الوظيفة التمثيلية التي رأيناها في السيرة الروائية لفاطمة المرنيسي ، ويمكن تتبع هذه الوظيفة في كتاب «مرايا ساحلية : سيرة مبكرة»<sup>(١)</sup> لأمير تاج السر ، وكما هو ظاهر من دلالة العنوانين الرئيس والشارح ، فإن المؤلف ينزل نصّه في قلب الإشكالية التي أشرنا إليها ، فهو من جهة أولى اعتبر نصّه مرايا انعكست فيها تجربة الطفولة المبكرة في إحدى مدن الساحل الشرقي للسودان ، وبهذا فقد كتب منطلقاً من الرؤية القائلة بأنّ الأدب مرآة عاكسة للتجارب البشرية ، وهذا موضوع خلافيّ عاجلته نظريّة الأدب ، وشغلت به منذ أرسطو إلى الآن . ولكنّه صرّح ، من جهة ثانية ، بأنّ النصّ «سيرة مبكرة» ، أراد به أن يصف التكوّن المبكر له ، ويقتضي ذلك أن يكون هو المحور المركزي فيه ، فالتسمية تشترط أن يكون المؤلف هو البؤرة التي تصدر عنها وتتّجه إليها كلّ مكونات النصّ .

التدقيق في مراءة النصّ كما أرادها المؤلف ، والهدف التوثيقيّ له باعتباره سيرة مبكرة ، سينتهي بنا إلى نهاية مغايرة لكلّ الإيحاءات التي يثيرها العنوان ، ذلك أنّ القول بالوظيفة المராوية للنصوص الأدبية نقض منذ أكثر من قرن ، حينما اكتشف النقد عمق التباين بين العالمين : العالم الواقعيّ المعيش والعالم السردّيّ المتخيّل ، مع أنّهما يوحيان بالتماثل إلى درجة يبدوان فيها متماهين أحدهما بالآخر لدى المتلقّي العاديّ ، إلّا أنّهما شديدا الاختلاف فيما بينهما من ناحية المكونات والعناصر ، فالعالم السردّيّ الافتراضيّ تشكيل لغويّ يتكوّن في مخيلة المتلقّي بالقراءة ولا وجود له قبلها ، بل إنّ عالم خامد داخل الكتاب تقوم القراءة بتنشيطه وبعث الحياة فيه . أمّا القول بأنّ النصّ سيرة مبكرة فيصطدم بعقبات أكثر ، وفي مقدّماتها المكوّن الحاسم ، وهو غياب المؤلف-الطفل ؛ إذ يعدنا النصّ بأنّه سيرسّم لنا سيرته كما هو مدوّن على غلاف الكتاب ، وهو يستكشف ملامح منتقاة من الماضي .

ثمّة تأكيدان يردان في نهاية الكتاب يصلحان كمفتاحين للدخول إلى صلب تلك المسألة ، الأوّل قول المؤلف : «في ذلك الزمان . . زمان الحمق والتدّمّر ، أقول

(١) أمير تاج السر ، مرايا ساحلية : سيرة مبكرة ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ٢٠٠٠

نعم . وفي هذا الزمان . . زمان النضج ، أقول لا . إنه فرق في صياغة الأجيال»<sup>(١)</sup> ثم يأتي الآخر بعد أن ينتهي الراوي من تقديم النماذج الكثيرة إلى عرض لها ، لينصرف إلى الحي الذي عاش فيه ، فيقول : «أعود الآن إلى أهل الجوار ، أهل البيوت الناقصة والمحاصرة ، لن أباغتهم مباغته الطفل الذي رأى وسمع وتذكر ، لكنني أحرر ذكرياتي معهم من حبل معقود بشدة»<sup>(٢)</sup> .

يتوسط الراوي زمنين ، ويُشغل بحقبتين ، فهو في الوقت الذي يريد فيه أن يتحرر من ذكرياته عن الماضي ، يريد أيضاً أن يبعثه كاملاً في ذاكرته ، وهذا تعارض لا يخفى ، فالراوي عالق بين زمنين ، فهو لا يرى الماضي إلا من نافذة الحاضر ، أي إنه مشدود في آن واحد إلى قطبين يبدو التعارض بينهما في وعي الراوي جلياً ، فالماضي الشفاف والرائع حيث كان كل شيء نزوة ومغامرة وحماسة ورغبة قد ذهب من دون رجعة ، إنه الزمن الذي نقول فيه بملء الفم «نعم» دونما خوف أو رهبة ، إنه أجمل الأزمان إذ أمكن لنا استعارة عبارة ديكنز في السطور الأولى من «قصّة مدينتين» . أمّا الحاضر الكثيف حيث كل شيء لا يمكن أن يقال إلا تورية ورمزاً ، وكلّ فعل لا يمكن القيام به إلا سرّاً وخفيّة ، فهو زمن النضج الذي لا نستطيع أن نقول فيه سوى «لا» . أي أن الراوي متّصل ومنفصل بكلّ من الماضي والحاضر في آن واحد ، ولهذا فإنه يسعى إلى استحضار الماضي عبر الحاضر . ولم يستطع أن يندمج بالماضي اندماجاً كاملاً ، فلقد ظلّ الحاضر حائلاً دون ذلك .

وهذا هو السبب الذي يفسّر المقارنة بين الزمنين ، كما ظهر لنا في النصّين المذكورين . وطوال صفحات الكتاب تغيب كلّ أشياء الحاضر إلا وعي الراوي بأنّه غادر الماضي ولا سبيل إلى العودة إليه . وبما أنّ الراوي لا يتجسّد في النصّ كشخصيّة لها كيان مشخص ، فالذي يحصل إنّهُ ينطلق من لحظته الآنية إلى ذلك الماضي ، فيلحق ذلك الماضي به ، ولا يلتحق به هو . أنّه لا يعود إليه إنّما يستحضره في وعيه . توارى المؤلّف خلف الراوي ، فجرّ إليه الماضي وعالجه طبقاً لوعيه وسط حنين جارف إليه . ولا تخصّ هذه المشكلة «أمير تاج السرّ» وحده ، فهي ملازمة لهذا النوع السردّي الذي يستفيد من معطيات السيرة الذاتيّة ، لكنّه لا يمثّلها كنوع أدبيّ . وليس

(١) م . ن ص ١١٣

(٢) م . ن . ص ١١٧

من المصادفة ألا تظهر الشخصية الرئيسة في هذا النص كشخصية مُجسّدة فنيًا ، فغيابها يتوافق مع القول : إنّ النصّ ليس سيرة ذاتيّة فقط ، فالمتلقّي لا يعرف المكوّنات الفنيّة للشخصيّة الرئيسة ، تلك الخصائص التي لا بدّ من توافرها في النصوص السرديّة التي تريد أن تعرض عالمًا ما . قصّدتُ بذلك المظاهر الخارجيّة والأفعال والملاحم الفكرية ، وهي خصائص بها يتمكّن المتلقّي من معرفة الشخصية داخل النصّ ، ومن خلالها يقيم حوارًا تفاعليًا يؤدّي إلى إنتاج المعنى الكلّي للنصّ ، باعتبار أنّ الحدث هو فعل الشخصية ، والخلفيّات الزمانيّة والمكانيّة هي الإطار الذي ينظّم ذلك الحدث ، فغياب الشخصية المُجسّدة ، أي الموصوفة من ناحية المظهر والفعل والفكر ، يبطل القول بأنّ النصّ يتمحور حول شخصية مركزيّة .

ولكن هل يعني كلّ هذا أنّ «مرايا ساحلية» لا يتضمّن شخصية رئيسة على الإطلاق؟ الجواب على ذلك هو النفي قطعًا ، فالنصّ يشعّرنا كلّ لحظة بوجود تلك الشخصية ، لكنّه لا يرسم في مخيلتنا أيّة صورة لها ، إنّهُ يتخطّى الوصف الشائع في السرد الروائيّ ، وبه يستبدل ضربًا من الوصف الذي لا يراد به رسم الشخصية ، إنّما أثر الأحداث في وعيها ، وهذا المطلب الذي يتردّد في النصّ من أوّلِهِ إلى آخرهِ ، يحوّل الشخصية إلى وسيلة بها يستكشف السرد عوالم الآخرين وليس عالم الشخصية ، فالشخصيّة تكون مصاحبة لنماذج كثيرة من الشخصيّات من أجل كشفها ، وذلك يذكّر بتلك الرؤية التي شاعت في الرواية الأمريكيّة الحديثة ، بخاصّة في روايات هيمينغواي وباسوس ، التي يصطلح عليها «الراوي عدسة الكاميرا» إذ تنهض الشخصية بمهمّة تصوير العوالم المحيطة بها ، دون أن تتّضح معالمها هي .

ولا أقصد أبدًا الاستبطان الداخليّ العميق الذي تقوم به الشخصية لعالمها الداخليّ ، كما ظهر ذلك عند جويس وفولكنر وبروست وفرجينيا وولف ، إنّما نزعة الحياد إزاء عالم يتشكّل وحده ، لكنّه يصل إلى المتلقّي عبر منظور الشخصية ، فهي التي تنتقي ما تريد ، وهي التي تنتخب ما تراه مهمًا ، والمتلقّي يتفاعل مع العالم المتخيّل فقط إذا استطاع أن يتقبّل ما يعرض عليه من خلال ذلك المنظور .

استعان السرد في «مرايا ساحلية» بالأسلوب الذاتيّ ، ووسيلته ضمير المتكلّم ، وهذا الأسلوب يوهّم بالمشاركة ، وهو أكثر الأساليب السرديّة قدرة على تحقيق ذلك ، لكنّه خالف تلك الوظيفة ، فالراوي يرصد ما يجري حوله ، وفي الغالب لا يشارك في شيء ، ولهذا فإنّ الشخصيّات التي يعرض لها تمرّ أمامنا وأمام الراوي - على حدّ



سواء- دون أن نتمكن من العودة إليها ثانية ، فنحن أقرب ما نكون إلى رؤية فيلم سينمائيّ منه إلى نصّ ، فما إن تعرض لقطّة حتى تمرّ بلا رجعة ، فإذا رغبتنا في مشاهدتها مرّة أخرى فليس أمامنا سوى خيار واحد لا غير : إعادة عرض الفيلم من جديد ، وعلى غرار ذلك ، فإنّ «مرايا ساحلية» عرض علينا أكثر من ثلاثين شخصيّة مرّت سريعاً جداً ، وكثير منها خصّصت له صفحة واحدة ، فلا تعرف خلفيّاتها ولا مصائرهما ، ولا يقوم السرد بإشباع الشخصيّة التي لن تعود غالباً إلى الظهور مرّة أخرى .

يمكن وصف النصّ بأنّه نصّ مفتوح ، لا يتقيّد بالمعايير التقليديّة ، ولا يتضمّن حبكة من أيّ نوع كانت ، ولا يعنى بتركيب عالم متعدّد المستويات لشخصيّاته ، وبالأخصّ الراوي الذي يتوقّع المتلقّي أن يكون محور الاهتمام ، ولا يبلور مغزى محدّداً ، ولا يحرص على صوغ عناصره الفنيّة صوغاً يوافق قواعد السرد الشائعة ، وأخيراً فهو يتخطّى بسهولة بالغة الادّعاء المزمّن في نصوص السرد العربيّ الذي يقول بوجود رسالة (من نوع ما) يريد النصّ إبلاغها . وهنا ينبغي طرح السؤال الذي لا بدّ منه في مثل هذا المكان ، وهو : هل يعتبر كلّ ذلك - لو صحّ - نقصاً وضعفاً وقصوراً في النصّ ، أم إنّّه ميزة فيه ؟

من الصعب تطبيق معايير موروثّة على نصوص لا تمتثل لحظة تشكيّلها السرديّ لتلك المعايير ، والتعسّف في تطبيقها يشبه أمر إدخال جسم في زيّ أوسع أو أضيق منه ، فهو لا يتوافق بالضرورة معه . ومن هنا ، فالنصوص الجديدة تتمرّد على الأطر المشتقّة من نصوص أخرى ، وفي ضوء هذه الفكرة ، فإنّ عدم امتثال «مرايا ساحلية» لقواعد السرد التقليديّ لا يعني أنّه يفتقر إلى تلك الخصائص ، بالأحرى فالنصّ له أسلوب خاصّ به ؛ إذ هو ينقض الموقع المركزيّ للموروث للشخصيّة في السرد ، ويحيلها إلى مجرد رؤية تستكشف العالم المحيط بها ، ويوزّع دلّالته على النصّ كاملاً ولا يقصرها على مكان واحد ، فالتمركز الدلاليّ ليس ميزة بحدّ ذاته ، إنّما أصبح النصّ مساحة مفتوحة وحرّة تتفاعل فيها البؤر الدلاليّة الصغيرة ، ممّا ينتج في نهاية المطاف مستويات دلاليّة متعدّدة .

وأخيراً يمكن الانتهاء إلى أنّه لا مكان للحبكة في نصوص تنتكّب لكلّ موروثات السرد . ولهذا غياب تلك العناصر لا يخفض من القيمة الفنيّة للنصّ إلّا إذا أصرّ النقد على ما لا ينبغي الإصرار عليه في مثل هذا المكان ، وهو العثور على

جملة من الخصائص التي لم يأخذها النصّ في اعتباره أساساً ، وعند هذه النقطة تتقاطع النصوص مع النقد ، ويتقاطع النقد مع النصوص ، ولتجاوز إشكالية عميقة مثل هذه لا بدّ من احترام النصوص ، والبحث عن خصائصها الذاتية في هدى الخصائص العامة .

يتركّب العالم المتخيّل لنصّ «مرايا ساحلية» من تداخل ثلاث دوائر تتوسّع تدريجياً منذ بداية النصّ إلى نهايته ، والراوي هو وحده الذي يعرض تلك الدوائر على التعاقب . تتكوّن الدائرة الأولى من شخصيات مهمّشة تركت أثرها في شخصية الراوي ، ويزيد عددها على ثلاثين شخصية لا توجد بينها تقريباً شخصية سوية بالمعنى العام لهذه الكلمة ، ومن أمثلتها : المجذوب والمتسوّل والغامض والدلال والمتخلف والكذاب والمشلول والمجنون والمهرب والأعسر . الخ ، ومن بينها شخصيات غريبة عن المكان تمرّ تاركة بصمة لا تمحى فيه ، مثل : راجا الهنديّ واستيفن لوال وشيتا الحبشية وفهمي قرياقوس اليونانيّ من سالونيك وجانتي الإلكترونيّ ، فضلاً عن نماذج مشوّهة يتقصّد الراوي إظهار عيوبها الخلقية والجسمانية ، الأمر الذي يظهر أنّ العالم المتخيّل للنصّ كان مشبعاً بنماذج غير سوية ، إنّها تتراوح بين الجنون والعتة والتهميش والكذب ، فيختار الراوي لكلّ شخصية حكايتها الدالة على التسمية ، ثمّ يمضي متعجلاً إلى غيرها .

ولو تمّ استثمار القيمة الرمزية لشخصيات مثل هذه ، وأشبعت سردياً لكان النصّ قد اشتبك فعلياً مع نماذج غنية في انتماءاتها الثقافية والعرقية والدينية ، وتفسيره بأنّ المكان حال دون ذلك ، فهو مدينة ساحلية يمرّ بها كلّ يوم عدد من الشخصيات ، وسرعان ما تختفي سوى الذكرى المرتسمة في ذهن الراوي الذي يستهيم عشقاً بها . ومن المؤكد أنّ بعض تلك الشخصيات انطوت على حكايات لا تنسى فعلاً مثل : حكاية آدم كذب الذي يشري بكذبة واحدة يردها طوال ثلاثين سنة للأجيال المتعاقبة دون ملل أو خجل ، مع أنّ الجميع يعرفون أنّها حكاية كاذبة ، ومؤداها أنّه بحاجة إلى قليل من المال من أجل شراء تذكرة العودة إلى أهله ، «لقد حصد آدم من تلك القصّة المرتبكة ثروة تكفي لشراء القطار برّكابه ، وربّما هيئة السكّة الحديدية بكاملها» . وحكاية ود جضل اللصّ الذي ينتهي إلى معتقل سياسيّ ، وحكاية سعد روميو ، وحكاية جنّي الحضرميّ الذي يصطحب الراوي أوّل مرّة لحضور حفلة زار . ونماذج أخرى تنوء بحكاياتها كقدر لا مناص منه .

أمّا الدائرة الثانية فهي الأمكنة الضيقة التي يرتادها الراوي بكثير من الاستحياء ، ويعرّفها تعريفاً سريعاً ، مثل : ستوديو العروسة ومقهى رامونا وحانة يني الإغريقيّ ودكان مدني للأحذية ومكتبة عكاشة . وهي أماكن تتّصل بحكايات تمكثّ قابعة في ذاكرة الراوي . وأخيراً الدائرة الثالثة ، وهي الأماكن العامة كالمدرسة والشارع والحيّ . ومن الملاحظ أنّ ترتيبها يرد بالتعاقب الذي أوردناه ، ممّا يكشف أنّ التأثير يبدأ من الأشخاص ، فالأماكن التي تتّصف بخصوصيّة من نوع ما ، وصولاً إلى العوالم المفتوحة التي تمثّل ساحات عامّة للنشاط والتفاعل الاجتماعيّ ، لكنّ النصّ عند هذه النقطة ينتهي .

لو نظرنا إلى هذه السيرة الروائيّة من زاوية بناء الأحداث ، لوجدنا أنّه بناء متتابع ؛ فالوقائع تسترسل متعاقبة ، زمنها خطّيّ يبدأ من نقطة وينتهي عند أخرى ، فلا تتداخل الوقائع فيما بينها ، إنّها تعرض من منظور الراوي طبقاً للنسق الذي تحدّث فيه في الواقع ، وهذا نسق تقليديّ ثبتت ركائزه الرواية التي أرادت أن تلعب دور التاريخ ، فالراوي ينطلق من فرضيّة كونه شاهداً على الأحداث ، ولذلك فإنّه يعرض تلك الأحداث على المتلقّي متعاقبة ، وبما أنّ المكان هو الفضاء المؤطر لتلك الأحداث فقد تمّ التركيز عليه كمجال للحركة ولمرور الشخصيات ، ولم يعن الراوي بتفصيل معالنه .

وهكذا فإنّ العناصر الفنيّة المكوّنة للنصّ لم تتفاعل بحسب الطرق الشائعة في السرد التقليديّ ، ومن ذلك فليس ثمة ذروة في الأحداث ، وليس هنالك صراع وعقدة وتدرّج ونهاية منطقيّة ، فبكلّ ذلك استبدل النصّ بنية سرديّة من نوع آخر ، قوامها العرض المحايد لعالم تشكّل من تضافر الذاكرة والخيّلة (الذاكرة أنتجت الجزء السيريّ في النصّ ، والخيّلة أنتجت الجزء الروائيّ فيه) وقد اقتضى ذلك إعادة توظيف لهذه العناصر الفنيّة ، ممّا يخدم حاجة النصّ . إنّها بنية مفتوحة قابلة للاستنطاق والتأويل بحسب القراءة النقديّة ونوع مقاربتها للنصّ ، ونراها تشترك مع نصوص السيرة الروائيّة العربيّة الأخرى في تأسيس نوع سرديّ جديد ، ذلك أنّ التخيّل السرديّ أصبح أكثر ميلاً لدمج الأبعاد الذاتيّة للأحداث بالأبعاد المتخيّلة .

## ٩. السيرة الروائية والبعد التوثيقي:

على أن تنويعاً آخر يمكن العثور عليه في السيرة الروائية ، وهو هيمنة البعد التوثيقي على البعد التخيلي ، نجد ذلك واضحاً في كتاب أمين مازن «مسارب»<sup>(١)</sup> ، وفيه مزج الكاتب بين السيرة والتاريخ ، وهذا النمط من الكتابة جعل النص يقف في الحدّ الفاصل بين الكتابة الذاتية والكتابة الموضوعية ، ومع أن النصّ بلور شخصية تكون مركزاً للأحداث ، لكن حركة الشخصية انتظمت في سياق شبه تاريخي ، الأمر الذي جعلها مشتبكة مع أحداث التاريخ ، ولكن عبر إطار روائي ينظمها سياق متصاعد من الوقائع الخاصة بالتاريخ الاجتماعي لليبيا .

تألف نصّ «مسارب» من مكوّنين أساسيين جرى التهجين فيما بينهما ، بكثير من الحذق والدراية ، وهما : البعد الشخصي لسيرة المؤلف الشخصية ، والبعد الجماعي لتاريخ ليبيا ، وظلاً متلازمين في حوار شفاف ، بحيث تحكّما في مسار النصّ إلى نهايته ، وهذه المسارب تحتفي بالذات والمكان والتاريخ ، وما النصّ إلا عبارة عن ثلاث دوائر ، يؤطر بعضها بعضاً ويحتويها ، وتتداخل فيما بينها في الوقت نفسه : دائرة الذات التي تتجلى من خلال شخصية الطفل الذي أصبح فتى ثم شاباً ، ودائرة المكان التي تتجلى من خلال المدينة ، ودائرة التاريخ التي تتجلى من خلال البلد ، وثمة خيطان يصلان هذه الدوائر من الداخل هما : التجربة الذاتية الاعتبارية للمؤلف ، ثم التجربة التاريخية الحديثة لبلاده ، وهما تجربتان تتمازجان في نوع الوحدة والاطراد والتماسك ، وهما محكومتان بنوع من التحوّل الذي يأخذ في الاعتبار الذات والمكان والتاريخ ، فالطفل ينتهي شاباً إثر انفصال طبيعي عن الأسرة ، والمدينة تفلح في أن تنفصل إدارياً ، والبلد يستقل ويكتسب هويته الخاصة به ، هناك تساوق وتناغم في الحركة الداخلية لكل هذه العناصر الدلالية الفاعلة في سياق النصّ ، بحيث يغذي كل عنصر الآخر ، ويضفي عليه أهمية خاصة .

تناغم النصّ مع العالم الذي قام بتمثيله في علاقة مزدوجة قوامها : الثبات والتحوّل ، فانفتح في البداية على عالم حامل جرى تعريفه بوساطة نمط من السرد الموضوعي من خلال التركيز على الخلفيات الزمانية والمكانية للمدينة المرمية بعيداً وخارج أي اهتمام ، وسرعان ما ظهرت بوادر التحوّل حينما حضر الأجنبي في أفق

(١) أمين مازن ، مسارب ، طرابلس ، مطابع الثورة العربية ، ١٩٩٨

المدينة والبلد ، فحضوره بعث الحركة ، وحرّر الحياة من نسقها التقليديّ الذي تحكّم بها ، وبذلك زرع المؤلّف بذور صراع بين طرفين وتقليدين ومنظورين وإرادتين ، صراع ظهر حيناً ، وتوارى حيناً في تضاعيف النصّ إلى نهايته ، لكنّه أفضى إلى نتيجة مهمّة ، فبسببه خرج كلّ شيء عن منواله ، واندرج الناس في علاقات خدميّة لم تكن شائعة من قبل ، وكما صرح المؤلّف ، فقد «أتقن القوم كلّ هذه المهمّات الخدميّة ، وكانت يومئذ تغييراً انقلابياً في أسلوب الحياة» . واطّرد التحوّل من خلال المؤثرات الخارجيّة ، فترك بصماته الواضحة في حياة الطفل والمدينة والبلد .

صار التركيز على التجربة الذاتيّة لطفولة المؤلّف وشبابه ، واستأثّر الجانب التربوي ، داخل الأسرة وخارجها بالاهتمام الرئيس ، فثمة إقصاء متواصل للبعد الحيّ الداخليّ للشخصيّة ، ومن هذه الناحية فالنصّ يتجاوب مع تقاليد فنّ السيرة الذاتيّة العربيّة ، ذلك الفنّ العريق الموروث الذي اهتمّ به المفكرون والأدباء والفقهاء ، وأرسوا تقاليد صارمة طمست الجانب العاطفيّ ، ورفعت من شأن الجانب التربويّ . ووسط هذه الأنظمة الاجتماعيّة الصارمة التي لا تسمح بالبوح الوجدانيّ ، تشكّلت معالم التجربة الذاتيّة ، فظهر الطفل /الفتى/ الشابّ على خلفيّة من اهتمامات الأسرة ومرجعياتها الدينيّة ، ومن خلاله جرى تعرّف العالم وملامسته ، وفيما بدأ وعي الطفل بالتشكّل بدأ الإحساس بضيق المكان ، وتدخلت إرادة الآخرين في تقرير مصيره ، فرأى في نفسه أنّه محكوم بقوى أخرى ، ومن ذلك المفارقة التي كشفت له نوعاً من التناقض ، فالمدارس المدنيّة تستقبل أولئك الطلاب الذين أخفقوا في دراساتهم الدينيّة ، أمّا الذين برعوا فيها وحفظوا النصّ المقدّس ، فمكانهم الكتاتيب والمساجد ، ولكي يتمّ الالتحاق بتلك المدارس ، فلا بدّ من ادّعاء الإخفاق في الدروس الدينيّة ، مع تحمّل كلّ التبعات الاجتماعيّة لذلك ، هذا الأمر يحول دون التحاق الفتى بالتعليم المدنيّ إلّا في مرحلة متأخّرة ، ذلك أنّ الأسرة كانت تريد إعداده ليكون أزهرياً .

حدثان حاسمان أوقعا تغييراً مهماً في حياة الفتى : الانتقال إلى التعليم المدنيّ ومغادرته مدينته المهمّشة إلى طرابلس ، وذلك بعد مرحلة من القلق والتوجّس . وفي هذا العالم الجديد ، تفتّحت ذهنيّة الفتى الذي أصبح شاباً على أشياء كثيرة ، وحينما نجح في الاندماج بهذا العالم وأصبح جزءاً منه ، لجأ النصّ إلى التعتيّم على المستوى الجوّانيّ للشخصيّة ، بحيث قيّد ذلك المستوى وسكت عنه ، وباستثناء اللقاء

العابر بالنادلة الإيطالية في الطريق إلى بنغازي ، والإشارات المموّهة السريعة حول عالم النساء في طرابلس ، وهي لمحات أشبه بخفقات مكتومة وسط نصّ يتهبّب من الكشف عمّا هو سرّيّ ، فقد شغل النصّ بتوصيف العالم اليوميّ لشخصيّة الشابّ الذي ينهمك بأمرين ، أولهما الالتحاق بعمل وظيفيّ في الجهاز التشريعيّ ، وثانيهما إعداد النفس لمشروع فكريّ- إبداعيّ ، وختم هذا النصّ وسط السيل الجارف للأحداث العامّة .

زخر كتاب «مسارب» بكثير من الإشارات والاقتباسات الثمينة ، التي جعلت منه ذخيرة للمأثورات الشعبيّة من أشعار وأمثال وحكم وحكايات ، كما أنّه اهتمّ بالطقوس والتقاليد الاجتماعيّة والدينيّة ، وفصّل في الطرق الصوفيّة كالعروسيّة والأسمريّة ، إلى ذلك فهذا النصّ بتشعباته انطوى على تحليلات لكثير من الأحداث التاريخيّة والظواهر الثقافيّة والاجتماعيّة ، فاشتبك بها وصفاً وتقويماً ، بما جعلها تشكّل خلفيّة شديدة الأهميّة للتجربة الذاتيّة التي حرص النصّ على تقديمها ، وهي متداخلة مع تلك الأحداث ، ومتّصلة بها على نحو شديد الاتّصال .

#### ١٠. اليوتوبيا بوصفها منفى داخلياً:

واقترحت السيرة الروائيّة «السراب الأحمر» لـ«علي الشوك» نوعاً من اليوتوبيا الصغيرة ، كمكافئ سرديّ للاستبداد وبديل له . ومعلوم أنّ فكرة اليوتوبيا انبثقت في الخيال البشريّ لتخطّيّ حال الإحساس بالخوف والظلم ؛ فهي البديل المتخيّل لواقع يمور بالتناقضات التي لا سبيل إلى حلّها أو التكيّف معها . يدفع الخوف من الاستبداد شخصيّات الرواية لبناء مستعمرة صغيرة والالتجاء إليها ، وممارسة الحياة وتبادل الأفكار بعيداً عن الأنظار ، فالاتّصال بالطبيعة يأتي بسبب الخوف من الأيدولوجيا المستبدّة التي تدفع بمجموعة من الشخصيّات الشيوعيّة إلى الابتعاد عن بغداد ، واختيار الطبيعة النائية حيث تتوافر الفرصة الكاملة للمسرات الفكرية والجسديّة .

اخترت الشخصيّات منفى داخلياً ، وتضامنت فيما بينها ، فمثّلت تجربة هشام المقدادي لباً ، وكان هو مركز الأحداث ، والمقدادي ناشط سياسيّ وأكاديميّ ، خاتل السلطة لأكثر من ثلاثين عاماً ، فتعلّم في أميركا وتولى مسؤوليات وظيفيّة متعدّدة ، وانتهى أستاذاً في إحدى الجامعات العراقيّة ، لكنّه وجد نفسه بإزاء ضغط مباشر لينتمي إلى حزب السلطة ، ولم يكن أمامه سوى أحد خيارين ، إمّا الانخراط في

الحزب امتثالاً لقرار السلطة ، أو الهروب إلى خارج العراق ، وقد اختار الهروب لعجزه عن التكيّف مع الحال التي يراها انزلاقاً خطيراً لا يمكن قبوله ، ولا يمكن إيقافه .

وبين الفترة التي اتّخذ بها قراره والشروع في المغادرة ، لاذ مع جماعة من أصدقائه من النساء والرجال بمنطقة نائية شمال شرق مدينة بعقوبة ، فبنوا مستعمرة بدائية صغيرة ، وهناك وسط طبيعة صامته وعزلة آمنة ، استعاد المقدادي ومعه بعض الشخصيات ، تجارب الماضي ، وكأنّها ثمرات سرّية في منأى عن الرقابة الأيدلوجيّة الصارمة لمؤسّسة النظام السياسيّ . وقد أتاح هذا الإطار السرديّ للمقدادي أن يفضي بتاريخه الشخصيّ وبتجاربه الأيدلوجيّة والتعليميّة ، التي مرّ بها منذ الخمسينيّات الى نهاية سبعينيّات القرن العشرين .

يبدو الإطار الناظم للجماعة المتناغمة هو المستعمرة النائية ، والعلاقات الحرّة بين النساء والرجال ، والتجارب السياسيّة شبه المتماثلة لهم جميعاً ، والطعام والشراب ، وباستثناء كونهم قرّروا إنشاء تلك المستعمرة الصغيرة تحقيقاً لفكرة اليوتوبيا ، فإنّ الفعل السرديّ المناظر لفعل السلطة التي دفعت بهم إلى ذلك الاختيار يبدو غائباً ، فبرواية نبذ من تجارب الماضي والانشغال بثرثرات إغوائية جانبية ، لم تنجح الجماعة في تشكيل موقف بديل لموقف السلطة الاستبداديّة ، فليس ثمة إنتاج لفكرة بديلة ، أو عمل مهمّ تستعيد به الشخصيات بناء عالم بديل وسط الطبيعة يكون نظيراً للعالم الذي تركوه في العاصمة بغداد .

ييدي هشام المقدادي تدمراً متواصلًا من حالة الانغلاق التي انتهت إليها السلطة السياسيّة في العراق في السبعينيّات ، لكنّه هو بذاته كرّس انغلاقاً مناظراً ؛ إذ اكتفى بشذرات من تجاربه خلال ثلاثة عقود متوالية ، وتبدو النساء في حياته كأنهنّ مكملات تزيينيّة ، سواء كنّ طبيّبات كالزوجة الأميريّة ، أو سيّئات كالزوجة العراقيّة ، أو عشيقات راغبات مثل داليا ، وفي جميع الأحوال ظهر المقدادي مجتثاً ، فقد انقطع الاتّصال بينه وبين وطنه جراء أيدلوجيا مغلقة خرّبت فكرة الانتماء كما يريدّها هو ، ويتصوّرّها ، ويرغب فيها .

لم يدفع المقدادي بفكرة اليوتوبيا إلى نهايتها الحلميّة التي يمكن تحقيقها ، حتى لو كان ذلك على سبيل الترجيح ، وينطوي الفكر الماركسيّ على فكرة اليوتوبيا ، لكونه يقترح عالماً يخلو من التناقضات الكبرى ، فالرواية الشيوعيّة للتاريخ ونهايته تكتنفها الإثارة المجازيّة المشتقّة من فكرة اليوتوبيا ، شأنها في ذلك شأن المرويّات الدينيّة التي

ترسم للشقاء الأرضي نهاية سعيدة وخالدة في الجنة ، لكن شخصيات «سراب الأحمر» تنظم إيقاع حياتها اليومية ، بما في ذلك فكرة المستعمرة النائية في منأى عن السردية الشيوعية للتاريخ ؛ إذ تشغل بالماضي وبالندم وبدم أيديولوجيا الاستبداد ، والاستغراق في المتعة ، والهرب منها إلى الأمام ، دون اقتراح أي عالم بديل ، فالليوتوبيا الجديدة كانت ملاذاً مؤقتاً لم تتحقق فيه شروط العدالة إلا إذا عدت الأحداث والمسامرات والعلاقات الحرة شيئاً من ذلك . وارتسمت في الفضاء السردى للنص تبعية الشخصيات للمقدادي ، سواء في كونه البؤرة المركزية أو في أحكامه عن الشخصيات الأخرى ، فنسق العلاقات بين الجماعة الجديدة لم يقطع صلته بنسق العلاقات في العالم الذي هربت الشخصيات منه .

ظهر المقدادي رجلاً راغباً ومستمتعاً بالنساء والشراب والموسيقى ، لكنه مهزوز وخائف ومرتبك وينطوي على دعر عميق يسكنه ، فمقاومته الداخلية شاحبة ، وقدرته على الثبات مخربة ، وحينما قرّر الهرب سرّاً خارج البلاد ، قدّم السرد حالته بالصورة الآتية : «منذ تلك اللحظة أحسّ بأنه جرّد من كلّ شيء : على حين فجأة نأت عنه هذه المدينة التي كان كلّ ما فيها جزءاً لا يتجزأ منه ومن ذكرياته ومن الفضاء الذي يتحرّك فيه . حتى سيارته التي عاد فيها إلى بيته ، أصبحت لا تبدو في نظره شيئاً يعود إليه . وحتى تحية جاره الدكتور سلمان ، بات لها طعم آخر اغترابي ، إنّه إحساس من أحيط علماً بأنّه مصاب بالسرطان : إنسان من تخلّت عنه الحياة ، ولم يبق له موطئ قدم فيها . إنّ هذا العالم الذي انتمى إليه منذ خمسين عاماً يبتعد عنه ، يهجره»<sup>(١)</sup> .

قبيل نزوحه من العراق بمدة وجيزة وقع المقدادي في غرام داليا ، وقد كشفت العلاقة الحسية رؤيته للمرأة وللفن ، فمرجعيتّه في كلّ شيء ذوقية وذهنية ، لم ترتق إلى موقف صلب يمنح المرأة فرادتها الإنسانية ، وهويّتها الأنثوية الخاصة ، فهو يريد صوغ علاقته بها في ضوء علاقته بالموسيقى والأدب ، فيقارب المرأة التي أحبّها عبر التمثيلات الفنية والأدبية المجردة ، وقد ظهرت داليا في علاقته الجسدية معها مجرد مسخ لمثالات الفن والأدب ، فكان يستعيد عبر جسدها مثالاته التخيلية ، والحوار الآتي بينهما يكشف تصوّراته تلك : «ذهبا إلى غرفة نومه وهناك تعرياً ، وأخذ هشام يجول ببصره وأصابعه في منحنيات جسدها الحريريّ ، وقال لها : «أنت توكاتا نسييت

---

(١) علي الشوك ، السراب الأحمر : سيرة حياة هشام المقدادي ، دمشق ، دار المدى ، ٢٠٠٧ ، ص ٩



رقمها! «لمن؟» «لباخ». «أعرفها ، لكنني مثلك لا أعرف رقمها». وقبل حلمتها ، وقال : «أنت سوناتا رقم ١٤». «تقصد سوناتا في ضوء القمر؟» «نعم». وقبل سرتها ، ثم قال : «أنت كونشرتو رقم ٤». «لمن؟». «له ، صاحب سوناتا في ضوء القمر». «لم أسمعها». «مذهلة ، مثلك!». «أحبك ، امتلكني!». «أريد أن أرتوي من منظر وملمس جسدك الحريري ، أولاً!». «ادخل في». «استعمل المانع». «سأستعمله». وقبل فخذها ، وقال : «أنت أوبرا الناي السحري». «أنت لاترافيتا». «أنت كارمن». «امتلكني هشام». «أنت هابسيكورد». «أنت فايولين». «أنت سيتار». «ادخل في!». «أنت ماتيلد ، أنت أنا كارانينا». «ادخل في» ، أرجوك». «أنت جوليت». «أنت دزدمنة!». «هل تريد أن تخنقني! ادخل في». «ادخل». «ادخل...» ودخل فيها ، وقال بعد لحظات : «أنت مذهلة في أعماقك السفلى!»<sup>(١)</sup>.

لم يتمكن المقدادي أبداً من تخطي الشروط الذهنية والذوقية ، فلم يكن يقارب أنثى يرغب فيها وترغب فيه ، إنما جعل من صفحة جسدها مرآة لمثالاته الكبرى في فنون الموسيقى والأدب. لكنّ المفارقة تبلغ أقصاها ، حينما نعرف أن أوصافه لجسد داليا مستعارة من الفنون السمعية والسردية وليست البصرية ، فجسدها كان ذاكرة إيقاع متخيلة لمعلومات خاصة به ، لم يتحقق معناها ؛ إذ لم يجر الاحتفاء بجسدها الأنثوي الحقيقي ، إلا في كونه يحيل على ما يعرف هشام المقدادي ويريد .

بانزلاق المقدادي إلى منطقة المقارنات المبسطة بين امرأة وجملة من المثالات الفنية الشائعة ، فقد الشرط الإنساني الذي يمنحه القدرة على بلورة مفهوم لهويته الشخصية أو هوية المرأة التي عشقها ، وذلك عاق بدوره نمو فكرة اليوتوبيا كبديل للاستبداد حينما تخلّى عنها ، وعلق في رغبة جسدية عارضة مُسخت بمبدأ المقارنة . ثم انتهت المقدادي إلى موقف تنكّب فيه للمقدّمات التي طرحها السرد عنه ، فالحلّط بين الأيدلوجيات الذهنية ، والنزوع الفردي للفنون ، لا يفضي إلا إلى البحث عن حالات من التماهي بين التجارب الثقافية ووقائع الحياة ، ولذلك شحب أثر الاستبداد ، وأهملت الشخصيات الأخرى ، وجرى تعقب متسرّع لمصير المقدادي في قدرته على المقارنة بين مثالاته العليا ، وامرأة عرضت له في لحظاته الأخيرة في وطنه قبل أن يهرب منه .

(١) م. ن. ص ص ٣٣٣-٣٣٤

## ١١. خاتمة:

ظهرت الذات الفردية في السيرة الروائية بوصفها المرجعية الأساسية لمادة النص، فكلّ العناصر الفنية، والمكونات السردية اتّصلت بتلك الذات، ومع أنّ درجات الاتّصال تباينت بين نصّ وآخر، فإنّه لا يمكن الحديث عن انفصال كامل، إنّ أقصى ما يندرج تحت مقولة الانفصال، هو «الأصداء» التي اقترحها نجيب محفوظ، قاصداً بذلك أنّ العلاقات بين الذات ومكونات النصّ تترتب على نحو غير مباشر، فتقع مزاجية إبداعية بين الواقعي والتخييلي، وتؤدّي الصياغات الأسلوبية وتقنيات السرد الروائي دوراً أساسياً في إضفاء طابع فنيّ على العلاقة المذكورة، إنّ ذلك الانفصال الرمزيّ تقرّره اختيارات الراوي - المؤلّف الذي يبدي أحياناً رغبة واضحة في التنكّر وراء اسم ما، أو يتغافل عمداً عن ذكر اسمه الصريح مكتفياً بضمير «الأنا»، بيد أن ذلك لا يطرد، فكثير من النصوص حرصت على إشهار الاسم الحقيقي للراوي الذي هو الشخصية والمؤلّف.

ويبدو أنّ إستراتيجية إظهار الاسم الصريح وإخفائه، تترتب في ضوء علاقات المؤلّف بنصّه من جهة، وعلاقاته بمحيطه الخارجي من جهة أخرى. فكلّما كان حرص المؤلّف واضحاً في إعطاء بعد حقيقيّ للوقائع الخاصة بسيرته، كانت رغبته لا تخفى في التصريح باسمه، وما إن يرغب - لأسباب خاصة به - في التمويه حتى يلجأ إلى إشارات رمزية تحيل عليه، يكون ضمير المتكلم، بقدرته الإيهامية العالية في السرد، الواسطة بين الوقائع النصّية والتاريخية، ينوب هذا الضمير عن لسان المؤلّف، والحديث بالنيابة مظهر أساسي من مظاهر السرد في السيرة الروائية، وفي المرحلة الثالثة من الإبعاد والتخفي والتضليل والتنكّر يظهر المؤلّف تحت أقنعة أخرى، الضمائر الغائبة أو المخاطبة أو الشخصيات التي تحمل أسماء محدّدة، وفي كلّ ذلك تنوّع كميّات بناء المادة السردية، مرّة تخضع لترتيب متتابع يحرص على مرافقة سيرة حياة المؤلّف بالتدرّج، وقد ظهر ذلك في «الخبز الحافي» و«الشاطر» و«بقايا صور» و«نساء على أجنحة الحلم». ومرّة يصار إلى تمزيق نظام التتابع، وبه يستبدل نظام التداخل كما تجلّى الأمر في «أصداء السيرة الذاتية» و«بيضة النعامة» و«خطوط الطول». خطوط العرض» و«جلسات الكرى» و«الحبّ في المنفى» و«السراب الأحمر». هذان النظامان يتداخلان ويوظفان بدرجة أو بأخرى في بعض السير الروائية الأخرى.

تحتفي السيرة الروائية بالجسد، وتشغل به بوصفه عنصراً مهيماً يحتاج إلى الاكتشاف، يصار غالباً إلى الإفصاح عما يواجهه الجسد من إخفاقات وانكسارات وعطالة، وحينما يتاح له أن يعبر عن خلجاته وتطلعاته، فإنه ينغمز في اللذة والمتعة، كتعويض عن خفض قيمته، في ثقافة تُقصي ملذاته وراء الحجب، وتستبعده، وتفرض عليه أن يمارس أفعاله في منأى عن العيون.

الاحتفاء بالجسد نوع من المعارضة الصريحة لجملة التواطؤات الشكافية والأخلاقية والسياسية الفاعلة في المجتمع، ظهر هذا في «الخبز الحافي» و«الشطار» و«بيضة النعامة» و«خطوط الطول». خطوط العرض». وظهر ولكن بتنوع ينطوي على نوع من المواربة في «السراب الأحمر» و«جلسات الكرى» و«الحب في المنفى» و«مرايا ساحلية». أمّا في «أصداء السيرة الذاتية» و«بقايا صور» و«مسارب»، فلا يستأثر الجسد بالاهتمام. الجسد كائن مجهول لا يراد البحث عن هويته ومشكلته. في نصوص شكري ومسعد والربيعي تتمحور الأحداث حول سيرة الجسد، يراد له أن ينتزع شرعيته وحضوره، فيكون موضوعاً للبحث والاكتشاف، وأحياناً الإشهار والمباهاة، أمّا محفوظ ومينه ومازن فهم أكثر اتصالاً بموروث السيرة الذاتية العربية القديمة الذي يعنى برحلة التكوّن وتشكيل المنظورات الفكرية؛ إذ تقدّم السيرة بوصفها تجربة اعتبارية.

هذان الموقفان من الجسد يخفيان رؤيتين، ويتصلان بأصلين، فالأدب السردى في الثقافة العربية لعب وبراعة على ثنائية التخفي والتستر من جهة، والتصريح والكشف من جهة ثانية، على أنّ حرية الجسد، في بعض نصوص السير الروائية تترافق مع الكتابة، يصبح الجنس نوعاً من الكتابة على جسد الآخر، فالحب والكتابة فعلاّن ينتهكان منظومة القيم عند شكري ومسعد، فتكون الطبيعة البكر مكاناً مناسباً لكليهما، وذلك نوع من هجاء ثقافة مخرومة في متنها، ولكن هذا لا يطرد دائماً، إنّما يحرص على التنوع، ففي نص آخر، لا يخفي صلته بكلّ من السيرة والرواية، يقوم عبده وازن في «حديقة الحواس»<sup>(١)</sup> بمغامرة مضادة: الحب والكتابة فعلاّن محرّمان يتمان بسرّية في غرف مظلمة رطبة معزولة. وفيما يهرب شكري ومسعد إلى الطبيعة، في هجاء لا يخفي لثقافة استعبادية، يحتج عبده وازن مختفياً في غرف

(١) عبده وازن، حديقة الحواس، بيروت، دار الجديد، ١٩٩٣

منسوبة وسط فضاء سوداوي مغلق ومتأزم وعثي. كل يحتج بأسلوبه .

وتثير مشكلة ترتيب المادة السردية وطرائق عرضها وكيفيات ظهورها ، وموقع الراوي في النص وعلاقته بالأحداث ودرجة إحالته على المؤلف الحقيقي ، وتوظيف الوثائق الذاتية والتاريخية ، كالمذكرات والملاحظات والانطباعات واليوميات والمستندات الشخصية ، موضوعاً مهماً يتعلق بالانتماء النوعي للسيرة الروائية ، ولقد أشرنا من قبل إلى أن السيرة الروائية تهجين سردي ، وظف وأعاد توظيف كشوفات السيرة الذاتية والرواية ، على أن عملية التهجين ما زالت في طورها الأول ، ذلك أن النصوص التي وقفنا عليها ، لم تزل غامضة الانتماء والهوية ، وباستثناء الجزء الأول من سيرة محمد شكري الروائية «الخبز الحافي» و«مرايا ساحلية» ، وقد ورد فيهما تأكيد أنهما «سيرة» ، فإن معظم النصوص الأخرى التي كانت موضوعاً للتحليل نشرت على أنها روايات ، وثبت بوضوح على أغلفتها الخارجية أو الداخلية أنها روايات ، بما في ذلك الجزء الثاني من السيرة الروائية لشكري «الشطار» .

ومع أن هنالك إشارات لا تقبل اللبس في المقدمات التي وضعها المؤلفون أو تأكيدات نصية وردت في تضاعيف المتون ، إلى أن نصوصهم ليست روايات محضة ، فإن البحث عن تسمية ، وكل ما يولده من مشكلات ، لم يدفع إلى الأمام بموضوع الاتفاق على مصطلح معبر عن الطبيعة التركيبية لهذه النصوص ، وينبغي أن يفهم كل هذا على أنه أمر طبيعي في تاريخ الأنواع الأدبية ، ذلك أن الممارسات النصية تظهر أولاً ، قبل الاتفاق على تسمية النوع الذي تكون عليه وقبل وضوح القواعد العامة وثباتها النسبي ، وما إن تتكاثر النصوص حتى تندرج ضمن نوع جديد ، ينتظم تحت إطار تسمية تشير إلى ذلك النوع .

يستوعب المصطلح المركب «سيرة روائية» وظائف السرد في هذه النصوص ، ويحل جانباً من مشكلاتها النوعية الجديدة في السرد العربي الحديث ، ويقرر درجة الصلة مع الموارد التي تحدر منها ، إنه فيما يخص أمر الوظيفة ، يدمج بين الوثائقي والتخييلي ، ويرتب العلاقة فيما بينهما على أساس التفاعل الحر الذي لا يرهن نفسه بانتماء محدد إلى أي منهما . وإنه فيما يتصل بإشكالية النوع يحيل على درجة الاستثمار الممكنة لمعطيات منجزة قدمتها السيرة الذاتية والرواية عبر تاريخهما ، وأخيراً فيما يتعلق بالأصول ، فإن المصطلح يربط هذه الممارسات النصية بصلة نسب واضحة مدفوعة إلى أنواع لها موقعها في تاريخ الأدب .

## الفصل السابع

### الارتحال والاكتشاف وصوغ الهوية



## ١. مدخل:

يغلب أن يكون البحث تجربة ذاتية تفضي إلى الاكتشاف ، فيترتب على ذلك إعادة صوغ الهوية ، ولن يتحقق ذلك إلا بالارتحال ، فهو وسيلة عبور من المجهولية إلى المعلومية ، وهو مغامرة شائقة يترقى بها المرء في مدارج المعرفة ، فتتلازم عناصر الارتحال بالبحث بالاكتشاف لتصوغ تجربة مغايرة لتجارب الركود والسكون التي لا تعرف التغيير ، ولا تدرك معنى التحول . وتطوي سرود الارتحال تجارب بحثية في عالم مغاير تكون حصيلته اكتشاف هوية الآخر ، والاعتراف بالمغايرة ، وإعادة صوغ الذات في ضوء ذلك . وغالباً ما يتوازي في سرود الارتحال خطان : اكتشاف مكان جديد لم يكن معروفاً ، وتغيير رؤية المرتحل لنفسه ولعالمه ، ولطالما جذب هذا الموضوع الأثير اهتمام السرد بسائر أنواعه .

## ٢. السرد وفرضية عبور الحدود الدينية:

قدّم كتاب «السيد إبراهيم وزهور القرآن» لـ«إريك إيمانويل شميت»<sup>(١)</sup> تمثيلاً لفكرة التسامح والحوار بين العقائد ، وتبادل الانتماء فيما بينها ، والوصول إلى فهم مشترك لا يسمح بالاحتراب والتعارض ، فهو كتاب سرديّ يتحلّ بين الأديان بغرض اكتشافها . وهذه القضية خلافاً بين المؤمنين بالعقائد السماوية ، فبعضهم يرى أن تلتقي العقائد في منطقة حوار وتفاعل ؛ لأنّها ديانا لله ، ويرى بعضهم غير ذلك ، ولا بدّ أن تجهز عقيدة على أخرى وتمحوها وتطمسها وتعلن الظفر ، فحيثما تكون ثمة عقيدة فلا مجال للحوار والمداهنة ، بل الحسم وتأكيد النصر النهائي . تعيش المجتمعات في عالم منقسم على نفسه ، في انتماءاته الدينية وهوياته الثقافية .

ينبغي إلّا يُغفل السؤال الخاصّ بالنوع السرديّ لكتاب «السيد إبراهيم وزهور القرآن» ؛ لأنّ المؤلّف أنجز سلسلة من الكتب التي اعتمدت أسلوب الترميز السرديّ

---

(١) إريك إيمانويل شميت ، ميسيو إبراهيم وزهور القرآن ، ترجمة محمّد سلماوي ، القاهرة دار

للبحث في الديانات ، فلهذه كتاب «أوسكار والسيّدة الوردية» وهو عن المسيحية ، ثم كتاب «طفل نوح» وهو عن اليهودية ، وعن البوذية أصدر كتاباً بعنوان «ميلاريبا» . وجاء هذا الكتاب في البحث عن الصلة بين الإسلام واليهودية . وجميع هذه الكتب أصدرها ضمن سلسلة بعنوان «اللامرئي» . وهذا التعبير له دلالة ، فحينما نتحدث عن الديانات والعقائد ، فإنما نتحدث عن نظم ثقافية رمزية غير منظورة تمنح الهوية الثقافية ، وما دام المؤلف مشغولاً بالعقائد الكبرى ، فيرجح اندراج كتابه ضمن فكرة الحوار الديني . وذلك متّصل بحوار الثقافات والمعتقدات .

ولكي تمضي عملية كشف الصلات المضمرة بين اليهودية والإسلام ، ابتكر المؤلف شخصيتين أساسيتين ، وجعلهما تقتسمان الكتاب منذ البداية إلى النهاية ، وهما الشيخ المسلم «إبراهيم» والصبي اليهودي «موسى» . وقد ظهر التركيز على عقيدتي الشخصيتين في الصفحات الأولى من الكتاب ، إبراهيم يؤمن بالقرآن ، ويفسّر بحريّة طبقاً لحاجته اليومية ، أمّا موسى وهو صبي يهودي ، فتواجهه صعاب كثيرة ؛ لذا وجد في إبراهيم معياراً لتصحيح أخطائه وتجنّب إخفاقاته ، ووسيلة لفتح أفق الحياة أمامه . لم يلجأ الشيخ إبراهيم ، في أية مناسبة ، لإقناع الصبي موسى بصواب وجهة نظره ، فهو ليس داعية لدينه ، لكنّه ما انفكّ يقدّم له فكرة عن ممارسة الحياة بصورة لا تتعارض مع الدين ، فالدين شعور داخليّ بالانتماء أكثر ممّا هو نظام عقاب وردع خارجي . وهذا هو المحفّز لفكرة البحث والاكتشاف في العالم المتخيّل للكتاب .

آمن إبراهيم بقرآن مرن دفع به إلى ممارسة الحرية ، ولم يرد منه أكثر من ذلك . فانتهى إلى الإيمان بقرآن يفتح الشهية على الحياة ولا يلجمها ، يغري بها ولا يفطمها . وكان ذلك نتيجة بحث واكتشاف ذاتيين قاداه إلى الارتحال عبر قرآنه المقدّس ، فاستخلص منه فكرة الحرية . وفي المقابل ظهر موسى صبيّاً غصّاً لا ذكر للتوراة في عالمه ، فكان يواجه بروادع ونواه ذات معنى دينيّ انتهت به إلى التمرد على دينه ونكرانه واختيار الإسلام والتسمي باسم «محمد» . مرّ إبراهيم بتجربة بحث ذاتيّ أفضت به إلى الاكتشاف ، أمّا موسى فاضطرّ للمرور بتجربة غريبة ارتحل فيها بين عقيدتين ، قبل أن ينتهي إلى مرحلة الاكتشاف .

عاش موسى في أسرة مفكّكة ، فقد هجرت أمّه المنزل ، وتعلّقت برجل غير أبيه ، الذي كان يمتنّ الحمامة ، فعادته الاعتكاف في البيت منظوياً ، لا يخالط أحداً .



يعيش مع كتبه وشرابه وعزلته ، وليس له إلا موسى الصغير الذي يعامله بسوء ، فيجبره على أداء أعمال المنزل كافّة ، ويعزله في شقّة مظلمة خالية ، ويراه عبداً وليس ابناً ، وفوق ذلك يتّهمه بالسرقة ، وهو بخيل لا شأن له إلاّ تنغيص حياة الصبيّ ، فتسبّب ذلك في استياء الابن الذي كان يسعى لاسترضاء أب لا يُسترضى . وبمواجهة سوء فهم متواصل لجأ الابن إلى الاحتيال فأصبح سارقاً ، وقد اعترف بذلك : « بما أنّني أصبحت موضع شكّ ، فلأفعلها إذن »<sup>(١)</sup> . فدُفع إلى مغادرة حال العبوديّة في أوّل يوم من بلوغه السادسة عشرة من عمره ، على يد بائعة هوى في شارع «الفردوس» .

تعرّف موسى نفسه على يد بغيّ في حيّ يحيل اسمه على الجنّة ، فطقس العبور من منطقة التقوى اللصيقة بالجهل إلى منطقة المتعة المقرونة بالمعرفة جعله يتعرّف ذاته ويعيد اكتشافها . أمّا إبراهيم المعمر ، ببشرته القمحيّة الدالّة على الحكمة ، فقد نضجت تجربته عبر الترحال . وكان قد استبدل بالعزلة الحياة ، وبالعجز الاكتشاف ، وبالجهل المعرفة ، وبالحقد المحبّة . وكان مسلماً ينتمي إلى «الهلال الذهبي» ، وهي المنطقة الممتدّة من «الأناضول حتى بلاد فارس»<sup>(٢)</sup> إلى كلّ ذلك ، قاوم بجلد الكراهية والعجرفة ، وهو البقال المسلم الوحيد في حيّ يهوديّ لأربعين عاماً .

بدأت العلاقة بين الاثنين بالسرقة ، سرقة موسى لإبراهيم ، فلأنّ موسى اضطرّ إلى ذلك بسبب أبيه المتزمت والبخيل ، فقد شمل إبراهيم بسرقاته . إنّ سرقة لأبيه مبرّرة من وجهة نظره ؛ فهي انتقام من الأبويّة التي استحالت عبوديّة ، لكن سرقة لإبراهيم كانت فقط لأنّه «عربيّ» كما اعتقد الآخرون . عرف إبراهيم بسرقات موسى منذ البداية دون أن يخبره بذلك ، فهو يريد أن يقوده إلى فكرة أساسيّة مؤداها أن تلك السرقات ممارسة خاطئة ، ومن أجل حمايته ، وتقديم العظة الأخلاقيّة التي يريدها ، قال لموسى : «إذا كان عليك أن تستمرّ في السرقة ، فافعل ذلك عندي أنا»<sup>(٣)</sup> .

ينبغي الآن تثبيت الآتي : دفع شحّ الأب اليهوديّ ابنه موسى إلى السرقة لممارسة المتع في حيّ الفردوس لإثبات رجولته ، فاكتشف هويّته الجسديّة على يد

(١) م. ن. ص. ١٥

(٢) م. ن. ص. ١٩

(٣) م. ن. ص. ٢٣

مومس ، ولكن سرقاته أفضت به أيضاً إلى إبراهيم المسلم الذي دشّن له الطريق لاكتشاف هويّته الروحيّة . وعلى هذا النظام المتعاقب ترتّبت حياته ، فهي مراحل مترابطة من الحوافز والمكافآت التي تترافق فيها حالات بحث واكتشاف ، فتعديل الأخطاء يرّمّ مسار الإخفافات ، ويدفع بالمرء إلى اكتشاف ذاته ، وإذا كان تصرّف الأب البخيل موضوع ازدراء من طرف الابن ، فيقابله اهتمام بائعة الهوى به ، فيكون اللقاء بإبراهيم تعديلاً لتطرّف مزدوج في علاقة الصبيّ بعالمه ، فإذا كان يريد أن يكافئ باللذّة جسده المقموع من طرف أبوة مبهمّة ، فينبغي له أن يسقط في خطأ مركّب : كراهية الأب اليهودي ، وممارسة المتعة في شارع الفردوس ، فيظهر إبراهيم في أفق السرد لتجريد موسى من أخطائه ، ويدفع به لصوغ هويّة سويّة لا تضع نفسها في تعارض مع أبوة خاطئة ، ولا تتمرّع في متع تعويضيّة . الانجذاب إلى عالم إبراهيم نزع عن موسى حبسة تربويّة وجسديّة ، وبارتحاله من بيت يهودي مغلق إلى فضاء إسلامي مفتوح ، عبر من منطقة مجهولة إلى منطقة معلومة .

وجد موسى نفسه مستقطباً من علاقتين : علاقته الملتبسة بأبيه الذي يذكر بـ «يهوه» إله بني إسرائيل العابس والناقم ، ثمّ علاقته المتفاعلة مع إبراهيم . أحسّ مع الأوّل بالانتقاص وغياب تواصل ، وغُمر مع الثاني بالدفء والنور والحرّيّة . عرض إبراهيم على موسى فكرة الفرّح عبر الابتسامة ، فلكي يكون سعيداً فينبغي عليه الابتسام ، واستجاب موسى ، «أخذت أمطر العالم أجمع بوابل من ابتساماتي ، ولم يبق أحد يعاملني كصرصار»<sup>(١)</sup> .

وما لبث أن انخرط الشيخ والصبيّ في علاقة إنسانيّة عميقة ، فبعد أن هجره أبوه لاذ بإبراهيم الذي أعاره القرآن ليطلع عليه ، وأخبره بأنّ كلّ ما هو جميل في العالم يوجد في هذا الكتاب . تسبّبت حيازة موسى لقرآن إبراهيم في التخلّص من كتب الأب ؛ إذ شرع في بيعها ، فكأنّه يتخلّص من تراث يهوديّ حال دون أن يكتشف هويّته الشخصيّة ، «في كلّ مرّة كنت أبيع كتاباً كنت أشعر بأنني أكثر حرّيّة»<sup>(٢)</sup> . وحينما بلغه نبأ انتحار أبيه لم يحزن ، إنّما استغرب لأنّه اختار الموت تحت عجالات القطار في «مرسيليا» ، وليس في «باريس» حيث تكثّر القطارات ، فالإكتشاف بدّد العجب .

(١) م . ن . ص ٢٩

(٢) م . ن . ص ٤٦

بعد اختفاء الأب ظهرت الأم لتعيد الارتباط بالابن ، لكنّها جاءت متأخرة ، فرفضها موسى ؛ لأنّه ارتحل إلى عالم إبراهيم وانتّمى إليه ، وسمّى نفسه محمّداً . لقد هجرته أمّه اليهوديّة طفلاً وفتى غصّاً ، وحينما شارف على البلوغ التقطه الإسلام ، وأعاد التوازن الداخليّ إليه ، وأصبح من غير الممكن الرجوع إلى حقبة الضياع ، فمن الصعب عليه العودة إلى ما قبل مرحلة الاكتشاف .

وجد موسى نفسه بلا أب ولا أمّ ، ولديه شك عميق في جدوى يهوديّته ، فعرض على إبراهيم أن يتبنّاه ، فتحقّق مضمون الارتحال بالمعنى الرمزيّ ؛ إذ أصبح إبراهيم أباً له ، واحتفى موسى بالأبوة الجديدة ، «عندما كنت أقول «بابا» لإبراهيم كان قلبي يضحك فرحاً ، كنت أمتلئ ثقة ، كان المستقبل يتلأأ أمام عيني»<sup>(١)</sup> . وإثر نجاح فكرة التبنيّ اصطحب إبراهيم موسى برحلة إلى «الهلال الذهبيّ» ، ليتعرّف موطنه ، فأطلعه على مباهج التصوّف وطقوسه ، وهناك مات إبراهيم ، ومضى موسى وقد تعلّم معنى الحياة دونما فرضيّات مسبّقة . وحينما عاد إلى باريس أصبح وارثاً لإبراهيم في «كلّ أمواله وبقائته وقرّانه»<sup>(٢)</sup> . ورث موسى كلّ ماله صلة بإبراهيم : الأموال والمكان والكتاب المقدّس . مكّنه إبراهيم من وراثته الدنيويّ والدينيّ معاً .

ينبغي التفكير في مرحلة ما بعد انتهاء الكتاب ، أي في كيفيّة تلقّي معنى هذه الفكرة بعد أن ارتحل موسى من عقيدة إلى أخرى ، واكتشف كنه الإسلام . فهل استحوذ موسى اليهوديّ على كلّ شيء له صلة بإبراهيم المسلم ، أم إنّ هجر عقيدته وانتّمى إلى الإسلام ، أم إنّ طوّر عقيدة الثالثة تجمع مباهج العقيدتين ، أم إنّ تعرّف نفسه عبر تجارب الارتحال والبحث والاكتشاف؟ لو أخذنا بالاحتمال الأوّل نكون جانبنا الصواب ، فلا يمكن لعقيدة أن تطمس أخرى ، أو تستحوذ عليها ، ولم يقع ذلك في أيّ وقت من التاريخ ، ولكن موسى ، بحسب الاحتمال الثاني ، ليس مسلماً متزمتاً ؛ فقد عرف الحياة الدينيّة السميحة على يد إبراهيم ، كما لم يكن يهوديّاً محضاً ، ولكنّه في الوقت نفسه ليس ذلك المسلم الذي انبثق من فراغ عقائديّ . إنّ شخص ثالث مرّ بالتجربة اليهوديّة ، وانتهى بالإسلاميّة ، أي إنّ مرّ بطقس تحوّل دينيّ ، فارتحل من عقيدة إلى عقيدة أخرى ، واكتشف ما في تلك وما في هذه . وهو

(١) م . ن . ص ٥٥

(٢) م . ن . ص ٦٩

رمز تواصل تاريخي للحقيقة التي تتلّون بالأديان المتعاقبة ، لكنّها ترمز لأطراد الحياة اللانهائية القائمة على الاكتشاف الدائم .

لقد فاض الإسلام على موسى عبر شيخ مجرّب اعتنق إسلاماً سمحاً يتفاعل مع الحياة ، وينمو بنموّها ، ويواكب تطوّراتها . وممارسة الإسلام في أفق منفتح هي التي تغري الآخرين به ، وليس فرض تفسير ضيق له بالقوّة ؛ ففي عالم لم تزل للعقائد الدينيّة سطوة فيه لا خيار بين الإغراء والإكراه . لقد تخلّى موسى عن عقيدته مكرهاً ، وانخرط في العقيدة الجديدة راغباً ، وانتهى إلى دمج الاثنين ، بعد أن أعاد تعريف نفسه بوساطة إبراهيم ، وهذا هو رهان العقائد الكبرى عبر التاريخ قبل أن تتلاشى . قام موسى بارتحال ، ثمّ بحث أفضى إلى الاكتشاف ، فقد اختلّ توازنه في ظلّ أبوة يهوديّة متشدّدة ، وأعيد توازنه في ظلّ أبوة إسلاميّة سمحة .

### ٣. البحث في انحراف المعتقد الدينيّ:

وتندرج رواية «شيفرة دافنتشي» لـ«دان براون»<sup>(١)</sup> في صلب القضية الدينيّة وتأويلاتها الدينيّة ، لكنّها تنطلق من فرضيّة بحث مغايرة لا صلة لها بالعبور من عقيدة إلى أخرى ، إنّما بالارتحال داخل عقيدة واحدة ، ومحاولة اكتشافها بهدف تفكيك المسلّمات المطمورة في ثناياها ، فهي بحث سرديّ في أصل المسيحيّة وفي تاريخها ، وتقترن عمليّة الاكتشاف بالارتحال إلى الماضي لوصف تحولات الرموز الدينيّة عبر سياقات ثقافيّة متعدّدة ، فتعرض جملة من التصورات الشائعة عن المسيحيّة ، والتأويلات المتّصلة بها ، وتبحث في كينيّة كتابة الأناجيل ، وما له علاقة بشخصيّة المسيح «الكرستولوجيا» وصلته بمرم المجدليّة ، والبعد الإنسانيّ لشخصيّته ، وتقترح في الوقت نفسه تاريخاً مغايراً للمسيحيّة . وقد أفصح المؤلّف في مقدمة الكتاب عن معاونة جماعة من الباحثين المتخصّصين في شؤون الدين والفنّ له ، وشكرهم على جهودهم في توفير المعلومات الدقيقة التي أدرجها في الرواية ، وأكّد «أنّ وصف كافّة الأعمال الفنيّة والمعماريّة والوثائق والطقوس السريّة في هذه الرواية هو وصف دقيق وحقيقيّ»<sup>(٢)</sup> .

(١) دان براون ، شيفرة دافنتشي ، ترجمة سمة محمّد عبد ربه ، بيروت ، الدار العربيّة للعلوم ، ٢٠٠٤

(٢) م . ن . ص ١١

تركّب النصّ من مادّة تاريخيّة - دينيّة - أسطوريّة ، في إطار سرديّ اعتمد تقنيّة التناوب السريع ، فشغلت الرواية بفكرة الاكتشاف ، ونهلت مادّتها السردية من المدوّنّة المسيحيّة وحواشيها ، وتطلّعت إلى إزالة الشوائب الزائفة التي علقت بها - كما يرى المؤلّف - ثمّ تخريب المسلّمات التي ترسّخت في وعي المؤمنين عن شخصيّة المسيح وأسرته وعلاقته بالمرأة ، وفضحت الإستراتيجيّة التي اتبعتها الكنيسة في إعادة إنتاج المسيحيّة بما يوافق مصالح البابوات وكبار رجال الدين منذ القرن الميلاديّ الثالث ، وأرادت بذلك هدم التصورات الشائعة في أذهان المؤمنين بالعقيدة المسيحيّة التي رسّخها التفسير الكنسيّ الضيقّ للمسيحيّة ، وقدمت وجهة نظر مغايرة لوجهة نظر الكنيسة عن كلّ الظروف التي رافقت نشأة المسيحيّة الحقيقيّة .

أثارت رواية «شيفرة دافنتشي» السؤال الذي لا يخصّ المسيحيّة وحدها ، إنّما الديانات كافّة : ما الحقيقيّ ، وما الزائف ، في المعلومات المتداولة بين المؤمنين في سائر الديانات عن أنبيائهم ورسلمهم وظروف نشأتهم وكتبهم وتكوين عقائدهم؟ فاقترحت مسألة التحقق من تلك المعلومات ، التي جعلها التعليم المدرسيّ المغلق ومصالح رجال الدين والسلطات السياسيّة جزءاً لا يتجزأ من الدين . فهل ما تتداوله الكنائس هو حقائق موثقة أم جملة افتراءات روجّ لها لقطع المسيحيّة عن أصلها البشريّ- التاريخيّ ، وبخاصّة الأثويّ ، وربطها بأصل أبويّ زائف؟ ثمّ ما الأصل الذي مثله المسيح بوصفه إنساناً ارتبط بعلاقة جسديّة مع المرأة ، ثمّ تقصّدت الكنيسة بترصّله بكلّ ذلك لتوقف نسله البشريّ ، فيصبح أباً رمزياً لجميع المؤمنين به بدون أبوة حقيقيّة؟

ذهبت الرواية ، بواسطة البحث ، إلى التأكيد على أنّ الديانات رموز وصور ومجازات ، وينتصر تأويل ما للدين في عصر ما تبعاً لقوّة المؤلّكين وسيطرتهم على المجتمع ، وبالنظر إلى أنّ الكنيسة هي الوجه الدينيّ لمؤسّسة الدولة الرومانيّة القائمة على مبدأ السلطة الهرميّة الأبويّة ، فإنّ تفسيرها المعبر عن مصالحها هو الذي ساد بين المسيحيّين ، ولكي يرسّخ هذا التفسير بين عموم المؤمنين ، فلا بدّ من ممارسة قوّة تطمس أيّ رمز يمكن أن ينبثق للتذكير بالأصل الحقيقيّ للمسيحيّة ، ثمّ تصفية كلّ من يتبنّى تفسيراً مغايراً للتفسير الكنسيّ الشائع ، ووصمه بالهرطقة والمروق عن الطريق الصحيح . جعلت الرواية من هذه الأمر قضية بحث في الرموز المطمورة في مكان سرّيّ ، ثمّ النزاع بين جماعة تريد إعلان السرّ للعالم أجمع ، وأخرى تريد

طمسه إلى الأبد لقطع دابر الحقيقة المتوارية في مكان مجهول .  
على أن المؤلف استثمر قضية شهيرة في تاريخ المسيحية ، فجعل منها موضوعاً للبحث ، وهي «الكأس المقدسة» ، التي يُعتقد أن السيد المسيح شرب منها في العشاء الأخير قبل صلبه ، ثم اختفت منذ ذلك الوقت ، والبحث جارٍ من أجل العثور عليها ، وهي كأس تجسد رمزياً الأصل الأنثوي للمسيحية ، وبالنظر إلى هيمنة التفسير الأبوي ، فلا بدّ من تدمير الكأس ، وعلى هذا نشأت جماعة تحتفظ بالكأس عبر القرون ، وتنتظر الوقت المناسب لإظهارها ، فيما تريد الكنيسة العثور على الكأس من أجل تدميرها ؛ لإخفاء الدليل الذي يقود إلى الحقائق المنسية التي توارت خلف أحداث التاريخ .

تجسّد أمر البحث عن «الكأس المقدسة» بالصراع بين جماعتين . مثل «جاك سونير» القيم على متحف اللوفر في باريس الجماعة الأولى ، وهي «أخوية سيون» التي تأسست في عام ١٠٩٩م ، ومن أعضائها المفترضين : نيوتن ودافنتشي وبوتشلي وهينغوجان كوكتو ، وقد حافظوا جميعاً على سرّ الكأس المقدسة منذ نحو ألف سنة ، أمّا الجماعة الثانية فمثّلها الاتجاه الكنسيّ المتشدّد الذي تقوده جمعية «أبوس داي» في نيويورك بزعمه القسّ «أرينغاروزا» ، وهي جمعية أصولية متزمتة ، تعتمد على فكرة الإيمان القائم على تعذيب الجسد ، ووخزه بالمسامير للتذكير الدائم بعذاب المسيح .

حرصت الجماعة الأولى على الاحتفاظ بالكأس التي ترمز إلى طقوس خاصة بالدم الملكي للمسيح ، فيما أصرت الجماعة الثانية على طمس هذا الأثر المقلق الذي سيؤدّي الإعلان عنه إلى فضح أكاذيب الكنيسة . وعزز الصراع بين هاتين الجماعتين كلٌّ من المؤرّخ الأميركيّ «لانغدون» والفرنسيّة «صوفي» بالنسبة للجماعة الأولى ، والبوليس الفرنسيّ ممثلاً بالنقيب «فاش» المتواطئ مع الكنيسة ، بالنسبة للثانية .

وقعت معظم أحداث الرواية بين فرنسا وإنجلترا في نحو أربع وعشرين ساعة ، وبخاصّة في متحف اللوفر وكنيسة سان سوليس والريف الفرنسيّ في النورماندي ، ثمّ بعض الكنائس العريقة في لندن . واستأثرت عملية فكّ الرموز السريّة للعثور على مكان الكأس باهتمام بالغ ، وتخلّل ذلك تقطيع سريع للأحداث ، ثمّ الدفع بمعلومات تاريخية في تضاعيفها ، فالمتلقّي موزّع بين الحركة السردية البارعة للشخصيات ليلاً ، والبحث في معلومات تُكتشف شيئاً فشيئاً من خلال الحوارات ، وفكّ الشيفرات

المستغلقة . وفي النهاية وجد المتلقي نفسه أمام كشف كبير لقضية دينية - أسطورية ، استأثرت باهتمام جدّي إلى درجة اعتقد كثيرون أنّها حقيقية ، واندلع حولها نزاع بين أنصار الكنيسة وأنصار السرد .

ويستدعي سياق الحديث عن «شيفرة دافنتشي» فيما يخص اقتراح تاريخ مغاير للمسيحية ، الوقوف على رواية «اسم الورد» لـ«أمبرتو إيكو» ، التي أثارت الموضوع الديني على خلفية الصراع بين البابا والإمبراطور ، أي بين الكنيسة والدولة في القرن الرابع عشر الميلادي ، وقد رهن إيكو في هذه الرواية وفي رواياته الأخرى - بندوق فوكو وجزيرة اليوم السابق وبودولينو - خبراته باحثاً ، وناقداً ، فليجأ إلى أسلوب الإيهام السردّي الذي خدع القارئ بصدق الوقائع ، ووظف فكرة المخطوط - وهي فكرة شائعة في الآداب السردية - الذي عُثر عليه في «براغ» بعد أيام من اجتياح القوات السوفيتية لها في عام ١٩٦٨ ، وهو مخطوط فريد كتبه باللاتينية راهب ألماني في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي يدعى «أدسو دا مالك» ، عن أحداث وقعت في أحد الأديرة الإيطالية أواخر عام ١٣٢٧م ، وكان المدون شاهداً على تلك الأحداث ، حينما كان صبياً . ومرّ المخطوط بتقلبات كثيرة بين اللغات والأديرة ، وجرى عليه ما جرى من تغيير ، قبل أن يصل إلى الراوي الذي سرعان ما غاب بعد أن أنجز هذه المهمة السردية الإيهامية .

واستعانت الرواية بأسلوب البحث التاريخي الذي يهدف إلى تخليص المسيحية من البدع التي لحقت بها في ذروة التناحر المذهبي في نهاية العصر الوسيط ومطلع عصر النهضة ، ولكن على خلفية قوامها تحقيق جنائي يستفيد من تقنيات البحث السردّي ، ويجري فيها توظيف فكرة التابع - ويمثله أدسو دا مالك - وهو الفتى الذي رافق الراهب ، والمحقق «غوليامو دا بارسكافيل» من أجل خدمته ، وتقديم العون إليه عند الحاجة ، فأصبح شاهداً على الجرائم التي اجتاحت الدير ، فدوّن مذكراته عنها في مقتبل عمره .

ولم ينته الأمر عند هذا الحد ؛ إذ عنيت الرواية بالحقبة الفاصلة بين عصرين هما الوسيط والحديث ، وعرضت لأسلوبين من التفكير الديني الشائع فيهما ، إلى ذلك فضحت الصراعات المذهبية التي عرفتتها المسيحية ، وأثارها المدمرة التي أدت إلى تخريب كل شيء : حرق الدير وقتل الرهبان وتدمير المكتبة التي رمزت إلى العالم . عاش «غوليامو» في اللحظة الفاصلة بين ثقافتين : تنتمي الأولى إلى عصر قديم

في طريقه للأفول ، وتدشّن الثانية لعصر جديد لم تتبيّن بعدُ معالمه الواضحة ، وبالنظر إلى إنّه ورث الثقافة القديمة ، فأصبح لا تسعفه في العصر الذي يعيش فيه كما يتصوّر ، فقيم الثقافة القديمة تتدخل في توجيه أفعاله ، لكنّ ذلك يتعارض بدرجة أو بأخرى ، مع القيم الثقافيّة الجديدة . فانعكس ذلك في سلوكه وأفعاله وعلاقاته بالآخرين .

ظهر «غوليامو» منقسمًا على ذاته ، فهو يمثّل رمزيًا رجل القرن الرابع عشر الذي تزوج فيه الرؤى العقليّة - المنطقيّة المغلّفة بمنظور دينيٍّ من جهة ، ومظاهر الإيمان العلميّ - التجريبيّ الناشئة لتوّها من جهة ثانية . ففي الوقت الذي مارس فيه عمله محقّقًا في الخصومات الدينيّة والدينيّة ، لم ينس أنّه أحد تلامذة «روجر بيكون» . والحال هذه فـ«غوليامو» محقّق بارع ، وباحث متمكّن ، وراهب ثاقب الرأي ، يستعين بالفرضيّات العقلية في البحث ، لكنّ مقدماته المنطقيّة لا تفلح في مطابقة الواقع ، ولهذا راح يتشكّك بوجود نظام يحكم الكون ، فهو جزوع من التفسير الدينيّ القائل بوجود نظام شامل في العالم ، لكنّه لم يتمكّن بعدُ من هضم إمكانيّة الإقرار الكامل بوجود تفسير علميٍّ لذلك النظام ، ولهذا تضاربت تصوّراته وتأمّلاته ، وتداخلت وتنازعت فيما بينها ؛ لأنّه كان عالقًا بين نسقين ثقافيّين متناقضين : الدينيّ والعلميّ . وكما يقول تلميذه وتابعه «أدسو» ، فهو «يرتكب كثيرًا من أفعال الغرور ، نظرًا «لكبرياء فكره» ، فما يدفعه للعمل هو «الرغبة في معرفة الحقيقة ، والشك بأنّ الحقيقة ليست تلك التي تظهر له في الآونة الحاضرة» .

قامت تحقيقات «غوليامو» على قاعدة جمع الأدلة وتحليل المعطيات ، ولم يأخذ في الحسبان لا فكرة الفرح وصلتها بالضحك ، ولا فكرة الحزن وعلاقتها بالبكاء فيما كان يقع من جرائم قتل في الدير ؛ إذ لم يكن منتبهًا إلى أنّ الفرح هو المحفّز الغامض وراء القتل المريع في أنحاء الدير . وانبثقت أمامه المفارقة الكبيرة ، حينما قادته تحقيقاته إلى اكتشاف تلك الفكرة المبهمة المتّصلة بالتخيّلات الدينيّة المقدّسة ، وهي أنّ سلسلة الجرائم وضحاياها من الرهبان ، إنّما هي بسبب كتاب مسموم مداره الضحك ، وهو القسم المفقود من «فنّ الشعر» لـ«أرسطو» المخصّص لـ«الكوميديا» . فقد سُمّم المخطوط للحيلولة دون الاطلاع عليه ؛ لأنّ الضحك يفسد المسيحيّة الجديّة ، والمؤمن المسيحيّ ينبغي أن يكون وقورًا ، وبالفرح الذي يسبّب الضحك تتحلّل المسيحيّة ويغزوها الفساد والخراب ، فالكنيسة تعدّ الضحك من إغراءات الشيطان ،



وهو يحرّر الإنسان من الخوف ، ومتى قيّض للإنسان أن يتحرّر من الخوف ، فهو في غنى عن الله ولا حاجة له بالدين .

تلك ثمرة اكتشاف «غوليالمو» بعد رحلته الطويلة ، وهو يستجوب الأب «يورج» المسوّغ للجرائم بقوله : «إنّ أرسطو بكتابه عن «الكوميديا» حطّم ركنًا من المعرفة التي جمعتها المسيحية طيلة قرون . لقد قال الآباء كلّ ما يجب معرفته عن قوّة الكلمة الإلهيّة ، وما إن شرح بويتسو مؤلّفات الفيلسوف (أرسطو) حتى تحوّل سرّ الكلمة الإلهيّي إلى محاكاة بشرية للمقولات والقياسات . إنّ سفر التكوين أورد ما يجب معرفته عن تركيب الكون ، وما إن اكتُشفت كتب الفيلسوف الفيزيائية حتى أعيد التفكير في الكون بمعنى المادّة الصمّاء اللزجة ، حتى كاد العربيّ ابن رشد أن يقنع الجميع بسرمدية العالم» .

شغل الأب «يورج» بموضوع الضحك في كتاب الفيلسوف ، ونذر نفسه لاجتثاث خطره الماحق على المسيحيين ، «من هذا الكتاب يمكن أن يتولّد التوق الجديد والهدّام لتحطيم الموت عن طريق التحرّر من الخوف ، وماذا سيكون مصيرنا نحن الكائنات المذنبة من غير الخوف ، الذي هو ربّما أحكم وألطف الهبات الإلهيّة؟ لقد جاد فكر الآباء والعلماء طيلة قرون بخلاصات عطرة من العلم المقدّس ضدّ التكفير ، من خلال التأمل فيما هو سام عن حقارة وإغراء ما هو دنيء ، وهذا الكتاب بتبريره للملهاة ، وكذلك الأهجوة والمحاكاة ، على أنّها دواء معجز ، يطهر من الأهواء من خلال تصوير العيب والنقص والضعف ، سيحمل العلماء الزائفين على محاولة التكفير عمّا هو سام من خلال قبول الدنيء . من هذا الكتاب يمكن أن تنشأ فكرة إنّ بإمكان الإنسان أن يريّد على الأرض نفس الرخاء المزعوم في أرض النعيم . ولكنّ هذا ما يجب ألاّ نمتلكه ، ولا نقدر أن نمتلكه»<sup>(١)</sup> .

#### ٤. الرؤية المأساوية والكشف العميق:

رأينا كيف أنّ البحث في الموضوع الدينيّ بوجوهه المختلفة كان المادّة السردية ثلاث من الروايات ، وفيها جرى التوغّل في عمق المنطقة الشائكة لتاريخ الدين وعرض مقترحات جديدة . لم يقع تشكيك في الأديان ولا ارتياب في العقائد ، إنّما

(١) أمبرتو إيكو ، اسم الوردية ، ترجمة أحمد الصمعي ، تونس ، دار التركي ، ١٩٩١ ، ص ٤٩٨-٤٩٩

جرى البحث في التفسيرات المصاحبة لها والتأويلات المحايثة ، والتحيزات الدنيوية الخاصة بها ، وكيفية استئثار فئة بها دون أخرى ، وهذا موضوع دنيوي له أهمية بالغة في حياة الناس ، لكن الارتحال في رواية «أمريكانلي» لـ«صنع الله إبراهيم» ، ورواية «شيكاجو» لـ«علاء الأسواني» سوف يتجه بنا إلى منطقة أخرى لا صلة لها بالدين ، إنما بالهوية : هوية مصر ، وهوية أميركا ، وهوية الشخصيات الفاعلة في السرد ، ثم نقد البنية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فيهما .

فضحت الروايتان أميركا الاستعمارية التي لجأت إلى بسط سيطرتها على العالم ، بمزيج من أساليب الاستعمار القديم القائم على الاحتلال العسكري - كما هو الأمر في فيتنام والعراق - ومدّ نفوذها السياسيّ بوساطة الشركات المتعددة الجنسية ، والقواعد العسكرية المنتشرة في شتى بقاع العالم لحفظ مصالحها ، أو ممارسة الضغوط السياسية والعسكرية ضدّ الدول الأخرى ، أو إخضاع المنظّمات الدولية لما تريد ، أو فرض سياسات العولمة على الآخرين ، وكلّ ذلك لإعادة صوغ العالم وفق الرؤية الأميركية . أصبح المبدأ الاستعماريّ القديم غير متفرد وحده ، إنما ترافقت معه وجوه أخرى قدّمتها أميركا بأفضل ما يمكن تقديمه .

وقع تمثيل فكرة «الكولونيالية الأميركية الجديدة» في الروايتين بطريقة مركّبة لا تقتصر على وصف الهيمنة الخارجية فحسب ، إنّما كشف السياسات القائمة على التحيزات الثقافية والعرقية داخل أميركا ، بما في ذلك السياسات العنصرية البيضاء التي دفعت إلى الهامش بكثير من مكونات المجتمع الأمريكيّ . وجعلت الروايتان من هذه القضية موضوعاً للبحث التاريخيّ أو شبه التاريخيّ ، وقد وقع تجسيدها عبر التمثيل السرديّ من خلال العلاقات الاجتماعية المتوتّرة بين الملّونين والبيض ، ناهيك عن الوافدين إلى الأرض الأميركية .

أول ما يلفت الانتباه في «أمريكانلي» أنّ «صنع الله إبراهيم» توسّع في وظيفة السرد التقريريّ الذي كان بدؤه في أول رواية له ، وهي «تلك الرائحة» التي صدرت في عام ١٩٦٦ ، فهذه الرواية لا تنقطع عن سابقتها لا في تقنيّتها ولا في لغتها ، ولا في العالم الافتراضيّ الذي تتماثل عناصره ، وإن اختلفت الأزمنة والأمكنة والموضوعات والأحداث والشخصيات ، فقد تمسّك بذلك في كامل تجربته الروائية التي أقامها على ركيزتين ، أولاهما : التنقل بين خيط سرديّ ينظم الأحداث من جهة ، وبين مادة اجتماعية أو تاريخية من جهة أخرى ، وشكّل هذا التوازي أحد

الثوابت السردية لديه . وثانيتهما : تعميق الوظيفة التقريرية للسرد المباشر الذي يكاد يتنكر للموروث اللغوي الذي عرفته الرواية العربية ؛ فلغة السرد وسيلة تحليل واكتشاف ؛ لأنها تنخرط في مناقشة التاريخ والواقع ، وتقدم وجهات نظر حول مشكلات العالم المعاصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وتشتبك بالمصادر والمراجع والشخصيات التاريخية ، ولا تعنى بالبعد التخيلي للمادة السردية المعروضة . انتظمت أحداث رواية «أمريكانلي» حول تفاصيل الحياة اليومية للبروفسور المصري «رشدي» ، الذي وصل أميركا مدعواً من معهد «التاريخ المقارن» بمدينة «سان فرانسيسكو» خلال النصف الثاني من عام ١٩٩٨ ، لتدريس مادة تاريخية مقترحة ، هي مزيج من منهج الأستاذ والتاريخ الشخصي له ، «دراسة نشاط مؤرخ عربي معاصر قضى أكثر من ثلاثين سنة في المهنة ، وتتبع العوامل التي ساهمت في توجيهه إلى دراسة التاريخ ، واعتماده منهجاً معيناً في أبحاثه ، ثم محاولة تقويم هذا المنهج وتقدير نصيبه من النجاح والفشل»<sup>(١)</sup> .

وقد أجمال «رشدي» طبيعة المادة التي أعدها لتكون موضوعاً للعرض والنقاش ، كانت تحدوني الرغبة في تأمل تجربتي العامة في الحياة بجانبها العلمي والشخصي . تصوّرت أنّ محاولة صياغتها في كلمات ، ثم مشاهدة انعكاسها على عقول أخرى ، قد تضيء بعض جوانبها ، وخاصة فيما يتعلق بحياتي الداخلية . فلم يحدث أن عكفتُ على دراسة بعض حلقاتها واستخلاص مدلولاتها البعيدة ، شأني في ذلك شأن أغلب الناس الذين ينشغلون بالحياة نفسها عن تأملها»<sup>(٢)</sup> .

وصل رشدي إلى المعهد الأميركي بدعوة من طرف أحد طلابه السابقين ، وهو «ماهر لبيب» مدير المعهد ، الذي كان «رشدي» قد درّسه في جامعة القاهرة ، ثم نال منحة من جامعة كولومبيا لمواصلة دراسته العليا ، ولما انتهى منها رفض العودة إلى مصر وحصل على الجنسية الأميركية ، وأصبح مديراً للمعهد . وقد امتلأ الإطار السردى للرواية منذ اللحظة الأولى ، بحركة «رشدي» في المدينة والمعهد والبيت ، وتحواله في أحياء المهمشين والمهاجرين ، فبدا وكأنّه باحث جاء يكتب عن أحياء سان فرانسيسكو . وتخلّل ذلك فيض من النقاشات الصفية المتشعبة عن

(١) صنع الله إبراهيم ، أمريكانلي ، القاهرة ، دار المستقبل العربية ، ٢٠٠٤ ط ٢ ، ص ٣٣-٣٤

(٢) م . ن . ص ٢٧٧

التاريخ والسياسة والمجتمع ، إلى ذلك ارتسمت ملامح حبكة سردية موازية ، مثلتها الرسائل الإغوائية التي كان يتلقاها «رشدي» من طرف امرأة مجهولة ، فراح يستجيب لها ، وشغل في البحث عن مصدرها .

لكن أبرز ما رسمه السرد ، هو التركيب المغلق للمجتمع الأميري المسكون بهاجس الحذر والتوجس والخوف والذعر ؛ فالأبواب المغلقة والأقفال الكبيرة والمفاتيح الكثيرة والعزلة وغياب التواصل والعزوف عن المشاركة والبرود في العلاقات الاجتماعية ، كل ذلك تردّد في تضاعيف الرواية من أولها إلى نهايتها ، وكأنّ العالم يتربّع حدثاً جليلاً يهدّد الأفراد في صميم حياتهم اليومية . فظهرت حركة الأفراد وكأنّها تقع في متاهة مغلقة ولا هدف لها .

تميّزت رؤية «رشدي» بالشبكية ، فعيناه تمرّان بسرعة على الأشياء ، لكنهما تتريّثان بشبق على مظاهر الأنوثة ، وتصفان بدقّة أجساد النساء ، على الرغم من كونه كهلاً ستنياً يعاني ضغط الدم وانسداداً في الأذنين وحساسية في الأنف ، وأوجاعاً في العنق والظهر وفطريات بين أصابع القدمين وخيانة في الذاكرة ، وضعفاً في البصر<sup>(١)</sup> ، فإنّ ذلك لم يثنه عن تصابي المرتحل ورغبة المكتشف ، فأمعن في مغامرات غالباً ما كانت تنتهي به إلى الفشل ، وهو رجل معطوب الأعماق ، وفيه درجة واضحة من النفور والسداوة .

وتوازت هذه الوقائع مع مسار ثانٍ للأحداث ، هي تجربته الذاتية والعلمية في مصر منذ أربعينيات القرن العشرين . وهي سيرة تتضمّن تاريخ مصر المعاصرة ، لكنّها في الوقت نفسه سيرة مؤرّخ غير امتثاليّ ، ذي رؤية ماركسية في تحليلاته للظواهر الاجتماعية ، وصاحبها انزلق إلى التاريخ بقراءة روايات «ساباتيني» و«ألكسندر دوماس الأب» و«جورجي زيدان» وهم أعلام الرواية التاريخية ، وكأنّ «المؤلّف الضمني» في النصّ يسوّغ معالجة المشكلات الاجتماعية بأسلوب روائي .

تشبّع «رشدي» بالتاريخ المصري وعرفه جيّداً ، وسعى طوال حياته الأكاديمية إلى استبطان خفاياه وكشفها بمنهجية ثقافية ، تبتعد عن البحث المدرسي التقليدي ، وهو يرغب في عرض كيفية تشكيل هذه التجربة أمام طلابه الأميركيين المنحدرين من خلفيات دينية وثقافية وعرقية متعدّدة ، فتطلّع إلى تقديم تجربته ورؤيته معاً ، على

خلفية شاملة من عرض لأفكار بروديل وهوبزباوم وجمال حمدان وطه حسين وسواهم ، وحرص على كشف الصلات المتشابكة بين وقائع التاريخ وحواضنه الاجتماعية ، والبحث في المؤثرات المحاذية لها ، وهذا دفع به إلى عرض وجهة نظره الشخصية مرفقة بأحداث التاريخ .

وفي غالب الأحوال وقع رفض لوجهة النظر هذه ، أو أنها كانت تستدعي مزيداً من الحوار والنقد وربما الاختلاف أو عدم القبول ، ومن ذلك ، فما إن يثار أمر المذابح الصهيونية في فلسطين ، ومنها «مذبحة دير ياسين» التي جرت وقائعها في ربيع عام ١٩٤٨ ضد فلسطينيين عُزل ، حتى تسربت إشاعات في الوسط الجامعي بأن حلقة الدراسة يسودها جو من معاداة السامية ، فخيّم قلق ثم خوف ؛ ذلك أن أعضاء الهيئة التدريسية في المعهد - وكذلك الطلبة- ما زالوا ينتمون إلى هوياتهم الأصلية التي تحدّروا منها ، ولم ينصهروا بعد في بوتقة هوية جامعة ، فكل فكرة تكون مثار استياء وسخط إذا ما جرى تحريف مقاصدها ، بحيث يفهم منها أنها تنتقد هذا الدين أو ذاك ، أو هذا العرق أو ذاك ، أو أنها تعيد تقليب صفحات التاريخ على غير ما هو مرغوب فيه .

سعى «شكري» المؤرخ والباحث ، إلى توجيه طلابه نحو معالجة الظواهر التاريخية معالجة كئيبة توافق منظوره المنهجي ، وذلك بإحالتهم إلى مصادر الفكر التاريخي الكبرى ، وإتاحة الفرصة أمامهم لتبادل وجهات النظر ، وإبداء الرأي بحرية كاملة ، وكاد يفلح فيما انتواه داخل قاعة الدرس ، ولكنه أصيب بخيبة أمل حينما دعي ضيف شرف إلى الاجتماع الشهري لـ «جمعية المصريين الأميركيين» ، ليلقي محاضرة عن واقع حال المجتمع المصري ، فلم يجد حينما انتهى من حديثه أحداً في القاعة سوى رجل لا يفهم العربية ، فالحضور كان يتلاشى مذعوراً بالتدرّج من القاعة ، كلما اشتدت نزعة المحاضر النقدية للسياسات الحالية في مصر ، وكأنّ الجمهور لا يريد أن يتحمّل وزر المسؤولية بالإصغاء إلى تشريح نقدي للحالة الاجتماعية الفاسدة التي ينتمي إليها ، فعدوى الخوف لم تبق محصورة في مصر نفسها ، إنّما لاحقت المصريين في المنافي كلجنة الفراغة ، وصاروا كمن يتجنّب رؤية نفسه في المرأة ، خائفين أن يضبطوا في حالة إصغاء لفكرة لا تريدها مؤسسة السلطة .

وقد استأثر تاريخ مدينتي القاهرة وسان فرانسيسكو ، بحيز مهم من بحث

«رشدي» وطلابه ، فعبر المقارنة التاريخية بين المدينتين لم يكتشف تاريخهما فحسب ، إنّما التركيب الاجتماعي العميق الذي يحيل على تكوين الشعبين المصريّ والأميركيّ ، وهو ما قاد إلى معرفة هُويّة أمتين من خلال التاريخ الاجتماعيّ للمدينتين ، وإذ يترافق وصفهما ، يتّضح طمس الأصول المجتمعيّة للسكان الأصليين للمدينة الأميركيّة ، وضروب الإبادة التي تعرّض لها الهنود الحمر ، ووصول حملات المستوطنين البيض إليهم ، ودفعهم من شرق أميركا إلى غربها بتطهير عرقيّ تؤجّجه أطماع المال والاستيطان إلى أن ينتهي الأمر بفناء الجماعات الأصليّة ، وإعادة صوغ ذاكرة ما تبقى منها باعتبارهم غرباء ، وذلك بخطة مُحكمة «وضعت للتذويب الثقافيّ بإعادة صياغة ذاكرة الهنود ووعيهم»<sup>(١)</sup> .

(١) م. ن. ص ٢٦٢ . ومن أجل كشف الخلفيّة التاريخيّة لعملية تخريب هُويّة الهنود الحمر ، ومحو وجودهم الثقافيّ والبشريّ ، نلحق خطبتين لزعيم الهنود الحمر «سياتل» ، الأولى موجّهة إلى حاكم واشنطن حينما جرى الاتفاق على تسليم الأراضي الهنديّة للمستوطنين البيض بعد الهزيمة العسكريّة التي لحقت بالقبائل الهنديّة ، والثانية موجّهة إلى القبائل الهنديّة نفسها حينما عرض الرئيس الأميركيّ على الزعيم شراء أراضيها :

خطبة منسوبة إلى الزعيم الهنديّ الأحمر «سياتل» أمام الرجال البيض :

ألقي الزعيم الهنديّ «سياتل» المتوفى في عام ١٨٦٦ خطبة أمام «إسحق ستيفنس» حاكم مقاطعة واشنطن عام ١٨٤٥ قبل التوقيع على معاهدة سلّم بموجبها أراضي قبائل «دواميش» و«إسكواميش» إلى المستوطنين البيض ، بعد أن خسرت الحرب أمام جيوش المستوطنين البيض ، ووقع الاعتراف بالهزيمة - وقد جرى لاحقاً إعادة تحرير الخطبة بإضافات اقتضتها السياقات الأدبيّة من طرف الكاتب المسرحيّ «تيد بيري» ونسبت لـ«سياتل» ، اعتماداً على ما كتبه «هنري سميث» في عام ١٨٥٣ ، في سياق استعادة حال الهنود الحمر في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر- حيث نهض الزعيم الهنديّ ، ووضع إحدى يديه على رأس الحاكم ، ثم أشار بسبابته إلى السماء وشرع بإلقاء خطابه : هذا التراب المقدّس!! تلك السماء هناك . ذاتُ السماء التي طالما ذرفت دموع الرحمة على أبناء شعبي لقرون لا تحدّ ، والتي كانت تبدو لنا أزليّة وعصيّة على التغيّر ، ربّما تتغيّر هي اليوم صافية ، لكنّها ربّما تحتشد غداً بالغيوم ، لكنّ كلماتي كالنجوم لا تتغيّر أبداً . وللزعيم الأبيض أن يثق بأيّ شيء يقوله سياتل كما يثق بعودة الشمس أو عودة الفصول ، يقول السيّد الأبيض إنّ الزعيم الكبير في واشنطن يهدي إلينا تحيات الصداقة والنوايا الطيّبة ، ذلك لطف منه كبير ؛ لأننا نعلم إنّّه ==

وسنكتفي بمثال واحد من أمثلة التنكيل التي قدّمتها الرواية عن طقس «سلخ فروة الرأس» الذي مارسه المستعمرون الأوائل ، واستقرّ في وعي المستوطنين البيض

== ليست به ثمّة حاجة إلى صداقتنا ، في المقابل فأبناء شعبه كثيرون ، وهم مثل العشب الذي يكتف البراري الفسيحة . أمّا أبناء شعبي فقليلون مثل شجرات متناثرة في سهل كنسته العاصفة ، وقد بعث الزعيم الأبيض العظيم ، والذي أخاله طيباً أيضاً ، إلى شعبي رغبته في شراء أرضنا مقابل أن يوفّر لنا عيشاً مريحاً . وهذا يبدو عادلاً في الحقيقة ، لأنّ الرجل الأحمر لم يبق له حقّ يستحقّ الصون . وربما يكون العرض حكيماً أيضاً ، لأنّنا أصبحنا في غير حاجة إلى أراض فسيحة .

مرّ زمن كان فيه أبناء شعبي يغطّون الأرض مثلما يغطي البحر الذي نفشته الريح قاع البحر المعبّد بالحار . لكنّ ذلك الزمن مضى وانقضى مثل عظمة تلك القبائل التي لم تبق الآن سوى ذكرى مخنوقة بالنسيج ، إنني لن أطيل الوقوف ولا النحيب على أفولنا الأخير في نهاية المطاف ، ولن ألوم إخوتنا ذوي الوجوه الشاحبة على التسريع في ذلك الأفول ، لأنّنا نحن أيضاً قمينون باللوم . إنّ الشباب غرّار ، وعندما كان يعتري شبابنا الغضب جرّاء خطب حقيقي أو متخيّل ، ويشوهون وجوههم بالأصباغ السود ، فإن ذلك ربّما يشي بأنّ قلوبهم سوداء ، وبأنّهم قساة دائماً وغلاظ القلوب ، وبأنّ شيوخنا والمسّنات من نساتنا غير قادرين على كبح جماحهم . لكنّ الأمر لم يكن أبداً كذلك . هكذا كان الحال عندما شرع الرجل الأبيض في الدفع بأجدادنا إلى غرب بلا نهاية . لكن ، دعونا نأمل أنّ العداوات بيننا لن يقيّض لها العود ، لأنّنا عندئذ سنخسر كلّ شيء ولن نكسب شيئاً . إنّ الشبان يعتقدون بأنّ الانتقام كسب ، حتى لو كلّفهم الحياة . لكنّ الشيوخ الذين يقيمون في البيوت في زمن الحرب ، والأمّهات اللواتي ربّما يخسرن أبناءهنّ ، يعرفون أكثر من ذلك .

والدنا الطيّب في واشنطن ، الذي افترض أنّه قد أصبح لنا أباً الآن كما هو لكم ، منذ نقل الملك جورج حدوده أبعد باتجاه الشمال . أقول : والدنا الطيّب والعظيم ، يرسل إلينا وعداً بأنّنا إن فعلنا ما يريد ، فإنّه سيحمينا ، وبأنّ محاربيه الشجعان سيكونون لنا مثل الجدار المنيع ، وبأنّ سفن حربه الرائعات سيزحمن شواطئنا بحيث يكفّ أعداؤنا القدماء البعيدون في الشمال (الهيذا والتيسمشين) عن ترويع نساتنا وأطفالنا وشيوخنا . عندئذ ، سيكون أبانا حقاً ، ونحن سنكون أبناءه . ولكن ، أيّمكن لمثل ذلك أن يحدث أبداً؟! إنّ ربكم ليس ربّنا . إنّ ربكم يحبّ شعبكم ويكره شعبي . وهو يلفّ بذراعيه الحاميتين ذا الوجه الشاحب ويقوده من يده كما يقود الأب طفله الصغير . لكنّه تخلّى عن أبنائه الأحمر إن كانوا حقاً بنيه ، بل إنّ الروح العظيم إلها قد خذلنا أيضاً . إنّ ربكم يجعل من شعبكم أقوى يوماً في إثر يوم ، وقريباً ستملأون المدى . أمّا أبناء شعبي فيضمحلّون مثل مدّ معن ==

فيما بعد ، « كانت السلطات الاستعمارية ترصد مكافأة لمن يقتل هندياً ويأتي برأسه ، ثم اكتفت بفروة الرأس . وتصاعدت هذه المكافأة حتى بلغت مئة جنيه في عام

== في الانحسار ، لن يتسنى له أبداً أن يعود . لو كان إله الرجل الأبيض يحب أبناء شعبي إذن لكأهم بحمايته . لكنهم أشبه بأيام بلا ملجأ يفزعون إليه في طلب العون ، فكيف لنا أن نكون أخوة إذن؟ كيف يمكن لربكم أن يصبح إلهاً وأن يعيد لنا الألق ويوقظ فينا الحلم في عودة المجد الغابر؟ إذا ما كان لنا إله سماوي واحد ، فإنه لا بدّ إله منحاز ، لأنّه جاء لنجدة أبنائه البيض . إنّنا أبداً لم نره . وهو قد أنفذ قوانينه دون أن يرسل ولو كلمة لأبنائه الأحمر الذين ملأت أحلاطهم يوماً هذه السهول الفسيحة ، مثلما تملأ النجوم قبة السماء . . . كلاً . . . إنّنا جنسان متمايزان ، أصولنا مختلفة وأقدارنا متفارقة ، وثمة القليل ممّا نشترك فيه . . . لنا رفاتُ أسلافنا مقدّسات ، والثرى الذي يضمّمهم جليل ، أمّا أنتم فتجولون بعيداً عن قبور أسلافكم ، وكأنّما دون أن يعرفكم ندم . ودينكم كتبته أصابع ربكم الحديدية على ألواح حجرية ، بحيث لا تملكون له نسياناً ، بينما لا يملك الرجل الأحمر له فهمًا ولا حفظاً . أمّا ديننا فهو إرث أسلافنا . إنّهُ أحلام الرجال التي أوحى بها إليهم الروح العظيم في ساعات الليل البهيم . . . وهو رؤى شيوخنا المنقوشة في قلوب شعبنا . وأمواتكم يعزفون عن حبكم وعن حبّ الأرض التي كانت لهم مهاداً حالماً يعبرون بوابات قبورهم ويذهبون فيما وراء النجوم . إنّهم سرعان ما يصبحون عرضة للنسيان ولا يعودون . أمّا أمواتنا فلا ينسون أبداً الدهر العالمَ الحلو الذي وهبهم الحياة .

الليل والنهار ثمة لا يتساكنان . والرجل الأحمر يهرب من وجه الأبيض كما يفرّ سديم الصباح المتقلّب على السفوح من أمام شمس الصباح . . . لكنّ ما تعرضونه يبدو عادلاً في آخر المطاف ، وأظنّ أبناء شعبي سيقبلونه وسينسحبون إلى الحميات التي قدمتموها لهم . وإذن ، فسنسكن بسلام كلاً على حدة ، لأنّ كلمات الزعيم الأبيض العظيم تبدو وكأنّها صوت الطبيعة تكلم شعبي من جوف العتمة الكثيفة التي تتجمّع سراعاً حولهم ، تماماً مثل الضباب السميكة الذي يهوّم خارجاً من حلقة البحر . أصبح غير مهمّ لنا أين نصرّف أياّمانا الباقيات ، فهي لن تكون كثيرة . والليل الهندي يعد بأن يكون شديد السواد بلا نجمة أمل تطوف له على أفق ، ثمة ريح حزينة الصوت تعول في المدى . وثمة قدر متجهّم يضرب وراء الرجل الأحمر على الأعقاب . وأينما حلّ الرجل الأحمر ، فإنه سيسمع صوت الخطوات الواثقة المقتربة ، وسيتأهّب للقاء قدره المحتوم ، مثلما تفعل الطيبة الجريحة وهي تصغي إلى خطو الصياد المقترّب . هي بضعة أقمار أخرى ، بضع شتاءات أخرى وحسب ، ولن يتبقّى من نسل أصحاب الدار العظام الذين كان يحميهم الروح العظيم ، والذين كانوا يطوفون يوماً على ==



١٧٠٤ ، وهو مبلغ كان يعادل أربعة أضعاف متوسط الدخل السنوي للمزارع في مستعمرات «نيو إنجلند» ، فكان بإمكان أيّ مستوطن عجز أن يصطاد طفلين وثلاث نساء من الهنود فيصبح ثرياً .

== هذه الأرض الفسيحة أو يقيمون في البيوتات السعيدة . لن يتبقى منهم من باكٍ على قبور شعب كان ذات يوم أشدّ منكم بأساً وأكبر أملاً .

لكن ، لماذا أندب قدر شعبي في آخر المطاف؟ ثمة قبيلة تتبع قبيلة ، وأمة تتلو أمة . والقبائل جمع أفراد وليست بأفضل حالاً منهم . والأفراد يأتون ويمضون ، تماماً مثل أمواج البحر . ثمة دمة أخيرة ، وترنمة موت ، ثمّ يختفون من أمام أعيننا التواقة إلى الأبد . ذلكم هو ترتيب الطبيعة حيث لا ينفع أسي ، ربّما يكون زمان أفولكم لما يزل بعيداً ، لكنّه قادم دون ريب ، ذلك أنّه حتى الرجل الأبيض الذي يسير ربّه معه ، ويتحدّث إليه كما صديق لصديق ، لن يقوى على الهروب من القدر المشترك ، ربّما نكون أخوة بعد كلّ شيء ، وسنرى . إنّنا سنتفكّر في عرضكم ملياً ، ثمّ ننبئكم بما نقرّر . لكنّنا إذا كنّا نقبله ، فإنّني أضع شرطي الأوّل هنا والآن : ألاّ تنكروا علينا حقّ القدم ، دون إزعاج وعن طيب خاطر منكم ، لنلّم بقبور أسلافنا وأصدقائنا وأبنائنا . إنّ كلّ جزء من هذا الشرى مقدّس في عين شعبي . كلّ سفح تلة . كلّ وادٍ وكلّ غيضة . كلّ مكان هنا قدّسته حادثة سعيدة أو حزينة في الأيام الخوالي التي طواها الزمان . وحتى الصخور التي تبدو وكأنّها تتمدّد بكماء مهيبة وهي تسحّ العرق تحت الشمس على شاطئ البحر ، كلّها تمرّ بذكريات الأحداث التي تتصلّ بأقدار شعبي . والتراب ، هذا الذي تقفون الآن عليه ، يستجيب بحبّ أكبر لدوس أقدام أبناء شعبي أكثر ممّا لأقدامكم ، لأنّ مزاجه دم أسلافنا ، ولأنّ أقدامنا العاريات تفهم لمسته الحانية . والرجال الجسورون ، والأمّهات المحبّات ، والعداري ذوات القلوب السعيدة ، والأطفال الصغار الذين عاشوا هنا ومرحوا لفصل قصير . كلّ هؤلاء الذين طوى النسيان أسماءهم ، لن يكفّوا عن عشق هذه القفار الكثيبة ، وسوف يلقون التحيّة على الأرواح الغامضة التي تعود في المساءات مثل الظلال .

وعندما يطوي العدم الرجل الأحمر الأخير ، وتصبح ذاكرة قبيلتي محض أسطورة تدور بين الرجال البيض ، فإنّ هذه السواحل سوف تغصّ بالموتى من أبناء عشيرتي الذين لا يحيط بهم بصر ، وعندما يظنّ أبناء أبنائكم بأنّهم وحدهم في الحقول ، في المخازن والدكاكين ، على الطرقات العريضة ، أو حين يلقّهم سكون الغابات التي بلا دروب ، فإنّهم لن يكونوا أبداً وحدهم ، ولن يجدوا في الأرض الفسيحة كلّها معتزلاً . وفي الليل ، حينما يلفّ الصمت مدنكم وقراكم حتى تخالونها خلواً من الحياة ، فإنّها ستكون محتشدة بأصحاب الدار العائدين الذين ملؤوا هذه الأرض الجميلة ذات ==

وسرعان ما تأسست شركات - إنجليزية وفرنسية - تستأجر فرقاً من المغامرين لقتل الهنود والعودة بفرواوت رؤوسهم . وصار المستوطنون يتباهون بعدد ضحاياهم ، وتباهى

== مرة ، والتي لا يكفون عن حبها . الرجل الأبيض لن يكون أبداً وحده . فليكن الرجل الأبيض عادلاً إذن وليأف بشعبي ؛ لأن الموتى ليسوا أبداً بلا حول . هل قلت موتى ؟ . ليس ثمة موت . ثمة فقط تبديل عوالم!

رسالة الزعيم الهندي الأحمر «سياتل» إلى شعبه حول قرار الرئيس الأميركي بشراء الأراضي الهندية :

بعث الرئيس من واشنطن رسالة يعلمنا فيها عن رغبته في شراء أرضنا . ولكن كيف يمكنك شراء أو بيع السماء؟ أو الأرض؟ هذه الفكرة غريبة علينا . كل جزء من هذه الأرض هو مقدس عند شعبي . كل إبرة صنوبر وكل شاطئ وكل نقطة ندى في الغابات المظلمة وكل ينبوع ماء . كلها مقدسة في ذاكرة وخبرة شعبي . نحن جزء من هذه الأرض وهي جزء منا . الأزهار العطرة هي إخواننا . الدببة والغزلان والنسور هم إخواننا . كل خيال في مياه البحيرات الصافية يخبر ذكريات في تاريخ شعبي . رقرقة المياه هي صوت أجدادي . الأنهار هي إخواننا يحملون زوارقنا ويطعمون أولادنا . إذا بعناكم أرضنا تذكروا أن الهواء غال علينا . إن الهواء يبعث روحه في كل حي يتنفس . الريح التي أعطت أجدادنا أنفسهم الأول في الحياة أيضاً تتسلم تنهدهم الأخير . نعرف التالي : ليس مرجع الأرض الإنسان ، وإنما الإنسان مرجعه الأرض . كل شيء في الدنيا مترابط ترابط الدم الذي يوحدنا . لم يصنع الإنسان الحياة ولكن هو فقط خيط في نسيجها . كل ما يفعله لهذا العش من نفع أو ضرر سيعود عليه . مستقبلكم غامض بالنسبة لنا . ماذا سيحصل عندما تبيدون كل أبقار البفالو؟ ماذا سيحصل عندما تغطي رائحة الإنسان على زوايا الغابات النائية ، أو عندما تشوه الأسلاك الكهربائية مناظر الجبال؟ هذه هي نهاية العيش وبدء صراع البقاء . عندما يختفي آخر هندي أحمر مع غاباته ولا يبقى من ذكرياته إلا خيال سحابة عابرة فوق البراري ، هل ستبقى هذه الشواطئ والغابات؟ هل سيبقى أي أثر لروح شعبي؟ نحب هذه الأرض كما يحب المولود الجديد دقات قلب أمه . فإذا بعناكم أرضنا أحببوا كما أحببناها . اعتنوا بها كما اعتنينا بها . حافظوا في أذهانكم على ذاكرة الأرض كما كانت عندما تسلمتموها . حافظوا على الأرض لجميع الأطفال وأحببوا كما يحببنا الله جميعاً . نحن واثقون من شيء واحد ألا وهو أن الله واحد . لا يمكن أن يفصل عنه أي رجل ، سواء كان هندياً أحمر أم أبيض . لذلك ، نحن جميعاً إخوة في نهاية المطاف .

أحدهم بأنّ العدد كان ٤٠ في الطلعة الواحدة . وتباهى آخرون - قبل زمن هتلر- بأنّ ملابس صيدهم وأحذيتهم مصنوعة من جلد الهنود . وكان الرئيس «أندرو جاكسون» الذي تزَيّن صورته ورقة العشرين دولاراً من عشاق التمثيل بالجلث ، وكان يأمر بحساب عدد قتلاه ، وإحصاء أنوفهم المجمدوعة وأذانهم المقطوعة ، ورعى بنفسه في ٢٧ مارس ١٨١٤ حفلة تمثيل بجثث ٨٠٠ هنديّ يتقدّمهم زعيمهم . ووصف الرئيس «تيودور روزفلت» المذبحة بأنّها كانت «عملاً أخلاقياً مفيداً ؛ لأنّ إبادة الأعراق المنحطة حتمية ضرورية لا مفرّ منها»<sup>(١)</sup> .

وبالمقارنة مع ذلك ، فقد تعرّض المصريّون لفتوح وغزوات من طرف سائر الحملات التي اكتسحت بلادهم ، لكنّ التاريخ أثبت أنّهم لم ينقرضوا مقارنة بالهنود ، وتفسير ذلك أنّهم تميّزوا بخاصيّة «الاستقرار التي تسمح باستيعاب الغزاة ، وخاصيّة التجانس . كان المصريّون أمّة واحدة بينما توزّع الهنود الأحمر على مئة شعب وأمة»<sup>(٢)</sup> . لم يكشف البحث التاريخيّ المقارن تماثلاً فحسب ، إنّما رسم تبايناً للتاريخ الاجتماعيّ للمدينتين ، فقد تفتّت الوجود الاجتماعيّ للهنود أمام زحف البيض ، فيما ذاب الغزاة والفاثون في بوتقة المجتمع المصريّ العريق .

وبالنظر إلى أنّ السيرة الذاتية لـ«رشدي» قد احتلت مكاناً بارزاً في متن الرواية ، فينبغي التريث أمام صعاب التجارب العاطفيّة والبحثيّة التي تعثر بها ، ليتّضح مسار علاقته بالمرأة ، ورؤيته التاريخيّة بوصفه باحثاً عرض تجربته أمام متلقين يكادون يجهلون حاضنتها التاريخيّة ، فمنذ بداية حياته ارتسم إخفاق واضح في المسارين الذاتيّ والأكاديميّ له ، وسيكون لذلك أهميّة بالغة في صوغ رؤيته التاريخيّة وعلاقته بالمرأة ، فقد أخفق جسدياً مع الأميريّة «بربارة» لما قرّر اختبار رجولته والتعبير عنها بعلاقة جسديّة مع امرأة ، فإذا بالفتاة تعزف عنه في اللحظة الحرجة ، لأنّها مثليّة «لا تحبّ الرجال وتعيش مع صديقة لها»<sup>(٣)</sup> ، فأغلق أمامه أفق طبيعيّ حلم بارتباده ، وهو في مقتبل العمر .

وكان «رشدي» في شبابه ذا ميل مثليّة ، ولم تستقم علاقته بالمرأة على

(١) م . ن . ص ٣٣٧-٣٣٨

(٢) م . ن . ص ٢٦٢

(٣) م . ن . ص ١٨٥

الإطلاق ، على الرغم كل المحاولات التي قام بها ، فبقي عازباً ، على أن تعثراته العاطفية والدراسية كشفت شخصاً يتحرك ببطء ولكنه لا يتراجع . في عام ١٩٦٠ أنهى دراسته الجامعية ، وسجل لنيل الماجستير في موضوع له صلة بـ«التاريخ المقارن» ، وذلك في أوج حملة تأمين الملكيات الخاصة التي قادها جمال عبد الناصر ، واختار أن يكتب بحثاً تاريخياً مقارناً عن «الملكية الفردية للأرض في مصر» ، فبعض المصريين يرون أن التأمين اعتداء على حق الملكية باعتباره حقاً تاريخياً ومقدساً .

حكم «شكري» على أن هذا التصور خاطئ لكل من يتمعن في التاريخ المصري ؛ لأنه «لم تُعرف الملكية الفردية للأرض طوال خمسة آلاف سنة ، ففي العصر الفرعوني كانت الأرض كلها للفرعون ، وصارت بعدها للملوك والسلطين ، واقتصر اقتطاع بعضها على حق الانتفاع . وفي العصر الحديث أعلن «محمد علي» نفسه المالك الوحيد لها تاركاً للفلاح حق الانتفاع وحسب . ثم بدأ اقتطاع أجزاء منها لأفراد أسرته الألبانية ، ولمن رضي عنهم من المصريين ، ولم تتحول إلى ملكيات فردية حقيقية إلا في عهد حفيده «سعيد» .

وكانت هذه الملكيات غير الشرعية هي الأساس الذي قامت عليه بعد ذلك بقية أشكال الملكية من تجارية وصناعية . وظلت الأخيرة حكرًا لدائرة ضيقة من المتمصرين وأعوان الإنجليز ، الذين غدروا بـ«عرايي» وساعدوا على احتلال البلاد في ١٨٨٢ ، ووصل الأمر قبل ثورة ١٩٥٢ إلى أن كان نصف في المئة من مجموع السكان يملكون نصف الدخل القومي . التأمين لم يكن تصحيحاً لظلم تاريخي بقدر ما كان حلاً لمشكلة اقتصادية ، فالرأسمالية المصرية كانت ضعيفة ، وجردتها هذا الضعف من الجرأة والخيال . فبدلاً من الإقدام على مشروعات ضخمة تؤتي أكلها بعد عقود ، اقتصرت أحلامها على الربح السريع الذي يتحقق من المشروعات الخدمية والاستيراد ، ولهذا لم يكن أمام الدولة المقبلة على خطة تصنيع وتحديث طويلة الأمد ، إلا أن تضع يدها على الأصول الضرورية لذلك»<sup>(١)</sup> .

رفض المشرف فكرة الكتابة عن الملكية الخاصة للأرض ؛ لأنها لا توافق المواد الجامعية المقررة التي تعنى بوصف الظواهر الاجتماعية وليس بتفسيرها ، فلجأ «رشدي» إلى البحث في الحضارة الفرعونية ، لكن اختيار هذا الموضوع مشوب

---

(١) م . ن . ص ١٨٧-١٨٨

بالحذر؛ لأنه غير مرغوب فيه مع هيمنة الأيدلوجيا القومية في تلك الحقبة التي لا ترى للأشياء قيمة إن لم تقترن بالعروبة، ولهذا رفض الموضوع لكونه خارج سياق اهتمام الدراسة الجامعية. وفي وقت متأخر عرف «رشدي» أن موضوعاته لاقت عنتاً من طرف المشرف الذي دفع به للبحث في «تاريخ الشعوبيين في اليمن»، ليستفيد من نتائج البحث في إعداد دراسة موسّعة عن «الحركات الشعبوية في الوطن العربي»، كان قد وزّع أجزاءها على طلاب الدراسات العليا، ليجني ثمارها هو؛ إذ راج آنذاك أن كل من يعارض السياسات الناصرية على المستوى العربي يوصم بالشعوبية.

وجد «رشدي» هذا الموضوع غريباً عليه، لكنه أدرك أن معاداة أستاذه سوف تجلب له الضرر، فاختار ما يمكن الاتفاق عليه بينهما، وهو «الفتح العربي» لـ«مصر»، من أجل تفسير الظروف التي جعلت المصريين يغيرون ديارتهم مرتين خلال خمسة قرون، مع ما رافق ذلك من تعاقب الهيمنة الأجنبية على البلاد خلال الحقبة التي سبقت ورافقت الفتوحات العربية. لكن المشرف الذي تبوأ مكانة وظيفية مهمة في الكلية، كان متخوفاً من أن «يحقّق أحد من زملائه أو طلبته اختراقاً في البحث»، فوقف دون ذلك، وتراجع «رشدي» ولم يجسر على المضي بمطالبه، الأمر الذي جعله ينتهي باختيار مخطوط «المردفات من قریش» لـأبي الحسن علي بن محمد المدائني، ويقوم بتحقيقه على الرغم من وجود تحقيق سابق له. وبصعوبة بالغة انتهى من دراسته حالماً بالتوظيف في الجامعة، فإذا بنكسة عام ١٩٦٧ تبدّد كل أحلامه؛ إذ جنّد طوال حرب الاستنزاف حتى حرب أكتوبر في عام ١٩٧٣.

حينما عصفت بمصر سياسات الانفتاح الاقتصادي، وبرزت الأصولية الدينية، وانهارت المقومات الاجتماعية التي أرسّتها الحقبة الناصرية، حاول «رشدي» استئناف دراسته للدكتوراه، وتأثير من منهجية «طه حسين» أراد تخصيص بحثه لحركة القرامطة، وهي حركة محلّ اختلاف بين المؤرخين، وتمكّن بصعوبة من تمرير بحثه، فانتهى منه في أواخر عهد السادات عام ١٩٨١ بعد أن تعثر طويلاً. وأفلح في الالتحاق أستاذاً في الجامعة، لكنه قوبل بصعاب التآلف مع المدّ الديني الذي اكتسح الجامعة المصرية في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، فاعتكف معتزلاً يحاول تفسير حال مجتمع انزلق إلى هاوية مجهولة، وشرع في تأليف كتاب بعنوان «نظرية في الاكتئاب الجمعي»، يريد به تشريح حسّ الانهزامية، والامتثال للشعب المصري.

ثمّ تعرّثت حياته العاطفيّة طوال تلك المدّة ، فأل به الأمر إلى العزلة ، وأصبح وحيداً تلفّه نظرة سوداويّة للحياة ولنفسه ومجتمعه ، فهو كائن مفارق مشغول بتحليل الظواهر الاجتماعيّة والتاريخيّة التي تدفع به إلى الهامش ؛ إذ كان شاهداً على صعود سائر مظاهر الرياء والولاء الأعمى والنفاق وتراجع حرّيّة التفكير والتعبير ، وغياب العقلانيّة وسيادة التفكير السلفيّ وسقوط المجتمع بأكمله في منطقة الحيرة الكاملة . وقد مثّل كلّ ذلك رحلة اكتشاف لمجتمعه تمّت على أرض غريبة ، فقد مكّنته ظروف إعارته القصيرة إلى أميركا ليس فقط من البوح بسيرته الذاتيّة الملتبسة ، إنّما حرّرتّه من الخوف ، فأتاحت له عبر المقارنة والحوار عرض رؤيته للتاريخين المصريّ والأميركيّ .

إنّ التعرّث العاطفيّ والبحثيّ دفعا به إلى منطقة التردّد والشكّ ، فهو محكوم بقوى أكبر ورغبات أوسع وأيدلوجيا شموليّة ، تريد صوغ اختياراته ، فخالجه قلق داخليّ ، وعاش حالة متواصلة من الإحساس بالإخفاق والقهر والظلم ، وبما أنّه عاجز عن تصحيح الخطأ الخاصّ برغبات الأفراد على المستوى العاطفيّ أو الفكريّ ، فقد نشطت لديه رؤية نقدية لكلّ ما يحيط به .

عُرّضت سيرة «رشدي» الأكاديميّة على خلفيّة أرشيف متنوّع من الوقائع اليوميّة الكثيرة الخاصّة بالمجتمع الأمريكيّ ، خلال الأشهر الأخيرة من عام ١٩٩٨ ، ممّا كانت تنشره الصحف ووسائل الإعلام عن البطالة والاستهلاك والفضائح والجرائم والجنس ، ومنها علاقة الرئيس الأمريكيّ «كلنتون» بالمتدربة في البيت الأبيض «مونيكا لوينسكي» وتداعياتها ، بما في ذلك التحقيقات القضائيّة ، واعتراف الرئيس بتلك العلاقة ، وكلّ ذلك استأثّر باهتمام كبير من الراوي ، وهو الحامل لأيدولوجيا المؤلّف إلى درجة المطابقة الكاملة .

وتوزّعت المادّة الروائيّة على هذه المحاور المتداخلة فيما بينها على نحو شديد التلازم ، فلم ينفرط عقدها الناظم ؛ لأنّ الإطار السرديّ أدرجها بالتتابع ، بحيث كشفت بوضوح عن الرؤية السردية المهيمنة في النصّ ، وهي رؤية نقدية للمجتمع الأمريكيّ ، فضحت التمييز العنصريّ بلا مواربة بعيني رجل متحرّج وطارئ ، مولع بثقافة البورنو ، لكنّ طاقته الجنسيّة تبقى شبه مشلولة وحبيسة ، ولا تعبّر عن نفسها بالأسلوب الصحيح ، إلّا ما تستشير فيه الأفلام الإباحيّة ليلاً . على أنّ بحث «رشدي» في أعماق المجتمع الأمريكيّ ، أظهره مجتمعاً مأزوماً تتناهبه أزمت المال

والنفوذ السياسي والعنصرية والجنس والخوف .

ولا يمكن أن تُغفل دلالة العنوان ؛ إذ أفلح المؤلف في نحت كلمة جديدة من عبارة ، والكلمة هي «أمريكانلي» ، أما العبارة فهي «أمري كان لي» ، وهو العنوان الثانوي الشارح المثبت على غلاف الكتاب ، والصلة بين الكلمة المنحوتة والعبارة تبدو قويّة بدليل ترابطهما وظهورهما معاً كعنوان للرواية ، لكن ربّما يكون من الصعب إقامة صلة دلاليّة مباشرة بينهما ، بما يضيف معنى خاصاً على هذا الاقتران ، فالمؤلف قدّم تفسيراً في متن الرواية يختلف عن هذا الاقتران الظاهر ؛ إذ قال : «إنّني ألفتُ في طفولتي أن أسمع تعبير «أمريكانلي» يطلق على آية سلعة ذات مظهر براق وسريعة التلف . فقد خلقت الحرب العالميّة الثانية طلباً على سلع واحتياجات أصبحت الصناعات الإنجليزيّة أو الألمانيّة غير قادرة على تلبيةّها ، وغُمرت الأسواق بمنتجات سعى صنّاعها الأمريكيّون وراء ربح سريع ، فلم يعتنوا بجودتها ، ولم أتصوّر أنّ الأمر شمل البشر أنفسهم»<sup>(١)</sup> .

يضع هذا التناقض أمامنا الاحتمالات الدلاليّة الآتية : يحيل العنوان والعبارة الشارحة إلى تعارض لا يخفى ، فالعبارة تقرّر الاستقلاليّة ، فيما العنوان يوحي بالتبعيّة ، فإن تكون «أمريكانلياً» هو أن تكون تابعاً ، وهو معنى يتعارض مع الدلالة الظاهرة للعبارة ، ويدعم التفسير الذي يقدّمه النصّ هذا التناقض ، فاللفظة تطلق على السلع البراقّة سريعة التلف ، إلى ذلك تدلّ على الناس المنشغلين بالمظاهر الخادعة . باختصار إنّها تحيل على المزيّفين المتقلّبين والمسطّحين والطارئين . كيف إذاً يمكن التوفيق بين «أمريكانلي» و«أمري كان لي»؟

إنّ التنازع حول المعنى قائم في صلب العنوان وفي داخل النص . وليس من تخريج لهذا التنازع غير استعادة حياة «شكري» في أمريكا ، فلا يمكن التأكيد على أنّه أصبح مزيّفاً وسطحياً ، فرؤيته السردية لا تكشف سوى الأخطاء ، ولا يستأثر باهتمامه غير السلبيات التي تبدأ من الدائرة الضيقة التي تحكم حياته ، وصولاً إلى علاقته بطلبته ، وجولاته في أحياء الشاذّين والمهجّنين والمشرّدين ، وكشف الجانب الأسود من تاريخ المدينة ، وعنايته المفرطة بحكايات المثليين ، ومراقبتهم في الحانات والمقاهي والشوارع . فهو باختصار لم يمثّل لسطوة الدعاية الأمريكيّة ، ولم يصبح مزيّفاً

---

(١) م . ن . ص ١٨٠-١٨١

ولا مسطحاً ، وبذلك ظلّ أمره بيده ، ولكن هل من الصحيح أن تقود عدم الامتثالية إلى الاختزال ، والرؤية القائمة؟

من الواضح أنّ «رشدِي» انصرف إلى جانب واحد من الوقائع التي تطابق منظوره فلم يرَ سواها ، ولم يورد إلّا ما رغب فيه . فهل يكون قد امتلك أمره لأنّه عدّ نفسه مستقلاً ، ولم ينخرط في التزييف الأمريكيّ الذي رآه قد شمل العالم؟ من الصعب أيضاً الأخذ بهذا التخريج ، فالرؤية السردية كانت منحازة لا تتوقف إلّا على التناقضات . ومن المستحيل كذلك تفسير هذه الاستقلالية اعتماداً على رؤية تلتقط المفارقات . ولهذا يكاد العنوانان العامّ والشارح يقوّضان الدلالة المنتظرة من التسمية ، فقد ارتسم التناقض على الرغم ممّا يحتمله من تورية .

رحلة البحث التي قام بها «رشدِي» إلى أميركا وضعتنا أمام أكاديميّ مقتلَع من تاريخه الاجتماعيّ والوطنيّ ، وهو لا ينتمي إلّا إلى أفكاره ونفسه ، هو ملوّء بالفضول والشكوك والرغبة الجامحة بالتلصّص ، ويسكنه الفضول ، وذو تاريخ شخصيّ ملتبس ، ويكاد يمضي حياته اليومية بلا هدف واضح ، لكنّ رؤيته المادية للتاريخ شديدة الأهمية ، وتتميّز بسجل نقديّ لا يعرف الامتثال ، إلّا في حالات اضطرارية عابرة .

وكشفت رحلة البحث أمرين على غاية من الأهمية ، فمن جهة أولى سلّطت الضوء على البطانة الداخلية للمجتمع الأميركيّ ، حيث انهيار نظام القيم العامّ وهيمنة المصالح والولاءات ، وتسربّ البرود إلى العلاقات الإنسانية ، فكأنّا بإزاء عالم من الدمى وليس من بني البشر ، فالسرد لا يستبطن العمق الإنسانيّ للشخصيات فحسب ، إنّما يرصد علاقاتها الخارجية القائمة على المنافع . وقد خيمّ الجمود العامّ على المدينة ، فمنظور الراوي ركّز على الشوارع الفارغة ، وجسمّ الخوف في أحياء الشاذّين والمثليّين ومتعاطي المخدرات ، ومن جهة ثانية كشفت تلك الرؤية السيرة الاستعدادية للشخصية الرئيسة في الرواية على خلفية التاريخ المصريّ الحديث ، حيث لا أمل ؛ إذ ثمة فساد يتفاقم في مجالات الحياة كافّة ، وفي مقدمتها الوسط الجامعيّ ، فالدوائر السردية الثلاث المكوّنة للعالم التخيليّ للرواية : الدائرة الخاصة برشدِي ، ثمّ الدائرة الخاصة بمجتمعه المصريّ ، وأخيراً الدائرة الخاصة بالمجتمع الأميركيّ ، تداخلت فيما بينها فأظهرت عالماً يزحف إلى حتفه الأخير بمزيد من السرعة بعد أن تخلّى عن القيم الكبرى النازمة له . رحلة «رشدِي» البحثية إلى



خارج مصر كانت مناسبة للعودة إلى كشف تاريخها ، ومناسبة لاستعادة تاريخ مطموس لشخص ظلّ عائماً على هامش الحراك العامّ لمجتمعه .

#### ٥. بحث في مصائر المترحلين، وفي إخفاقات المتوطنين:

وغير بعيد عمّا أفضت إليه رحلة «رشدي» في رواية «أمريكانلي» ، القائمة على فكرة الارتحال والبحث والاكتشاف ، تنزّل رواية «شيكاجو» لـ«علاء الأسواني» في صلب الموضوع نفسه ، فقد تشكّل قوامها السرديّ من علاقات متشابكة لمجموعة من الشخصيّات المصريّة والأميريكيّة ، في مدينة شيكاغو . ومع أنّها ألقت الأضواء على ماضي تلك الشخصيّات ، لكنّها عرضت لحاضرها في ظلّ المتغيّرات الحاصلة في المجتمعين المصريّ والأميريكيّ ، ورسمت ملامحها وطبائعها بالتدرّج ، عبر بناء سرديّ متواز للأحداث ، لم يتح لمعظم الشخصيّات أن تلتقي فيما بينها وجهاً لوجه ، إنّما اقتصر معظم اللقاءات على شخصيّتين ، من بين عدد يزيد على عشر منها في الرواية .

وعلى الرغم من أنّ معظم الشخصيّات مصريّة أو أنّها تتحدّر من خلفيّات مصريّة ، فإنّ المادّة السردية الأساسيّة للرواية هي مزيج من وقائع أميركيّة ومصريّة ، كما رأينا في «أمريكانلي» . وقد حملت رواية «شيكاجو» الهموم المحليّة لشخصيّاتها ، وأدرجتها في سياق الحياة الأميركيّة ، فعجزت عن التفاعل مع العالم الجديد الذي وجدت نفسها فيه لأسباب خاصّة بمواصلة الدراسة أو الهجرة أو العمل ، وقد استأثّر الموضوع المصريّ باهتمام الجماعة المبتعثة للدراسة في أميركا ، أو تلك الشخصيّات التي دفعت إلى مغادرة مصر في وقت سابق لأسباب سياسيّة أو دينيّة . وقد مرّ بنا تصميم «رشدي» وطلابه على البحث في تاريخ «سان فرانسيسكو» ، وهو ما نجد نظيراً له في «شيكاجو» التي تبدأ بالفكرة نفسها ، وبالرؤية ذاتها تقريباً ، وبالتركيز نفسه ، فتاريخ المدن الأميركيّة يعوم على مذابح دميّة لاستئصال السكان الأصليين من الهنود الحمر ، والتنكيل بهم .

بدأت الرواية بالتوضيح الآتي : «قد لا يعرف الكثيرون أنّ «شيكاجو» ليست كلمة إنجليزيّة ، وإنّما تنتمي إلى لغة الأجنوكيّ ، وهي إحدى لغات عديدة كان الهنود الحمر يتحدثون بها . معنى شيكاغو في تلك اللغة «الرائحة القويّة» ، والسبب في هذه التسمية أنّ المكان الذي تشغله المدينة اليوم ، كان في الأصل حقولاً شاسعة

خصّصها الهنود الحمر لزراعة البصل ، الذي تسببت رائحته النفّاذة في هذا الاسم»<sup>(١)</sup> .

بعد هذه المقدّمة حول التسمية ، جاء الشرح «ظلّ الهنود الحمر لعشرات السنين يعيشون في شيكاجو ، على ضفاف بحيرة ميتشجن ، يزرعون البصل ويرعون الماشية ويمارسون حياتهم بسلام . حتى عام ١٦٧٣ عندما وصل إلى المنطقة رحّالة وصانع خرائط يدعى لويس جوليه ، يرافقه راهب فرنسيّ من طائفة الجزويت اسمه جاك ماركت . اكتشف الرجلان شيكاجو ، وسرعان ما توافد عليها آلاف المستعمرين كما يتدافع النمل على إناء من العسل . وخلال المئة عام التالية : شنّ المستعمرون البيض حروب إبادة مروّعة ، قتلوا خلالها ما بين ٥ ملايين و١٢ مليون نفس من الهنود الحمر في كلّ أنحاء أمريكا . وكلّ من يقرأ التاريخ الأمريكيّ لا بدّ أن يتوقّف أمام هذه المفارقة : فالمستعمرون البيض الذين قتلوا ملايين الهنود واستولوا على أراضيهم ونهبوا ثرواتهم من الذهب . كانوا - في الوقت نفسه - مسيحيّين متديّنين للغاية . على أنّ هذا التناقض سينجلي عندما نعرف الآراء الشائعة في تلك الفترة ؛ فقد ذهب كثير من المستعمرين البيض إلى أنّ «الهنود الحمر ، بالرغم من كونهم ضمن مخلوقات الله على نحو ما ، فإنّهم لم يخلقوا بروح المسيح ، وإنّما خلقوا بروح أخرى ناقصة وشريرة» . وأكّد آخرون بثقة «أنّ الهنود الحمر مثل الحيوانات ، مخلوقات بلا روح ولا ضمير ، وبالتالي فهم لا يحملون القيمة الإنسانيّة التي يحملها الرجل الأبيض» ، وبفعل هذه النظريّات الحكيمة ، أصبح بمقدور المستعمرين أن يقتلوا ما شاؤوا من الهنود بلا أدنى ظلّ من ندم أو شعور بالذنب ، ومهما بلغت بشاعة المذابح التي يرتكبونها طوال النهار ، لم يكن ذلك ليفسد نقاء القدّاس الذي يقيمونه كلّ ليلة قبل النوم!»<sup>(٢)</sup> .

هذا التماثل في الرؤيتين السرديتين بين «أمريكانلي» و«شيكاجو» مهمّ جدّاً ، فهو يكشف أنّ المدن الأميركيّة الكبرى إنّما هي مستوطنات بيضاء جرى التنكيل بساكنيها الأصليين ، أكثرّ ممّا هي مدن وطنيّة جامعة للأمريكيّين ، فالأهاليّون الأصليون إمّا أبيدوا على بكرة أبيهم جراء المذابح التي تعرّضوا لها ، أو استبعدوا إلى الهامش

(١) علاء الأسواني ، شيكاجو ، القاهرة ، دار الشروق ، ط٤ ، ٢٠٠٧ ، ص٧

(٢) م . ن . ص٧-٨

دون أي دور في عالم يتدافع فيه البيض حول الهيمنة على كل مفاصل الحياة الرئيسة في أمريكا ، وسواها من المستعمرات .

تنتمي هذه الرؤى الجديدة إلى حقبة ما بعد الاستعمار ، وهي تتطلع إلى زحزحة التصورات السائدة ونقضها ، واقتراح منظورات بديلة تقوم على كشوفات جديدة للتاريخ الأميركي ، والتاريخ العالمي برمته في العصر الحديث ، ولها أهمية بالغة في استئناف النظر مجدداً بالمسلمات الشائعة ، فبالسرد تعاد كتابة التاريخ الوطني والقومي والعالمي ، وتزاح إلى الخلف التواريخ الزائفة التي رسختها إما الثقافة الاستعمارية أو التفسيرات المحاكائية لها .

وإذا كنا لاحظنا توازياً بين المادة التخيلية والمادة الوثائقية في «أمريكانلي» ، فإننا نلمس توازياً مختلفاً لبنية الأحداث في «شيكاجو» . وتتيح هذه التقنية السردية للمتلقى متابعة الأحوال الفردية للشخصيات دون الاهتمام بالعلاقات التفصيلية التي تربط فيما بينها ، كما ويتيح هذا النوع من البناء إمكانية أن يملأ المتلقي الفراغات بين الأحداث على سبيل التوقع . ولهذا غالباً ما تنتهي الأحداث عند واقعة جديدة ، وتفتح أفق انتظار أمام الأحداث الآتية . وذلك يخلق تشويقاً سردياً بالغ الأهمية .

افتتحت الرواية بتقديم وصف لمدينة «شيكاجو» ، وانتقلت إلى التفصيل في قسم «الهستولوجي» ، وهو قسم علمي خاص بتحليل الأنسجة ، في كلية الطب في جامعة «إلينوي» . عدّ هذا المكان البؤرة الحاضنة لأحداث الرواية ، لكون الشخصيات الأساسية في الرواية لها صلة به ، أساتذة أو طلبة ، لكن كثيراً من الأحداث جرت بعيداً عنه . وأول ما فصله السرد هو الصراعات الثقافية والعلمية بين أساتذة القسم ، فهم من خلفيات أميركية أو مصرية ، ومنهم : بيل فريدمان ورأفت ثابت ومحمد صلاح وجون جراهام وجورج مايكل ودنيس بيكر ، ثم انتقل إلى الطلبة المبتعثين من مصر للدكتوراه : طارق حسيب ووشيماء محمدي وأحمد دنانة ، وأخيراً يلتحق الطالب «ناجي عبد الصمد» وهو شاعر ، وناشط في العمل السياسي ، ويريد الحصول على الماجستير لتدعيم موقفه في قضية رفعها على جامعة القاهرة ؛ لأنها رفضت تعيينه «لأسباب سياسية» .

وسوف يظل وعيه الناقد للأوضاع السياسية في مصر قائماً إلى نهاية الرواية ، كما ظهر عند نظيره «رشدي» في رواية «أمريكانلي» . وانتهى الأمر باعتقاله من طرف مكتب التحقيقات الفدرالي بتهمة الإرهاب ، ورؤية «ناجي» الكلية للتاريخ

والمجتمع تكاد تطابق رؤية «رشيدي»، فكلاهما مشتبك بالحالة السياسيّة لبلده، ولا يتردّد كلّ منهما في الإفصاح عن موقفه النقديّ الخاصّ لكلّ ضروب الفساد والاستبداد التي تعصف بمصر الحديثة.

لكي تتّضح وظيفة الارتحال، وتبيّن أهميّة الاكتشاف، ينبغي الوقوف على الشخصيات الأساسيّة في الرواية، ومعظمها يرتحل من مصر إلى أميركا، في محاولة للبحث عن أماكن بديلة أو لتحسين أوضاعها، وأوّل ما يلفت الانتباه هو أمر التناقضات فيما بينها، وهو تناقض ينتهي إلى تخريب مصائرنا الذاتيّة، فقد فرّ «رأفت ثابت» من مصر في أوّل الستينيّات إثر التأميمات الناصريّة لمصانع الزجاج التي كانت لأبيه، وهرب أموالاً، وتمكّن من إكمال دراسته، وتزوّج ممرّضة أميركيّة ليحصل على الجنسيّة، ودرّس في نيويورك وبوسطن، ثمّ استوطن شيكاغو منذ ثلاثين سنة، وجمع ثروة، ولا يشغله إلّا السعي الدائب لقطع الصلة بكلّ ما يذكره بمصر، فبعد صدمة الهروب، اكتنز كمّاً هائلاً من الكراهية لمصر والمصريّين، إلى درجة لا يدّخر فيها أيّة فرصة دون الإعلان عن تلك الكراهية، فقد لازمته نقمة عميقة ما انفكّ يعبرّ عنها باستمرار حتى في الاجتماعات الرسميّة، حيث ييدي رفضاً مبدئياً لقبول أيّ مصريّ في قسم «الهستولوجي»، اعتقاداً منه ألاّ فائدة من تعليم المصريّين ورعايتهم. وحجّته: «باعتباري كنت مصريّاً في يوم من الأيام، فأنا أعرف جيّداً كيف يفكر المصريّون. إنهم لا يتعلّمون من أجل العلم. وهم يحصلون على الماجستير والدكتوراه ليس من أجل البحث العلميّ، وإنّما من أجل الحصول على ترقية أو عقد مجز في بلاد الخليج»<sup>(١)</sup>.

وبعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ شرع رأفت «يجاهر بأراء ضدّ العرب والمسلمين، قد يتحرّج منها أكثر الأمريكيّين تعصّباً، كأن يقول مثلاً: من حقّ الولايات المتحدة أن تمنع أيّ شخص عربيّ من دخول أراضيها حتى تتأكّد من أنّه شخص متحضّر. لا يعتبر القتل فرضاً دينياً»<sup>(٢)</sup>. لكنّ كرهه الظاهر لخلقيّته الثقافيّة، والتنكّر لها، يستبطن أخلاقاً شرقيّة لم يتمكّن من التخلص منها، فالمبالغة في ادّعاء الاندماج تخفي إحساساً مرضياً بالإبعاد والنفي، ومع ثرائه وحبّه الاستعراضيّ للتمتّع بالحياة،

(١) م. ن. ص ٢٧

(٢) م. ن. ص ٤٥

وطمس ماضيه الذي يراه عاراً لاصقاً به ، فإنه يعيش حياة أسريّة متوتّرة مع زوجته الأميركية «ميتشل» وابنته «سارة» ، التي تتعلّق بفنّان مدمن على المخدرات ، فتصبح مدمنة ، وتهجر الأسرة ، وينتهي الأمر بوفاتها ، فترسم معالم انهيار في حياته .

أمّا محمّد صلاح - وشأنه شأن رافت أستاذ في قسم الهستولوجي - فعاجز جنسياً ، وقد انهارت حياته الخاصّة ، فلجأ إلى الخمر ، وهو ينطوي على ماضٍ يسبب له كثيراً من القلق ، والشعور بالإخفاق والعجز ، وتأنيب الضمير ، فقد ارتبط بـ«زينب رضوان» التي كانت إحدى الناشطات في الحركة الطلابيّة المصريّة أوّل سبعينيّات القرن العشرين ، ثمّ تخلّى عنها ، بعد أن اتهمته بالجنون لأنّه متخاذل في شعوره الوطنيّ ، فهرب إلى أميركا ، وخدع عاملة مطلّقة في حانة ، هي «كريس» وأخضعها لنزواته الجنسيّة ، ثمّ تزوّجها ليحصل على الوثائق الرسميّة ، وكان عقيماً ، وبعد ثلاثين عامّاً من الحياة المشتركة انتهت حياته بالفشل ، وقد شلّ الحياة الجنسيّة لزوجته فلاذت بالأدوات الخاصّة بالمتعة ، وانتهى منتحراً بمسدسه الذي كان يحمي به في «شيكاغو» .

ومن بين الشخصيّات المهمّة ظهر جراح القلب «كرم دوس» الذي اضطرّ مجبراً إلى الهجرة ؛ لأنّ رئيس قسم الجراحة في كليّة طبّ جامعة «عين شمس» كان «مسلماً متشدّداً ويجاهر بكراهيته للأقباط ، وكان يؤمن بأنّ تعليم الأقباط الجراحة لا يجوز في الإسلام ، لأنّه يمكن الكفّار من التحكّم في حياة المسلمين!»<sup>(١)</sup> فرفض كلّ محاولات كرم دوس للاستمرار في الجراحة التي يحلم في أن يتخصّص بها ، واضطرّ للتوجّه إلى أميركا .

ومن الطريف أن يصاب أستاذه الذي حال دون دراسته الجراحة بأزمة قلبيّة بعد ثلاثين سنة ، ولا يكون شفاؤه إلّا بيدي دوس نفسه . وكلّ ما يشغل هذا الجراح هو إسداء الخدمة إلى مصر ، ومحاولة تطوير جراحة القلب فيها ، لكنّ كلّ محاولاته تبوء بالفشل ؛ فالنظام التعليميّ الفاسد القائم على التمييز والتحيز والاستبعاد لا يتيح لأحد التقدّم بأيّة مبادرة مفيدة للمجتمع . ولا غرابة في أن يكون كرم دوس أحد الناشطين ضدّ سياسات النظام الحاكم ، اعتقاداً منه أنّ ذلك يسهم في تنظيف البلاد من الفساد .

---

(١) م . ن . ص ١٦٣

وبرز «أحمد دنانة» عميل المباحث المصرية في القاهرة وفي شيكاغو ، وهو مبتعث لدراسة الطب ، ورئيس «اتحاد الدارسين المصريين في أميركا» ، وشخصية مدهنة ومخادعة ، وقد واطب على كتابة تقارير أمنية عن زملائه ، ولم يتردد في التنكيل بهم إن لاحظ عليهم ما لا يرغب فيه . وهو بخيل يستغل زوجته الشابة «مروة نوفل» أبشع استغلال ، ويتطوع ليكون قوَّاداً عليها لضابط المباحث في السفارة «صفوت شاكر» . ولا ينفك يخادع الآخرين بتدينه بإبراز ندبة الصلاة في جبهته دلالة الإيمان ، لكنه منافق ووصولي ويرى في أميركا أرض حرب ، ويجوز له شرعاً ما يريد فعله في أرض الكفار بما في ذلك الخداع والسرقة . وسرعان ما يزور «دنانة» نتائج بحثه للدكتوراه ، فيحال على التحقيق ، ثم يطرد من الجامعة ، لكن ضابط المباحث المذكور يستتر عليه لخدماته في مراقبة أقرانه من المبتعثين ، ورغبته في النيل من زوجته .

ولعل «صفوت شاكر» هو أهم الشخصيات التي تثير الذعر في الرواية بين المصريين ، فقد تدرَّب على تطوير أساليب البطش بالمعارضين للنظام ، وأصبح ماهراً في إذلالهم ، وهو من ابتكر هتك أعراض النساء أمام ذويهن من السجناء ليدلوا باعترافاتهم ، أو اختلاق اعترافات كاذبة ، فرقي إلى أعلى المناصب في جهاز المباحث ، وكوفئ على نجاحه في الوصول السريع إلى النتائج المرجوة مع المناهضين للنظام ، وانتهى به الأمر ليكون المسؤول الأمني في السفارة المصرية في واشنطن ، والعين الرقيبة على تحركات كل المصريين في سائر أميركا ، ويتطلع لأن يكون وزيراً للداخلية .

وثمة شخصيات أخرى مثل «شيماء محمدي» القادمة لدراسة الطب من «طنطا» وهي امرأة تقليدية ، مشبعة بالثقافة الدينية ، و«طارق حسيب» المتحدث من أسرة ثرية ، الذي يمضي حياته اليومية في الدراسة نهاراً ، والاستمناء ليلاً . وبسبب العزلة والغربة تنشأ بينهما علاقة جسدية ، تنتهي بحمل شيماء ، وإجهاضها في أحد المراكز المتخصصة لذلك ، وطوال علاقتهما يشغلان بتخريج النصوص الدينية المحرمة للزنى بحيث لا تتعارض مع رغبتهما الجسدية .

ولكن الرواية لا تقتصر على ذكر الشخصيات المصرية المتناقضة ، إنما تقدّم مجموعة من الشخصيات الأميركية المتباينة في مواقفها ، فهناك من يؤيد السياسات العنصرية مثل «جورج مايكل» ، وهناك من يرفضها ويقاومها مثل «جون جراهام» ، الذي يمثل جانباً من الأيدلوجيا النقضية في المجتمع الأمريكي ، وهو معارض بصورة

كَلِيَّة لسياسات بلاده منذ حرب فيتنام ، وسوف يصبح مشرقاً على ناجي عبد الصمد ، فيتوافقا في الرؤية الأيدلوجية في كل شيء تقريباً .

منذ لحظة وصوله بدأ «ناجي عبد الصمد» بتسجيل وقائع رحلته بمذكرات صريحة ، كشفت رؤيته لنفسه وللعالم المحيط به ، وتلك الوقائع تتوازي مع المتن السردي الخاص بالشخصيات الأخرى ، وأول ما يفاجأ به هو التباين بين السياسات الأميركية السيئة الصيت في العالم ، وبخاصة في الشرق الأوسط ، وطيبة الشعب الأميركي ، «أنا الآن في أمريكا التي طالما هاجمتها وهتفت بسقوطها وأحرقت علمها في المظاهرات . أمريكا المسؤولة عن إفقار وشقاء ملايين البشر في العالم . أمريكا التي ساندت إسرائيل وسلّحتها ومكّنتها من قتل الفلسطينيين وانتزاع أرضهم . أمريكا التي دعمت كل الحكام الفاسدين والمستبدين في العالم العربي من أجل مصالحها . أمريكا الشريرة هذه أراها الآن من الداخل فتنتابني حيرة . ويلجّ عليّ سؤال : هؤلاء الأمريكيون الطيبون الذين يتعاملون مع الغرباء بلطف ، الذين يبتسمون في وجهك ويحيونك بمجرد أن تلقاهم ، الذين يساعدونك ويفسحون لك الطريق أمام الأبواب ، ويشكرونك بحرارة لأقلّ سبب ، هل يدركون مدى بشاعة الجرائم التي تقترفها حكوماتهم في حق الإنسانية؟» (١) .

هذا التقرير الشخصي المباشر القائم على مبدأ حكم القيمة ، هو ما بدأ به «ناجي عبد الصمد» مذكراته حالما وطئت قدماه الأرض الأميركية ، وهو يكشف عن موقفه الأول ، قبل الوصول إلى أميركا ، لكنّه سرعان ما حذف كل ذلك ، وكأنّه يشرع بتغيير وجهة نظره التي انشطرت إلى ثنائية حكومة شريرة وشعب طيب ، وبكل ذلك استبدل مذكرات شخصية عمّا كان يجري له ، وحول ما يخوض من تجارب ، «قرّرت أن أكتب ببساطة ما أشعر به . لن أنشر هذه الأوراق ولن يقرأها أحد سواي ، أنا أكتب لنفسي ، أكتب حتى أسجل نقطة التحوّل في حياتي ، أنتقل الآن من عالمي القديم الذي لم أعرف سواه ، إلى عالم جديد مثير مفعم بالإمكانات والاحتمالات» (٢) .

تضع هذه البداية المتلقّي أمام شخص تتشابك رؤاه ورغباته ، فهو يعي أهميّة البحث في نفسه أولاً ، ليكتشف العالم المحيط به ، فقد جاء بحمولة أيدلوجية تقول

---

(١) م . ن . ص ٥٤-٥٥

(٢) م . ن . ص ٥٥

بأن أميركا هي أرض الشر المطلق ، فإذا به يجد شعباً طيباً لا صلة له بالسياسات الخارجية لحكومته . ينبغي عليه إذا اختبار الصورة النمطية التي كونها عن الآخرين ، وذلك لا يتأتى إلا إذا قرّر إعادة اكتشاف نفسه بمنظور آخر للمكان الجديد الذي وصل إليه ، فلمعرفة أميركا ينبغي أولاً التخلص من العمى الأيدلوجي الذي يحول دون معرفته بها . وأوّل ما أراد اختباره هو التعبير عن رغبته الجنسية المؤجلة في مجتمع يكفل حرّيته الشخصية ، فشأنه شأن أيّ شاب خرج من قمقم الخوف ، اجتاحتها إثارة جنسية مفاجئة حالما وصل إلى شقته الجديدة في السكن الطلابي ، ففكر في كيفية إشباع تلك الحاجة بعيداً عن المخاوف التربوية التي ورثها ، «أخذت حماماً ساخناً وصنعت لنفسني قهوة ، ثمّ تمددت على الفراش وأشعلت سيجارة . وهنا حدث شيء غريب . اجتاحتني فجأة خيالات جنسية فاحشة ، تملكتني رغبة عارمة كادت تؤلّمني من فرط قوّتها وإلحاحها! . فقد استبدّ بي هياج جنسيّ عارم لا أعرف له سبباً . ربّما نتيجة إحساسي بالانطلاق وأنا أبدأ حياتي الجديدة في أمريكا»<sup>(١)</sup>

غامر «ناجي عبد الصمد» ، فهاتف امرأة طلباً للمتعة ، متخيلاً شبابها وجمالها ، وهو أسير هياجه ، فوقع ضحية عاهرة زنجية مسنة ، اكتشف أنّها ضحية مجتمع دفعها إلى اختيار البغاء ، «جاوزت الأربعين وربّما الخمسين ، سوداء بدينة تعاني حولاً ظاهراً في عينها اليسرى ، كانت ترتدي فستاناً أزرق قديماً مهترئاً عند الكوع ، وضيقاً يبرز ثنايا جسدها المكتنز بالشحم»<sup>(٢)</sup> . حاولت عبثاً استشارته ، ثمّ ابتزازه لحاجتها إلى المال ، فتخلّص منها بعد أن دفع الثمن الذي طلبته ، ثمّ يتّضح أنّها معدّمة لا تجد مصدراً للعيش وأطفالها غير هذه المهنة في مجتمع ظاهره الثراء وباطنه العوز .

وهذه كانت أوّل الصدمات التي تعرّض لها في يوم وصوله ، وفيما بعد فسّر له أستاذه المشرف «جون جراهام» الأسباب التي تقف وراء هذه الممارسات حينما أخبره بذلك ، «هذه المرأة البائسة في رأيي أشرف من كثير من الساسة الأمريكيّين . إنّها تبّيع جسدها لتطعم أولادها ، في حين أنهم يوجهون السياسة الأمريكيّة من أجل افتعال حروب للسيطرة على منابع النفط ، ويبيعون خلالها أسلحة تقتل عشرات

(١) م . ن . ص ٦٠

(٢) م . ن . ص ٨٨



الألوف من الأبرياء حتى تنهمر عليهم الأرباح بالملايين»<sup>(١)</sup>.

ثم مرّ «ناجي عبد الصمد» بتجربة حبّ مثيرة مع الشابة اليهودية «ويندي»، فآلهمته قصائد جديدة بعد أن أبعدته صعاب الحياة عن الشعر، فاستعاد معها أجواء المتعة الاندلسية بوهم أنهما ينتسبان إلى أصل اندلسي مشترك، وتعرّض إلى مضايقات جراء علاقته بها، فاخفتت من حياته تاركة أجمل ذكرى، ولم يلبث أن عرف أنّ السلطات قد صوّرتة عارياً معها، وسلّمت الأشرطة إلى السفارة المصرية التي حاولت ابتزازه حينما نشط في العمل ضدّ سياسات النظام؛ إذ كان تحت نظر المباحث المصرية والأميركية، فمع وصوله إلى «شيكاغو»، أرسلت مباحث أمن الدولة في القاهرة ملفه إلى السفارة المصرية في واشنطن، مع التأكيد على أنه «عنصر مشاغب»<sup>(٢)</sup> ومغضوب عليه.

وبسبب نشاطه السياسي المعارض للنظام المصري، وسعيه لقراءة بيان يطالب بالحقوق السياسية إبّان زيارة الرئيس المصري لشيكاغو، لفّق الأمن في السفارة المصرية تهمة ضدّ ناجي عبد الصمد، فألقي القبض عليه من قبل مكتب التحقيق الفدرالي بتهمة التخطيط لعمل إرهابي يصيب المواطنين الأمريكيين. يقول له ضابط التحقيق بعد اعتقاله: «لدينا معلومات مؤكدة أنّك ضالع في خلية تخطط لعمل إرهابي في الولايات المتحدة. لقد أعطتنا المخابرات المصرية كل شيء عن التنظيم الذي تنتمي إليه، لا فائدة من الإنكار. تكلم يا ابن القحبة. لماذا تريد أن تدمر بلادنا؟ فتحنا لك أبواب أمريكا. رحبنا بك لتتعلّم وتصبح إنساناً محترماً. وأنت بالمقابل تتآمر لتقتل الأمريكيين الأبرياء! . إذا لم تعترف سأفعل بك كما يفعلون في بلادك. سنجلدك ونصعقك بالكهرباء ونغتصبك»<sup>(٣)</sup>. وتشكّل مذكرات ناجي اللبّ الأكثر إثارة في الرواية.

بحثت رواية «شيكاغو» في قضية المنفى باعتباره ملاذاً أخيراً للشخصيات الواعية جراء فساد الأنظمة السياسية، ولكنّها فضحت أيضاً العجز عن التكيف، والتعلق بوهم الانتماء إلى الوطن على الرغم من تغيّر الظروف والأحوال، فشخصيات

(١) م. ن. ص ١٦٠

(٢) م. ن. ص ١٠٩

(٣) م. ن. ص ٤٣٤-٤٣٥

الجيل الأوّل من المصريّين سكنهم حنين عميق لبلادهم ، وجميعهم يعيشون حياة مضطربة بسبب عدم التكيّف مع المجتمع الأمريكيّ ، أمّا شخصيّات الجيل الجديد ، جيل المتعثّين ، فهي ضائعة بين رغبات شخصيّة وجنسيّة ، وبين ضغوط من الأجهزة الأمنيّة التي تتحكّم في مصائرهم . فمصائر الجيلين قاتمة ، ولم يحقق أيّ منهم هدفه الأخير في اكتساب المعرفة التي ينبغي أن يعود بها إلى بلاده ، فإنّما أنّه اضطر للهروب من وطن نخره الفساد ، أو أنّه قرّر المكوث حيث هو كيلا يكون شاهداً على حياة تنزلق إلى الانهيار يوماً بعد يوم .

وتنوّعت المواقف الأيدلوجيّة للشخصيّات بين متزوّقة ومداهنة كأحمد دنانة ، أو ناقدة ورافضة كنجادي عبد الصمد وكرم دوس ، أو عاتمة شغلت بدراساتها ورغباتها كشيماء محمّدي وطارق حسيب ، ومنها من كان يجترّ ماضيه مثل محمّد صلاح ، أو يحاول قطع الصلة معه مثل رأفت ثابت . ولكنّ الدلالة الأخيرة للرواية رسمت نجاة للمداهنين المدعومين من النظام السياسيّ كصفوت شاكر وأحمد دنانة ، فقد انتهت الرواية دون أن يطرأ تغيير على أوضاعهم سوى احتمال أن تدفع بهم الأحداث إلى مناصب أعلى وآمال أكبر . أمّا الآخرون مثل ناجي ومحمّد صلاح ورأفت ثابت وشيماء محمّدي وطارق حسيب ، فقد ارتسمت مصائر قاتمة لهم .

وتلتقي رواية «شيكاجو» في الدلالة العامّة برواية «علاء الأسواني» التي سبقتها ، وهي «عمارة يعقوبيان»<sup>(١)</sup> حيث تعرض الروايتان رثاء مريراً للنخب العلميّة والسياسيّة والثقافيّة في ظلّ نظام سياسيّ واجتماعيّ وتعليميّ يتفاقم فساد ، فيدفع بأفراده نحو تغيير أفكارهم ومواقفهم ، بل وتغيير انتماءاتهم واختياراتهم ، فالوقائع السردية في الروايتين تعوم على شبكة متلازمة من الأحداث العامّة التي تعطلّ أيّ فعل إيجابيّ بسبب انهيار القيم الأصيلة ، فتتخرط الشخصيّات في سلسلة طويلة من أعمال النفاق والاحتيال والتواطؤ لتواصل حياتها .

وتقف الشخصيّات في الروايتين أمام حالة عجز عن أيّ تغيير بعد أن ضرب الفساد أطنابه في عمق المؤسسة الاجتماعيّة والسياسيّة ، وبدل أن تنبثق فكرة الإصلاح ، تنجرف الشخصيّات نحو فساد ، أو تتواطأ مع الفاسدين للتمكّن من العثور على فرص ضئيلة جداً لمواصلة الحياة في شروطٍ دنيا ، ولا تلوح إلّا أصوات مفردة

---

(١) علاء الأسواني ، عمارة يعقوبيان ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ٢٠٠٦

تمثّل النقيض ، فالعالم السردىّ يور بالسلبية ، وعبر السرد الشفاف تحضر صورة المجتمع المصريّ بكامل تفاصيلها ، وهو يزحف إلى نهاية ينفرط فيها العقد الناظم لحياته ومصيره .

تعود في «عمارة يعقوبيان» حالة العقم والانغلاق والشذوذ ، في مجتمع اختزن طوال أكثر من نصف قرن صراعاً محتدماً بين أرسطراطية تقليدية انهزمت إثر انهيار مقوماتها بسبب ثورة ١٩٥٢ ، وجماعات متنفذة احتكرت السلطة على أعقابها ، فجعلت من السلطة وسيلة للثروة ، فيما كانت الثروة هي الطريق إلى السلطة عند الطبقة القديمة ، وإلى جانب هذا وقع صراع دمويّ بين سلطة استبدادية ذات خلفيّة عسكرية ، وبين جماعات دينيّة وجدت في تلك السلطة أنموذجاً لممارسة العنف والاستئصال والاجتثاث ، وهذه الجماعات رأت أنّ السلطة السياسيّة الفاسدة حالت دون تطوير المؤسسات المدنيّة التي تكفل للمجتمع سلامته وحرّيته .

ومن الطبيعيّ أن يتمزق نسيج المجتمع بين هذه الاستقطابات المتضادة ، فيبدو كلّ ما يتّصل بالماضي جملياً وشفافاً ، وكلّ ما له صلة بالحاضر سيئاً ومربكاً ، والأكثر من ذلك ، فشخصيّات الطبقة القديمة هي المنتمية ، فيما الشخصيّات المعاصرة عديمة ولا منتمية وغاضبة وشرهة ، ولا تني تعرض هجاء متواصل ضدّها ؛ لأنّها سلبت كلّ القيم الإنسانيّة التي تجعل من المرء ينتمي إلى مجتمع ووطن بإرادته ورغبته ، وهو ما تجسّد بكامله في رواية «شيكاجو» أيضاً ، ذلك أنّ البحث الدقيق في البطانة الداخليّة للمجتمع المصريّ ، كما قدّمته الروايتان ، لن يفضي إلّا إلى هذه النتيجة .

هذه الخلفيّة الحاضرة لرواية «عمارة يعقوبيان» ، أضفت على كلّ الإشارات الواردة فيها قيمة مضاعفة ، فملتقى يتخطّى النصّ إلى المرجعيّة الواقعيّة ؛ لأنّ الرواية تبحث بأسلوب تسجيليّ جوانب من حياة مجموعة من الشخصيّات ، ثمّ تتعقّب مصائرهما ، برؤية تعتمد على مبدأ التناقض بين الخير والشرّ ، فكلّ شرير ينبغي أن ينال العقاب الفعليّ أو الرمزيّ ، والأخير- وهم نادرون- ينبغي مكافأته رمزيّاً بالتغاضي عن أخطائهم ، كما وقع لـ «زكي الدسوقي» و«طه الشاذلي» .

وحيثما نجيل النظر في الاحتمالات الممكنة نجد أنّ المرجعيّة الواقعيّة التي استندت إليها الرواية في موضوعها ، هي التي أضفت معنى عميقاً على النصّ ، وليست المهارات السردية فيها ؛ فتوازي الحكايات الأربع «حكاية زكي الدسوقي ،

وحكاية محمد عزام ، وحكاية حاتم رشيد ، وحكاية طه الشاذلي « يؤشر إلى مرجعيات أكثر مما يفتح الأفق على احتمالات تأويلية جديدة ، فقد جرى ضبط علاقات التوازي لتتبع المصائر ، فكأن النهاية هي المكافئ لمسار حياة المصريين وليس الحياة ذاتها ، وهذه نظرة أخلاقية تسعى إلى تحويل الشخصيات - وهي مكونات سردية - إلى أيقونات واقعية ، بغرض تحديد مصيرها بناءً على أفعالها ، ليقع قبولها أو رفضها من قبل المتلقي ، ثم عقابها أو مكافأتها في ضوء علاقتها بنظام القيم الذي تعيش فيه ، ولعل هذا المنحى في المعالجة السردية هو الذي قلل من أهمية المكان الذي لم يبق إطاراً جامعاً تتفاعل فيه الشخصيات ، إنما مجرد عتبة تمر بها للولوج إلى عوالم أخرى ، وحتى الزمان بدا مرتبكاً ، فكل طموح له تفسير جاهز ، وهذا خرق للميثاق السردى الذي يؤكد ضرورة ترك الشخصيات تتطور بفعل الأحداث .

بدأت حكاية « زكي الدسوقي » حكاية رثاء قاسية لطبقة آفلة ، فحيرته تعبير عن احتضار طبقة وأفولها ، والتفسير الذي تعرضه الرواية يتمثل بثورة الضباط في مطلع الخمسينيات من القرن العشرين ، وهم جماعة عنيفة كرست نفسها لفكرة الانتقام من طبقة حاكمة لها جذر عميق في الذوق والثقافة والتعليم ، وبتفكيك الأواصر الخاصة بالطبقة القديمة ، تفككت عرى المجتمع بكامله ، وفقد البوصلة الأخلاقية ، وكان أن هيمن المنتفعون والانتهازيون على المجتمع ، وهذا ما جسّدته حكاية « محمد عزام » الذي ارتقى سلم الثروة عبر المتاجرة بالممنوعات . ومن الطبيعي أن يقع تهميش في إطار هذا المارثون لعدد هائل من الناس الذين لم يتمكنوا من الانخراط فيه ، وتفسر ذلك بوضوح حكاية « طه الشاذلي » الذي حال الفساد العام دون تحقيق رغبته في أن يكون ضابطاً في الشرطة ، وبذلك استبدل اختياراً دينياً دفعه لممارسة عنف ضد سلطة انتهكت كرامته الإنسانية ، وحالت دون تطلعاته في الحياة .

وبين هذه الحكايات تربض حكاية « حاتم رشيد » ، وهي حكاية فردية تنأى بنفسها عن الصراع العام ، وتحتكم إلى مبدأ اللذة الجسدية المحرمة ، ثم تكافأ بنهاية معتمة ، فكل متعة ينبغي أن ترتبط بتفسير أخلاقي لكي يتقرر أمرها ، وثم يقع قبولها أو رفضها ، ويكون مصير حاتم قائماً ؛ لأنه مضى في لذة تعارض نظام القيم العامة ، فيما جرى قبول كل آثام الدسوقي ، لأنه أنهى مسار حياته بالارتباط الشرعي ببثينة . والحكايات أجمعها عقيمة كالمرجعيات الحاضنة لها ، فهي مرجعيات مقفلة في نوع الصراع الذي تخوضه ، فالدسوقي العاجز يتزوج وهو على حافة القبر ، وعزام لا يريد

أن ينبج ، إنما يكتفي بالمتعة التي تقترب إلى أن تكون نوعاً من البغاء المقنع ، وطه الشاذلي لا يعنيه غير الانتقام من السلطة التي عبثت به إذلالاً إلى حدّ اغتصابه ، أمّا حكاية حاتم رشيد ، فبطبيعتها حكاية عقم مطلق .

نحن بإزاء أفق مغلق تحتضر رموزه أماننا ، وتدور صراعاته في دائرة مبهمة من العجز والمتعة الشاذة والمنفعة والفساد والعنف ، وانهيار تلك الرموز إنما هو انهيار نظام شامل من القيم والتصورات . وحتى المقاومة الانفعالية التي تتغطى بمسوح الدين التي ينخرط فيها طه الشاذلي ، إنما هي مقاومة انتقام بسبب أذى لحق بفرد أو جماعة تستعير تصوراتها اللاهوتية من الماضي ، لكن تناقضات الحاضر هي التي تمنحها شرعية المقاومة . إنها حكايات عقم معظمها يغلق الطريق على نفسه ، ويضع إشارة الختام أمام الزمن والتاريخ . والشخصيات الأربع الأساسية غير مجهزة بالديمومة والاستمرارية ، فهي تعيش إما لتستمتع فقط (الدسوقي وحاتم) أو لتثري بصورة غير مشروعة (عزام) أو لتنتقم (الشاذلي) . وبين هذا وذاك يترنح مجتمع بكامله تحت طائلة الفساد والتذمر واللامبالاة والعوز والرغبة بالهجرة . وكلّ الشخصيات الثانوية الأخرى أدرجت لتعطي هذه الحالات معناها ، وبخاصة النساء اللواتي جرى التلاعب بهنّ ليكنّ موضوعاً للمتعة المباحة أو المحرمة .

لاحظنا من قبل كيف أنّ «رشدي» في رواية «صنع الله إبراهيم» ، كان يخطط لتأليف كتاب يبحث فيه نظرية عن «الاكتئاب الاجتماعي» ، في ضوء ما انتهى إليه المجتمع المصريّ من خنوع ضربه في الصميم ، ولم تكن أغلب شخصيات «علاء الأسواني» بعيدة عن نغمة الرثاء لمجتمع تتلاشى مقاومته بسبب الفساد والاستبداد . وفكرة الاكتئاب الجماعي تأتي في رواية «شيكاجو» على لسان «زينب رضوان» ، إحدى الناشطات في الحركة الطلابية في أوّل السبعينيات ، كما رأينا الأمر مع رشدي الذي ينتمي إلى الجيل نفسه تقريباً .

وتنتهي زينب رضوان إلى النتيجة نفسها بعد أن تتخلّى عن أحلام التغيير ، وتنخرط في مؤسسة الدولة التي كانت تقاوم نظامها السياسيّ ، تقول مخاطبة «محمد صلاح» بالهاتف بعد ثلاثين عاماً : «مصر في أسوأ حالاتها يا صلاح . كأنّ كلّ ما ناضلنا من أجله أنا وزملائي كان سراباً . لم تتحقّق الديمقراطية ، ولم نتحرّر من التخلف والجهل والفساد . كلّ شيء تغيّر إلى الأسوأ . الأفكار الرجعية تنتشر في مصر كالوباء . تصوّر أنّني المسلمة الوحيدة التي لا ترتدي الحجاب في إدارة

التخطيط ، من بين خمسين موظفة ، . القمع الفقر الظلم اليأس من المستقبل ، غياب أيّ هدف قوميّ ، المصريّون يئسوا من العدل في هذه الدنيا فصاروا ينتظرونه في الحياة الأخرى! . ما ينتشر في مصر الآن ليس تديناً حقيقياً ، وإنّما اكتئاب نفسيّ جماعيّ مصحوب بأعراض دينيّة»<sup>(١)</sup> .

اقترح كلّ من «صنع الله إبراهيم» و«علاء الأسواني» فكرة البطل المرتحل والباحث ، ليستكشفوا بالسرد ملاسبات التاريخ الاجتماعيّ والسياسيّ لمصر ، فالوطن والشعب هما موضوع جعل منه السرد قضيّة بحث ، والشخصيّات مشغولة إمّا بكشف الحقائق أو بتمثيل الأدوار السردية التي تحيل على رموز لها صلة بالتاريخ والواقع .

## ٦. الارتحال والمغامرة السردية:

وقد يفضي الارتحال إلى خوض مغامرة ، كما يظهر ذلك في رواية «الطريق إلى تلّ المطران» لـ«علي بدر» ؛ إذ يرتحل الراوي - البطل إلى مكان غريب عليه ، فيستكشفه ويعود منه بتجربة اعتباريّة . وإذا ما أخذنا بالحسبان أنّ روايات الارتحال غايتها استخلاص فكرة من طيّات المغامرة ، فقد نجحت الرواية في تمثيل سرديّ عميق لفكرة الشرّ والخير والمتعة والجمال والتحوّلات الفكرية للشخصيّات ، لكنّها تحوّلات تدفع بها الشخصيّات الثانويّة ، وتقوم بها ، وتتلقّاها الشخصيّة الرئيسيّة بنوع من القدريّة والتسليم ، وكأنّها منقادة لرغبة غامضة في خوض مغامرة يرسمها الآخرون ، مثل : صافيناز وشيميران والقاشا .

ومع أنّ تغييراً وقع للشخصيّة الرئيسيّة في نهاية الأحداث ، لكنّه لم يكافئ نوع المغامرة ، ولهذا يستعين النصّ بما يمكن الاصطلاح عليه بـ«الوهم المضاعف» ، فيستفيق الراوي - البطل من «الوهم» الأوّل ، ثمّ يقوم مرّة ثانية بصحبة صديقه الكلدانيّة «ليليان» ، برحلة للتحقّق ممّا حصل له في المرة الأولى . وفي الحالين نحن بإزاء أوهام سرديّة مضاعفة ، غايتها تعميق البنية الدلاليّة للمغامرة باختلاق حكاية على خلفيّة مكان تاريخيّ ، يرتحل إليه البطل من بغداد إلى شمال العراق .

قدّمت الشخصيّات بعينيّ الراوي على خلفيّة مفصّلة الأوصاف ، وهي ترتبط بالحركة والبحث والاكتشاف ، والتصريح بمواقفها ورغباتها وتقلّباتها بين فكرة الخير

---

(١) شيكاغو ، ص ٣٨١

والشرّ، وكلّ ذلك جعل الرواية نصّاً حاملاً لأطروحة اكتشاف جماعة بشرية خاصّة، فقد اعتمدت الرواية تقنيّة السرد الإطاريّ الذي تندفع المغامرة السردية من عمقه، ثمّ البحث في قضية أخلاقية على خلفية جماعة دينية لها طقوسها وتقاليدها الخاصّة، دون نسيان علاقاتها بالجماعات الأخرى المجاورة لها.

اقترح السرد الإطاريّ فكرة المغامرة فظهر مستويان، المستوى الحاضن للمغامرة، ومستوى المغامرة نفسها. ذهب الراوي - وهو قارئ نهم لكتب التنجيم والأبراج والروحانيات والتصوّف - إلى المكتبة البريطانية في بغداد لاستعارة كتاب للسير «كارما» عن أسرار الكفّ ومعرفة الطالع، فالتقى سيّدة غامضة من أصول تركية تدعى «صافيناز عبد الرحمن أوغلو»، التي اقترحت عليه أن يذهب إلى مدينة «تلّ المطران» في شمال غرب الموصل، ليتولّى تعليم أطفال بيعة الكلدان الكاثوليك اللغة العربية. وكتبت له توصية موجهة إلى راعي الكنيسة الأب «عيسى اليسوعي». كان الراوي جندياً سابقاً تقلّب في أعمال كثيرة بعد تسريحه من الجيش، وأخيراً وجد نفسه عاطلاً ومفلساً، فاستغرقت كتب الروحانيات. لقد انزلق إلى الأوهام، ولهذا لا يبدي أيّة ممانعة؛ إذ اكتسحه الحضور الجارف للسيّدة الغامضة، فأخذ بمقترحها، ومضى عبر التخيل إلى تحقيق مضمونه.

رسم الإطار السرديّ احتمال مغامرة تعيد بها الشخصية توازنها المفقود، فتقع تحت التأثير السحريّ المشعّ لتلك السيّدة الغامضة، «لم أستطع الكلام، لقد صمت». بينما أخذت هي تدقّق في تعبيرات وجهي التي تقلّصت في نظرة حول مقدمة أنفي. أخذت تحدّق بعينيّ مباشرة وبنظرة ثابتة عنيدة وبتركيز عميق، فشعرت بها وقد اقتحمت مراصدي ومصدّاتي، وانتهت أيّة حماية ومن أيّ نوع؛ إذ إن التشويش كان قد استحوذ على ذهني كلياً، وأصبحت أعوم بفعل تأثيراتها، وهي تتحدّر صوبي مثل زئبق بنعومة وسرعة مذهلتين، تستغورني فأحسّ بجسدها ينفذ مخترقاً عينيّ وينتشر في جسدي انتشار شعاع. لقد كان في صوتها المتغلغل نغمة اليقظة بعد سبات طويل، وبنظرتها التي أدركتها رغماً عنيّ نظرة شرسة تربك بقوّتها الحيوانية وسلطانها الوحشيّ أعنف المخلوقات. وما كان لي سوى أن أذعن، فأذعنت لها إذعان من يغمض عينيه منتظراً الموت برقة<sup>(١)</sup>. انقاد الراوي لتأثير السيّدة،

(١) علي بدر، الطريق إلى تلّ المطران، بيروت، دار رياض الرّيس للكتب والنشر، ٢٠٠٥، ص ١٦

واستجاب لها بدون وعي . لقد شُوّس عليه ، وفقد تماسكه ، فاخترقه سحرها ، وسرعان ما اختفت بعد أن أرشدته إلى كيفية الوصول إلى «تلّ المطران» . انتهى السرد الإطاريّ حينما تدخلت أمانة المكتبة «إيفون نادر» ، فضبطت للراوي زمن السرد ، بأن اقترحت أن يكون تاريخ إرجاع كتاب السير «كارما» بعد عودته من تلّ المطران . لكنّ الراوي لم يعد إلى المكتبة بعد ذلك ، ولم يرجع الكتاب ، فغالبًا ما تُفترَح بداية لمغامرة البحث ويتعذّر تحديد النهاية . عاش الراوي تجربة ذهنيّة متوهّجة ، «شعرت كأنّي عبرت الطريق الشاقّ للنهر السحريّ الذي لا يتجاوز عرضه قيد أنملة . كان وجهي في المرأة أصفر مريضاً مثل قيء متجمّد ، وروحي مثقلة بأبخرة أرجوانيّة شبيهة بأبخرة تتصاعد من معدن ذائب ، فسمعت صوتاً خفيضاً غائراً من بعيد ، وكلمات غير مفهومة هادرة مدممة خلف الستائر الخمليّة المتموّجة التي مرّ بها تيّار بارد . لقد شعرت بروحي تتدلّى بسكون عميق دون اختلاجة ، ومشاعري مزدوجة : الرعب بجماله العاصف ، وفيض سعادة روحيّة كانت تغمرني بمسرات شبيهة بتلك التي نحصل عليها من المركبات المرعبة والخطرة في مدن الملاهي ، حيث يساهم الجوّ شبه الهستيريّ بخلق ذلك الوهم الدائم ، ومؤداه أنّ الذي يحدث هو تحقيق للخيال»<sup>(١)</sup> .

في النهاية امتثل الراوي إلى تنفيذ مضمون الإيحاء ، «لم أكن قادراً على مواجهة هذه الإرادة التي تدفعني بقوة نحو شيء مرسوم في يدي ، وملتصق بها مثل خط التيزاب»<sup>(٢)</sup> . تحقّق مضمون المغامرة في جوّ من الحركة الكابوسيّة ، وهي مغامرة لا يمكن البرهنة عليها ، «عجزت رغم البلاغة المهيبة التي رويت بها هذه الأحداث عن وضع إطار محكم لتصوراتي ، كنت أشعر بأنّني أفترق إلى المضمون ، وأنّ ما عشته هو مشروع خداع رهيب ، بل هو نهاية لتذبذباتي العميقة»<sup>(٣)</sup> . لم تنجح الشخصية الرئيسيّة في إعادة التوازن بكامله ، كما هو معروف في الآداب السرديّة ، فالذبذبات العميقة مضت بالشخصيّة إلى منطقة التوهّم والقلق ، على الرغم من إصرارها على البرهنة على المغامرة الوهميّة .

(١) م . ن . ص ٢٣-

(٢) م . ن . ص ٢٩-

(٣) م . ن . ص ٣٦٨



نجح السرد الإطاريّ في رسم صورة شخصية قلقة هشة ، فيها ملمح من جنون الثقافة وفضول المجازفة ، وتنتهي وظيفة ذلك السرد لتظهر الأطروحة الكامنة في قلب المغامرة ، وهي البحث والاكتشاف ؛ فالشخصية الرئيسة تضيء عتمة اجتماعية وثقافية ، وتتفاعل مع ذلك ، وتكشف عن تحولات قيمية وجمالية ؛ إذ تنخرط بالمجتمع الذي وصلت إليه ، ولكنها لا تندمج فيه كما هو الأمر في سائر شخصيات الارتحال . من الصحيح أنّ الشخصية الرئيسة لم تحقق أيّاً ممّا جاءت من أجله ، لكنها استبدلت بالمال رغبة الاكتشاف . ونتج عن ذلك درجة من التحوّل لديها ، فكلّما انزاحت حجب الأسرار أمامها ، انخرطت في أفعال متلاحقة جعلت منها شاهداً ومشاركاً في الأحداث . وعرض الأحداث من منظورها أسبغ عليها رؤى جمالية وثقافية لا صلة لها بمجتمع الرواية ، إنّما بالذوق الجماليّ للراوي - المؤلّف . وتخلّلت الرواية أفكار كثيرة ، فقد انطبعت في ذاكرة الشخصية الرئيسة أفعال الشخصيات الأخرى ، ولهذا شُغلت بوصف كلّ ما تمرّ به ، مع أنّ علاقتها العابرة بالأمكنة لا تؤهلها لملاحظه كلّ تلك التفاصيل وتفسيرها ، وهو ما حال فيما نرى دون مساعدتها على تمثّل فكرة التحوّل بصورة كاملة ، فانشغالها بوصف الأشياء عطّل عملية كشف الحالات ، وباستثناء «القاشا» ارتسم التحوّل بأقلّ ممّا تحتاج إليه شخصيات شديدة الأهمية ، مثل «شميران وفريدة وتيمور وجولي ودانيال ، وريزان وبياتريس» .

## ٧. قوافل بكماء، وهلوسات مرتحل، وشبق نصرانيّ؛

ثمّ استفادت رواية «مدينة الرياح» لـ «موسى ولد إبنو» من تقاليد كتب الرحلات في غرب إفريقيا ، وكادت تحاذيها في المسار السرديّ العامّ لأحداثها ، فالقافلة تمرّ بقرى ومدن كثيرة ، منها : ساما وإيرسني وأغياروا وساماكاندا ، ثمّ تبلغ غانا ، وتنتهي في مرحلتها الأولى بأودافوست ، ومنها يختطف الصبيّ «قارا» ، ثمّ التوجّه إلى سلجماسة بعد فشل ثورة العبيد ، فمسار الأحداث يوازي مسار ارتحال القافلة عبر القرى والمدن الصحراوية . ويظلّ كثير من الوقائع معلقاً ، لأنّه حدث في إحدى القرى التي تركتها القافلة إلى مكان آخر ، فيهمل السرد بعضها ولا يأتي على ذكرها بعد ذلك ، مثل الوقائع الخاصة بـ «النصرانيّ» الشبق ، وتالوثان الزنانيّ الذي يتوّعد في الخيال زوجته الخائنة بانتقام رهيب ؛ إذ تنطفئ الوقائع بوصول القافلة إلى أودافوست ، إلى ذلك ورد ذكر كثير من المدن التي تتاجر بالتبر والملح ، ومنها «أودغشت» التي أشير إليها في

المدونات الجغرافية القديمة .

اختطف الزناتيون «فارا» من قريته حينما أرسله أبوه لاقتراض الملح من قافلتهم التي خيمت في السوق لمقايضة الذهب بالملح ، وأخذ مُستَعْبِداً عبر الصحراء إلى مدينة «أودافوست» ، حيث بيع لسيد ثري يدعى «أزباغره» ببضعة دنانير ، فألحق بأعمال منزله ، وحينما أسس مدرسة للتبشير بالمذهب الأباضي أصبح تابعاً له ، فكان ينفذ سجاداته من التراب ، ويقيّد الأطفال حتى يحفظوا دروسهم ، ويهيئ مجمرته وقت الشتاء ، وينظف أرض المكتبة ، وأحياناً يدلّك جسد السيد حينما يكون متعباً ، ولم يلبث أن حفظ القرآن والتفسير وأتقن العربية . وواظب على حضور المناظرات اليومية في المدرسة بين الطلاب ، «حول القوة والعرض وعلاقتهما بالفعل ، والأفعال الإنسانية وعلاقتها بالخلق الإلهي» . وتقدم الكون والكفر الأكبر والكفر الأصغر وحكم أبناء المشركين وحكم المنافقين ومسألة دلائل النبوة ومسألة الوحي والكرامة» (١) .

هضم «فارا» الجدل الكلامي حول الحرّيات المقدرة إلهياً ، أو المقترحة بشرياً حسبما جرى تداوله في المذهب الأباضي ، واطلع على أصول العقائد الأباضية إلى درجة لم يبق فيها سرّ لا يعرفه . فشرع يفكر في حرّيته ، ثم وقع بحبّ جارية تدعى «فالة» ، تبين له أنها تعدّ لثورة العبيد في المدينة ضدّ أسيادهم الذين خطفوه واستعبدوهم ، فكان أن انخرط في التخطيط لتلك الثورة معها ، فاصطحبته إلى جدتها الكاهنة لتكشف له مستقبله . فقدّمت العجوز نبوءتها بصورة واضحة : ستعمر وتشفى وتشرب من عين الخلود ، وسوف تسحقك الأقدار . سخر «فارا» من العجوز ، ولكن سرعان ما بدأ تحقّق مضمون النبوءة ؛ إذ فشلت الثورة بعد أيام حينما افتضح أمرها بوشاية أحد العبيد في أثناء اختصام الثوار حول شرعية حرّيتهم ، هل هي شرعية دينية يقول بها الإسلام ، أم شرعية دنيوية يقتضيها شرط الحياة الإنسانية الحرة .

في تلك الليلة المظلمة وسط جدل الثوار أطبق عليهم السادة ، وبتشوا بهم ، فألقي «فارا» في البوعة الكنيف ، وغرق في القاذورات أياماً ، وسقي من بقايا مياه الغسيل ، فتحققت أولى مراحل نبوءة الكاهنة . وكانت الثانية أن باعه سيّده ، فأرسل

(١) موسى ولد إينو ، مدينة الرياح ، بيروت ، دار الآداب ، ١٩٩٦ ، ص ٥٣ .

عبدًا إلى سلجماسة سيرًا على الأقدام حتى تأكل باطن قدميه وسط سعيير الصحراء . كانت رحلة طويلة شاقّة قطعها ماشيًا موثوقًا بحبل إلى جمل ، فتخلّل الرحلة ظهور نجم مذنّب في أفق السماء أضاء الظلمة للحظات ، ف«بدأت الأرض كأنّما طلعت عليها ألف شمس دفعة واحدة» .

ثمّ توارى المذنّب ناحية المشرق ، فخيم السكون وبسط الظلام سلطانه ، فاتّفق على أنّ ذلك «انتقام من الله ، علامة من علامات الساعة» . إنّها آية ينبغي الاعتبار بها ، «ستكون السنوات العشر التالية سنوات كدّ وتعب» . كان تأثير المذنّب على قارا عظيمًا ، فقد «أصبحت غريبًا عن الأرض ، أحدث المذنّب انقلابًا في كياني ، لكنّ إحساسي بالامي الجسديّة والمعنويّة ظلّ قائمًا . بل ازداد . أمضيت بقية الليل واقفًا ، عيناى تحمقان ، وذهني غارق في استجلاء مصيري»<sup>(١)</sup> .

بمرور الوقت تعمّق معنى النبوءة ، فوسط الصحراء والريح والارتحال الطويل ، تساءل «قارا» قائلاً : «فقدت هويّتي من طول التيه في هذا المحيط ، أصبحت لا أعرف من أنا : هل أنا ذلك الشابّ الثنقاريّ الوثنيّ الذي كان يعيش بسعادة في بلاد الذهب؟ أم أنا العبد المسلم الذي يقطع المجذبة الكبرى لا يدري إلى أين؟ أم أنا ذلك الكائن الأرضيّ المسكون بعناصر كونيّة غريبة على الأرض جعلتني أهيم بأكوان أخرى؟ قد لا أكون واحدًا منها بل الثلاثة معًا في وقت واحد» . وفي مرحلة بلغ اليأس أشدّه «بقارا» بدأ يحلم بالهروب ، وعدم مواصلة السفر إلى سلجماسة . كان الانفصال عن القافلة انتحارًا في صحراء لا نهاية لها ، وقد حلّ العطش والضيق والخوف بالقافلة ، وحينما عثروا على بئر يرتوون منها ، تذكر ما قاله له رجل فقير في سوق أودافوست يدعى «أبو الهامة» ، إذ خاطبه قائلاً : «إذا كنت رافضًا للقدر ، فاعتزل البشر ، وانفرد في الصحراء وانتظر أمر ربك»<sup>(٢)</sup> .

أحدث الرحيل تغييرًا كبيرًا في هويّة «قارا» ، فمن جهة جرى ترقّيته من الوثنيّة إلى الإيمان ، ولكنّه فقد من جهة أخرى السعادة الوثنيّة في بلاد الذهب ، وأصبحت عبوديّته مزودجة لله ولسادته الذين يتداولون بيعه ، ويحولون دون انتزاع حرّيّته . ظهرت هذه الحال على خلفيّة من شدّ متواصل لرحال السفر جعلته يعيد اكتشاف

(١) م . ن . ص ٧٠ .

(٢) م . ن . ص ٧٧ .

نفسه بوصفه عبداً ، ويعيد اكتشاف عالمه ، فقد طمست الحقبة الوثنيّة السعيدة من حياته ، ومعها وقع إهمال كامل للماضي ، وبكلّ ذلك استُبدل شقاء وعبوديّة وسفر في طيّات المستقبل .

قطع الارتحال بين نمطين من أنماط الحياة ، وفصل بين وجهين من وجوه الهويّة ، وبما أنّ السرد قد انهمك بالحقبة الثانية ، وأفرط في وصف مشاقّها ، ومنها انتزاع «فارا» من حاضنته الأسريّة ، وإدراجه في سوق التبادل التجاريّ بين قوافل الصحراء ، فقد ارتسمت الحقبة الوثنيّة بوصفها حقبة هناءة وسعادة ، وظهرت حقبة الإيمان على أنّها عبوديّة وشقاء . من الصحيح أنّ «فارا» ارتحل عبر الفيافي ، ولم يتعثّر بأيّة حدود ، وجرى سوقه عبداً ، لكنّه ارتحل أيضاً في الزمان ، وارتحل داخل نفسه ، وكلّما حدثت معرفة بالنفس تضاعف اكتشاف العالم .

فقد «فارا» هويّته الأصليّة ، ولم يفلح في اكتساب هويّة بديلة إلاّ باعتباره علامة ارتحال دائم في صحراء لا حدود لها ، وقد أصبح مصيره مقيّداً بنبوءة واكتشاف . ولهذا جمع أمره على الأخذ بحكمة «أبي الهامة» وتنفيذها ، فهرب ليلاً . ولكن الهروب لم يعطه إلاّ مزيداً من الألم ، فقد بقي أربعين يوماً وحده يصوم النهار ويفطر على قطرة ماء من قربته ، ويصليّ ثمّ يصليّ وقد تقوّى عزمه على العيش «بعيداً عن الجائرين» حتى مماته ، يحثّه على ذلك تردّد حكمة أبي الهامة في خاطره .

ولم يلبث أن فتك به الجوع والظمأ فلم يقوَ على الحركة ، فيبست أعضاؤه ، وجفّت أوصاله ، وحلّ محلّ الخشوع وهنّ شديد ، وقلق فظيع ، وكره مقيت للجنس البشريّ ، فراح يحتضر ، تتناوشه النسور ، فينتفض ، فتبتعد عنه حينما تدرك أنّ فيه بقية حياة بانتظار أن يهمد جسده ، وتلوح الغيبوبة ، وتهدأ الآلام ، وتهدأ العروق فلا عطش ولا جوع ، إنّما طنين متواصل في الأذنين ، وذكريات متناثرة حوله كالنسور الرابضة قربّه . وفي هذه الغيبوبة الأخيرة ، حلّ عليه كائن ضبابيّ اسمه «الخضير» ، إنّّه ملك الزمان وآية من آيات الله ، وألهمه قدرة معرفة المستقبل واختيار محطة لحياته ، فدفعه برحلة خالدة إلى المستقبل عبر الزمان ، فتزاحمت تخيالاته وأوهامه ؛ إذ عثرت عليه مجموعة من القنّاصة ، فقدّمته إلى قائدها الأبيض «وستباستر» الذي أعاد إليه الحياة بقليل من الشراب والطعام ، وحُمّل على جمل ، فإذا بالقائد يصطحب معه «فالة» . لكنّ «فارا» فقد القدرة على الكلام وتحوّل إلى أبكم ، إنّّه في قافلة كأنّها جاءت من المستقبل طبقاً لما أخبره به ملك الزمان ، وقائدها باحث أثريّ

أصبحت «فالة» عشيقة له ، وهو يريد أن يعثر على أطلال «أودافوست» مدينة القوافل المفقودة بعد عشرة قرون من اندثارها . لقد دفع ألف سنة في رحلة المستقبل .

في طريقه للبحث عن «أودافوست» أخذ «فوستباستر» إلى مدينة «تجفجه» ، حيث سيطر المستعمرون النصارى على المدينة ، فوضع قيد المراقبة ، ولكنه إثر صعاب كثيرة أفلح في الهرب ، وواصل عزلته التي أمره بها «أبو الهامة» ، فداهمته هلوسات أخرى وهو في حال متراجعة من غياب الوعي ، وخيّم أجواء فتنازية على أحداث السرد ، وتداخلت الأزمنة والأمكنة حيث أصبحت أجزاء من الصحراء الكبرى مدافن للنفايات النووية . لقد منحه «الخضير» قدرة السفر إلى المستقبل نحو ألف سنة ، فرأى عجائب التحولات في العالم ، فتحققت نبوءة الكاهنة بخلوده ، «لو واصلت السير في المستقبل ، فإنك ستجد الأرض ، وقد أصبحت كومة من رماد ، والشمس قد انطفأت» . وفي هلوساته المبهمة تراءت له «فالة» بصور عدّة ، فهي عشيقة للأنثريّ فوستباستر ، أو صيادة لحيوانات المها على الطريقة النمادية في الصحراء ، أو زوجة لـ«تنفل» حاكم المدينة . فقد قارا الذاكرة والقدرة على الكلام . وأصبح شقيّاً تتقاذفه الأزمنة والعذابات . أصبح غير قادر على ضبط وعيه الذي انفلت يترحلّ في الزمان كما كان جسده يترحلّ في الصحراء .

دفع الارتحال الدائم إلى سطح السرد رغبة في الصمت ، فقد نذر الحديث وتبادل الكلام بين الشخصيات ، وفي غرب إفريقيا على امتداد الصحراء الكبرى حيث تقع أحداث رواية «مدينة الرياح» اعتمد الصمت وليس الكلام ، وسيلة للتبادل التجاريّ بين قوافل الملح الزناتية من جهة ، والقرويين من سكان بلاد الذهب من جهة أخرى . ففي ساحة السوق جرى كلّ شيء بصمت ، ليس ثمّة ذكر للمساومة والمفاصلة ، «كان التعامل التجاريّ بين زناتة وسكان بلاد الذهب يتمّ بلا تخاطب . في وقت محدّد يخرج التجار من زريبتهم إلى ساحة المقايضة ، يتفحصون المعروضات . ما يعجبهم يأخذونه إلى داخل الزريبة ، ويتركون قدرًا معلومًا من الملح ، وما لم يعجبهم يتركونه مكانه من غير مسّ ، فيعلم صاحبه أنّه غير مرغوب فيه ، فيزيده أو يأتي بغيره»<sup>(١)</sup> .

خضعت تجارة العبيد لمساومة صامتة ، حينما ذهب الصبيّ «فارا» مبعوثًا من أبيه

---

(١) م . ن . ص ١٢ .

لشراء الملح من الزناتيين ، أخبر أحد التجار بأنه يريد شيئاً من الملح ، فقابله الزناتي بصمت ، «لم يتكلم الرجل . ظننته أصم . كررت ما قلته بصوت أعلى فلم يجب . لكنه أخذ لوحاً كبيراً من الملح ووضعه عند قدمي . فرعت!! إنهم عندما يشترون عبداً ، يقيسون موطئ قدميه على صفيحة الملح ، ويحزونه بالمنشار . يكون ذلك هو ثمن العبد!! أخذ بساقي اليسرى ، ووضع قدمي بعنف على صفيحة الملح ، ثم فعل كذلك بالساق اليمنى!! أخذ المنشار ، وراح يقطع ، متتبّعاً حافة قدمي على الصفيحة ، كمن يقيس نعلًا على قدم!! ثم قسم بقية الصفيحة إلى قطع صغيرة متساوية ، وانحاز إلى ربوات التبر ، يحوش إحداها في مخلاته ، ويترك مكانها قطعة ملح . وضع المخلاة على منكبيه ، وسحبني من جناحي ، يريد أن أرافقه إلى الزريبة!! استطعت بصعوبة أن أتملص من يده القويّة القابضة على جناحي ، واختطفت قطعة من الملح ، وأطلقت ساقي للريح في اتجاه أبي»<sup>(١)</sup> .

لم تفلح محاولة «فارا» بالهرب ، فقد «أطلق التاجر صيحة ، خيل إليّ أنّها صاعقة من السماء . تقاطر على أثرها رجال القافلة في إثري . وأحاطوا بي ، ووضعوا في عنقي حبلاً ، وراحوا يجروني باتجاه الزريبة! كلما اقترب منّي أحدهم لسعني بلطمة حارة!! القوا بي في الزريبة ضمن ثلة العبيد المشتراة حديثاً ، وأنا مكتوف الرجلين واليدين» . أصبح «فارا» عبداً ، وسبق بصمت مع عبيد القافلة باتجاه الصحراء .

حينما حلّت القافلة عند منتصف النهار في كنف دومة عملاقة ، على مسافة متوسطة من إحدى القرى ، خرجت نسوة القرية من البيوت ، ورحن «يطلن النظر إلى القافلة . ثمّ يدخلن البيوت مسرعات . لم تكمل القافلة الخطّ عن الجمال حتى امتلأت الساحة بالنساء يحملن على رؤوسهنّ القصعات الكبيرة الملأى باللبن الرائب والحبوب والدجاج والطبيخ وطحين وردة النيل والفاصوليا . وكان الزناتيون يأخذون حاجتهم من هذه المعروضات ، مقابل قطع من الملح ، «جرى الأمر بلا كلام ، فقد جرى تواطؤ على تبادل الأشياء بلا جدال»<sup>(٢)</sup> . قد أشار إلى هذه الظاهرة بعض

(١) م . ن . ص ١٣ .

(٢) م . ن . ص ١٨-١٩ .

الجغرافيين والرحالة - بينهم البكري- ، فذكروا قومًا يعرفون بـ«البكم» في غرب إفريقيا .

أظهر الرحيل صورة الآخر واضحة على شاشة تفضح سلوكه العام . إنه الأوربي الأبيض النصراني ، الذي جاء باحثًا عن إرواء شبقه ، وقد رأيناه قبل قليل بصورة المنقب الآثاري «فوستباستر» حينما وقع اختطاف الصبي «فارا» من طرف تجار الملح ، وأخذ إلى مدينة «أودافوست» ، حيث مرّت القافلة بإحدى القرى ، فخيّمت للراحة ، وتناولت الطعام ، وسرعان ما حضر رجل «أشدّ بياضًا من المؤلف» بعينين زرقاوين تدوران بسرعة تشي بالحذر والتوجّس ، وقد لفّ وسطه بثوب وسخ ، كشف جسده الأبيض بصحبة مترجم أسود ، ثمّ خاطب القافلة مفصّلًا بلا مواربة عمّا يريد ، قال : «أريد الالتحاق بقافلتكم إلى «أودافوست» ، لقد حدّثني العارفون ، بأنّه توجد بتلك المدينة جوار حسان الوجوه . . بيض الألوان . . مشوقات القدود . . لا تنكسر نهودهن . . لطاف الخصور . . ضخام الأرداف . . المستمتع بالثيب منهنّ كالمستمع ببكر»<sup>(١)</sup> . ما إن انتهى من الإفصاح عن هدفه حتى صار يشار إليه بـ«النصراني» .

لم يستنكر أحد في القافلة أو القرية رغبة النصراني المعلنة ، إنّما رُحّب به ودعي للجلوس مع الجميع ، فهو يخاطب تجارًا للذهب والملح والعبيد والإماء ، ومن الحكمة أن يعلن عن مطالبه منذ البدء بلا مواربة ؛ فحيثما تكون ثمة تجارة ، فليس مهمًّا السؤال عمّا يُتاجر به ، لقد قطع «النصراني» مسافات بعيدة بحثًا عمّا يروي شبقه . إنه يصطحب مترجمًا أسود ، ولكنّه يبحث عن جوار بيضاوات . وبما أنّه كان «صاحب شهية خارقة» ، ولديه ولع بنشاء محليّ ، فقد أفرط في الأكل ، وراح يطلب المزيد منه ، بل إنه ازدرد جميع مشتريات القافلة من النشاء . فكان أن أصيب بمغص شديد ، فراح يتلوّى ، وحينما سقاه طبيب القرية حساء من دقيق البقول والسكر واليانسون مرفقة بالتعاويد ، عصفت به نوبات متتالية من القيء . ثمّ رحلت القافلة . جاء لإرواء ذكره فإذا به يسقط ضحية لشراهة بطنه .

في أثناء الرحلة تصادف أن حاذى النصراني «فارا» ، حاملاً سبحة طويلة بين يديه ، وقد بان عليه التعب ، فأراد «أن يتشفّع بهذا السلوك الدينيّ ، عسى أن يرقّ له رجال القافلة فيركبوه . صار النصراني يساير كلّ صاحب جمل بعض الوقت يشكو إليه

(١) م . ن . ص ١٩

التعب ويرجوه أن يُركبه ، لكنهم كانوا يعرفون أن الجمال مثقلة بما يكفي ، وهي أعزّ على قلوبهم من «النصراني» ، فراح يتوسّل ويستغيث ، وقد أدميت قدماء ، وبدأ عليه الإرهاق بسبب التخمة والقيء ، فصار موضوعاً للسخرية من رجال القبيلة ، «تسلّح بالصبر . فالصبر مفتاح الفرج ، والجنة حُفّت بالمكّاره» ، قاصدين السخرية من تقواه المزيفة ، ومشيرين إلى جنة النساء في أودافوست التي تجشّم عناء السفر للوصول إليها .

ولمّا يُنس منهم ، تواطأ مع أحد العبيد لحمله على ظهره مقابل ثلاث ورقات من التبغ ، فجعله مطيّة له . لفّ ساقيه البيضاء حول جسد العبد الأسود الذي كان يترنّح بحمله ، ثمّ رفع رأسه إلى سماء الليل «يتأمّل درب التّبانة . . الطريق البيضاء في السماء . ثبّت بصره على الرامي الذي كان في برجه على وشك أن يطلق سهمه . . تراقبه بإعجاب ، جميلات الضيف الثلاث . السماء من حول البرج كانت مرصّعة بالجواهر اللمّاعة ، والليل يسري على وتيرته الطبيعيّة موهماً أن الزمن قد توقّف ، وأنها تستطيع معانقة وجودها خارج سلطانه!! لم يكن ثمة ما يخدش سكينه الليل سوى أنفاس الجمال ، وصوت انحطام الأعشاب تحت أخفافها»<sup>(١)</sup> . ابتلعت السماء رغبة النصرانيّ ومعاناة العبد . من الطريف أن يتأمّل غربيّ شبق من على ظهر عبد زنجيّ سكّون السماء في الصحراء الكبرى .

بعد سفر طويل وصلت القافلة إلى غانا ، فاستوقفت على الأبواب ، وحضر جباة الملك فاستوفوا ضرائب الدخول ، ثمّ اتّجهت بعد ثلاثة أسابيع ناحية «أودافوست» ، وانتهى بها الأمر في سوق المدينة ، وهو ميدان عامّ تختلط فيه كلّ الأشياء ، «فضوليّون وحدّادون يبحثون عن الجلود والمعادن الكريمة الضروريّة لصناعتهم ، وأناس يبحثون عن السلع النادرة يشترونها ، وتجار العبيد ، وصيادو الطرائف من الأخبار واللغات والنوادير ، وجحافل الشعراء والموسيقيّين السّالّين الذريبيّ الألسنة ، والسحرة والحواة وباعة التّمائم والشعوذات ، وأشياخ الطرق الصوفيّة ودعاة الاتّصال بالعالم الآخر ، وبائعات الهوى المحترفات . جمهور مختلط من مختلف الأجناس والألوان تتلاقى فيه المسلمات المحتجبات ، ونساء الطوارق الحاسرات الرؤوس ، والسودانيّات الوثنيّات حليقات الهام»<sup>(٢)</sup> .

(١) م . ن . ص ٢٤ .

(٢) م . ن . ص ٢٥-٢٦ .



يتكوّن سوق «أودافوست» من أجنحة عديدة: جناح العبيد، وجناح السلاح، وجناح الكلام، حيث يباع النظم والنثر، ثمّ جناح الإماء حيث تعرض فيه النساء «شبه عرايا تتدلّى من عاناتهن عقود من الخرز والعقيق الأحمر والخص . تبرز عظم مآزرهنّ ودقاقة خصورهنّ . كان بعضهنّ يرقصن رقصة هزّ الأرداف على صوت مزمار يعزفه عيّن ساحر . . وأخريات يتخافتن بأغنية مؤثّرة بنبرتها الدقيقة ونطقها اللطيف . نظرات الجمهور تتجولّ في حديقة مزهرة من الجمال الأنثويّ، تحطّ على الشفاه الدقيقة والحدود الأسيلة والجفون الهدب والخصور الهضيمة، والصدور المرمريّة والقوامات الرشيقة والعيون الساحرة والأنوف القانيات، والشغور البرّاقة والبشرة الناعمة المتألّثة والشعور الملساء السبّطة أو الجعدة المنفوشة إلى أعلى كالقباب»<sup>(١)</sup> .

تشكيل من نساء أفرط السرد في التمعّن بتفاصيله، وكان الفضوليّون يستنشقون أريج الجوّاري المثير، ولم يخل الأمر من «بربريّ عيّن بوذيّ الشكل» تولّى التعريف ببضاعة الإماء «هيا . تعالوا . اقتربوا . لاحظوا كم هنّ جميلات، فائنات . إنهنّ من أصول نبيلة، منهنّ نوبيّات أصيلات . انظروا إلى هذه . ووضعه يده على خصر إحداهنّ . تستطيعون أن تحصلوا عليها بمئة وخمسين ديناراً فقط . تقدّموا انظروا، بإمكانكم أن تلمسوا إذا أردتم»<sup>(٢)</sup> . لقد جرى تسويق النساء بطريقة بارعة في جناح الإماء، وهنا ظهر «النصرانيّ» الذي قصد المكان، فقد تقدّم «يزحف كالحشرة، يضع خيشومه المعقوف كالمنقار على هذه أو تلك، وهاتيك من الإماء» .

انتهى الأمر بـ«فارا» عبداً عند سيّد ثريّ، بعد أن عرض في سوق النخاسة بالمدينة . ولكن إلى أين انتهى الأمر بالنصرانيّ الشبق الذي جاء المدينة متوعداً بفحولته؟ لا يفصح السرد عن ذلك، لكنّ الإشارات الضئيلة في سياق الأحداث ترجّح أنّه مدّع لقوّة الباه لكنّه فاقد لها، فقد اكتفى بإلقاء خطبة عن الجوّاري الجميلات حينما كنّ بعيدات عنه، ولكنّه بالغ في تناول حساء النشاء، وحينما وصل سوق الإماء اكتفى بالتشمّم .

أعادت رحلة الصحراء تركيب هويّة الشخصيّة الرئيسيّة، فدُفعت إلى خوض تجربة اكتشاف في الزمان والمكان، تأتّى عنها تحوّل في المعتقد والملكيّة، كان «فارا»

(١) م . ن . ص ٤٦

(٢) م . ن . ص ٤٦-٤٧

صبيًا حرًا في كنف عائلته ، فأصبح عبدًا يتداول بيعه تجار الصحراء . وكان وثنيًا في علاقة شفافة مع أصنامهم ، فصار تابعًا دينيًا خانعًا ، وضحية لمعتقد متشدد في بيدا مترامية ، وانتهى به الأمر مهلوسًا جراء العطش والجوع ، فقد هتك الارتحال براءته ، وجنى عليه المعتقد الجديد ، فاختلف توازنه ، وظلّ مفقودًا إلى النهاية . كان بهويّة موصوفة لها بعد واحد ، فانتهى هلامًا مركّبًا وقد اختلطت في وعيه ولا وعيه أشياء العالم كلّها ، فلا تميّز لأنّ الذاكرة أصبحت شاحبة ، ولا كلام فقد انعقد اللسان في صحراء صامتة إلّا من العواصف .

## ٨. خاتمة:

يعاد صوغ هويّة المرتحل من خلال البحث والاكتشاف ، فالآخر المختلف دينيًا أو عرقيًا أو ثقافيًا ، يقترح على الشخصية المترحلة ضروريًا من التجارب تؤدّي إلى تغيير في موقع الشخصية داخل الفضاء المتخيّل للسرد ، وتغيير الموقع يقود إلى تغيير رؤية الشخصية لنفسها ولعالمها ، فكّلما أضيفت تجربة جديدة جرى توسّع في منظور الشخصية ، وبترافق ذلك مع الاكتشاف الذي يفضي بالشخصية إلى عالم مغاير عن عالمها الأصليّ ، فتسعى إلى ترميم نفسها في ضوء المعطيات الجديدة .

لقد شحذ «العالم الأميريكي» منظور شخصيات روايتي «صنع الله إبراهيم» و«علاء الأسواني» ، وجعلها تستعيد الحال الاجتماعية لمصر برؤية نقدية ، امتزج فيها الغضب بالحسّ التاريخيّ المأساويّ ، وأتاح «تلّ المطران» للشخصية في رواية «علي بدر» أن تعيد النظر في سلبيّتها وركودها في بغداد ، حينما خاضت تجربة مختلفة في منطقة نائية مع جماعة مختلفة دينيًا وعرقيًا ، أمّا اختطاف «فارا» ودفعه إلى عالم الصحراء في رواية «مدينة الرياح» ، فقد انتزعه من طفولة ساكنة ، ودفع به إلى رحلة استعباد جعلته يتعرّف الحياة الصعبة للجماعات الصحراوية . على أنّ الارتحال بين العقائد ، أو في العالم الخاصّ بمعتقد واحد ولكن برؤية مختلفة ، كما ظهر ذلك عند «شميت» و«إيكو» و«براون» ، قد أعاد تأهيل الشخصيات ، فقد دوّنت أساطير كثيرة على صفحات الأديان ، بما يقتضي إعادة تأويلها ، الأمر الذي يدفع بالشخصية إلى خوض تجربة فكرية ، تعيد بها تغيير نظرتها إلى المسلّمات الشائعة .

## الفصل الثامن

كذب أبيض وغشّ سرديّ وسوء تأويل



## ١. مدخل

قدّم السرد موضوع الترجمة في مستويين اثنين : مستوى خاصّ بالتأليف ؛ إذ يتنكّر المؤلف بقناع المترجم ، ويحاول أن يتبرّأ من نسبة النصّ إليه مدّعياً أنّه ناقل له من مصادر أخرى ، ومستوى تقوم فيه الشخصية داخل العالم الافتراضيّ للسرد بدور المترجم ، فتتفاعل مع الشخصيات الأخرى وهي تمارس دورها فيه . على أنّنا لا نعدم توسّعاً موازياً لقضية الترجمة ، حينما يتّصل الأمر بكيفية تلقّي الأفكار والمفاهيم وما تتعرّض له من سوء فهم ، يفضي إلى سوء تفسير ، فذلك ينقل موضوع الترجمة من مستوى السرد إلى مستوى الأنساق الثقافية الكبرى ، فهي وسيلة للتفاعل بين الثقافات ، وتعريف بعضها إلى بعض .

يمضي المترجم حياته عالّقاً بين أنظمية ثقافية لكلّ منها سياقاته الخاصّة ، وهو الوسيط القادر على فهم طبيعة هذه النظم ، وإيجاد التفاعل فيما بينها ، وله ميزة يفتقر إليها سواه ؛ إذ مُنح حقّ الترحّل بين اللغات ، وتخطّي التخوم الرمزية للثقافات ؛ فلا ينفكّ يقوم بمهمّة تعريف لا نهاية لها بين الغرباء الذين خيّم عليهم الجهل بالألسنة . وينبغي على المترجم ألاّ يتنكّب لتقاليد المهنة ، فيخون الأمانة التي عُهدت إليه ، فلا يسمح له بالاختصار ولا بالإطناب ، ويُمْنَع عليه التزييف ، والتمويه ولا يُقبل منه الغموض والإبهام ، ويحظر عليه ادّعاء ما لم يقله المؤلّف ، وتجاهل ما قاله ، فمهمّته واضحة ولا تقبل المغالطة والالتباس . وحينما ينتزع المترجم اعترافاً بدقّته ومهارته وحسن اختياره يحضّنه الآخرون ثقتهم .

## ٢. هوس الترجمة:

ولكن ماذا لو بالغ المترجم في صدقه ، وصمّ أذنيه عن الأهواء ، ورغب في استكمال شروط الترجمة إلى درجة يجعل منها لبوساً له ، فيفكّر فيها دوماً ، بل ويحلم بها حيثما يكون؟ لا محالة سوف يصاب بهوس الترجمة ؛ لأنّه سيقع ضحيّة إغراء دائم في البحث عن المقابلات اللغوية ، وسينتهي الأمر به مجنوناً لفرط أمانته .

وسيكون متطابقاً بصورة كاملة مع النصوص التي يترجم عنها ، وتلك التي يقوم بإنشائها .

افترض السرد حالة هوس الترجمة ، ورسم تحذيراً من تبعاتها على قاعدة من الإغواء ، فكلّ انجذاب مبالغ فيه قد يفضي إلى الجنون . حدث ذلك في رواية «الترجمة» للأرجنتينيّ «بابلو دي سانتيس» ؛ ففي محفل كبير عقده المترجمون لتبادل خبراتهم في سائر اللغات ، وعرض الصعاب التي تواجههم ، رغب بطل الرواية «ميغال دي بلاست» في الحديث أمام المؤتمرين عما يُفضي إليه هوس الترجمة من أخطار ، إذا ما أفرط المترجم في التطابق مع ذاته .

لم يكن هو مترجماً أديباً ، إنّما اختصّ بالترجمة العلميّة ، فاختر أن يعرض حالة مرضيّة تكشف ذلك الهوس من وجهة نظر العلم . وكان مثاله طبيّاً من الاتحاد السوفيتيّ تبخر في طبّ الجملة العصبيّة ، وتولّى علاج مترجمة فشلت أيّة محاولة لكبحها عن التفكير الدائم بترجمة كلّ ما تسمعه أو تراه أو تقرؤه . فما إن تُعرض عليها كلمة أو عبارة أو جملة إلّا وتسارع للبحث عما يقابلها . فقدت السيطرة على نفسها ، فمضت في ممارسة الترجمة دونما توقّف ؛ فلم يكف المترجمة العيش في نظام لغويّ واحد ، وإنّما أمست ضحيّة ارتحال دائم بين الأنظمة اللغويّة ، فمضت لا تلوي على شيء إلّا وترجمه دونما سيطرة .

استعمل الطبيب المعالج العقاقير بأنواعها فلم تتحسنّ حال المريضة ، ثمّ لجأ إلى تنويمها مغناطيسيّاً ليُخرجها من حالة الهوس التي تمكّنت منها ، وأربكت حياتها . وخلال جلسات التنويم المغناطيسيّ وجدها تُشفى بطريقة مثيرة للعجب ، فقد أعادها التنويم إلى مرحلة طفولة اللغة البشريّة الواحدة ، أي إلى ما قبل المرحلة البابليّة التي يفترض أنّ اللسان كان فيها واحداً ، حيث توافق الألفاظ المعاني في لغة يعرفها جميع البشر ، كما ورد ذلك في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين ، «وكانت الأرض كلّها لساناً واحداً ولغة واحدة . وحدث في ارتحالهم شرقاً أنّهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك . وقال بعضهم لبعض هلمّ نصنع لبناً ونشويه شيئاً . فكان لهم اللبن مكان الحجر ، وكان لهم الحمر مكان الطين . وقالوا هلمّ نبن لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسما . ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدّد على وجه كلّ الأرض . فنزل الربّ لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنيونهما . وقال الربّ هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم . وهذا ابتداءؤهم بالعمل . والآن لا يمتنع عليهم كلّ ما

ينوون أن يعملوه . هلمّ ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض . فبدّدهم الربّ من هناك على وجه كلّ الأرض . فكفّوا عن بنيان المدينة . لذلك دعي اسمها بابل ؛ لأنّ الربّ هناك بلبل لسان كلّ الأرض . ومن هناك بدّدهم الربّ على وجه كلّ الأرض » .

وحسب الرواية التوراتيّة كان العالم يعيش حقبة سعيدة لا حاجة فيها للمترجمين ، وليس فيها غرباء ، ولم تعرف التعدّد الثقافيّ ، فالتراسل اللغويّ مباشر بين الجميع ، وتستقبل الأسماع الأحاديث كافّة دونما تعويق . وطبقاً للتأويلات القباليّة اليهوديّة ، فقد كانت تلك اللغة هي لغة الجنّة . وإنّه لعالم مثاليّ خال من الرطانة والعجمة . الفهم ميسور فيه ، ولكلّ دالّ مدلوله الذي اتّفق عليه المتكلّمون كلّهم ، فانتفت الحاجة لوسيط يعيد تفسير الألفاظ التي يجهلونها للمعاني المشتركة فيما بينهم . شفيت المترجمة من مرضها حينما تراجعت ذاكرتها بالتاريخ الكونيّ إلى ما قبل خراب بابل وبرجها . وكما تقول التوراة ، فقد تبلبلت الألسن وتفرّقت وتعدّدت الألفاظ ، حينما حاول الإنسان بناء مدينة وبرج .

أراد البابليون أن تكون لهم لغة واحدة يعتصمون بها ، لكنّ إله التوراة أراد تفريقهم في شعاب الأرض ظناً منه أنّهم بذلك سوف ينتهون إلى عصيانه ، فحال خوف الإله دون سعادة البشر في هويّة واحدة . وهذا علاج ذو طبيعة لاهوتيّة يفتّرض أنّ اللغة توقيف ربّانيّ ألهمها الله للبشر دفعة واحدة قبل الحقبة البابليّة ، ويهمل الواقع التاريخيّ لتطوّر اللغات الذي يقول بالمواضعة والاصطلاح بين المتكلّمين حول الألفاظ ومعانيها . وما دام التاريخ هو الذي انتصر في نهاية المطاف ، وانحسر اللاهوت عن المجال العامّ ، فمن المحال العودة إلى ما قبل بابل لاستعادة اللغة الافتراضيّة الأولى ، فلن تتلاشى الترجمة ، وسيظلّ المترجمون يؤدّون مهمّتهم ، عابرين تخوم الثقافات ذهاباً وإياباً بلا كلل . ولكن حذار من هوس الترجمة .

لم يُشجّ السرد الأدبيّ بوجهه عن الترجمة ، إنّما أدرجها في سياق وظائفه ، فجعلها جزءاً من عمليّة التأليف في نوع من الموارد التي تتجنّب الإقرار بنسبة النصّ الأدبيّ إلى مؤلّفه ، ثمّ جعلها مرّة أخرى جزءاً من البنية السرديّة ، حيث يقوم المترجمون بأدوارهم في العالم الافتراضيّ للسرد ، معبّرين عن رؤى ثقافيّة تفصح عن مواقفهم وهويّاتهم ، ثمّ وظّفها حجّة في قضية سوء الفهم ، وخطأ التأويل على مستوى التاريخ والفنّ ، وفي العموم أدخلها في صلب العوالم السرديّة المتخيّلة ، كما أنّه

جعلها جزءاً من الخدع الكتابية ، فربطها بحواشي النصوص أو بمتونها ، فأثرت السرد حينما أصبحت وسيلة فاعلة لتأكيد توقّعات المتلقي حول واقعية الأحداث أو نفيها . ولكن ثمة علاقة ملتبسة بين السرد والترجمة تحتاج إلى إيضاح ؛ فحينما يقع فحص المدونة السردية من زاوية التأليف ، نواجه بمظاهر العجب ، فليس المرويّات السردية القديمة كالشعرية التي يسهل حفظها وتدوينها والاعتراف بملكيتها ، فقد كانت تُدرج غالباً في سياق التقاليد الأدبية الشفوية التي لا تولي أهمية كبيرة لعملية التأليف . كلّما دار جدل حول تأليف المرويّات السردية القديمة يندر الاتفاق على مؤلف معلوم ، فتتضارب الآراء وتتباين وتتداخل ويقوّض بعضها بعضاً ، وينتهي الجدل إلى منطقة المجهولية الكاملة ، فتلك ذاكرة جماعية لا سبيل إلى تحديد صوغها النهائي ، فهي مرويّات قوامها التجميع عبر الزمن .

ويحيل مصطلح المؤلف في اللغة العربية على الشخص الذي يقوم بجمع الأخبار ، ووصل الأجزاء بعضها ببعض ، وليس بابتكار الأحداث واختلاقها . وهذه سمة لازمت عموم التأليف القديم الذي هو تركيب جامع للمرويّات المتناثرة ، وإدراجها في سياق واحد . ولم تهتمّ تلك المرويّات بالإسناد الذي يؤدّي وظيفة التوثيق ، وأسقطت المؤلفين الشفويين ، وصار من العسير التحقق من مؤلّفي الحكايات الخرافية والأسطورية ، ناهيك عن السير الشعبية الزاخرة بالأحداث العجيبة والأخبار الغريبة . وقد تسلّلت نبذ من التقاليد الشفوية إلى السرد الحديث ، واتخذت لها أشكالاً جديدة ، ففي التقاليد الكتابية الحديثة ليس من المتاح إغفال عملية التأليف ؛ إذ تبوّأ المؤلف موقعاً موازياً لموقع النصّ الأدبيّ ، فحاز رتبة ماثلة ، وأصبح من المحذور انتحال النصّ ، أو نسبته إلى غير مؤلّفه ، ومن ذلك فقد ترحّز مفهوم المؤلف نفسه ، وتخلّص من دلالته القديمة ، واقتربن بالابتكار والابتداع .

وعلى الرغم من ذلك أفرز السرد ظواهر خاصّة بالتأليف لا تقرّ مباشرة بنسبة الآثار الأدبية ، إنّما تعزوها إلى مخطوطات مجهولة المؤلف ، أو تنسبها إلى كتّاب عاشوا في زمان مضى ، توارى فيه ذكرهم ، فيقوم المؤلفون بدور المترجمين أو المحققين لها ، متكرّرين بأسماء وهمية للتمويه عن أنفسهم . وهذه حيل سردية لطيفة تفتح الأفق أمام المتلقين لتنشيط مصداقية العقد الافتراضيّ ، الذي يبرمونه مع النصوص في أثناء القراءة ، فتتحقّق وظيفة الإيهام السردية . وبظهور المؤلف في إهاب المترجم الذي يمارس دور الوساطة بين النصوص والمتلقين ، اكتسبت وظيفة نقل النصّ من لغة



إلى أخرى شرعيّتها الأدبيّة ، فقد أسند إلى المترجم مهمّة فكّ شفرات النصّ في اللغة المستهدفة ، وبعثه ليكون بين أيدي القراء .

يريد المؤلّفون محاكاة المترجمين ، اعتقاداً منهم أنّ « الترجمة تفتح نوعاً من الكون المتوازي ، مكاناً وزماناً آخرين ييوج فيهما النصّ بمعان أخرى غير عاديّة » . ولكنّهم يغفلون ، ما داموا قد تواروا خلف المترجمين ، أنّ الترجمة « قد تكون تضليلاً وخداعاً ، تزويراً واختراعاً ، أكذوبة بيضاء » . ولكنّهم يعلمون بأنّ من يشارك فيها « يصبح أذكى ، يتحوّل إلى قارئ أفضل : أقلّ اعتداداً بنفسه ، لكنّه أكثر رهافة في أحاسيسه ، وأكثر سعادة »<sup>(١)</sup> . ولذلك انخرط بعض المؤلّفين في ممارسة سلسلة من الأكاذيب البيض ، حينما ادّعوا بأنهم تراجعمة اقتصر دورهم على نقل النصوص من لغات قديمة إلى أخرى حديثة . ولم يخلوا في رصف الذرائع التي تسوّغ أفعالهم السردية الطريفة ، فتلك من الهويّات المستعارة ، حيث يلبس المؤلّفون أقنعة المترجمين .

### ٣. انتحال صفة:

تقصّد «يوسف زيدان» مؤلّف رواية «عزازيل» أن يتقمّص شخصية المترجم المحقّق ، فادّعى العثور على نصّ سريانيّ قديم (آرامي) ، كُتب في مطلع العقد الرابع من القرن الخامس الميلاديّ ، ثمّ انتدب نفسه لترجمته إلى العربيّة ، وبهذا الادّعاء انتحل صفة مترجم . لم يصرّح زيدان على الإطلاق بأنّه المؤلّف ، وأعرض عن ذلك بإصرار ، فوضع مقدّمة حشد فيها الأسانيد على كونه مترجماً للمخطوط السريانيّ لا مؤلّفاً له ، «يضمّ هذا الكتاب الذي أوصيت أن ينشر بعد وفاتي ، ترجمة أمينة قدر المستطاع لمجموعة من اللفائف (الرقوق) التي اكتُشفت قبل عشر سنوات بالخرائب الأثرية الحافلة الواقعة إلى جهة الشمال الغربيّ من مدينة حلب السوريّة» . ثمّ راح يرتّب الأسانيد ويضفرها ليقوّي من دوره مترجماً ، قائلاً بأنّ تلك الرقوق القديمة ، وصلت بحال جيّدة ، مع «أنّها كتبت في النصف الأوّل من القرن الخامس الميلاديّ» . وفيها أودع «الراهب المصريّ الأصل هيبا ما دوّنه من سيرة عجيبة ، وتاريخ غير مقصود لوقائع حياته القلقة ، وتقلّبات زمانه المضطرب»<sup>(٢)</sup> .

(١) ألبرتو مانغويل ، تاريخ القراءة ، ترجمة سامي شمعون ، بيروت ، دار الساقي ، ٢٠٠١ ، ص ٣٠٥ .

(٢) يوسف زيدان ، عزازيل ، القاهرة ، دار الشروق ، ٢٠٠٨ ، ص ١٠

ومضى زيدان يتحدث عن نفسه قاطعاً صلته المباشرة بتأليف النصّ ومستأثراً بدور المترجم ، «وقد أمضيت سبع سنين في نقل هذا النصّ من اللغة السريانية إلى العربية . غير أنّي ندمت على قيامي بترجمة رواية الراهب هيبا هذه ، وأشفقت على قيامي بنشرها في حياتي . خاصة وقد حطّ بي عمري في أرض الوهن ، وآل زمني إلى خطّ الزوال» . ارتسمت المخاوف العامّة والخاصّة ؛ إذ جازف المترجم فنقل إلى العربية نصّاً ذا محمولات خطيرة ، لا يعدم أن يثير فتنة تلحق به ضرراً بالغاً ، وهو في خاتمة العمر . أتت إستراتيجية الإبعاد أكلها بعد أن جرى تأكيدها مراراً ، وأن الأوان للانتقال إلى سواها ، أي وصف ذلك المخطوط الذي يقع في «ثلاثين رقاً ، مكتوبة على الوجهين بخطّ سريانيّ سميك ، بحسب التقليد القديم للكتابة السريانية الذي يسمّيه المتخصّصون الخطّ الأسطرنجيليّ ؛ لأنّ الأناجيل القديمة كانت تُكتب به»<sup>(١)</sup> . لقد وقع التفريق بين النصّ ومؤلفه .

بعد أن أربك المؤلّف القارئ فتحدّث عن كونه مترجماً ، وقدم وصفاً مسهباً للمخطوط ، انتقل إلى مرحلة أخرى كرّس بها أمر انتحاله بصورة نهائية ، وهي الحديث عن مؤلفه الحقيقيّ ، فذلك يصرف الانتباه عن علاقته المباشرة بالنصّ ، «وقد اجتهدت في التعرّف إلى آية معلومات عن المؤلّف الأصليّ ، الراهب هيبا المصريّ ، إضافة لما رواه هو عن نفسه في روايته ، فلم أجده أيّ خبر في المصادر التاريخية القديمة . ومن ثمّ ، فقد خلّت المراجع الحديثة من أيّ ذكر له . فكأنّه لم يوجد أصلاً ، أو هو موجود فقط في هذه (السيرة) التي بين أيدينا . مع أنّي تأكّدت بعد بحوث مطوّلة من صحّة كلّ الشخصيات الكنسيّة ، ودقّة كلّ الوقائع التاريخية التي أوردها في مخطوطته البديعة هذه ، التي كتبها بخطّه الأنيق المنمّق من دون إسراف في زخرفة الكلمات ، وهو ما تُغري به الكتابة السريانية القديمة (الأسطرنجيليّة) الزخرفيّة بطبعها . وقد مكّنني وضوح الخطّ في معظم المواضع من قراءة النصّ بيسر ، وبالتالي ترجمته إلى العربيّة دون قلق من قلق الأصل واضطرابه ، مثلما هو الحال في معظم الكتابات التي وصلتنا من هذه الفترة المبكّرة»<sup>(٢)</sup> .

لم ينجح في معرفة ذلك المدوّن الراهب ، فقد أهملت المصادر القديمة ذكره ،

(١) م . ن . ص ١٠

(٢) م . ن . ص ١٠-١١ .

وطمس وجوده بين الأحداث منذ خمسة عشر قرناً . ويكاد زيدان بهذه المواربة يقول إن مؤلفه إنما هو «هي بن بي» ، أي لا وجود له في الحقيقة ، ولكن ذلك الإقرار لو صُرح به فسوف يتعارض كلفة مع ما يهدف إليه ، وهو انتحال دور المترجم . ولكي يمضي في تعميق الوهم راح يعترف بالمساعدة التي قدّمها له كبير الرهبان في دير السريان بقبرص في تحقيق الترجمة ، وتصويب الأخطاء فيها ، فوجب شكره «لما أبداه من ملاحظات مهمّة على ترجمتي ، وتصويبات لبعض التعبيرات الكنسيّة القديمة التي لم تكن لي ألفة بها» .

ثم عرّج على منطقة مهنيّة ، فشكّ في مستوى ترجمته بأن أطرى الأصل ولغته الرفيعة ، «لست واثقاً من أنّ ترجمتي هذه إلى العربيّة ، قد نجحت في ماثلة لغة النصّ السريانيّ بهاءً ورونقاً . فبالإضافة إلى أنّ السريانيّة كانت تمتاز منذ وقت مبكّر بوفرة آدابها وتطوّر أساليب الكتابة بها ، فإنّ لغة الراهب هيبا وتعبيراته ، تعدّ آية من آيات البيان والبلاغة ، ولطالما أمضيت الليالي الطوال في تأمل تعبيراته الرهيفة البليغة والصور الإبداعية التي تتوالى في عباراته ، مؤكّدة شاعريّته وحساسيته اللغويّة ، وإحاطته بأسرار اللغة السريانيّة التي كتب بها»<sup>(١)</sup> .

ولم يكتف زيدان بكلّ ذلك ، إنّما بيّن مواقع تدخّلاته الخارجيّة بوصفه مترجماً ، ومن ذلك إعادة توزيع فصول النصّ حسب عدد الرقوق ، وقد أعطى لها عناوين من عنده ، ولكي يسهّل للقارئ أمر الترجمة «التي يُنشر فيها هذا النصّ النادر لأوّل مرّة ، وتسهيلاً للقارئ أيضاً ، استعملت في ترجمتي الأسماء المعاصرة للمدن التي ذكرها الراهب هيبا في روايته . . . وقد وضعت بعد الشهور والسنوات القبطيّة التي ذكرها المؤلّف ، ما يقابلها من الشهور والسنوات الميلاديّة المعروفة اليوم . وأوردت ، في مرات قليلة ، بعض الملاحظات والإشارات الضروريّة الموجزة ، وبعض التعليقات (العربيّة) التي وجدتها في الحواشي . ثمّ ألحقتُ بالرواية بعض الصور المرتبطة بأحداثها» . وختتم هذه السلسلة من الأسانيد بأن وضع في نهاية المقدّمة صفته التي انتحلها ، وهي «المترجم» ، ثمّ ثبتّ التاريخ والمكان اللذين انتهى فيهما من كتابة مقدّمته (الإسكندريّة في ٤ إبريل ٢٠٠٤) .

ادّعى يوسف زيدان وساطة جديدة بين النصّ الذي كتبه والمتلقّي الذي سوف

يقرّه ، فبوساطة التأليف استبدل وساطة الترجمة . ويخيّل للقارئ وهو يمضي في قراءة الكتاب ، أنّ المؤلف لجأ إلى انتحال هذه الصفة ليجنب نفسه الأخطار التي قد تترتب على مضمونه ، وفي مقدّمة ذلك فضح الصراع الكنسيّ الذي شهدته المسيحيّة في أوّل عهدها ، وكشف النزاع الدمويّ بين الوثنيّات القديمة والديانة النصرانيّة الناشئة ، إلى ذلك يجنبه ادّعاء الترجمة الأخطاء المحتملة في وصف تلك الحقبة التاريخيّة الحبلى بالأحداث الكبيرة وما تمخّض عنها ، ولكنّ كلّ ذلك لا قيمة له في التحليل النقديّ ، فتلك حيلة سرديّة لوضع النصّ في إطار يحميه من الانزلاق إلى منطقة الهشاشة ، فكّلما جرى التأكيد على قدم النصّ تعزّزت مصداقيّته الفنيّة ، لكونه شاهداً على الأحداث التي عاصرها . وقد لامس النصّ المفاصل الكبرى للصراعات الكنسيّة ، واستوحى منها أحداثه كافّة ، ولكنّه ابتكر حبكة السردية ، بل واشتقّ بمهارة الحيلة القائلة بأنّ الراهب هيبا كان شاهد عيان من الدرجة الأولى على تلك الأحداث ، وأنّه كان يدوّنّها سرّاً خلال فترة اعتكافه ، فلا وسيلة أكثر إقناعاً في تعزيز ذلك أكثر من انتحال المؤلف صفة المترجم ، فبهذا النوع من الوساطة تنبثق علاقة جديدة بين القارئ والنصّ .

#### ٤. الشبهة واستعادة هويّة النصّ:

لم يتفرّد يوسف زيدان بذلك دون سواه من المؤلّفين ، فقد استفاد الروائيّ الفرنسيّ «جيلبرت سينويه» من تقنيّة سرديّة مماثلة في روايته «ابن سينا» ، حينما ادّعى ترجمة فرنسيّة لمخطوط عربيّ قديم كتبه عن الشيخ الرئيس أحد تلامذته . ومعلوم أنّ أبا عبيد الجوزجانيّ ترك سيرة مكثّفة لابن سينا ، شقّت طريقها في تاريخ الأدب العربيّ ، وأدرجها بعض كتّاب التراجم والتواريخ في مؤلّفاتهم الكبرى<sup>(١)</sup> . ويتكوّن نصّ الجوزجانيّ من قسمين . في الأوّل يباشر ابن سينا الحديث عن نفسه وعائلته وتعليمه وارتحاله ، وقد ورد بصيغة السرد المباشر ، وكلّ ما احتواه هو ما حدّث به التلميذ «من لفظه» . ويصوّر الثاني حياة الشيخ في جرجان ، والريّ ،

(١) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق نزار رضا ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ص ٤٣٧-٤٥٩ ، القفطيّ ، تاريخ الحكماء ، بغداد ، مكتبة المثنى - القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ص ٤١٣-٤١٧

وهمدان ، وأصفهان ، وكله جاء بلفظ الجوزجانيّ ، فتناغم محتوى السيرة مع تقسيمها الشائنيّ .

رسم القسم الأوّل رحلة التكوّن الشخصيّ والمعرفيّ لابن سينا ، وفيه كشف أصوله البلخيّة ، وانتقال أسرته إلى بخارى ، وشغفه بالمعارف الطبيعيّة والإلهيّة والطبيعيّة والرياضيّة والمنطقيّة . وانتهى بوصوله إلى جرجان حيث التقى الجوزجانيّ الذي تولّى استكمال أحداث النصف الثاني من حياة ابن سينا ، وفيه تحوّلت صيغة السرد الذاتيّة إلى صيغة موضوعيّة ، وحلّ التابع محلّ المتبوع في رواية الأحداث بوصفه شاهد عيان على المرحلة الثانية من حياة الشيخ في الرّي ثمّ همدان ، حيث تقلّد الوزارة أكثر من مرّة ، وانتهى معتقلاً في قلعة فردجان ، ثمّ خروجه إلى أصفهان متنكراً بزيّ الصوفيّة ، والتحاقه بالبلاط ونهايته مريضاً في أصفهان ؛ إذ أدركته المنية وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة . وفيه إشارات لافتة إلى إغراقه في المتع الجسديّة دونما حذر ، إذ كانت «قوّة المجامعة من قواه الشهوانيّة أقوى وأغلب» ، فعبّ منها عباً على الرغم من مرضه ، فلم يكن «يتحقّق ويكثر التخليط في أمر المجامعة ، ولم يبرأ من العلة كلّ البرء ، فكان ينتكس ويبرأ كلّ وقت» . وحينما يؤس من العلاج أهمل مداواة نفسه ، وأخذ يقول : «الدبّر الذي كان يدبّر بدني قد عجز عن التدبير»<sup>(١)</sup> .

رسمت مدوّنة الجوزجانيّ إطار سرديّاً يوافق مسار حياة معلّمه ، فوجده «سينويه» مناسباً ليقم عليه الهيكل العامّ لروايته ، فأجرى الحديث على لسان التلميذ باعتباره كاتبها ، وميّز نفسه بوصفه مترجماً ، فكان يمضي الحواشي بتلك الصفة ، ويسعى إلى الإيهام السرديّ ، قاصداً إقناع القارئ «بأنّ المؤلّف الفرنسيّ ليس أكثر من «مترجم» لسيرة ابن سينا كما كتبها الجوزجانيّ ، وهذا يعني أنّه ليس سوى «ناقل» أمين لنصّ كتب في الأصل بالعربيّة»<sup>(٢)</sup> .

انتحل سينويه دور المترجم الفرنسيّ لنصّ عربيّ قديم كتب في النصف الأوّل من القرن الحادي عشر الميلاديّ ، وأحسن المترجم العربيّ آدم فتحي صنعاً ، حينما عدّ نفسه «معرّباً» أعاد النصّ الفرنسيّ المترجم إلى أصوله العربيّة ، فمثّلما قام «المؤلّف»

(١) ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٤٤

(٢) جيلبرت سينويه ، ابن سينا والطريق إلى أصفهان ، ترجمة آدم فتحي ، كولونيا ، دار الجمل ،

الفرنسيّ بلعبة سرديةً بليغة ، جاره «المترجم» العربيّ بلعبة مناظرة ، فكأنّه بذلك أعاد هويّة النصّ إلى حاضنته العربيّة . وحيثما اقتضى الأمر كان يستعين بالنصوص الأصليّة ، بما فيها الفقرات والعبارات المنتزعة من النصّ الأصليّ ، فضلاً عن الأشعار والآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة ، فجاء تعريبه ربيعاً جاري به أساليب الكتابة العربيّة القديمة .

ندب المؤلّف نفسه مترجماً ، فمارس سطوّاً سردياً على نصّ عربيّ قديم وقصير ، وأحاله إلى رواية فرنسيّة حديثة وكبيرة ، دون أن يغفل مصدره ، أو يتنكّر لصاحبه ، وبهذا الصنيع ركّب «سينويه» نصّ روايته على نصّ سيرة الجوزجانيّ ، ثمّ عبّاه بوقائع كثيرة متوسّعة في العناصر السردية كافّة ، جاعلاً من الصراعات السياسيّة والدينيّة والعرقية في بلاد فارس خلفيّة كاشفة لابن سينا وعصره ، وذابت شخصيّة التلميذ في شخصيّة الأستاذ ، فبدأ يرى العالم من منظوره منذ التقاه في جرجان ، وأصبح تابعاً له ، «ما إن أنقذ حياتي حتى غدا هو بصري وغدوت أنا ظلّه ، فلم أر إلى أمر من أمور الناس إلّا بعينيّه ، ولم أنظر في شأن من شؤون الفكر إلّا بعقله . والحقّ أنّي لم أسأل يوماً ولا رغبت في أن أسأل ، إن كان قد انتبه إلى مبلغ شغفي به أو استوثق من تفانيّ في الإخلاص له ، فقد كان طيلة خمسة وعشرين عاماً مثل العين المنحدرة من ذرى طبرستان ، التي تقول الخرافة إنّها تكفّ عن الجريان ما إن يطلق المسافر صرخة أليم ، وهكذا كنت كلّما عرف معلّميّ العذاب توقّف سيل حياتي عن التدفّق»<sup>(١)</sup> .

حينما يختار المؤلّف أن يتنحّى جانباً ، ويدّعي دور المترجم ، فسيكون مسؤولاً عن فحوى ما يُترجم ، وينبغي عليه أن يتعهّده بالتحقيق والتوثيق ووضع الحواشي التوضيحيّة ، والهوامش الشارحة في نهاية الفصول ، وينسبها إليه ليزيد من مساحة الوهم بأنّ علاقته بالنصّ علاقة نقل وليس علاقة ابتكار ، وهو ما قام به سينويه ، فقد استثمر الهوامش لشروحات دفعت عنه شبهة التّأليف ، وروّجت لشبهة الترجمة ، فتبنّي الشبهة الأخيرة يناسب العلاقة المقترحة بين نصّ قديم ومؤلّف معاصر ، فالزمن كفيل بردم الهوّة . ولكن حدث أن قدّم تاريخ السرد الأدبيّ مثلاً مقارباً لهذا الضرب من الغشّ السرديّ يجدر الوقوف عليه .

(١) م . ن . ص ١٨٩

## ٥. غشٌ سرديّ:

بُني كتاب «دون كيخوته» لـ «ثرابانتس» على مبدأ التهكم، وصاغ فلسفة للسخرية، حينما بالغ في نقض البديهيّات، واحتفى بالحالات. فكلما زاد المؤلّف في وصف جنون دون كيخوته، وأفرط في كشف أوهامه المستعارة من كتب الفروسية، وضع بين يدي القراء كتاباً رصيناً تتوافر في كاتبه شروط العقل، فبنفي الاتزان عن الفارس النبيل تتكرّس سمة التعقل عند المؤلّف، وبرصف مساوئ الكتاب في الاستهلال تتأكّد عند القراء رغبة في تقديره. قدّم المؤلّف هجاءً صريحاً لتقاليد الكتابة الشائعة من خلال المبالغة في إطرائها، فأضمر المدح في طياته قدحاً لا يخفى على أحد.

لاحت مظاهر التهكم في وصف «ثرابانتس» لكتابه عندما قارنه بكتب معاصريه، فما إن انتهى من تأليفه حتى جلس ينتظر الإلهام ليدبج مقدّمة له قبل نشره، فراوغه الإلهام وداوره متمنّعا، وأبى أن يستجيب له، فكان أن خاطب القارئ معترفاً بأنّه انتهى من تأليف الكتاب، ولكن «أشقّ ما صادفته هو كتابة المقدّمة». فقد استعصت عليه، وانكفأ على نفسه حائراً يفكرّ بالذي سوف يذكره في الاستهلال الذي لا بدّ منه في مطلع كلّ كتاب.

لقد أصيب بالعيّ، ولحقه العجز، وخارت قواه، فأصبح غير قادر على قول أيّ شيء ذي قيمة يصدر به كتابه. وكان أمله أن يخرج بكتاب يكون «أجمل وأروع وأظرف ما يمكن تخيله»، لكنّه لم يقوَ على مخالفة نظام الطبيعة الذي «يقضي بأن يلد الشيء شبهه»، فماذا عسى «أن تلد قريحة عقيم فاسدة التهذيب مثل قريحتي، أللهمّ إلّا تاريخ ولّد جاف هزيل شاذّ مليء بالأفكار المتفاوتة لم يتخيّل مثله أحد من قبل؟»<sup>(١)</sup>. وما دامت قريحة المؤلّف فاسدة فلا ينتظر منها أن تأتي إلّا بكتاب يناظرها في الاضطراب والخلل. ثمّ إنّ ناشد القارئ ألاّ يغفر له الأخطاء، وألاّ يتغاضى عن السقطات، فهو وإن بدا أنّه الأب الحقيقيّ لكتاب «دون كيخوته»، لكنّه في الواقع لم يكن «غير أب زنيم». إنّهُ أب دعيّ غير مؤهلّ للانتظام في قائمة المؤلّفين المعترف بهم.

بدأ المؤلّف يثير نقمة القراء ضده وضدّ الكتاب الذي ألفه. وفيما هو يائس

(١) ثرابانتس، دون كيخوته، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دمشق، دار المدى، ١٩٩٨، ١: ٢٥

ومنقطع الرجاء ، وقد قرّر العدول عن نشر «الأعمال المجيدة التي قام بها ذلك الفارس النبيل» ، زاره صديق «ذكيّ لطيف» وأخبره بالأّ يفرط في أهميّة القراء ، ويسرف في تقديرهم ، فتلك مبالغة لا معنى لها ، واحتفاء هم غير جديرين به ، فكان أن أجابه عن حاله أمامهم ، «بعد أعوام طوّال رقدتُ خلالها في صمت النسيان ، وقد جئت اليوم حاملاً أعوامي على عاتقي ، ومعني أسطورة جافة جفاف عود الغاب ، فقيرة من الإبداع ، هزيلة الأسلوب ، عارية من الأفكار ، يعوزها التحصيل العلمي والمذهب ، خالية من الحواشي على الهامش ومن الشروح في الآخر» .

أجمّل بهذه الشكوى عيوب كتابه حينما قارنه بالكتب الرائجة في عصره ، وجلّها كان يوشى بكلمات أرسطو وأفلاطون على نحو جعلها مصدر إعجاب القراء ؛ إذ جاءت حافلة بآيات من الكتاب المقدّس ، إلى درجة يُظنّ أن مؤلّفها من أُنّاد القدّيس توما ، ومن كلّ ذلك خلا كتابه ، فلا وجود لما يُحشى به من هوامش ، أو ما يُشرح في الآخر ، وهو لم يقتبس عن مؤلّفين مشهورين ليورد ثبّتاً بأسمائهم في مطلع الكتاب كما يفعل غيره ، إلى ذلك ينقص كتابه «الاستهلال بالأناشيد» المنسوبة إلى المشاهير . ولكلّ هذه العيوب التي لا يمكن التغاضي عنها عقد العزم على إبقاء «السيد دون كيخوته مقبوراً في أضيّاب محفوظات إقليم المانتشا ، حتى تأذن السماء فترسل من يزيّنه بكلّ هذه الأشياء التي تنقصه»<sup>(١)</sup> .

قدّم المؤلّف باقة من الذرائع لا تفسّر عجزه عن كتابة المقدمة فحسب ، إنّما تؤكّد رغبته في طمر الكتاب ، وإخفاء الأعمال الجليلة التي قام بها الفارس الشجاع ؛ لأنّه لم يحز على الشروط المناسبة التي تجعله كتاباً ذائع الصيت ، وجديراً بالتقدير ، إنّ خديج مشوّه ، لم تكتمل مزاياه الأساسيّة ، فينبغي ألاّ يطرحه بين يدي القراء . وحينما أصغى الصديق الذكيّ إلى كلّ ذلك استغرب ، وضرب كفّاً بكفّ ، فقد توّهم بأنّ صديقه «ثريانتس» صاحب حكمة ودراية ، فإذا به يراه بعيداً عن أن يكون كذلك «بعد الأرض عن السماء» ، فأنتى لتلك الأسباب الواهنة أن تعوق عقلاً ناضجاً مثل عقله ، فليس ذلك القرار سببه قلة المهارة بل الإفراط في الكسل . وما لبث أن وضع بين يدي صديقه جملة من حلول ناجعة ، لو أخذ بها فسوف تجعله يعدل عن قراره في عدم «إذاعة تاريخ رجلك الشهير دون كيخوته ، نور الفروسيّة الجوّالة كلّها ومرآتها» .

(١) م . ن . ١٠ : ٢٦-٢٧



شرع الصديق يفنّد الأسباب التي توهّمها المؤلّف ، وهو يقترح البدائل التي ستجعل كتابه مثار اهتمام الجميع ؛ ففيما يخصّ غياب الأناشيد والأهاجي والمدائح عن استهلال الكتاب ، فعليه أن ينظمها بنفسه وينسبها إلى ما شاء من أسماء معروفة ، ولو فُضح الأمر فيما بعد ، وبأن الكذب ، وكشف الخداع ، فلن تُقطع اليد التي كتبت ذلك . ثمّ ينبغي عليه للاحتيال على افتقار الكتاب لأسماء المؤلّفين القدامى وأقوالهم أن يتصرّف في وضع عبارات مأثورة باللغة اللاتينية ، ونسبتها للمشاهير ، أو اقتباسها من الكتاب المقدّس ، فلا أحد يمكن له كشف ذلك التزييف ، ويحتمل أن تؤخذ مأخذاً حسناً من القراء المهوسين بمثل تلك الأقوال والأسماء . وتُحلّ مشكلة الشروحات التوضيحية في نهاية الكتاب بإدراج أسماء الشخصيات الشهيرة والأماكن المعروفة في المتن ، وعليه في هذه الحال اقتباس ما شاء له من معلومات عنهم من الكتب الشائعة وحشو كتابه بها ، وسيجد ما يفي بحاجته وزيادة ، إذا ما تطرّق إلى اللصوص والنساء والفرسان ، فالمراجع المتوافرة عن كلّ ذلك لا تحصى .

أمّا النقل عن المؤلّفين القدامى المشهورين ، وهو «مّا يرد في سائر الكتب ، وينقص كتابك» ، فعلاجه الاستعانة بكشكول جامع لسائر الأقوال المأثورة والاقتراض منه ، بل ويمكن إدراج كلّ ما يحتويه ذلك الكشكول في كتابه ، وحتى لو فُضح هذا السلخ الشائن ، فينبغي على المؤلّف ألاّ يكثرث له ، إنّما عليه أن يزقّ كتابه بمزيد من تلك الأقوال حتى لو كانت غير مفيدة ، فذلك «يضفي على الكتاب شيئاً من المهابة والتأثير» . فلا أحد يحفل بالتحقّق ممّا يسوقه المؤلّف في تضاعيف كتابه .

هذه وصفة جاهزة للنجاح وضعها الصديق بين يدي المؤلّف عساه أن يرصّع كتابه بها ، ولكن ينبغي عليه أن يعرف أنّ طبيعة هذا الكتاب لا حاجة لها بكلّ تلك الزوائد والزخارف ؛ لأنّه «هجاء لكتب الفروسيّة ، وهي كتب لم يسمع بها أرسطوطاليس ، ولم يكن عند شيشرون أدنى فكرة عنها ، ولم يتناولها القديس باسيليوس بكلمة واحدة» .

وانتهى الصديق إلى مخاطبة المؤلّف : «ما دام القصد من كتابك ليس إلّا كبح بل تحطيم ما لكتب الفروسيّة من تأثير وسلطان في عامّة الناس ، فهل أنت في حاجة إلى استجداء أقوال الفلاسفة ومواعظ الكتب المقدّسة وأخيلة الشعراء وخطب الخطباء وكرامات الأولياء؟» وإذا كان صمّت المؤلّف يضمّر جواباً بالموافقة على الغرض

من تأليف كتابه ، فعليه أن يأخذ بنصيحة الصديق : «اجتهد أن تكون ألفاظك بسيطة صافية أمينة حسنة السبك ، وأن تكون فواصلك رنانة وحكايتك مسلية موشاة ، وأن تكون معانيك مفهومة لا غامضة ولا مضطربة» .

أصغى المؤلف الحائر إلى صديقه ، فانطبعت كلماته في نفسه على نحو جعله لا يماري فيها ، بل يراها «سديدة تستوجب الثناء» ، حتى جعله يؤلف منها استهلال الكتاب ، فبأخذه في الحساب تلك النصائح سوف يجد القارئ «قصة دون كيخوته دلامانتشا الشهير بكلّ بساطتها وبغير خلط ولا التواء . وإنّ جميع سكان إقليم سهل مونثيل ليعتقدون أنّه كان أعفّ عاشق وأشجع فارس شوهد في هذه المنطقة طوال عدّة سنوات»<sup>(١)</sup> .

لا يترك استهلال الكتاب شكاً في نسبة الكتاب إلى مؤلفه ، لكن «ثربانتس» سرعان ما مارس غشاً سردياً صريحاً حينما ادّعى أخذ حكاية الفارس الإسباني من مصادر تاريخية سبقته إلى الاهتمام به . يريد بذلك منح تلك الشخصية هوية حقيقية وليست سردية ؛ إذ اجتذبت إليها عناية طائفة من المؤرخين ، فموقعه في مرتبة ثانية دونهم . ثمّ جاء تصريحه بالعثور على مخطوط عربيّ لتاريخ «دون كيخوته» كي يبطل دعواه الأولى بتأليف الكتاب ، فذكر أنّه عثر على مخطوط بالعربية في طليطلة ، ثمّ استعان بمتّرجم أخبره أنّه عن الفارس «دون كيخوته» كتبه مؤرّخ عربيّ . وبثمن زهيد حصل على ترجمة إسبانية له ، وتكتمّ على الأمر ، ثمّ نشر الكتاب ممهوراً باسمه ، فأبعد المؤلف العربيّ ، وادّعى نسبة الكتاب إليه .

وصف المؤلف ذلك بتفصيل لا ينقصه الوضوح والطرافة ، فقال «كنت ذات يوم في درب القنّاة في طليطلة ، فشاهدت صبياً أتى تاجر أقمشة حريّة لبيعه كراسات قديمة . وأنا شديد الولع بالقراءة . وحتى بقراءة قصاصات الورق التي يقذف بها في الشارع ، فدفعني هذا الميل الطبيعيّ إلى تناول إحدى هذه الكراسات التي كان الصبيّ يعرضها للبيع ، فوجدتها مكتوبة بحروف عربيّة ، ولما كنت لا أعرف قراءتها وإن استطعت تمييز ما هي ، ففكرت فيما إذا كنت أستطيع العثور على عربيّ متنصّر أصبح من الأعاجم (الإسبان) يمكن أن يقرأها لي . ولم أجد مشقة في العثور على هذا الترجمان ، لأنّي لو بحثت عن مترجم من لغة أفدس وأقدم لأمكنني العثور عليه

---

(١) م . ن . ١٠ : ٣٠

أيضاً ، وأخيراً ساق لي القدر مترجماً أعربت له عن رغبتني وناولته الكراسية بين يديه . . . فقام هذا العربيّ المنتصرّ يترجم من العربيّة إلى الإسبانيّة قائلاً : إن العنوان معناه هكذا «تاريخ دون كيخوته دلامنتشا ، تأليف سيّدي حامد بن الأيليّ ، المؤرّخ العربيّ» .

فتذرعت بكثير من الحذر حتى أخفي ما أحسست به من غبطة لما أن قرع سمعي عنوان الكتاب . فانتزعته من بين يدي بائع الحرير ، واشترت من الغلام كلّ هذه الكراسيات القديمة بنصف ريال ، ولو كان من الفطنة بحيث يحزر رغبتني فيها ، لكان في وسعه أن يرجو منها ثمناً أكثر من ستة ريالات . وسرعان ما ابتعدت ومعني العربيّ المنتصرّ ، واقندته إلى رواق الكاتدرائيّة ، ودعوته إلى أن يترجم هذه الكراسيات كلّها إلى الإسبانيّة ، أو على الأقلّ ما يتعلّق منها بدون كيخوته دون أن يضيف أو ينقص شيئاً ، ونقدته مقدّماً الثمن الذي اقتضاه ، وكان هذا الثمن عبارة عن خمسين رطلاً من الزبيب وأربع كيلات من الدقيق ، ووعدني بترجمتها بأسرع وأمن ما يستطيع . لكنّ لهفتي لاستنجاز العمل وحرصني على ألاّ تفلت هذه اللقطة النفيسة من يدي ، جعلاني أقتاد هذا العربيّ المنتصرّ إلى بيتي ، فأتمّ ترجمة هذا التاريخ كلّهُ على النحو الذي أوردناه هنا ، واستغرق في هذه الترجمة ستة أسابيع أو يزيد قليلاً<sup>(١)</sup> .

وقع سطو معلن ، فقد استأثر المؤلّف الإسبانيّ بجهد المؤرّخ العربيّ ، إلى ذلك جرى بخس قيمته ، فذمّ المؤرّخ العربيّ وسائر جنسه بسوء الطويّة ؛ فلمّا أتيحت الفرصة لـ«ثربانتس» لأن يقلّب صفحات الكتاب الذي ارتحل من أصله العربيّ إلى صيغته الإسبانيّة ، واطّلع على إحدى حكاياته ، لم يتوان عن الاحتجاج ، قائلاً : «الاعتراض الذي يمكن أن يوجّه من حيث صدق قصّتنا هذه هو أنّ مؤلّفها من العرب ، والكذب شائع جداً بينهم . ولكنّ عداوتهم الشديدة لنا تجعلنا بالأحرى نتّهمه بأنّه قصّر في قول الحقّ ، لأنّه بالغ وتجاوز الحدّ . وهذا رأيي : لأنّه حين يستطيع بل يجب عليه أن يظنّب في الثناء على هذا الفارس الجواد ، نراه يكاد يخفيه عمداً . وهذا أمر ينطوي على سوء عمل وسوء نيّة معاً ، لأنّ المؤرّخ يجب أن يكون أميناً صادقاً لا يلتفت لفت هوى أو عصبية ، ولا يحيد به الغرض أو الخوف أو الحقد أو الرضا ،

---

(١) م . ن ١ : ٩٤-٩٥

عن طريق الحق . . . وفي تاريخنا هذا سيجد القارئ كل ما يمكن أن يقدمه أشوق التواريخ ، وإذا كان ينقصه شيء حسن ، فاعتقادي أنا أن الغلطة في ذلك ليس غلطة الموضوع ، بل غلطة هذا المؤلف الكلب»<sup>(١)</sup> .

برئى الفارس من أية نقيصة ، وعلى مؤرخه العربي ينبغي أن تطلق سهام اللوم . على أن الأمر لم يتوقف عند هذا الأمر ، ف«ثربانتس» كان يسعى إلى تعميق الوهم لدى المتلقين بأن كتابه وبطله جاء من التاريخ الإسباني وليس من الخيلة العربية ؛ فما إن يعلم الفارس بأن مدون أخباره مؤرخ عربي حتى يصاب بخيبة أمل وانزعاج لا يخفى ؛ لأن مؤرخاً كاذباً وخادعاً لا يمكن أن يصوره على حقيقته الإسبانية التي كان عليها ، فلا بد أن تكون شخصيته قد عرضت لتشويه متعمد . وعلى هذا المنوال ، فبال تأكيد المزدوج من المؤلف والبطل ، يمنح المخطوط أهمية استثنائية لفكرة الانتحال .

ولعل هذه الإشارات تكشف أمرين متلازمين في تاريخ إسبانيا ، أولهما الحضور العربي فيها الذي دام ثمانية قرون ، ثانياً أتاح لـ«ثربانتس» سهولة اختلاق فكرة الأصل العربي للكتاب ، فذلك التاريخ لم يزل إلى عصره يرثى في الذاكرة الجماعية للشعب الإسباني ، وثانيهما أن «دون كيخوته» كتب ونشر في عصر لم تزل تخيم فيه ذيول الأحقاد والصراعات بين العرب والإسبان ؛ فالمؤلف نفسه كان أسيراً في الجزائر على خلفية المنازعة بين الطرفين .

ومن الطبيعي أن تتسلل أطراف ذلك النزاع إلى صفحات الكتاب بالوجهين الإيجابي والسلبي للحضور العربي في إسبانيا ، أو الحروب اللاحقة بين الاثنين فيما بعد ، إلى ذلك فكثير من الهويات الجديدة تتبلور عبر تضخيم الماضي وصراعاته . كانت هوية إسبانيا الناشئة في زمن ظهور الكتاب بحاجة إلى فكرة العدا ، مثلما كانت بحاجة إلى بسط نفوذها في العالم الجديد بوصفها إحدى الإمبراطوريات الكبرى طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد مارس «ثربانتس» خداعاً سردياً مركباً ليتجنب الإفصاح عن كونه مؤلف الكتاب ؛ إذ لم يكتف بنسبته إلى مؤرخ عربي يدعى «سيدي حامد الإيلي» ، إنما جرى شتمه ، واتهامه بالكذب والخداع والتدليس ، وهو انتقاص يرتد إليه في نهاية المطاف ؛ فاسم المؤلف العربي الذي عزا إليه تأليف

(١) م . ن . ١٠ : ٩٦

الكتاب ، وهو «ابن الأيل» ، إنما هو إحالة على اسمه الإسباني Cervantes المشتق من Ciervo أي «الأيل الصغير» ، كما رجّح ذلك المتخصصون في الدراسات الثربانتسية<sup>(١)</sup> ، فقد كنّى عن نفسه بادعاء زائف ، وتلاعب بدلالة الألقاب في اللغتين العربية والإسبانية ليمرّر خدعة سردية بارعة ، فيكون المؤلف قد أفرط في التزييف السردى ليضفي نوعاً من المصادقية على كتابه . ولا غرابة في ذلك ؛ فأحداث الكتاب بمجملها تقوم على إثبات دعوى ونقضها على خلفية مبهجة من السخرية ، فلا يُستكثر عليه أن يمدّد ذلك النسيج المتشابك من الادّعاءات المتعارضة إلى صلب موضوع تأليف الكتاب .

## ٦. مترجم معجال ومتهيجّ الذهن:

وتحدّث «أمبرتو إيكو» في استهلال روايته «اسم الورد» عن حصوله في عام ١٩٦٨ على كتاب بعنوان «مخطوط دون أدسو دا مالك» لمؤلف فرنسي يدعى الأب «فالي» صدر في باريس عام ١٨٤٢ . والكتاب منسوخ بلغة فرنسية حديثة عن آخر

---

(١) م. ن. . انظر هامش ١ : ٩٥ وللاستزادة يراجع العرض الشائق لهذا الموضوع في : عبد الفتاح كليطو ، لسان آدم ، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي ، الدار البيضاء ، توبقال ، ١٩٩٥ ص ٩١-٩٧ . وأقام «واسيني الأعرج» حبكة روايته «البيت الأندلسي» على فرضية سردية تقول بأن سيدي حامد بن الأيلي ، أو سيدي حامد بن النجيلي ، المؤلف العربي المزعوم لرواية الدون كيخوته ، هو عربي يدعى «سيد أحمد بن خليل» من أهل غرناطة ، وصاحب مكتبة في حيّ البيازين . اشترك في حرب البشائر ضدّ الإسبان بقيادة الأمير «محمد بن أمية» الذي اشتهر بـ «صاحب الأندلس وغرناطة» ، والمعروف من قبل باسم «الدون فردناندو دي كوردوبا فالور» ، وبعيد فشل الثورة نفى أحمد بن خليل إلى الجزائر ناجياً من عقاب شبه مؤكّد ، حيث شرع في بناء بيته الأندلسي وفاء للمرأة التي أحبّها ، وما لبث لاحقاً أن كلّف من طرف أغا الجزائر «حسن فينزيانو» بالترجمة لـ «ثربانتس» ومرافقته طوال مدة أسره ، فارتبط الاثنان بعلاقة حميمة وفّرت للكاتب الإسباني الحماية إلى أن أعيد إلى بلاده ، وما أنّه كان راوية بارعاً للحكايات ، فقد أخذ عنه ثربانتس كثيراً من مرويّات كتابه «الدون كيخوته» ، بعد أن أجرى تحريفاً طفيفاً على الاسم اقتضاه النطق الإسباني لاسم سيّد أحمد بن خليل ، فأصبح سيّد حامد بنغاليو ، وانتهى في كتاب ثربانتس باسم «سيدي حامد بن الأيلي ، أو النجيلي» . انظر واسيني الأعرج ، البيت الأندلسي ، بيروت ، دار الجمل ، ٢٠١٠ .

كتاب ظهر بالفرنسيّة القوطيّة في القرن السابع عشر ، وهذا الأخير هو ترجمة لمخطوط كتبه باللاتينيّة راهب ألمانيّ يدعى «أدسو» في أواخر القرن الرابع عشر الميلاديّ ، عن أحداث وقعت في دير إيطاليّ خلال ثلثه الأول . وفيه شهادة مستفيضة دونها «أدسو» في شيخوخته عن زيارة لتقصّي الحقائق في ذلك الدير ، رافق فيها وهو صبيّ يافع ، راهباً إنجليزياً يدعى «غوليمو دا بارسكافيل» .

وتّما جاء في المخطوط : «الآن وقد أشرفتُ حياتي الأئمة على نهايتها وصرتُ شيخاً هرمًا مثل هذا العالم . . يشدّني جسمي المثقل والمريض إلى هذه الحجرة في دير «مالك» العزيز ، ها أنا أتقياً لأن أترك على هذا الرقّ بيّنة على الأحداث المدهشة والرهبة التي عشتُها وأنا شابّ ، معيداً بالحروف والكلمة ما شاهدتُ وما سمعتُ ، دون المجازفة بأيّ حكم أو استنتاج ، كمن يترك للقادمين . . دلالات لدلالات كي تتمرّس عليها عبادة فكّ الرموز . ليجعلني الربّ بفضلته شاهداً شفافاً على الأحداث التي وقعت في دير من الأفضل والأرحم ألاّ أذكر حتى اسمه ، في أواخر سنة ١٣٢٧ للميلاد التي نزل فيها الإمبراطور لودفيك إلى إيطاليا لردّ الاعتبار للإمبراطوريّة الرومانيّة المقدّسة حسب رسوم العليّ ، ولتكذيب الغاصب الدنيء الهرطيق الذي لوّث أفينيون بالفضيحة اسم الحواري المقدّس»<sup>(١)</sup> . جعل المؤلّف من الراهب «أدسو» قناعاً له ، وشرع يُنطقه بما يريد .

ما إن عثر «إيكو» على الكتاب حتى باشر ترجمته من الفرنسيّة الحديثة إلى الإيطاليّة في جوّ مشحون بالدهشة والانفعال والإعجاب ، ثمّ نسي الأصل الذي اعتمده في الترجمة مع صديقة له في النمسا قبل فراقهما ، لكنّه شغل بالبحث عن الأصول القديمة للكتاب ، ولم يعثر إلاّ على نبذ منه مأخوذة عن أصل جيورجيّ ضُمّت إلى كتاب بالفرنسيّة ، وحينما عجز عن العثور على النصّ الذي أعدّه الأب «فالي» ، قرّر نشر ترجمته الإيطاليّة التي أنجزها وهو مفتون بالمخطوط .

كان قد بدأ بترجمة الكتاب على الفور ، وهو متهيّج بأحداث قصّته التي تحفّ بها أسرار كثيرة خفية وغامضة ، ابتداء من مؤلّفها ، إلى موقع الدير الذي سكّته عنه «أدسو» بتحفظ عنيد . وأوّل شعور خالجه هو عدم الارتياح لترجمة إيطاليّة متعجّلة لكتاب فرنسيّ نسخ عن آخر أقدم باللغة نفسها ، كان ترجمة لأصل لاتينيّ ألف في

(١) أمبرتو إيكو ، اسم الوردّة ، ترجمة أحمد الصمعي ، تونس ، دار التركي ، ١٩٩١ ، ص ٢٥

أواخر القرن الرابع عشر، فلربما تشحب الأمانة، ويخيّم الشكّ على مصداقيّة نصّ تعاقبت عليه الأحقاب؛ فالترجمة عن لغة وسيطة تورث القلق، بل هي مصدر ريبة، ناهيك عن التسرّع فيها، ولكنّ المؤلّف معجّال فقد وضع بين أيدي القراء ترجمة لم يكتمل نضجها، فلم يراجع الأصول، ولم يدقّقها، بل إنّه أضاع آخر صيغ النصّ التي نقل عنها، وبهذا أحاط الشكّ بعمله من كلّ جهة.

وعلى الرغم من معرفة المؤلّف بكلّ هذه المحاذير، فلم ينثنِ عمّا بدأ به، إنّما وجد من المناسب، وهو يعدّ ترجمته للنشر، اعتماد أسلوب الكتاب الإيطاليين في القرن الرابع عشر، لكنّه أزاح الفكرة؛ إذ لم يجد سبباً يبرّرها، ليس لأنّ المؤلّف الأصليّ لم يصغ نصّه بالإيطاليّة وإنّما باللاتينيّة، بل لأنّ «ثقافته كانت مطبوعة بطابع أقدم بكثير. كانت عبارة عن جملة من المعارف التي مرّت عليها قرون عديدة، ومن العادات الأسلوبية التي تنتمي إلى التقاليد اللاتينيّة في أواخر القرون الوسطى. كان «أدسو» يفكر ويكتب مثل راهب تكوّن من خلال نصوص آباءيّة مدرسيّة، لم تؤثر فيه ثورة اللغة العاميّة، وبقي متعلّقاً بالصفحات المحفوظة في المكتبة التي يتحدّث عنها، والقصّة التي يرويها كان يمكن أن تُكتب، من حيث اللغة ومن حيث الاستشهادات العلميّة في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر»<sup>(١)</sup>.

ثمّ شرع في مناقشة التغييرات التي ألحقتها ترجمة الأب «فالي» بالنصّ، فقد تصرّف به، وهو ينقله إلى الفرنسيّة المحدثّة، ولم يقتصر ذلك على النواحي الأسلوبية، بل جاوزها إلى إدراج معلومات من مصادر أخرى ظهرت في عصره. وأخيراً رأى من الأنسب له أن يحتفظ «بالفقرات اللاتينيّة التي لم ير الأب «فالي» نفسه داعياً لترجمتها، وربّما للحفاظ على جوّ تلك الفترة»، فجاراه في ذلك مع التخلّص ممّا رآه زائداً. وعلى الرغم من كلّ ذلك ملأت الشكوك نفسه، فلم يعرف السبب الذي جعله يقدّم نصّ «أدسو» باعتباره نصّاً أصليّاً، فسوّغ عمله على أنّه «تصرّف إنسان به عشق. أو لعلّها كانت طريقة للتحرّر من أفكار كثيرة وقديمة كانت تستحوذ عليّ».

لجأ «إيكو» إلى اتباع وصف متراجع، بدأ بعثوره على المخطوط في نهاية ستينيّات القرن العشرين، ثمّ عاد به إلى أصله الذي كتب به قبل نحو ستة قرون، فرسم

---

(١) م. ن. ص ٢٠.

الوصف مسار نصّ أنشئ باللاتينية ، ثمّ نقل إلى الفرنسية القوطيّة ، فالفرنسيّة المحدثّة ، وانتهى بالإيطاليّة ، فحمل حينما ارتحل الملامح الثقافيّة للعصور والمترجمين الملازمين له . أدرج فيه الأب «فالي» و«إيكو» ما عنّ لهما من انطباعات وانفعالات ، وختم تاريخ النصّ بظهور نسخته الأخيرة التي تمثّلها رواية «اسم الوردّة» . شقّ المخطوط طريقه بصعوبة بين اللغات والثقافات والبلاد قبل أن يأخذ صياغته الأخيرة .

ولكي تتحقّق مصداقيّة أكبر ، لجأ «إيكو» إلى تبنيّ العنوانات الداخليّة المطوّلة لفصول الكتاب ، مجاريًا فيها الأساليب المطبّعة لأدب القرون الوسطى ، وجعلها بعدد أيّام الأسبوع ، وكلّ يوم قسم على فترات توافق ساعات الفروض الدينيّة ، لينفي عن المخطوط حدائثه التي لا بدّ أن ترتعن لتوقيت زمنيّ معاصر . ثمّ احتفظ بالصيغ اللاتينيّة الأصليّة كما عمل بذلك سلفه الأب «فالي» ، ليعطي انطباعًا قويًا بانتماء الكتاب إلى عصر الأحداث التي صوّرها ، وهي تبينّ الصراع بين الإمبراطور والبابا ، وبداية نهوض العقلانيّة الغربيّة التي جوبهت برفض رجال الكنيسة . وللوصول إلى ذلك ينبغي على القارئ تخطّي العقبات السرديّة التي تعمّد «إيكو» وضعها في طريقه قبل أن يلامس متن الأحداث ، التي قامت عليها رواية «اسم الوردّة» ، فهذا المسار المتعرّج للمخطوط ، وحرص المؤلف متنكرًا بشخصيّة المترجم على تعقّبه ، يوهمان القارئ بأنّه يباشر أحداثًا حقيقيّة شهدها الدير في مطلع القرن الرابع عشر . وكلّما كان العقد بين القارئ والنصّ واضحًا ، منح القارئ ثقته بمصداقيّة الأحداث ، وهذه أيضًا من حيل السرد ، فالرواية أصبحت حكاية غير متخيّلة ، إنّما أصبحت بحثًا في قضايا تاريخيّة ودينيّة وسياسيّة ، ومن أجل أن يغري الكاتب متلقّيه بتصديق دعواه يستعير من التاريخ وأسلوب البحث ، ما يدعم حججه .

## ٧. نقصان في الأمانة:

وعلى منوال «أمبرتو إيكو» رغب الكاتب الإسبانيّ «أنطونيو غالّا» في كتابة رواية تستثمر أحداث سقوط غرناطة في عام ١٤٩٢م ، فلم يجد أفضل من ابتكار حيلة العثور على مخطوط عربيّ قديم منسوب إلى أبي عبد الله الصغير آخر ملوك الأندلس ، وفيه يوميّات الملك عن السنوات القليلة التي سبقت تسليم المدينة لإسبانيا ، والسنوات الأولى من نفيه إلى مراکش . ولكي يقع قبول الخدعة السرديّة ، فلا بدّ من وصف المخطوط على نحو يربطه بأحداث لها صلة بالتاريخين الحديث والقديم .



في عام ١٩٣١ كلفت السلطات الفرنسية ، وكانت تستعمر المغرب ، لجنة من خبراء العمارة بدراسة أبنية فاس وتاريخها . ومن بين هؤلاء انكبّ اثنان على دراسة جامع القرويين ، وأوّل ما بدأ به المعمارّيان هو وضع منخّط لمبنى الجامع ، اعتماداً على قياسات دقيقة لأبعاده ، فلاحظا أنّ الأبعاد الخارجيّة للمبنى في أحد الأماكن لا تنطبق على الأبعاد الداخليّة ، فأعادا القياسات آخذين في الحسبان سمك الجدران ، فظهر عدم التطابق نفسه ، وكان ذلك مبعث شكّ لـديهما في وجود حيّز مغلق غير ظاهر للعيان ، وكان أنّ عثرا على غرفة طمرت داخل الجدران ، وفيها وجدا «مجموعة من المخطوطات النفيسة ، أحدثها وجد منذ قرابة خمسة قرون ، وهي في أفضل حال يمكن تصوّرها ، نظراً لانعدام عوامل التآكل ، هذا إذا استثنينا بعض الحشرات والرطوبة التي ربّما كانت سابقة على القرن السادس عشر»<sup>(١)</sup> .

ثمّ عثر الفرنسيّان في ذلك المجموع من المخطوطات الثمينة ، على مذكّرات أبي عبد الله الصغير . وقد لوحظ تميّز المخطوط بتجليد فاخر غاية في الكمال حفظ بعناية ، وكأنّ يدّاً متأنية أودعته في ذلك المكان . أمّا لونه القرمزيّ الذي لم يكد الزمن يبدّل فيه شيئاً ، وهو اللون المعتمد في أوراق أمانة الدولة في قصر الحمراء ، فقد كان يثير العجب . استغرق ترتيب لقيات المسجد وجردها وحفظها وقتاً طويلاً ، ولكن افتقار الفرنسيّين المكلفين بالأمر للمعرفة الثقافيّة بقيمة المخطوطات القديمة ، أدّى إلى عدم تقديرها كما ينبغي ، فكان أنّ اختفى بعضها ، وهرب إلى أوروبا ، وظهر في بعض مكتباتها ، ولدى باعة الأثريّات . حُبست المخطوطات طويلاً بين جدران المسجد العتيق بعيداً عن الأنظار ، وما إن عثر عليها حتّى تناهبها لصوص المقتنيات القديمة ، فتوارى المخطوط القرمزيّ عن الأنظار .

بعد هذا الوصف العامّ حول كفيّة العثور على المخطوط مطموراً في إحدى غرف جامع القرويين ، وضياعه بعد الترميم مع جملة من المخطوطات الأخرى ، ظهر «غالا» بمظهر الباحث في الحقبة الاندلسيّة ، فتدخّل في سياق السرد وعلّق بأنّه من حسن الحظ أنّ الشخص الذي سرق المخطوط «لم يكن أهلاً لفكّ رموزه ، بل ولا للمساومة عليه» ؛ إذ كانت تعوزه القدرة على تثمين قيمته التاريخيّة ، فكان أنّ وصل المخطوط إلى مكتبة في الرباط ، فبلغ «غالا» أمره ، وبذل جهده للاستئثار به ، وكان له ما أراد ،

(١) أنطونيو غالا ، المخطوط القرمزيّ ، ترجمة رفعت عطفة ، دمشق ، دار ورد ، ١٩٩٨ ، ص ١٣

وقد غمرته دهشة مضاعفة جمعت بين أهمية المخطوط وحالته الجيدة ، على الرغم من مرور خمسة قرون عليه مطموراً في مكان سرّي «عندما أصبح بين يديّ ، أدهشني خطّه الأنيق ، الذي كان يتنوّع ببطء وكأنّ الذي كتب صفحاته جميعها فعل ذلك خلال حياته كاملة . وتملّكني انطباع غريب فهمته حين عرفت مضمونه . فالمخطوط يجمع مذكرات ملك آخر وأخير ، لكن كان الأخير نهائياً . إنّها مذكرات أبي عبد الله الصغير ، السلطان الذي ذوى الإسلام عملياً في أيّامه : الذي سلّم غرناطة إلى الملكين الكاثوليكيّين يوم ٢ كانون الثاني ١٤٩٢» (١) .

ولم يلبث «غالا» أن باشر يصف دوره في إظهار المخطوط ونشره ، «حاولت بمساعدة عدد من الخبراء ، مراكشيّين وإسبانياً على السواء ، الذين أشكرهم جميعاً من هنا ، أن أنسخ المخطوط القرمزيّ . . . وكان من الضروريّ للوصول إلى قرار مقبول ، الرجوع إلى عدد من النصوص والأراشيف والأخبار والروايات وكتب التاريخ ، وفي نهايتها جميعاً جاءت هذه الحكاية الباردة أحياناً ، والمتأجّجة أحياناً أخرى ، لتكملها أو لتناقضها . اخترت التسلسل التاريخيّ وأسماء الأشخاص والأماكن والتواريخ ، والإشارات لغة أكثر وضوحاً بالنسبة للقراء الغربيّين اليوم . والترجمة ، وهذا بسببي ، ليست أمينة تماماً كما كان سيطلب الدارسون . مقابل هذه التضحية أعتقد أنّ النصّ سيكون بالنتيجة أقرب إلى عيوننا وأسماعنا . هكذا ورغم تحقيقاتي الشغوفة ، فإنّني لم أصل إلى النتيجة المحدّدة فيما يتعلّق بحقيقة المخطوط . أجهل ما إذا كان ما يرويه أبو عبد الله كلّ صحيحاً أو أنّه يميل به لصالحه . كما لا أدري ما إذا كان قد كتبه كلّ بنفسه ، أو أنّه أملاه على واحد أو أكثر من أمنائه - وهو أمر يبدو غير محتمل بسبب تشابه الخطّ - أو ما إذا كان عملاً مختلقاً ، رغم أنّه عمل معاصر له .

وختم «غالا» ذلك الوصف التفصيليّ بالحديث عن حواشي المخطوط ، وذكر نوع التدخّل الذي قام به في إخراجه ، قائلاً : «وقد وجدت بعض الأوراق ، القرمزية أيضاً ، مضافة فوق جسم المخطوط المضغوط وواحدة تحته كما لو كانت المقدمة والخاتمة لما يشكّل المذكرات بذاتها ، هذه المذكرات التي تجرّأت على تقسيمها إلى أربعة أقسام ، كي أسهّل قراءتها . هنالك أيضاً بعض الملاحظات الهامشيّة التي أضيفت ولا شكّ في مراحل لاحقة أدخلتها إلى النصّ واضعاً إيّاها بين قوسين معقوفين .

شكري الأخويّ لكلّ المؤرّخين والكتّاب الذين عالجوا من قريب أو من بعيد هذا الموضوع الحزن والملمه ، بادئاً بأبي عبد الله الصغير نفسه . فقد أحبّوه كما أحبّيته . وبما حبذا أن أكون قد توصّلت ، كما توصّلوا هم ، إلى أن يكون حبّي متبادلاً . على كلّ الأحوال فإنّ التاريخ ، كما يقول مؤلّف المخطوط نفسه ، ليس إلّا سباقاً لحلول واقع مكان آخر : نعرف من أين يأتي وأين يجري ، لكنّنا لا نعرف في النهاية إلى أين يتّجه ولا متى سينتهي»<sup>(١)</sup> .

كلّما أسهب المؤلّف في وصف المخطوط أخلّى مسؤوليّته المباشرة عنه ، وشجّع القارئ لتصديق الوهم الذي قصد إلى تكريسه ، وسيكون القارئ المعنيّ بالحقبة الاندلسيّة شغوفاً إذا ما اطّلع على مذكّرات دُونها آخر ملوكها ، فهذه شهادة من الدرجة الأولى على تلك الأحداث التي ختمت مرحلة ، وأعلنت ولادة مرحلة أخرى من تاريخ تلك البلاد . وقد جاء المتن موافقاً للوصف الذي وضعه المؤلّف في مقدمة الكتاب ؛ فاليوميّات سلسلة طويلة من التأمّلات والأخبار والدسائس والحروب ، التي وردت على لسان أبي عبد الله الصغير كتبها بعد نفيه ، وفيها يستعيد أيّامه ملكاً على غرناطة .

واقتصر دور المؤلّف على نسخ المخطوط ، ثمّ ترجمته من العربيّة إلى الإسبانيّة ترجمة لا تتوافر فيها شروط الدقّة الكاملة ، وعرضه على المصادر التاريخيّة لتلك الفترة للتأكّد من صحّة وقائعه . ولم يجزم بصدق كلّ ما ورد فيه ، وهو غير واثق فيما إذا كان مؤلّفه قد كتبه بنفسه أم أملاه على أحد كتّابه . وقد اجتهد «المترجم» في إجراء تغييرات ضروريّة لإخراجه من عالم النسيان ، وأفاض في تقرّيز المخطوط الملكيّ لما له من أهميّة .

أفرط «غالاً» في التنصّل من علاقته المباشرة بالمخطوط القرمزيّ ليزيدها تأكيداً ومصداقيّة ، فقد سعى ، من جهة أولى ، إلى إقناع القراء بالأهميّة التاريخيّة للمخطوط لكونه قديماً ومنسوباً لملك ختم به تاريخ الأندلس ، وانتزع من جهة ثانية هامشاً عريضاً لتدخلاته فيما يخصّ الترجمة والتعديل والتوثيق ليظهر قربّه من النصّ وعلاقته به . عرف عن «غالاً» انغماسه في أحداث التاريخ ليضيء الحاضر أكثر من التعمّق في أحداث الماضي ، وفي «المخطوط القرمزيّ» رغب في استعادة هويّته الثقافيّة

---

(١) م . ن . ص ١٤-١٥ .

الاندلسية حينما توارى خلف آخر ملوك غرناطة ، وأنطقه بما يريد ، واكتفى بدور المترجم غير الأمين ، فهذه المسافة أتاح له التنصّل من قيود التاريخ ، ومكّنته من توظيف قدرة السرد في التخيل ، فالمسار الخاصّ بحياته لم يختلف كثيراً عن مسار سلفه الملك ، فسهل لذلك تبادل الأدوار والأفكار والمخطوطات .

## ٨. مترجم بابويّ عابر للهويّات الثقافية:

ولم يقتصر الأمر على التلاعب بوظيفة المؤلّف وانتحاله صفة المترجم ، إنّما ظهر المترجم شخصيّة فاعلة في المتون السردية ، ووسيطاً بين الشخصيات الأساسية فيها لفكّ الجهل باللغات ، وتبادل الأحاديث في المحافل الرسمية . ولهذه الوساطة قيمة كبيرة ؛ إذ يمثّل المترجم صلة بين قطبين مختلفين في اللغة والثقافة . وهذا الدور محفوف بالصعاب ، وصاحبه عرضة للأخطار ، وينبغي عليه أن يكون حاضراً حيثما وجد الذين هم بحاجة إليه ، فبدونه يتعطلّ التراسل ، فلا غرابة أن يختطف المترجم رهينة ، ويقدم هدية إلى الحبر الأعظم ، بابا الكاثوليك في الفاتيكان ، كما وقع لـ «الحسن الوزان» الذي عرف على نطاق عالميّ بـ «ليون الإفريقي» ؛ إذ لم يدر في خلده أن سهرة عابرة مع صديقه «عبّاد» في حانة بحرية على شاطئ جزيرة «جربة» في تونس ، وحديث عن رسالة حملها من القرصان «عروج» إلى السلطان العثمانيّ في القسطنطينية سيكون سبباً كافياً لاختطافه ، والتوجّه به أسيراً إلى صقلية ثمّ إهدائه للبابا ليون العاشر في روما .

ومناسبة الحديث كانت ذكريات فرضت نفسها على الوزان عن ذلك القرصان بعد أن نكّل به القشتاليّون في وهران إثر احتلالهم لها ، فما إن شرع في حديثه لعبّاد حتى همس له بأن يخفض صوته ، فثمّة بحاران غريبان ، شابّ وعجوز خلفه ، يصغيان باهتمام كبير إلى ما يدور بينهما . وحين التفت إليهما انسحبا بعجالة تاركين الحانة ، فغادر هو وصديقه بعد حين من الوقت في نزهة مرحة على طول الشاطئ «فوق الرمل المبلول وتحت قمر متألق» ، فإذا بزمرة من أشباح لرجال مدجّجين بالسيوف والخناجر تطبق عليهما ، فعرف الوزان بينهما البحارين الغريبين اللذين كانا في الحانة ، وقد «نطق أحدهما بعض عبارات التعجّب بعربية رديئة»<sup>(١)</sup> . فهم منها

(١) أمين معلوف ، ليون الإفريقيّ ، ترجمة عفيف دمشقية ، بيروت دار الفارابيّ ، ١٩٩١ ، ص ٣٠٥

إنَّه يأمره بالصمت والامتنال وعدم الحركة وإلاَّ فالقتل . ثمَّ طُرِحاً أرضاً في ذلك الليل البهيم ، وحملًا بعدها إلى المركب في الميناء ، فقد بدأت رحلته الإجبارية إلى روما .  
واضح أنَّ البحارين لم يكونا يجيدان العربية ، فقد تمتما بها بصعوبة ، لكنَّهما يفهمانها ، فقد عرفا أهمية الوزان من الإصغاء لحديثه في الحانة ومعرفة فحواه ، فها هو صيد ثمين يمكن التوجُّه به إلى صقلية ، فيصلح أن يكون رهينة مهمَّة ، وربَّما يفادى أو يستنطق ، فمثله يفترض أن يكون ذا شأن ، فقد قابل القرصان الشهير الذي دوخ الروم في البحر ، ثمَّ ذهب بسفارة منه إلى عاصمة الخلافة . ولكن أن يقدم هدية إلى البابا ليون العاشر «حبر روما وأمير النصارى» ، فذلك أبعد ما يمكن احتمال وقوعه ، ومع ذلك فهو الذي حدث . وكان البحار الهرم ، واسمه «بيترو بوفالديليا» (القرصان بدرو دي كابريرا يبي بوباديليا) قد ارتكب أثامًا كثيرة ، وقتل كثيرًا من الأنفس ، وكان «يخشى أن تفيض روحه وهو يسلب وينهب» ، فشرع بالحاجة إلى إصلاح جرائمه بتقديم قربان إلى الله . ولما كان ذلك مستحيلًا ، فقد وجب عليه تقديمه إلى ممثله في الأرض وهو البابا ؛ طلبًا للشفاعة والغفران . وقد كان الوزان هو ذلك القربان الذي وقع الاختيار عليه .

ظهرت أهمية اللغة في السجن ، فبعد الرحلة الشاقَّة في البحر باتجاه صقلية ، ومكوث في نابولي ، أخذ المختطف إلى روما ، وحبس في قصر بانتظار أن يتقرَّر مصيره ، وقد جافاه النوم لأنَّه افتقد صوت المؤذَّن ، فلم يسبق له أن عاش «في مدينة لا يرتفع فيها النداء داعيًا إلى الصلاة محدِّدًا الزمان مألوفًا الفضاء مُطمئنًا الناس والجدران» . لم يكن أرق الوزان عائدًا إلى انعدام الحرية ، أو عدم وجود المرأة ، أو ظروف الاعتقال ، إنَّما لفقدانه الصوت العربي الذي اعتاد سماعه خمس مرات في اليوم . استأثر غياب اللغة باهتمامه الأوَّل ، فلزم الصمت ، ولعلَّه أدرك أهمية اللغة ، ليس لأنَّها وسيلة تواصل وتعارف فحسب ، إنَّما لأنَّها أداة يمكن بها معرفة الأفكار والآراء والتجارب ، فتكون بالتالي مصدر خطر حقيقيٍّ ، كما حصل له ، فقد ذهب ضحيَّة معرفة الآخرين بلغته .

أخذ الأسير من نابولي إلى روما عن طريق البرِّ ، واحتُجز في قصر «أنجلو» ، وأجلس في حجرة صغيرة مؤثثة بسرير وكرسيٍّ وصندوق خشبيٍّ ، ولولا «الباب الثقيل المحكم بالإزلاج من الخارج» لظنَّ نفسه حراً . لم يكن يعرف سرَّ الاحتفاء به ، فليس على هذه الشاكلة يعامل الأسرى بين الأمم المتحاربة . كان يتوقَّع مهانة وشقاء

ومفاداة ، ولكن أيًا من ذلك لم يظهر من طرف أسريه ، إلى ذلك فقد كان مركز اعتقاله قصراً منيفاً . وبعد عشرة أيّام من احتجاجه دخل عليه زائر رفيع الشأن عرف إنّه «فرانشسكو غويتشارديني» سفير البابا ليون العاشر ، فما كان منه إلّا أن خلع عنه ثوب الأسير ، وأفصح عن هويّته ، فصرّح باسمه الحقيقي وألقابه وسفارته من تومبكتو إلى القسطنطينية ، وعرّف عن نفسه بوضوح كامل ؛ ففي حضور سفير البابا لا مجال للتخفي والادّعاء والاختباء خلف أوهام التنكر ، فلو لم يكن الوزان مهماً لما وقع كلّ ذلك . ولما قدم السفير البابوي بنفسه لزيارته .

بأية لغة جرت وقائع التعريف بين الوزان والسفير البابوي؟ وكيف تمّ التواصل بينهما؟ لم يكن هو يعرف إلّا بضع كلمات من الإيطالية العامية ، أي التوسكانية ، التي كانت لتوها قد انشقت عن اللاتينية لتكوّن لغة جديدة ، ولم يكن سفير البابا يعرف العربية ، مع إقراره بأنّها «محكيّة حول البحر المتوسط» . وهذا الجهل المتبادل باللغتين أربك اللقاء ، وعطلّ التراسل ، فتبادلا الاعتذار لأنّهما غير قادرين عن الإفصاح باللغة الأم لكلّ منهما ، فلجأ إلى القشتالية التي يعرف الوزان شذرات منها لأنّه كان مواطناً أندلسياً قبل مغادرة غرناطة ، وكان السفير يجيدها . ولم يلبث أن قدّم الوزان تعهده : «سوف أتحدّث لغتك قبل نهاية العام» . واستدرك موضحاً «لن أجيدها كما تجيدها ، ولكن بما يكفي لإفهام مرادي»<sup>(١)</sup> .

وطبقاً للتواريخ التي حرص أمين معلوف على تثبيتها في أعلى فصول الرواية ، فقد وقع اللقاء في أحد أشهر عام ١٥١٩ ، وأمهل الوزان نفسه ما تبقى من أشهر السنة ليتعلّم التوسكانية ، ثمّ خاطبه السفير مثنيّاً على القرصان «بوفاديليا» الذي كان «يعرف أيّ نوع من العرب عليه أن يقدم للأب الأقدس . رحالة مستنير . ولقد عثر فوق ذلك على سفير . وما كنّا لندرجو كلّ هذا» . أحدث هذا الإطراء المعلن فخراً في نفس الوزان .

وما إن غادر السفير حتى طلب الوزان ملابس نظيفة ومنضدة ومصباحاً وأدوات للكتابة ، فهو يعرف مهنته التي قادته إلى مثل هذا المصير . بدأ الاستعداد لتحضير الوزان للقاء البابا ، بحضور السفير والقرصان . وقع ذلك في مكتبة القصر حيث وقف البابا «ساكناً فوق أريكته ووجهه أمرد مستدير ومعجب ، وذقنه تحفره غمّارة ، وشفتاه

(١) م . ن . ص - ٣١٢

ملحمتان ولا سيّما السفلى ، وعيناه مطمئنتان ومتسائلتان في آن معاً ، وأصابعه ملساء مثل أصابع من لم يسبق له قطّ أن عمل بيديه»<sup>(١)</sup> . وخلفه وقف كاهن تبين للوزان إنه الترجمان .

ثمّة حاجة ماسّة الآن للترجمان ، وحسب مقتضيات المقام البابويّ ، فقد كان كاهناً . وفهم القرصان والسفير أنّ دورهما انتهى ، ولتوّه قد بدأ دور الضيف العربيّ ، ولما تحدّث البابا فوجئ الوزان بأنّ الترجمان ينقل فحوى حديثه «بعربيّة يشوبها كثير من التراكيب القشتاليّة» . لم يكن الترجمان مؤهّلاً لنقل حديث البابا بلغة عربيّة صافية ، إنّما بما ظهر من تهجين لغويّ في الأندلس بعد أفول عصرها الذهبيّ . اتّضح أنّ القصر الرسوليّ يفتقر إلى مترجم محترف يفصح عن مكنون سيّده ، لكنّ ما تفوّه البابا به أنساه كلّ ذلك ؛ إذ قال «إنّ رجلاً يملك الفنّ والمعرفة هو دائماً على الرحب والسعة عندنا ، لا بوصفه خادماً بل بوصفه محمياً . والحقّ أنّ قدومك إلى هذا المنزل قد تمّ خلافاً لإرادتك وبوسائل لا يمكننا أن نقرّها . بيد أنّ العالم مخلوق هكذا بحيث كثيراً ما تكون الرذيلة ساعد الفضيلة ، وكثيراً ما تتمّ أجلّ الأعمال لأسوأ الأسباب ، وأسوأ الأعمال لأجلّ الأسباب . وعلى هذا لجأ سلفنا البابا يوليوس إلى الفتح لتزويد كنيستنا بملكيّة تشعر فيها بأنّها في أمان»<sup>(٢)</sup> .

انزلق البابا في حديثه من تفسير طبيعة الخطأ في اختطاف ضيفه إلى فضح خطأ الكنيسة ، لكنّه علل ذلك بأنّه نوع من الفضيلة ، فما دام الوزان قد أصبح مفيداً للحبر الأعظم ، فلا بأس بالطريقة الشائنة لاختطافه من السواحل التونسيّة ، وكذلك الأمر لما قام به البابا يوليوس ، فما دام غرضه تحصين الكنيسة بتوسيع ملكيّتها ، فغزوه مباح . لم يكن الوزان مهياً لمثل هذه الاستنتاجات التي كان مضيّفه يعرضها بلغة مهجّنة على لسان ترجمانه ، فانتهر لحظة صمت ، وجازف بأنّ لكي يخفّف عن المتحدّث «ليس في هذا ما يشين في رأيي . فخلفاء النبيّ طالما قادوا جيوشاً وأداروا دولاً» . لا ضير إذن في قيام البابوات ، وهم وارثو الخلافة الروحيّة للقديّس بطرس ، بالحروب والحكم ، فقد كان خلفاء الرسول يقومون بذلك .

أصغى البابا لفحوى الكلام بعناية فائقة ، ثمّ طرح سؤاله «هل كان الأمر يجري

(١) م . ن . ص ٣١٤

(٢) م . ن . ص ٣١٤

هكذا على الدوام؟» فجاءه الجواب : «إلى الوقت الذي حلّ فيه محلّهم السلاطين ، وعندها فُرض على الخلفاء ألاّ يتعدّوا حدود قصورهم» . لم يتوقع البابا وجود تناظر سخيّ بين حال البابوات في المسيحيّة وحال الخلفاء في الإسلام على مثل هذه الدرجة من التماثل ، فقد أبعدها ، وحلّ محلهم أباطرة أو ملوك أو سلاطين ، وكانوا هم أولى بالحكم وتحقيق معنى كلمة الله في الأرض . ولكي يمضي الوزان في الإفصاح عن الفكرة التي لاقت قبولاّ عند البابا ، قال : «ما دام الخلفاء هم الحكّام كانت دار الإسلام تتألّق ثقافة . وكان الدين يتحكّم بوداعة في أمور الدنيا . ومذّاك أصبحت القوّة هي الحاكمة ، وأصبح الدين في معظم الأحيان سيفاً في يد السلطان»<sup>(١)</sup> .

بُهر البابا بالنتيجة التي خلص الوزان إليها ببداهة تثير العجب ، وأشهد الترجمان على صواب الفكرة التي نالت رضاه ، وأضاف موضّحاً الأمر في المسيحيّة ، حيث أصبح البابا تابعاً للإمبراطور ، مثلما أصبح الخليفة تابعاً للسلطان ، «كنت أفكرّ على الدوام بأن سلفي المجيد كان على حقّ . فالبابا كان سيظلّ من غير جيش خاصّ مجرد كاهن عند الملك الذي هو الأقوى . والمرء مضطرّ أحياناً إلى قبول استخدام أسلحة خصومه نفسها . والتلوّث بما يلوّثهم» .

وعلى هذا فقد سوّخ لنفسه وسلفه محاولة السعي لإعادة حكم البابوات بعد أن اختطفه الملوك ، وما دام المثال الإسلاميّ قد كشف تردّي حال الدنيا حينما تولّى السلاطين الحكم بدل الخلفاء ، فمباح لليون العاشر أن يمضي في الطريق الصحيحة ، فيحدّد من سلطة الأباطرة . ولكنّ هذه الفرضيّة اللاهوتيّة الكبيرة كان يراد بها أيضاً طمأننة الوزان إلى قبول الطريقة التي بها وصل إلى الحاضرة البابويّة ، فما قام به القرصان الصقليّ «بوفاديليا» عمل شائن ، لكنّه أكسب البابا تابعاً ذا فائدة .

أدرج الوزان في جوّ أخلاقيّ يقوم على العبر ، وتسويغ الأخطاء ، ولكنّه نجح في إظهار موقعه أمام البابا ، ولما سأله إن كان جاهزاً لأداء خدمته في مكانه الجديد غمغم موافقاً . لم ينطق بشيء واضح ، كيلا يبدو أنّه يوافق على التخريج الذي وضعه البابا لاختطافه ، إنّما غمغم . لا يمكن ترجمة الغمغم ، فهي علامة على موقف يحتمل الازدواج . ومع ذلك فهم البابا أنّه لا يمانع ، فارتسمت تكشيرة ساخرة على شفّتيه ،

(١) م . ن . ٣١٥ .



وأقرّ بما كان يريد ، «فلنخضع لأحكام العناية الإلهية» . وعجّل يشرح حال روما التي كانت تمرّ في أحلك ساعاتها وهي تواجه الإصلاحيين اللوثرين الألمان ، ومع ذلك فهي قبله الفنّانين والكتّاب والموسقيين . بدا أنّ البابا يقرّ بأنّ خراب روما قادم لا محالة ؛ إذ عرض توقّعه الرؤيويّ بسرعة ، وكأنّه يقرّ بحقيقة لا شكّ فيها ، وهذا جعل الترجمان يتعثّر في ملاحظته ، فقد شقّ عليه متابعة كلّ ذلك . وربّما لم يكن يرغب في تزويد الغريب بما لا يجوز التصريح به .

بعد أسبوع استدعي الوزان مرّة ثانية لمقابلة البابا ، وتلقّى تعليماته : ينبغي عليه من أجل أن يتخطّى عثرات الجهل باللغة ، أن يواظب على دراسة اللاتينية على يد كاهن ، وأن يتلقّى تعليمًا مسيحيًا ، وسوف يدرس الإنجيل واللغة العبرية ، ثمّ يتولّى كاهن أمر إعطائه يوميًا درسًا في اللغة التركية . وبمقابل ذلك ينبغي عليه أن يعلمّ سبعة من الطلاب اللغة العربية ، وسوف يتقاضى أجرًا على ذلك . كانت صفقة ثقافيّة اعتبرها نوعًا من الأشغال الشاقّة . ومن شهر لآخر كان البابا يستدعيه للتحقّق من وضعه الدراسي ، وإجادته اللغة ، ولا سيّما التعلّم المسيحي . وقد حُسم موعد تعميده ومنح الاسم الذي سوف يحمله .

وهو اسم لم يأخذ على الإطلاق صورته النهائية : يوحنا ، ليون ، ليو ، جيوفاني ليوني أفريكانو ، يوهانس دو ميدتشي . ووسط هذه الشبكة من الأسماء المتقاربة ، رغب الوزان في ترويض نفسه على اسم ، فعربّ يوهانس ليو إلى «يوحنا الأسد» ، وبذلك وسم ختام أعماله التي كتبها في روما وبولونية . ولم يلبث أن أصبح الاسم مثار استياء في القصر البابويّ ، وقد اندهش المتردّدون عليه بوجود شخص ينتسب إلى آل مدتشي ، لكنّه «أسمّر جعد الشعر» فميّزوه بلقب «الإفريقي» .

أصبح الوزان تابعًا للبابا المستنير الذي انصرف للمعرفة ، وينبغي عليه تلبية حاجاته في معرفة تراث العرب . يحتاج البابا إلى وسيط يصله بالثقافة العربية التي استقام أمرها وفاضت على العالم القديم ، وكان الوزان عارفًا بها ، ولهذا شرع ، طوال السنوات التسع التي أمضاها في روما ، يؤلّف عنها بما يشبع حاجة البابا للمعرفة الإنسانية التي بدأت لتوّها تكشف عن نفسها ، فكتب باللاتينية عن نخبة من الحكماء والفلاسفة العرب ، وأسهم في وضع معجم عربيّ-عبريّ-لاتينيّ ، ودوّن سجلًا موجزًا للتاريخ الإسلاميّ . إلى ذلك كتب بالإيطالية وصفًا أخاذًا لإفريقيا ، استقى معظمه من رحلاته فيها ، وربّما يكون قد ترجم بعضًا منه عن أصول كتبها

بالعربية ، فشرح يترحل بين اللغات العربية والإسبانية والإيطالية واللاتينية . بل إنه تعهد بتدريس العربية لرجال الدين في جامعة «بولونيا» . قام الوزان بوساطة محمودة بين الثقافات ، فقد كان عصر النهضة الأوروبية ينتظر معرفة جديدة ، وقد لبى هو جانباً من تلك الحاجة .

عاش الوزان مرحلتين وهويتين ، مرحلة أولى عربية الطابع في الاسم والهوية والثقافة ، ومرحلة ثانية غربية السمة اكتسب فيها اسماً وهوية وثقافة مغايرة . لم تتضارب الأسماء ، ولم تتعارض الهويات ، ولم تتناقض المعتقدات ، بل تفاعلت في مزيج جديد ، لأنّ الوزان - ليون نجح في هضم هويته الأصلية مثلما نجح في تمثّل هويته المكتسبة ، ومسألة الهوية تتجدّد لأنّها منخرطة في مدار يثريها بالتنوع والتفاعل . وساطته بين الثقافات كانت فاعلة ومفيدة ، ولم تذهب سدى ، فمن خلاله عبر جزء من المعرفة العربية بالعالم إلى أوروبّا في مجال الجغرافيا واللغة والتاريخ ، وكان هو ترجمان الأفكار الحميدة عن ثقافة كانت تضيء عتمة العالم القديم ، فلم يتردّد في جعل الآخرين يقتبسون منها ما أرادوا ، وما احتاجوا إليه .

#### ٩. حذار من تمرد الترجمان:

قام الوزان بدور الوساطة الثقافية ، فكان يترجم للبابا ما يظنّه مفيداً له ، ولم ترد إشارة إلى تعذر أداء هذه المهمة طوال إقامته في روما ، ولكن حدث أن امتنع المترجم عن أداء مهمته في نقل الكلام بين المتحدثين حينما ظهر له أنّ مضمون الحديث يتعارض مع إيمانه الدينيّ ، فيما يسارع مترجم آخر إلى قبول المهمة رغبة في معرفة المجهول ، والأمانة في نقل معنى الكلام ، دون أن يدخل نفسه طرفاً في مضمونه .

ورد ذلك في رواية «رحلة بالداसार» لأمين معلوف ، بما يكشف أنّ المترجم لا يندرج دائماً في فئة التابعين ، ولا يفترض فيه أن يكون من المتبوعين . فبعد أن أبحر «بالداसार تومازور إمبرياكو» على ظهر سفينة «القديس ديونيسيوس» من جنوا إلى طنجة عبر البحر الأبيض المتوسط ، قاصداً لندن للحصول على النسخة المفقودة من كتاب «الاسم المثة» للمازندرانيّ ، الذي أشيع أنّه يمكن أن يحول دون نهاية العالم المتوقعة في سنة ١٦٦٦م ، التقى على ظهر المركب بسيّد مهذار من البندقية اسمه «جيرولامو دوراتزي» يعمل في البلاط الروسيّ لصالح القيصر في موسكو ، وقد أرسل بمهمة قيصرية إلى لندن ، وبرجل فارسيّ غامض يدعى «علي أصفهاني» يستعين

بمترجم فرنسيّ، هو الأب «أنج» .

وما إن أرفؤوا في طنجة حتّى دعاهم للعشاء سيّد برتغاليّ يدعى «سيباستاو ماغاليس» في بيته . كانت سهرة طويلة تخلّلها مزيد من الطعام والشراب ، وفي جزء منها دار بين الفارسيّ والبندقيّ حديث شائك حول البابا ، يحمل في معظمه وجوه اختلاف في المذاهب المسيحيّة خلال القرن السابع عشر . لم يرق ذلك للمترجم الفرنسيّ الذي كان أظهر تعلّقًا واضحًا في إيمانه الكنسيّ ، فكان يتقاعس في أداء مهمّته ، وينشغل بالطعام دون الكلام ، أو أنّه لا يصغي إلى الحديث جيّدًا ، فيطلب الإعادة بذريعة عدم التركيز . إلى ذلك كان ينقل باختصار حديثًا مستفيضًا «إمّا لأنّه لم يحفظ كلّ ما قيل ، أو لأنّ بعض الأمور التي قيلت لم ترق له»<sup>(١)</sup> .

وخلال تلك السهرة الطويلة أبدى الفارسيّ اهتمامًا شديدًا بمعرفة ما كان يدور في موسكو من أحداث ، ورغب في أن يتوسّع محدّثه البندقيّ في شرح عادات أهلها ، وما لبث أن بدأ الفارسيّ يستفسر عن «المذاهب المختلفة لدى الأرثوذكس والكاثوليك» ، فشرع «دوراتزي» يكشف له ما كان بطريك موسكو يعيبه على البابا ، والمواقف التي يراها غير صحيحة ، وتستحقّ نوعًا من الازدراء ، فكان مضمون الحديث مثار سخط في نفس المترجمان ، فراح يوارب ويهمل ، ويتخطّى بعض العبارات ويغفل أخرى ، ويدمدم متبرّمًا معبرًا عن استياء مضمّر . وحين صرّح دوراتزي بـ«أنّ أهل موسكو ، على غرار الإنجليز ، يتندّرون على بابا الكاثوليك إذ يطلقون على قداسته لقب «المسيح الدجال» اختنق الكاهن المترجمان بغضبه ، وخاطب البندقيّ ، وشفّته ترعشان «من الأفضل أن تتعلّم الفارسيّة لتقول هذا الكلام بنفسك ، فلن ألوث فمي أو أذن الأمير به» .

لم يكن أحد من المتحدّثين يعرف بأنّ الفارسيّ أمير ؛ إذ حافظ متنكرًا على هويّته الحقيقيّة طوال الرحلة ، وبزلة لسان فُضح السرّ ، وارتسم الشكّ حول المهمّة التي يقوم بها أمير فارسيّ في عرض البحار . تكلم الأب «أنج» بالفرنسيّة ، تحت وطأة الغضب والانفعال ، ولكنّ الحاضرين جميعًا ، فهموا كلمة الأمير التي كان ينبغي أن تظلّ مخفيّة . وعبثًا حاول المترجم الكاهن تصحيح زلة لسانه ، لكنّ السرّ قد عرف ، فعلق بالداسار على هذه الحادثة بقوله : «لا أدري إن كان صاحب القول المشهور

(١) أمين معلوف ، رحلة بالداسار ، ترجمة نهلة بيضون ، بيروت ، دار الفارابيّ ، ٢٠٠١ ، ص ٣٢٢

«المرّجم خائن» قد أراد الإشارة إلى مثل هذه الحادثة<sup>(١)</sup>. لم يلتزم المترجم بشروط مهنته ، فتمرّد على دوره ، وغلب معتقده الدينيّ على المهمّة التي كلّف بها ، وبامتناعه عن أداء الواجب كما هو اقترب نوعين من الأخطاء : أهمل ترجمة رأي بطريك الأرثوذكس في بابا الكاثوليك ، وفصح هويّة الأمير المتنكر التي ائتمنه عليها . ولم يلبث بالداسار أن مرّ بالتجربة عينها بعد يومين ، وكان يجيد العربيّة والإيطاليّة واليونانيّة والتركيّة واللاتينيّة ، ويعرف شيئاً من الإنجليزيّة ؛ إذ دعي هو والبندقيّ من طرف الفارسيّ في مقصورته الفخمة في السفينة ، الذي أخبرهم بأنّ ترجمانه الأب «أنج» قد «نذر الصوم طوال هذا اليوم ، والتزام الصمت مستغرفاً في التأمل والعبادة» . لكنّ بالداسار رجّح أنّ الأب أنج لا يرغب في نقل «كلام كافر» . فاضطلع هو بالترجمة بين الإيطاليّة والعربيّة . لم يجد صعوبة في الانتقال بين اللغتين مترجماً كلّ ما يقوله المتحدثان ، ولكن لم يسبق له أن قام بذلك على المائدة . وفي هذه الحال يصعب ترجمة كلّ كلمة تقال ، حيث يقع تدافع بين الكلام والطعام ، فما إن بدأت الجلسة حتى شعر بالإنهاك ، فلم يستمتع بالطعام ولم يتمكن من الوفاء بشروط نقل الكلام ، إلى ذلك فقد اضطر لمواجهة الموقف نفسه الذي واجهه الأب «أنج» قبل يومين .

كان الأمير الفارسيّ كتومًا وحذرًا ، لا يفصح عمّا يريد ، أمّا البندقيّ دوراتزي ، فمهذار يفضي بالأسرار ويخوض فيها ، فطفق يتحدّث عن خطط ملك فرنسا بشأن الحرب ضدّ السلطان العثمانيّ ، وكيف أنّ الشاه الفارسيّ تواطأ معه ؛ إذ سيقوم بمشاغلة العثمانيّين من الخلف ، ليضرب الإفرنجية ضربتهم ضدّ السلطنة التي كانت جيوشها تقف عند أبواب «فيينا» . يريد العالم المسيحيّ توحيد قوته ضدّ المسلمين ، لكنّ التناحر السياسيّ والمذهبيّ ينخره ، فالإنجليز ضدّ الهولنديّين ، وهؤلاء ضدّ الفرنسيّين ، والإيطاليّون ممزقون ، والأرثوذكس ضدّ الكاثوليك ، وهؤلاء ضدّ البروتستانت . وبالإجمال فقد ضرب التنازع ضربته في كلّ أرجاء أوربا .

كان دوراتزي يريد أن يصارح الأمير بصحّة هذا الحلف بين ملك فرنسا وشاه إيران للقضاء على السلطنة العثمانيّة التي تواصل التهام القارة الأوربيّة ، لكنّ المترجم بالداسار يعتبر ذلك سرّاً لا يجوز البوح به ، فكيف بالجهر ، ومع ذلك فقد مضى

(١) م . ن . - ص ٣٢٣

دوراتزي بحديثه الحساس ، وبتصميم «يقترب من الفظاظ» على أن يقوم بالداसार بترجمته حرفياً للأمير ، فامتثل نزولاً على رغبة صديقه وإلحاحه . وكما توقع ، فقد أحدثت الترجمة مفعولها السيئ ؛ إذ رفض الأمير مواصلة الحديث ، وادّعى الإرهاق والنعاس ، في إشارة لا تخفى لضيوفه بالانصراف من مقصوره . شعر بالداसार بالإهانة ؛ إذ بقبوله مهمة الترجمة ، وما حدث خلال العشاء ، فقد أهين ، فخسر صديقين بضربة واحدة ؛ لأنه استجاب لصلافة البندقيّ في ترجمة الكلام حرفياً ، وأدى ذلك إلى استياء الأمير .

وما إن رست السفينة في مرفأ لشبونة قادمة من طنجة حتى استدعي بالداसार إلى جناح الأمير للقيام بمهمة الترجمة مرةً أخرى ، فقد تمردّ الترجمان الفرنسيّ ، الأب أنج ، وغادر حاملاً أمتعته ، ثمّ عدّه الأمير الفارسيّ نوعاً من الصفاقة والجحود لا يليق بمن عهد إليه هذا الدور ، أمّا سبب الشجار بين الأمير والمترجم فيعود إلى أنه يروم زيارة كاهن يسوعيّ برتغاليّ ، هو الأب فييرا الذي أشيع أنّه «نطق ببعض التنبؤات المتعلقة بنهاية العالم ، وبعضها الآخر الذي يعلن الانهيار الوشيك للإمبراطورية العثمانية» ، فكان يريد التحقق بنفسه من ذلك ، فمنذ أن علم الأمير بذلك عقد العزم على مقابلة الكاهن لوزار لشبونة . وحينما دعا الأب أنج إلى مرافقته في هذه الزيارة ، بصفته ترجماناً «تمردّ الكاهن ، مؤكداً أنّ ذلك اليسوعيّ مهرطق وكافر ، وقد ارتكب خطيئة الغرور إذ زعم بعلم الغيب ، وأنّه يأبى الاجتماع به»<sup>(١)</sup> . اتخذ الأب أنج قراره ، فلا سبيل للتوسّط في نقل نبوءات هرطوق من الملة اليسوعية .

لم يكن أمام الأمير بعد هذا العصيان غير بالداसार ، الذي سارع إلى قبول المهمة لأنّه كان مشغولاً بالنبوءة المفترض تحقيقها في غضون أشهر ، فضلاً عن الدافع الشخصي لمعرفة مصير الإمبراطورية العثمانية التي يقيم على أرضها في مدينة «جبيل» بלבّان . لاحت له فرصة مزدوجة : ممارسة الترجمة ، ومعرفة نبوءات الأب فييرا ، وبدأ يهدئ من غضب الأمير ، ويقنعه بالألا يضمّر حقداً على ترجمانه الذي غلب طاعة تعاليم دينه على مقتضيات عمله ، فهذا دليل ولاء شديد لا دليل خيانة . لكنّ المهمة منيت بالفشل ، وطوي أمرها ، فحينما رافق الأمير لمقابلة الأب المتنبيّ ، بلغه أنّه سجن بأمر من البابا ؛ إذ ألقت القبض عليه محاكم التفتيش ، فما كان من

---

(١) م . ن . - ص ٣٢٨

الوافدين لمعرفة نبوءاته إلا الفرار تحبباً للشبهة . وما إن عرف ربّان السفينة بذلك حتى غادر الميناء تاركاً الفارسيّ والبنديقيّ في لشبونة ، فوئدت مهمّة بالداसार في مهدها . ولم يلبث أن أسر الهولنديّون السفينة وهي في عرض المحيط واقتادوها إلى أمستردام ، وأطلقوها بعد حين ، فاتّجهت إلى لندن ، وما إن وطئ بالداसार أرض الميناء حتى سارع يبحث عن كتاب المازندرانيّ ، فعثر عليه عند كاهن غريب الطباع عرض عليه صفقة : يعيد إليه الكتاب شرط أن يترجمه له من البداية إلى النهاية . بالداसार يريد استعادة الكتاب ، فيما يريد الكاهن محتواه .

لا يعرف بالداसार إلا بعض الإنجليزيّة ، وينبغي ترجمة الكتاب من العربيّة إلى اللاتينيّة ، وإذا قبل العرض فسيكون وسيطاً بين المازندرانيّ والكاهن الإنجليزيّ الذي شغف بالشرق ، وجعل من إحدى الحانات مقراً له . فوجد أنّه لممارسة الترجمة فلا بدّ أن يقيم مع الكاهن برفقة شابّين ، أحدهما لتدوين الترجمة اللاتينيّة للنصّ ، والآخر لتدوين التعليقات والحواشي . سرّ بالداसार بمصادفة أن يكون مترجماً ، فلن يكتفي باستعادة كتاب «الاسم المثة» ، إنّما سوف يغوص في صفحاته بمثابة «فواجب قراءة هذا الكتاب جملة تلو الأخرى ، وواجب ترجمته حرفياً ليصبح مفهوماً لمستمع متطلّب ، تلك هي لا ريب الطريقة الوحيدة للجزم بوجود حقيقة خفيّة عظيمة تسكن صفحاته»<sup>(١)</sup> .

لكنّ بالداसार وجد أنّ الكتاب قد استعصى على القراءة ، فكيف بالترجمة من لغة المؤمنين إلى «لغة الكفار»؟ فما إن شرع في مهمّته حتى أظلمت الغرفة «كأنّ غيمة من الشحم قد غشّت وجه الشمس» . غطى ظلّ صفحات الكتاب ، أو عيّني بالداसार ، فتعدّر عليه رؤية أيّ شيء ، وفستدت جلسة الترجمة ، وأصبح من غير الممكن قراءة الكتاب المطلسم إلا بصعوبة بالغة لا تمكّنه من نقل مضمونه ، فأخفق في الترجمة ، وراح يتعثّر في متاهات لا نهاية لها ، فكان أن لجأ إلى إملاء خلاصات من عنده لها صلة بموضوع الكتاب ، ولكنّها ليست ترجمة من النصّ الأصليّ . وسرعان ما حال حريق لندن دون مواصلة الترجمة . لكنّ الكاهن كان قد اتّخذ قراره في ذروة الحرائق : التخلّي عن الكتاب لبالداसार ، فقد وصله المضمون العامّ للكتاب من خلال تلك الخلاصات الزائفة التي دوّنها بالداसार اعتماداً على الشروحات

---

(١) م . ن . ٣٥١ -

المقتضبة التي قدّمها له الأمير الفارسيّ في أثناء الرحلة بين جنوا وطنجة .  
حال المعتقد الدينيّ دون القيام بالترجمة حينما تعارض مضمون الكلام مع عقيدة المترجم ، وتدخّلت قوى خفيّة لتعطيلها ؛ لأنّه لا يجوز نقل فحوى كلام الله ، أو ما يتّصل به ، من لغة مقدّسة إلى لغة مدنّسة ، ولكنّ الرغبة في معرفة النبوءة كانت تدفع بالجميع إلى توسّل المترجم . على هذا المستوى تربط بالدايسار بالأب أنج علاقة تناقض ، يوارب الأب ويتغاضى ، ويتهرّب من نقل الأفكار التي لا توافق معتقده ، بل إنّهُ يتمرّد ، ويتخلّى عن مهمّته ، فيما يقبل بالدايسار ذلك سعيّاً لمعرفة مضمون النبوءات عند فييرا والمازندرانيّ .

ينكفيّ الأوّل في إطار العقيدة الدينيّة ، ففيها يلتمس الطمأنينة ، ويأبى أن يدنّس حواسّه بأحاديث تطوي الكفر في تضاعيفها ، فذلك إسهام في نشر الضلالة ؛ إذ كلّما نُزع حضور الدين عن الأرواح الطاهرة انفرط عقد اليقين الجامع للأفكار الصحيحة ، وحلّت النبوءات والهرطقات في الأنفس المدنّسة ، أمّا الثاني المشبع بالنزوع الدنيويّ ، فلا يتعثر بالفرضيّات اللاهوتيّة ، فهو يريد أن يعرف مصيره ومصير العالم ، ومن ثمّ لا يمتنع عن أية ممارسة تكشف له جانباً من ذلك ، فرحلته بكاملها كانت بحثاً عن سرّ النبوءة الكامنة في مخطوط المازندرانيّ . ولكنّ المترجمين يتماثلان على مستوى آخر ، فهما شريكان في معرفة اللغات . قد يحجم أحدهما ويسعى الآخر ، ولكنّهما في رتبة واحدة ، فهما القطبان الموصلان بين الشخصيّات في فضاء السرد . وبدونهما يفسد التواصل ، ويتعطلّ التفاهم .

#### ١٠. خداع صريح:

ويصبح وجود المترجم ضرورياً عند الغزو ؛ إذ يقتضي فتح البلدان وجود المترجمين الذين يلازمون القادة ، ليعرفوا من خلالهم أحوال الممالك المفتوحة ، فيتترجمون للملوك والسلاطين ما تقوله الوفود ، ولم يكن الفاتح المغوليّ «تيمورلنك» استثناء من ذلك ، فقد كان يصطحبهم معه حيثما غزا . وكان ترجمانه في بلاد الشام «عبد الجبار بن النعمان» من فقهاء الحنفية بخوارزم ، وهو الذي تولّى الترجمة بينه وبين «ابن خلدون» طوال المدة التي أقام فيها تحت رعاية تيمور . لم يكن ابن خلدون يعرف المغوليّة ، وما كان تيمور يعرف شيئاً من العربيّة ، فأُست وساطة المترجم لازمة ، وقد جرت الإفادة من تلك الإشارات في رواية «العلامة» لـ«بنسالم حمّيش» الذي توسّع

فيها ، ليعطي للحوار بين الاثنين معنى مضافاً يقتضيه السرد .  
كان ابن خلدون قد حلم بلقاء تيمور . وتنبأ له شيخه الألبليّ بذلك في وقت سابق ، بأنّ «أمره قريب ولا بدّ لك إن عشت أن تراه» . وجرت الأمور طبقاً للرؤيا والنبوءة . فقد احتلّ القائد المغوليّ بلاد الشام ، وعاث جنوده خراباً بدمشق ، كشأنهم أينما حلّوا ، فأضرموا النار فيها حتى بلغت «حيطان الدور المدعّمة بالخشب ، فلم تزل تتوقّد إلى أن اتّصلت بالجامع الأعظم ، وارتفعت إلى سقفه ، فسال رصاصه ، وتهدّمت أسقفه وحوائطه ، وكان أمراً بلغ مبالغه في الشناعة والقبح» . ذلك ما أورده ابن خلدون في سيرته «التعريف بابن خلدون» .

وكان ابن خلدون قد أخذ من القاهرة إلى دمشق مع جيوش المماليك لملاقاة المغول ، لكنّ تلك الجيوش سرعان ما انهزمت ، وتراجعت إلى مصر بحجّة إطفاء فتنة محتملة فيها ، فبقي هو وحيداً يريد العودة لكنّ الدمشقيّين كلّفوه بالحصول من الغازي على وثيقة أمان بحفظ أرواحهم . فذهب إليه وجلاً متردّداً ، وقد دشّن حديثه متقرباً بما يستريح إليه تيمور ويأنس به ، «لي اليوم ثلاثون أو أربعون سنة أتمنى لقاءك» . ولما استغرب الترجمان مستفهماً ، أفاض العلامة فذكر سببين ، أولهما «أنك سلطان العالم ، وملك الدنيا ، وما أعتقد أنّه ظهر في الخليقة منذ آدم لهذا العهد ملك مثلك» . أمّا الثاني فما كان يسمعه من أهل الحدّثان بالمغرب من النبوءة بظهوره منذ ثلاثة أو أربعة عقود . قام المترجم بمهمّة بسط الأسباب أمام تيمور الذي طرب لهذا الادعاء . فقرّب إليه المؤرّخ الذي ذكر في سيرته أنّه أقام «عنده خمسة وثلاثين يوماً» ، كان خلالها «يباكره ويراحه» . أي يأتيه صباحاً ومساءً .

عرّج ابن خلدون في «التعريف» على ذكر الترجمان ، وجاراه في ذلك حمّيش في كتابه «العلامة» . فقد كان الوسيط الناقل لفحوى الكلام بين العلامة والفتاح . ولم يظهر أنّه كان يترجم بدقّة إنّما يجمل في ترجمته مرّة ، ويعرض حديثاً مسترسلاً بعبارة مكثفة مرّة أخرى ، ومع ذلك فلولا له لفسدت لقاءات ابن خلدون مع القائد المغوليّ ، ولظلّ طيّ النسيان كلّ ما جرى فيها . ظهر الترجمان في دور لا غنى لأحد عنه ، لا تيمور وقادته ، ولا العلامة وأصحابه ، فقد ضربهم الصّمم فلا يفقهون شيئاً . وكان الترجمان هو الذي أنطقهم ، وفتح مجاري الكلام فيما بينهم ، ودوّن للتاريخ ما دار في تلك الاجتماعات .

جاءت أسئلة تيمور كأنّها «استنطاق منهجيّ» ، أمّا أجوبة ابن خلدون فوردت



«مقتضبة». ولما سأله عن المغرب ، سمع جواباً شحيحاً من ابن خلدون الذي فطن إلى «انتفاخ أوداج السائل واحمرار عينيه فضولاً وطمعاً». لم ينطق تيمور ، إنما نطقت ملامحه ، فقام الترجمان بمهمة الإفصاح عن معنى تلك العلامات المنذرة ، «مولاي تشوّق إلى قطر حسن البروز بين بحرين وقارّتين ، ويريد أن تكتب عنه حتى تجعله وكأنّه يراه ، ويخترق آفاقه ويطوي سهوله وجباله من تحت قدميه»<sup>(١)</sup> . ناب المترجم عن سيّده بالتعبير عمّا يفعل به ، فأحال ذلك كلاماً .

ولما ألقى العلامة خطبة مسترسلة في بيان الأسباب التي جعلته يترقّب لقاء الخان منذ زمن طويل ، وأدّى المترجم مهمّته كاملة ، كان جواب تيمور بأن «كشّر عن أسنانه وغابت حدقتا عينيه وراء جفنيهما ، ثم أطلق ضحكة متقطّعة أوّلها العلامة تأويلاً حسناً» . لم يقل شيئاً ، إنما جاءت الضحكة وإغماض العينين للتعبير عن سروره . وحينما امتنع «شيخ الفقراء» عن تناول الطعام بحضرة تيمور ، خيّل للجميع أنّه ملاق حتفه ، لكنّ الخان «أخذ يلقي الكلام تلو الكلام ، ويوقّعه بالإشارات والتكشيرات المتأرجحة بين المدّ المتأجّج والزجر المتهكّم» ، فتولّى الترجمان تفسير فحوى كلامه بعدّة صفحات .

ليس ثمة تناسب لغويّ بين انفعالات الخان السريعة والخطبة الطويلة التي ألقاها المترجم على أسماع الحاضرين ، وقد لاحظ ذلك أحد القضاة ، فقال لابن خلدون : «ربّما لاحظت معي أنّ الترجمان زاد في الخطبة أشياء من بنات أفكاره»<sup>(٢)</sup> . وحينما عرض وفد القضاة على الترجمان أمر نكت تيمور بوعد الأمان ، وهذّدا بأنّهم سوف يدعون عليه في المساجد والديار ، ويفوّضون أمره إلى «الواحد القهّار» ، حذرهم الترجمان من المضيّ في ذلك العناد ، وخوفاً عليهم ورأفة بهم من بطش الخان ، فإنّه لن يترجم له ذلك . ثمة هامش منحه الترجمان لنفسه كفّ به أذى سيّده عن قضاة دمشق .

كان ابن خلدون يهاب تيمورلنك ويخاف أن يبقيه معه في دمشق ، أو حتى أن يجبره على مرافقته إلى سمرقند عاصمة ملكه ليكون ضمن حاشيته ؛ إذ لم يكن راغباً في مصاحبة عدو لا سبيل إلى ردّ أمره . وحينما طلب تيمور منه تقييداً خطياً

(١) بنسالم حمّيش ، العلامة ، الرباط ، مطبعة المعارف الجديدة ، ٢٠٠٦ ص ٢٩٩

(٢) م . ن . ص ٣٠٥

حول المغرب ، دَبَّحَ له مختصراً في اثنتي عشرة كراسة ، ولكنه تهرَّب من تسليمه إليه خشية الإفادة منه في غزوه .

وفي إحدى زياراته حمل إليه نسخة فاخرة من المصحف الشريف ، وسجادة بهيَّة ، ومخطوطة لقصيدة البوصيري في مدح الرسول . انتقى الهدايا بعناية ، ففيها كلام الله وفيها مصلاة وفيها مدح للنبي . ولكي يغلق أبواب الاحتمالات السيئة ، أخذ معه الحلوى المصريَّة . حمل هداياه على بغلته ، وقصد القصر الأبلق . وضع تيمور المصحف على رأسه ، وجلس على السجادة ، وعرض الترجمان تعريفاً مطوَّلاً بقصيدة البوصيري . وبقي ابن خلدون حاملاً الحلوى ، ثم ذاقها أمام الخان الأعظم ليطمئن إلى أنها غير مسمومة ، ولما ناولها له ازدردها ومضى يتكلَّم مستفسراً ومطالباً . وما لبث أن أجمل الترجمان تلك الرطانة سائلاً : أين الكتاب عن أحوال المغرب؟ فهم المؤرِّخ أنَّ الخان ينوي غزو بلاده في ضوء المعلومات التي سوف يضعها في كتابه ، ولهذا زيَّف ، ولم يعط معلومات جغرافيَّة دقيقة ، فأخرج حزمة الأوراق من تحت برنسه ببضع ، وسلَّمها لتيمور ، فوزنها بيده ، وأصدر أمراً بترجمتها إلى اللغة المغوليَّة . وشرع وملء فمه من الحلوى يقول كلاماً «يغلب عليه الشَّجْو والأنين ، ويتوزَّع العلوُّ والخفوت»<sup>(١)</sup> . ثم أمر الأعيان والقوَّاد بالانصراف .

ظلَّ العلامة جاهلاً بفحوى كلام الخان الذي غلب عليه الشَّجْو والأنين ، وتوزَّع العلوُّ والخفوت ، إلى أن أفصح الترجمان عنه على سبيل الإجمال : «ما قاله الأمير خفتاً هو ذا فحواه : إنَّه متأسَّف لما حدث لدمشق وقلعتها من شدائد ، وأسفه أكبر للحريق الذي نال الجامع الأمويَّ عرَضاً» . أمَّا ما قاله جهراً فهو : «إنَّ الشاميين يستحقُّون ما لاقوه من محن على أيدي المغول ، جزاء عدم تبرُّثهم من جرائم أسلافهم الأمويِّين في حقِّ عليٍّ وابنيه الحسن والحسين» . في خفوته أراد تيمور أن يخفِّف عن الدمشقيِّين أفعال قادته المتعطِّشين للغنائم ، وفي جهره شجَّعهم على التنكيل بهم لسبب لا صلة له بالمغول ولا بأهل دمشق . وقد أزعج ذلك ابن خلدون ، فطلب من ابن النعمان أن يترجم للخان شجبه «أعمال الجنود المنافية لقواعد الإسلام وروح الفتوحات الإسلاميَّة» ، غير أنَّ الترجمان «اعتذر عن نقل عبارات الشجب لما

---

(١) م. ن. ص. ٣١٧

تحفل به من مخاطر»<sup>(١)</sup>. كان الترجمان يعرف طبيعة المتحاورين ، ومقام الترجمة في هذه المناسبة ، فلو تجرّأ ونقل كلام ابن خلدون كما هو لتيّمور لفتك به .  
 لم يكتفِ تيّمور بذلك ، إنّما أحضر فتى عربياً هزياً ، شاحب الوجه ، ادّعى أنّه يطالب بالخلافة العباسيّة ، وسأله بوساطة الترجمان إن كان له حقّ في عرش الخلافة الذي خلعه هولاء في ١٢٥٨م حينما احتلّ بغداد؟ وكان الخليفة العباسيّ قد أُسر في أثناء اجتياح بغداد ، ولفّ بسجّاد ، وديس بالخيول حتى الموت كيلا تراق دماؤه الشريفة طبقاً للمعتقد المغوليّ . أراد تيّمور أن ينتزع من العلامة فتوى بعدم جواز المطالبة بالخلافة ، وأراد هو أن يمضي في خداعه لتخليص أهل دمشق ، وحماية نفسه ، دونما عوائق ، فقال بلسان الترجمان : إنّ الخلافة «كالشجرة الهرمة المنخورة لم يبق منها إلّا شيء من البركة . . وهي اليوم أكثر من أيّ وقت مضى صورة بلا معنى ، وشكل بلا مبنى ، يستظلّ بشرعيّتها السلاطين ، ويحملونها بين أحيائهم شارة ورمزاً»<sup>(٢)</sup> . ذلك ما كان يريده تيّمور ، فتجشّأ في فم الفتى الراكع بين رجليه باصقاً فيه ، وأخذ يعصر أذنيه تارة ويضربه على قفاه تارة أخرى . فقد حقّق مبتغاه في إبطال دعوى العربيّ بالخلافة بشهادة العلامة .

بعد هذه السلسلة من المساومات ، عرض عليه تيّمور أن يقضي حاجاته ، فتقدّم بها المؤرّخ : «أنا غريب بهذه البلاد غربتين : واحدة من المغرب الذي هو وطني ومنشئي ، وأخرى من مصر وأهل جيلي بها ، وقد حصلت في ظلك ، وأنا أرجو رأيك لي فيما يؤنسني في غربتي» . سأله أن يفصح عن حاجته ، فكان أن طلب بدوره أن يحدّد له تيّمور ما يريد ، فهو الأمير ، فرخص له بالعودة إلى أهله في مصر . طمع ابن خلدون فأضاف حاجتين : إطلاق سراح برهان الدين بن مفلح الذي كان قد تحصّن في قلعة دمشق مقاوماً ، وإصدار ميثاق أمان بالكتّاب والعمّال الدمشقيّين . وافق تيّمور على الثاني ، وأرجأ النظر في الأوّل ، لكنّه لم يف بوعده ، فطبقاً للمصادر التاريخيّة ، فإنّه أشعل النار في دمشق لثلاثة أيّام حتى أتت على ما فيها ، وأصبحت أطلالاً . وفيما كان ابن خلدون يهيمّ بالانصراف . طلب منه تيّمور بغلته . لم يتمكن العلامة من الرفض ، فكلّمها زاد في مطالبه زاد تيّمور أيضاً . كلاهما كان يخادع من خلال الترجمان ، ويريد أن ينتزع من الآخر ما يريد هو .

(١) م . ن . ص ٣١٨

(٢) م . ن . ص ٣١٨-٣١٩

## ١١. ترجمة المصائر:

ولكن قد تأتي الفرصة لنبيّ أن يتولّى ترجمة مصائر الأمم ، فينجيها من أخطار الحروب التي يشنّها الغزاة ، كناية عن فكرة الخلاص الشائعة في بعض الأديان . تجلّى ذلك بشخصيّة «ماني» الذي ظهر في رواية «حدائق النور» لأمين معلوف مترجماً لمصائر الهنود أمام البلاط الفارسيّ . ينتمي «ماني» إلى الثقافة البابليّة ، لكنّه عاش في عصر متأخّر حينما كانت بلاد الرافدين تحت سيطرة الفرس الساسانيّين ، وكان يجيد الفارسيّة ، وبها دافع عن الأم التي كانت تتعرّض للتهديد الإمبراطوريّ . فحينما ذهب مبشراً بأفكاره في الهند ، وصل إلى مدينة «دب» عشية وصول الجيوش الفارسيّة بقيادة «هرمز» حفيد «أردشير» لاحتلال المدينة ؛ فعمّ الذعر ، وأفقرت الأسواق ، وهرب الأجانب ، وتوارى الأهالي في بيوتهم خائفين . فقد كانت الجيوش على مسيرة يوم واحد من المدينة .

لم يعرض «هرمز» استسلام المدينة بلا شرط ، ولم يصرّح بدخولها عنوة . كان الموقف غامضاً ، فبعث ذلك ذعراً بين المدنيّين . حلم قادة الجيش بثروات المدينة وأسواقها ، فالنهب كان مبتغاهم في الغزو ، ولم يكن ليحول دون ذلك أيّ حائل ؛ إذ تغذّت رغبات الجميع على هذه الغنائم الثمينة . وحينما جرى الاتفاق على أن يذهب وفد من الأهالي إلى قائد الجيش يترجم له حالهم ، انتدب «ماني» نفسه لذلك لكونه يجيد لغة الغزاة ، ويعرف أفكارهم . وكان قد وصل المدينة قبل ثلاثة أيّام ، فكيف يكون هذا البابليّ الغريب ناطقاً باسم هؤلاء أمام أمير الحرب ، ومترجماً لخاوفهم؟ ولما دهش الآخرون ، أفصح هو عن السبب : «أنا من بابل ، أوليس من الحكمة أن يكون المتكلّم باسم هذه المدينة من رعايا «الساسانيّين»؟ وأن يخاطبهم بلغتهم؟» (١) .

أخرست حجّته الجميع ، فعُهد إليه ترجمة رسالة أهل «دب» إلى أمير الجيوش الفارسيّة . اكتسبت الترجمة معنى مضافاً ، صارت وسيلة يتقرّر في ضوءها مصير المدينة . حينما غادر «ماني» المدينة إلى المعسكر الفارسيّ كان يحمل رسالة استعطاف ، وينبغي ترجمتها إلى الأمير بلغة فارسيّة بليغة . لم يؤد دور المترجم بين طرفين مباشرين ، إنّما حمل موقفاً وجاء يترجمه للقائد الذي ربضت جيوشه على

---

(١) أمين معلوف ، حدائق النور ، ترجمة عفيف دمشقيّة ، بيروت ، دار الفارابيّ ، ١٩٩٣ ص ١٣٤

مشارف المدينة ، وكلّما كان بليغاً أمكن تجنّب الهلاك .

حينما وصل «ماني» معسكر هرمز ، وجده «متربّعاً فوق أريكة من الخشب المحفور ، تحت خيمة فسيحة هي قصر حقيقيّ من القماش رُفعت أذياله للسماح بدخول الهواء والضوء . وكان الضباط والكتّبة مجتمعين حوله ، ولكن برؤوس محنية وأذرع ممدودة إلى جانبي الجسم ، ولم يكن هنالك من لفظة في غير محلّها»<sup>(١)</sup> . أخبر الأمير بأنّ زائره تاجر بابليّ رست سفينته قبل ثلاثة أيّام في ميناء «دب» ويروم مقابلته .

ولما دخل عليه عاجله القائد بالسؤال «آية حمولة جلبت؟» فكان جوابه «أقوالي ، ولا شيء غير ذلك» . أغرى الجواب المقتضب الأمير بالحديث ، فعلق «ما أروع الكلام من بضاعة! فهو لا يزن شيئاً في عنابر السفينة ، ويمكن أن يغنيك إذا أحسنت مقايضته بالمال» . ظنّ هرمز بأنّ زائره سيروي ملاحم الفرس القديمة ، ويعرّج على أعمال «قورش» و«دارا» ومآثر الأخمينيين ، بل وبطولات الساسانيين . بيد أنّه ما جاء قطّ من أجل ذلك . إنّما علق موارباً بما يريد : «أعرف جيّداً حكايات أخرى لم يسمع بها أحد قطّ» . كان جواباً استفزّ الأمير فقال : «حكاياتك الأخرى لست راغباً فيها . إنّ رجالي لا يحبّون الاستماع إلّا إلى الملاحم التي يعرفونها . وإلّا فإلى قصص الصيد . وإذا كنت تعرف شيئاً منها وعرفت كيف تجعلنا نعيشها من جديد فلن تعود خالي الوفاض» . فأجاب «ماني» وكأنّه يواصل كلامه : «أقوالي لا أبيعها ، بل أوزّعها» . فعلق «هرمز» قائلاً : «لست ، على هذا ، تاجرّاً ولا راوية» . ولم يكن هو أياً من الاثنين . صدق الأمير في كلامه من حيث لا يدري ، فالزائر صدّ نفسه عن ذلك .

كان صاحب رسالة دينيّة غايتها الإصلاح بين البشر كائنة ما كانت أعراقهم ولغاتهم وألوانهم . أوقدت المحادثة التي جرت بالفارسيّة في أطراف الهند غضب هرمز وبطانته من القادة والمستشارين ، فهمس أحدهم للأمير بأنّ المتحدث إنّما هو «ناصريّ» من بلاد الرافدين ، جاء ينشر هرطقته في ربوع الهند . فقاطعه «ماني» بأنّه لم يحضر للحديث في الدين ، إنّما يتعلّق الأمر بمصير مدينة . ثمّ إنّّه يجلّ «يسوع» و«بوذا» و«زرادشت» . صعب على هرمز التمييز بين هؤلاء فخيّم عليه النعاس ، وعكّر

---

(١) م . ن . ص ١٣٦

مزاجه ، فأراد حكاية مثيرة تنعشه ولم ينتظر ، إنّما شرع بنفسه يروي حكاية وقعت له مع أسد . حكاية كشفت شجاعة الأمير ، واستعداد الأسد لمنزلته ، وحينما شعر الحرس بالخطر المحدق بأميرهم أحاطوا به ، فتوقّف الأسد عن هجومه ، وابتعد محافظاً على جلاله ، فأمر هرمز بالألّا يطارد احتراماً له .

لم تغب عن «ماني» دلالة الحكاية ، بل عزّزت المهمة التي جاء من أجلها ، إذن سيعفو الأمير عن أهل «دب» كما عفا عن الأسد ، وسيدخل المدينة من غير استباحة . فقليل له إنّ الأمر مختلف ، فالأسد استحقّ عفو الأمير لأنّه كان راغباً في القتال ، أمّا أهل دبّ فلا يرغبون ، فهم ليسوا سوى أغنام «ومصيرهم أن يجزّوا ويذبحوا»<sup>(١)</sup> . اعترض على هذا التخرّيج ، لأنّ قانون الإمبراطورية لا يقول بالاستباحة إلّا في حالة العصيان والمقاومة ، وإلى ذلك فأهل المدينة تجار ، وليس بحوزتهم أيّ سلاح ، فلا يجوز الفتك بهم . وكلّ ما يرغبون فيه هو احترام حرّياتهم وتقليدهم والحفاظ على أرواحهم وأملاكهم . ثمّ ليس من الحكمة تخرّيب مدينة تعدّ جوهرة البلاد ، فإذا كان الأمير يريد حكمها ، فلماذا يقوم بتخرّيبها؟ توسّعت المناظرة وتشعبت ، بين «ماني» ومستشار هرمز . يدفع الأوّل بحجج الحفاظ على المدينة ، ويترجم آمال أهلها ، ويغري الثاني الأمير باستباحتها . ونجح «ماني» في إظهار دعاوى المستشار على أنّها إغراء صريح للفتك بالأهالي المسالمين .

وفي هذه اللحظة الحاسمة التي كان على هرمز أن يتّخذ فيها قراره ، اندفعت إلى المجلس امرأة شابّة ، فأخبرت الأمير بسوء حال ابنته ، وأنّها فقدت وعيها ، فعرض ماني نفسه طبيباً ، وبأشّر علاج الطفلة . وخلال تلك الليلة الطويلة تمكّن من أن يغيّر موقف الأمير من استباحة المدينة ، بل جعله يحمل أباريق الماء من النهر إلى الخيمة ، ووعد بأنّه في حال شفاء ابنته فسوف يلغي قرار الغزو . ولم تشرق الشمس إلّا وقد استعادت الطفلة عافيتها ، ونجت «دب» من الغزو . أصبح «ماني» مثار عناية هرمز ؛ إذ بسط عليه حمايته ، وفتح الطريق أمامه للوصول إلى البلاط ، ونشر رسالته الدينيّة في أرجاء الإمبراطورية . حمل النبيّ في داخله مصير الهنود ، وترجم للغزاة حالهم ، فلم يتوسّط بين طرفين تعذّر عليهما التواصل اللغويّ ، إنّما باستخدام الكناية السردية نجح في ترجمة مطالبهم ، فحقّق ما انتدب نفسه من أجله .

---

(١) م . ن . ص ١٣٩

## ١٢. خيانة مشروعة:

ولكن يمكن أن يكون موضوع الترجمة متناً لرواية كاملة ، فقد سوّغ المترجم «حامد سليم» الشخصية الرئيسة في رواية «المترجم الخائن» لـ«فواز حداد» عمله في التلاعب بالنصوص الأصلية ، وإعادة إنتاجها بما يوافق اللغة المستهدفة في الترجمة ، فكان يقوم بتغيير الأحداث ، ويفتعل النهايات ، ويضفي مشاهد سردية لا وجود لها في الأصول الإنجليزية التي يترجمها ، فيرى في كل ذلك جهداً يستحق التقدير بدل الإزراء ؛ فلم يخطر لأحد أن يتساءل عما يتجشمه من عناء جرّاء تحسينات يبذل فيها قريحته وثقافته ، ليظهر النصوص المترجمة في سياق الثقافة العربية بأبهى صورها ، فذلك الهدف يفوق في أهميته القول بضرورة التزام الدقة في النقل ، والأمانة في الترجمة .

أقام «حامد سليم» حجّته على قاعدة ثقافية ترى بأنّ الفنون والآداب كلّها انعكاس للحياة والأحلام والرغبات ، تستعين بالصورة والكلمة واللون والخطّ والنغمة ، فهي كلّها نوع من الترجمة ، وعلى هذا فإنّ «عمله من لغة إلى لغة ، ما هو إلاّ انتقال متواصل من وسط أجنبيّ إلى وسط محليّ مختلف ؛ وبهذا سواء عن قصد أو غير قصد ، يضيف إلى مهمّته عبئاً آخر ، يحمل من خلاله أفكاراً وأساليب عيش من بيئة إلى بيئة مغايرة ، ومن مجتمع إلى مجتمع ، تقطع فيها مسافات شاسعة ، لا تشكّل القارّات والمحيطات سوى جانبها السطحيّ الأقلّ شأنًا . أمّا جانبها الخفيّ الأخطر شأنًا ، فالزيد من التباعد الحاصل بين الشعوب . فبدلاً من أن تكون اللغة وسيلة اتصال تصبح وسيلة التباس . في النصّ الأصليّ يكتب الكاتب بلغته إلى قارئ من عالمه ، ومن الطبيعيّ ألاّ يدخل في حسابانه قارئاً مجهولة معرفته به محدودة جداً ، ولا يُستبعد على الإطلاق ، أن ينجم عن عملية التواصل هذه عكسها ، لما يشوبها من تفاوت وتباين ، بما تثيره من حيرة وتكهّنات واحتمالات!! بينما القارئ نفسه المجهول بالنسبة إلى المؤلّف ، معروف بالنسبة إلى المترجم ، وعلى هذا من واجب المترجم السعي إلى ردم الهوة بينهما ، بعقد تفاهات بين محيطين ولغتين ، بممارسة تأثيراته على العمل الأصليّ بترجمة لا يعيبها أن تكون معرضة للقبولة من جديد ، على نحو مختلف ولكن ملائم . فلا تنجو من الخطأ البسيط المتعمّد ، وما قد يبدو سهواً ، بينما هو تحييز في الفهم ، لا يخلو من قسر ، بغية تقريبه إلى القارئ ، وبلا شكّ

ستحصّد نتائج حميدة على المدى البعيد»<sup>(١)</sup>.

تصبح الترجمة ، في هذه الحال وساطة كبرى بين الثقافات ، لا يقصد بها الامتثال لقيود لغويّة مشدّدة ، والالتزام الحرفيّ بنصوص مقفلة ، إنّما هي تكييف متواصل بين تلك الثقافات ، وانفتاح عليها ، فكلّ عبور يقتضي شروطاً ، وليس من الحكمة في شيء التعلّق بالدقّة الكاملة في الحفاظ على وسائل التعبير ، وإهمال المحتوى الذي يراد نقله من سياق ثقافيّ إلى آخر ، فما يهمّ المترجم هو إعادة إنتاج المتون الأدبيّة المكتوبة باللغات الأخرى في سياق الثقافة العربيّة ، وذلك يقتضي إضافات تشري تلك المتون ، وإهمال التفاصيل الثانويّة التي لا قيمة لها في السياق الجديد ، وإبراز الأفكار المتوارية إذا كانت لها أهميّة في اللغة المستهدفة ، ولا بأس من تغيير في بعض الأحداث بما يناسب شروط السياق الذي سوف يتمّ تداول النصوص فيه ، ناهيك عن تكييف النصوص لموقف المترجم ، ورغبته في أن تنتهي الأحداث على وجه يطابق رغبته . والحال هذه ، فإذا أخذت كلّ هذه التعديلات في الحسبان من وجهة نظر مهنيّة ، فسنكون بإزاء مترجم خائن .

دافع المترجم عن نفسه شبهة الخيانة التي أثّرت حول ترجماته ، لكنّه رغب أيضاً في أن يجد متنفساً لحواطره ورغباته الإبداعية في تضاعيف نصوص الآخرين ، «وربّما تحرير نزعة دفينّة في أعماقه تذهب به إلى التماهي مع الآخرين ، والتواري خلفهم» . ولم يجد غضاضة في تدخّلاته ، فهو «ينساق إليها بدافع تأثره البالغ بما يترجمه ؛ عندما يتجاوز التحريض طاقته على الاحتمال ، ثمّة على حدّ قوله ما يتكوّن بداخله ويجعله يتفاعل مع الأحداث والأفكار والشخصيّات ، فينحرف عن المعنى المقصود ، إلى معنى إضافيّ قد لا يعزّز المعنى الأصليّ ، ويتعارض معه» .

كان المترجم يرصد الشبهات ، ثمّ يبحث لها عن ذرائع ، وحدث أن تجاوز أعراف الترجمة حينما بالغ في التغيير ، ففيما كان يترجم رواية لكاتب إفريقيّ يكتب بالإنجليزيّة ، لم ترُقّ له «الخاتمة السلبية التي يقرّر فيها الجامعيّ الأسود بعدما أنهى دراسته في جامعة بريطانيّة البقاء في العاصمة الإنجليزيّة والعيش في ربوع الحضارة الغربيّة مع حبيبته البيضاء ، ولم يثقل ضميره أن كفاءته تستدعي عودته إلى بلاده التي تركها ترزح في بؤسها!! فما كان من فرط إعجابه بالرواية ، وامتناعه من

(١) فوّاز حدّاد ، المترجم الخائن ، بيروت ، رياض الريس للنشر ، ٢٠٠٨ ، ص ٢٢



النهاية ، إلا أن غير الخاتمة ، كي لا يفرط برواية رائعة ، فأصبحت إيجابية : يعود البطل الجامعي الأسود إلى بلاده السوداء تاركاً في لندن حبيبته البيضاء»<sup>(١)</sup> .

فرضت المرجعية الثقافية للمترجم تغييراً كبيراً في مصير الشخصية الروائية ، فإذا كان الرجل الأسود قد قرّر الذوبان في المجتمع الإنجليزي ، والعيش في لندن برفقة حبيبته البيضاء ، دون أن يأبه بالتركة الاستعمارية التي خلفها الإنجليزي في بلاده ، فذلك أدعى لأن يكون نوعاً من تغييب الوعي النقدي عند مستعمر سابق ، فيتدخل المترجم لإضفاء ذلك الوعي على الشخصية متجاوزاً دور الكاتب الإفريقي للنص ، فيحدث تغييراً في مصير بطلها الأسود ، حينما يدفعه إلى نهاية مغيرة تماماً لما ورد في الأصل : ينبغي عليه أن يتماهى مصيره مع حال شعبه ، فيترك حبيبته البيضاء ، ويعود إلى قارته السوداء ؛ ففي سياق ثقافة عانت التجربة الاستعمارية ، لا يحقّ للشخصيات الروائية أن تتفرد في اتخاذ قرارات مصيرية تسيء بها إلى شعوبها ، ولا يحقّ ذلك للكاتب أيضاً . وما دام المترجم يهدف إلى وضع هذه الرواية في عهدة قارئ عربي ، فينبغي عليه أن يجعل بطل الرواية الإفريقية يتصرف في إطار توقعاته ، فلا يكون مؤيداً للتجربة الاستعمارية ، والعيش في الحاضرة الإنجليزية ، ولا يجوز له الاقتران بامرأة بيضاء ، إنّما عليه أن يعود إلى مجتمعه الأصلي .

التصقت تهمة المترجم الخائن بـ«حامد سليم» ، لأنّه يتفاعل مع الشخصيات الروائية ، فيسعى لإظهارها بأفضل ما ينبغي أن تكون عليه ، فيحسّ تجاهها بالعرفان والمحبة ، ويحنو عليها ، ويرغب في تقديم شيء لها ؛ لأنّه يريد إثراء ملامحها بأفكاره الشخصية ، وترميم الأخطاء في بنيانها بتعديلاته الكتابية ، وحبّته أنّه «مهما بلغت معرفة الكاتب بالنفس الإنسانية ، لا يستطيع إيفاء شخصياته حقّها من التعبير ، ثمّة تقصير ، أحاول تدارك بعضه . أحياناً من شدّة اقترابي منها وتفاعلي معها أتحسّس آلامها ، فأحسّ بسوء الحظّ الذي لازمها ، والظلم الفادح الذي أصابها ، أرغب في منحها فرصة ثانية ، ممّا يدفعني إلى إعادة النظر في الرواية وأحداثها وأسلوبها ، وتصحيح أمور غابت عن صاحبها ، واستكمال نواقص سها عنها . ما أفعله ناجم عن انغماسي الكلّي فيها ، وسعيي إلى تكهّن تأثير الأحداث فيها . هذا كلّه أمارسه في

ذهني من خلال معاشتي لها وتخيلاتني عنها ، فيتسرّب نزر منها ليس باليسير إلى ترجماتي»<sup>(١)</sup> .

خرق المترجم الأعراف المتّبعة في مهنة الترجمة ، وخالف شروطها الأساسية ، وهي دقة النقل ، وسلامة التعبير ، فرمى بتهمة الخيانة ، وأبعد عن ميدان العمل ، فطريقته في الترجمة ألحقت ضرراً بسمعة المترجمين ، وخربت النصوص الأصلية ، لكنّه لم يحفل بكلّ ذلك ، إنّما أراد أن يتفهّم الآخرون حالته النفسية ، وموقعه الثقافيّ ، وهو يتولّى الترجمة ، فهو يعرف طبيعة الاعتراضات ، ولم يغب عنه أمر الدقة والسلامة اللغويّة «لا أغضّ النظر عنهما ، أعنتي بهما ، لكنّ تداعيات السرد تأخذني معها ، والشخصيات تستولي عليّ . تعتمل في داخلي أشياء ، تترك آثاراً ، تولّد أفكاراً ومشاعرً ، أعبر عنها بترجمة ما أخذ يدور في رأسي عنها ، وما أتخيّله بشأنها ، أو حتى ما أحلم به . أعلم أنّها من تداعيات قريحتي ، ما أفعله أسهم فيه دون تعمد ، لست مجبراً عليه ، بل مدعوّ إليه . هل أدير ظهري لها؟ لا ، بل ألّبي الدعوة ، أو ، وأقولها صراحة ، فقدت عمليّة الترجمة بالنسبة لي جمالها وجاذبيّتها ومتعتها . هذا هو عائدها الرئيسيّ»<sup>(٢)</sup> .

طرحت رواية «المترجم الخائن» فكرة الاستلاب الثقافيّ ، وسوء النوايا والغدر والكبح التي يتعرّض لها المثقف مترجماً كان أو مؤلّفاً ، ففي مجتمع أدبيّ قاعم لا يسمح بأيّ اجتهاد ، تتشقق الشخصية إلى عدد من الشخصيات ، وتمارس عملها بهويّات مزيفة ، فعلى خلفيّة انهيار كامل لقيمة القول الأدبيّ تنبتق التحيزات والولاءات والادّعاءات ، فتتنكّر الشخصيات ، وتمارس عملها سرّاً دون أن تظنّ لنتائج أفعالها ، فتختلط الحقائق بالتخيّلات ، ويصبح انتقال الشخصية من المستوى الواقعيّ لحياتها في العالم ، إلى المستوى المتخيّل لها في الخطاب ممكناً ومباحاً ؛ فالمترجم يمارس عمله دون الامتثال للمعايير المتّبعة في عمل الترجمة ، وذلك يحيل على أنّها يمكن أن تكون ممارسة موازية للكتابة ، ويجوز بها التعبير مجازياً عن حالتي المؤلّف والمترجم معاً .

تتحقّق جدوى الترجمة بواسطة الشراكة بين المؤلّف والمترجم ، تلك هي الفكرة

---

(١) م . ن . ص ٨٦-٨٧

(٢) م . ن . ص ٨٨

التي يدافع عنها بطل الراوية «حامد سليم». من الصحيح أن الأول كتب النصّ بلغة معيّنة ، وأرسله لمتلقٍ يعيش في سياق ثقافيّ له صلة بتلك اللغة ، ولكن لا بدّ للمترجم أن يكون له دور في إعادة إرسال النصّ إلى متلقٍ له لغة أخرى ، ويعيش في سياق مختلف عن السياق الثقافيّ الحاضن لإنتاج النصّ ، فلا يجوز اختزال المترجم إلى دابة تنقل شيئاً من مكان إلى آخر ، فلا بدّ أن يدمج النصّ بثقافته وذائقته ؛ لأنّه أصبح قيد التداول في مكان لا صلة له بمكان المؤلّف ، وإرسال النصّ في سياق ، لا يلزم تلقّيه بالطريقة نفسها في سياق آخر ، ولا بدّ من تكييف لا يقطع الصلة بينهما ، إنّما يثريهما بما يفيد النصّ الأصليّ والقارئ الجديد .

قوبلت هذه الطريقة في الترجمة باحتجاج صارم من ناقد مرموق رأى فيها اعتداء على المؤلّف والكتاب معاً ، وهي أيضاً خروج على الأمانة في النقل ، واستهانة بقواعد الترجمة ، فكان جواب المترجم أنّ تلك الإضافات التي يقوم بدسّها في ثنايا النصوص ، والتعديلات التي يجريها ، تكون مجزية للقراء ، فهم «يحصلون على عمل مضاعف مكتوب مرتين» . وحين يقال له بأن في ذلك نوعاً من الخداع ، فالقراء لن يقرؤوا الكتاب الأصليّ ، إنّما سيطلعون على كتاب مشوّه مبنيّ عليه ، وذلك لا يسيء إلى الترجمة فحسب ، إنّما يقضي على هويّة الكتاب الحقيقيّ ، تكون حجّته بأنّه يقدّم كتاباً صلته أقوى بالقراء ، ف«الترجمة الجيدة تعني احتواء الكتاب وشخصيّة الكاتب معاً» ، فقد أدرج فعل الترجمة في سياق يتخطى مفهوم النقل من لغة إلى لغة ، إنّما هي تعارف وشرابة بين الثقافات . وخلاصة رأيه هي : «لا أترجم الكتاب الآتي من زمان ومكان آخر فقط ، بل وأترجم معه أيضاً ما يربطه بالمكان والزمان الحاليين ؛ كلّها معاً ومتداخلة» .

أدّى هذا الموقف من الترجمة بوصفها نوعاً من الممارسة الثقافية إلى وصم «حامد سليم» بالخيانة من طرف النخبة الثقافية في بلاده ، فحرم من العمل ، وأغلقت دونه أبواب الرزق بضغط من خصومه ، وتعرّض إلى حملة ادّعت تطهير الوسط الثقافيّ من دخلاء الترجمة ؛ إذ هو غير مؤتمن على نصوص الآخرين ، إنّما يعبث بها على هواه ، فقبل عرضاً بالحدّ الأدنى للأجور من إحدى دور النشر الرخيصة ، بعد أن قام بتغيير اسمه إلى «عفيف الحلفاوي» ليتولّى ترجمة روايات مثيرة ، لا قيمة أدبيّة لها ، قصد الكسب المادّيّ ، فنشطت من جديد «أماله في الترجمة بعد تضاؤلّها وانعدامها» .

لم يكن في قبوله اسم الحلفاوي مجرد استعارة لهويّة مترجم مجهول لا شخصيّة

ولا ذكر له ، بل إيقاظاً مأمون العواقب لطموحاته ، فمن خلاله ستجد شطحاته طريقها إلى الورق ، شطحات لا تخلو من جرأة تحيل الروايات الخفيفة الوزن إلى أعمال أكثر جداً ووزناً . وإذا كان سيتحمل ضيق أفقها وسقم مغامراتها غير المؤذية ، فبالقابل سيكافأ بالعمل على هواه مع الحفاظ على الخاتمة ، وبالتصرف تنقيحاً وشطباً وتبديلاً ، دون مواجهة انتقادات سطحية فظة وانقضاضات أدبية مغالية ؛ ويستعيد بذلك لمسات من بريق مغامراته الترجمة الخلاقية<sup>(١)</sup> .

شرع «عفيف الحلفاوي» في الترجمة ، وكان أوّل ما نتج عن ذلك أنّه تقيّد بالنصوص ، فلم يتجاوزها ، ولم يجر عليها أيّ تعديل أو إضافة ، وكان ذلك مبعث استغراب «حامد سليم» الذي توهم أنّه بهذه الهويّة المزيفة يمكن المضيّ في طريقته إلى النهاية دون موانع ؛ إذ انتحل اسماً يجنبه المسألة ، فارتسمت ملامح مترجمين مختلفين في شخصيّة واحدة ، الأوّل حقيقيّ ولكن غير مرغوب فيه لكونه خائناً وسيئ السمعة ؛ لأنّه يشوّه النصوص ويعبث بمحتوياتها ، والثاني مزيف لكنّه أمين في عمله ، مقيّد بظاهر النصوص ينقلها بدقّة كاملة ، فيلتزم بشروطها الحرفيّة . انشقت شخصيّة المترجم إلى شخصيتين .

وما لبث أن اكتشف «حامد سليم» أن التخصّي وراء شخصيّة «عفيف الحلفاوي» مفيد له ؛ فممارسة الترجمة بدواعي الأمانة عمليّة سهلة جداً ، والنقل الحرفي لا يحتاج إلى مهارات ثقافيّة ، ولا يقتضي جهداً كبيراً ، فيما كان يشغل نفسه كثيراً من قبل في اقتراح البدائل ، وابتكار الأحداث ، وتحسين صورة الشخصيات والأحداث ، وإعادة صوغ المغزى . إلى ذلك فالروايات التي كُلف بترجمتها بهويّته المزيفة كانت مسطّحة وساذجة ، تقوم على الإثارة والحركة ، ولا تتيح له مجالاً لتأويلات ثقافيّة ذكيّة ، فلا تستحقّ تدخلاً في مسارات أحداثها ، فمضى في عمله ، لكنّ النموّ المتواصل للشخصيّة المزيفة غطّى على الشخصيّة الحقيقيّة ، فشرع «حامد سليم» بأنّ «عفيف حلفاوي» سلبه حقيقته ، وهزمه «وسجل عليه انتصاراً ملموساً ، تبدّى في طلاوة الترجمة . لم ينكر حامد جودتها ، بل واعترف بأنّه لم تنصّع له بقدر انصياعها لحلفاوي» . وكلّما حاول أن يدسّ شيئاً بما اعتاد عليه في عمله من قبل ، ردّه عفيف «بهدهو راسخ وهمهمة استفزازيّة» ، فجرى الاعتراف بأنّ «الحلفاوي دون مرآة مترجم

---

(١) م . ن . ص ١٥١-١٥٢

مهنيّ من طراز نموذجي» .

وكان ذلك مصدر استياء من طرف حامد ، فعفيف أصبح مترجماً محترفاً ، ولكن لا حول له ولا رأي فيما يترجم ، وهو ينقل «كالحمار بلا ذائقة أو إحساس حمولة كلمات صفحات سوداء إلى صفحات بيضاء ، يبذل عناء لا أثر فيه للفكر» . فشقّ على حامد أن يبقى صامئاً متذمّراً ، فتعطلّ الحوار بين الشخصيتين ، وحلّت القطيعة بينهما ، فقد أصبح أسير علاقة باردة خلال ساعات الترجمة ، وارتسمت جفوة واضحة بينهما ، فكأنهما ليسا وجهين لشخصية واحدة .

لكنّ انخراط عفيف في ترجمة رواية أميركية مثيرة دفع حامداً إلى التدخل ، فالرواية كما يرى ، تسيء إلى العرب والمسلمين ، وتقدّم معلومات مغلوطة عن ثقافتهم وتاريخهم وتقاليدهم الاجتماعية والدينية ، فينبغي التغاضي عن كلّ ذلك ، فلا يجوز ترجمته ، إنّما محوه أو تصحيحه ، أو في الأقلّ وضع حواش شارحة تردّ تلك الأخطاء المقصودة ، ليستقيم أمر نشر الرواية في مجتمع لا يجوز الاعتداء على قيمه ومقدّساته . لكنّ الحلفاوي رفض أيّ تغيير في ترجمة الأصل الذي ينطوي على أهداف مشتبّه فيها ، فالأمانة تقتضي قول الحقيقة ، فأصبحت أمام أزمة أخلاقية ، فأحدهما يريد إشاعة الاعتداء على الثقافة القومية بدواعي الأمانة ، والثاني يريد حجبتها بمخالفة تلك الدواعي . تفضي أمانة المترجم الزائف إلى الاعتداء ، فيما يؤدي التزييف الذي يمارسه المترجم الحقيقي إلى الحماية .

### ١٣. ترجمة المفهوم: سوء فهم وتأويل خاطئ؛

افترض «بورخيس» في قصّته «بحث ابن رشد» أنّ فيلسوف قرطبة ، فيما كان منكباً على تأليف كتابه «تهافت التهافت» ، الذي ردّ به على كتاب «تهافت الفلاسفة» لأبي حامد الغزاليّ ، جوبه في سياق تعليقه على أفكار أرسطو حول الشعر بضرورة تعريف مصطلحي «التراجيديا» و«الكوميديا» اللذين وردا في كتاب «فنّ الشعر» . لم يتمكّن ابن رشد من مواصلة التدوين في الفصل الحادي عشر من كتابه بسبب غموض معنى الكلمتين . وبما أنّه لم يكن يتقن غير العربية ، فقد لاذ بخزانة كتبه عساه يعثر على المعاني التي يطويها المصطلحان ، فلم يرفده الإسكندر الأفروديسيّ أحد شراح المعلّم الأوّل بشيء ممّا أراد ، ولا أسعفته الترجمة العربية لكتاب أرسطو بتوضيح ذي بال . ثمّ انتقل إلى المعجمات العربية ، فقلّب صفحات

«المحكم» لابن سيده ، وتناول نسخة فاخرة من معجم «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي ، ولكن خاب أمله .

تعذر على ابن رشد حلّ المشكلة بما لديه من مظانّ في مكتبته ، فوقف وراء نافذة غرفته يراقب ثلاثة صبيان يؤدّون لعبة يقوم فيها أحدهم بدور المؤدّن الذي اعتلى كتف صبيّ آخر باعتباره صومعة ، فيما سجد الثالث يؤدّي الصلاة على الأرض . لم يدّر في خلد الفيلسوف أنّ اللعبة تمثيل حيّ لفكرة الأذان والصلاة . ثمّ خرج بعد ذلك إلى مجلس ضمّ أصدقاء له ، دار فيه حديث شائق عن الأسفار وعجائبها في أقصى الشرق ، ومنها أخبار عن وقائع حدثت في الصين ، حيث قدّم نحو عشرين شخصاً مقنّعا مشاهد حربيّة خادعة ، فكانوا يعانون الأسر دون أن يكون ثمة سجن ، ويتقاتلون بسيف من قصب لا من حديد ، ويكرّون ويفرّون لكن ليس ثمة خيل ، ومن يقتل منهم لا يلبث أن ينتصب واقفاً دون أن يكون قد لحقه أذى ، فتوهّم الحاضرون أنّ الراوي ، واسمه أبو القاسم ، يتحدث عن مجموعة من المعتوهين الذين أصابهم مسّ من الجنون ، لكنّه استدرك عليهم ، بأنّهم ليسوا كذلك ، إنّما هم يمثّلون قصّة .

لم يدرك أحد منهم المغزى المسرحيّ لكلّ ما رواه أبو القاسم ، فإذا كان القصد أن تروى حكاية فيكفي شخص واحد للقيام بروايتها ، وليس من المعقول أن يؤدّي ذلك جماعة كبيرة من الأشخاص ، فيعرضون الوقائع بدل أن يرووها . التزم ابن رشد الصمت طوال الوقت ؛ إذ كان يجهل هذا الضرب من التجارب والتأويلات ، ولم يعرف أنّ الأحداث يمكن أن تروى ، ويمكن لها أن تعرض ، فقد تكوّنت خبراته الأدبيّة بمنأى عن فكرة التمثيل . وحينما دار الحديث حول الشعر العربيّ ، أبدى رأيه في كون الجاهليّين لم يتركوا شيئا إلّا وصفوه بـ«لسان صحراويّ» ، فاستلطف الآخرون دفاعه عن الشعر القديم . ولما عاد في آخر الليل واصل الكتابة في مخطوطته ، فدوّن : «يطلق أرسطو كلمة «تراجيديا» على المديح والإطراء ، فيما يطلق على الهجاء والذمّ كلمة «كوميديا» . ثمّ ذكر أن القرآن الكريم والمعلّقات يحفلان بأمثلة من ضروب من القول في هذه وتلك<sup>(١)</sup> .

---

(١) للاطلاع على قصّة «بحث ابن رشد» يراجع كتاب «بورخيس» ، المرايا والمتاهات» ترجمة إبراهيم

الخطيب ، الدار البيضاء ، ١٩٨٧ ، وانظر ترجمة أخرى للقصّة قام بها سامي عبد المرضي

المشطاوي في مجلة «العربيّ» الكويتيّة ، العدد ٤٤٦ لعام ١٩٩٦

وقع ابن رشد في خطأ ثقافيّ، فليست التراجميديا هي المديح، وليست الكوميديا هي الهجاء، ومصدر هذا الخطأ السردّي الذي ركّب عليه «بورخيس» قصّته، كان حدث فعلاً في أثناء شرح ابن رشد لكتاب «فنّ الشعر»، ونتج عنه فهم ملتبس أدّى إلى قلب المفاهيم الأساسيّة في الأدب العربيّ، فلا تطابق في الدلالة بين هذه المفاهيم في الثقافتين اليونانيّة والعربيّة. لم يكن لابن رشد ذنب مباشر في ذلك، ولكنّه لم يكن بريئاً، فمصدر الخطأ كان سوء الترجمة التي اعتمد عليها. وردت الترجمة الخاطئة في تعريب أبي بشر متى بن يونس القنّائيّ للكتاب، وتكرّس في شرح ابن رشد له. جاءت تلك الترجمة بعيدة تماماً عن روح الكتاب؛ فلم تقترب إلى هدفه ولا أخذت في الحسبان سياقاته الثقافية، ثمّ إنّها جارت على مفاهيمه الكبرى، وهي الأساس الذي أقام عليه أرسطو تصنيفه للألوان الأدبيّة.

كشفت ترجمة كتاب أرسطو خطأ جملة من النتائج الثقافيّة التي قامت عليه. وهذا ينقلنا من المتون السرديّة إلى الحواشي الخاصّة بالتأليف، فإذا كان المؤلّفون قد ادّعوا أدوار الترجمة في كتبهم السرديّة، فقد أظهرت ترجمة كتاب «فنّ الشعر» جناية المترجم على المؤلّف، وفضحت خطأ الشارح وهو يستخلص من الكتاب ما ليس فيه؛ إذ قطعت الترجمة الصلة بين الأصل اليونانيّ وصياغته العربيّة، ونتج عن ذلك خطأ أفضى إلى سوء فهم دمع تاريخ الأدب بمفاهيم خاطئة. وكلّ ذلك اندرج في سياق السرد بصورة أو بأخرى. أعاد «بورخس» بناء ذلك الخطأ وأدرجه في سياق السرد، ليكشف المفارقة التي نتجت عن سوء فهم مقاصد الكتاب، ويقودنا ذلك إلى الوقوف على خلفيّة الخطأ لكشف جملة الإكراهات التي تتعرّض لها النصوص الأدبيّة والنقدية، حينما يقع نقلها من لغة إلى أخرى بغير أمانة، ثمّ ما يترتب على كلّ ذلك من سوء فهم، وسوء تأويل.

لم يترجم أبو بشر متى كتاب «فنّ الشعر» عن اليونانيّة التي لم يكن يعرفها، إنّما نقله عن لغة وسيطة هي السريانيّة. وعرفت الترجمات السريانيّة للموروث الأرسطيّ بـ«الحرفيّة المُسرّفة»<sup>(١)</sup>، فغاب عنها الأسلوب العربيّ السليم، وجاءت

(١) أرسطو، كتاب أرسطوطاليس في الشعر، نقل أبي بشر متى بن يونس القنّائي، حققه مع ترجمة

حديثه، شكري محمد عياد، القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧، ص ١٧٩

بـ«معنى مستغلق أو لفظ قلق ، أو عبارة ملتوية ، أو تفكير متناقض»<sup>(١)</sup> . وقد تتبّع شكري محمّد عياد سقطات الترجمة في مفرداتها وتراكيبها ، وانتهى إلى أنّها في عمومها «تلوّذ بالحرفيّة من الدلالة على معنى محدّد ، وبذلك تظلّ مفتوحة لشتّى التأويلات التي يمكن أن يحملها عليها القارئ ، وربّما انضمّ إلى هذه الحرفيّة خطأ في قراءة النصّ الأصليّ أو فهمه ، فتكون مظنة البعد عن الأفكار الأرسطيّة ، وانقطاع الصلة بها أظهر وأغلب»<sup>(٢)</sup> .

وكانت هذه الترجمة مثار سخط عبد الفتاح كيليطو ، الذي وصفها بأنّها «ركيكة منفرة ، وكلامها يكاد يكون شبيهاً بهذيان المخمورين الموسوسين»<sup>(٣)</sup> . وهو أمر لم يغب عن القدماء ، فقد اتّهم أبو حيان التوحيديّ في «الإمتاع والمؤانسة» متى بن يونس بأنّه كان يلمي وهو «سكران لا يعقل»<sup>(٤)</sup> . وفي الإجمال فترجمة الكتاب بهذه الصورة المثيرة للاستياء لم تكن غريبة عن ترجمات أرسطو الأخرى إلى العربيّة ، وحينما أجرى صاحب «كشف الظنون» تدقيقاً في هذا الموضوع ، انتهى إلى الإقرار بأنّ مترجمي أرسطو شاب عملهم التحريف والتبديل<sup>(٥)</sup> .

لم يُعرف عن متى بن يونس القنائيّ كونه أديباً فقد شُغل بالمنطق ، وإليه كما يقول ابن النديم «انتهت رياسة المنطقيّين في عصره»<sup>(٦)</sup> وذلك في العقود الأولى من القرن الرابع الهجريّ . وقد استهزأ به السيرافيّ في المناظرة التي أوردّها التوحيديّ ، في «الإمتاع والمؤانسة» ، فاتّهمه بأنّه لا يعرف اليونانيّة ، وجاهل في علم الشعر ، بل إنّ

(١) م . ن . ص ص ١٧٩

(٢) م . ن . ص ص ١٩٠

(٣) عبد الفتاح كيليطو ، لن تتكلّم لغتي ، بيروت ، دار الطليعة ، ٢٠٠٢ ، ص ١١٠

(٤) أبو حيان التوحيديّ ، الإمتاع والمؤانسة ، تصحيح أحمد أمين وأحمد الزين ، القاهرة ، لجنة الترجمة والتأليف والنشر ، ص ج ١ ص ١٠٧

(٥) مصطفى بن عبد الله (حاجي خليفة) ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، بيروت ، دار الكتب العلميّة ، ١٩٩٢ ، ج ١ ص ٥١٠ وص ٦٨٣

(٦) محمّد بن إسحاق النديم ، الفهرست ، تحقيق ناهدة عباس عثمان ، الدوحة ، دار قطريّ بن الفجاءة ، ١٩٨٥ ص ٥٣٤



شكك بمعرفته اللغة العربية ، وأتهمه بأنه يُزري بها ، وهو يشرح كتب أرسطو<sup>(١)</sup> ، فكيف الأمر في حالة ترجمتها إلى العربية؟

تعرّض كثير من آل قنائيّ للطعن والتشهير ، فقد جار عليهم ، فيما يبدو «دير قنّى» الذي خلّده أبو نواس في خمريّاته ، ثمّ ثقافتهم اليونانيّة ، وأخيراً ضعف عربيّتهم المباينة للأساليب البيانيّة الشائعة ، وجلّ ما كتبوه جاء بكلمات مبهمّة ، وجمل مركّبة ، فخالفوا بذلك السليقة البيانيّة الموروثة في الثقافة العربيّة القديمة . لم يقتصر على الهجاء الجارح الذي ذكره التوحيديّ ، فثمّة ما يناظره عند ياقوت الحمويّ<sup>(٢)</sup> والخطيب البغداديّ<sup>(٣)</sup> والذهبيّ<sup>(٤)</sup> . تكرّست لآل قنائيّ صورة شائنة لم يجر تصحيحها أو تعديلها ؛ فالخلفيّات المنطقيّة والفلسفيّة لترجماتهم ومؤلفاتهم ، جارت على البداة اللغويّة التي كان يترقبها متلقّون تشبّعوا بالصيغ الجاهزة للتعبير الأدبيّ والفكريّ . ولم ينج متّى من ذلك ؛ إذ نُظر إليه في سياق ثقافيّ حسّاس تجاه الثقافات المستعارة ، ورُمي بدونيّة لا تحفى من طرف مجتمع ثقافيّ غني برفعة اللغة وسلاسة القول . وشمل الذمّ ترجمته كتاب أرسطو ، لكنّ الموقف الثقافيّ السلبيّ منه ، لا يشفع له تخريب هذا الكتاب العمدة .

تكشف ترجمة متّى بن يونس أشياء كثيرة : أنّها مبهمّة ملتوية متمحّلة جافّة غامضة ، وفيها أخطاء كثيرة ، وتفتقر إلى الرفعة الأسلوبية ، وتتداخل فيها المقاصد الأرسطيّة ، فلا سبيل إلى فهم أهدافها بصورة كاملة ؛ فكثيراً ما استغلّق عليه تحليل أرسطو المستنبط من الشعر اليونانيّ ، فكان يلوذ بالموثوث الثقافيّ العربيّ الذي لا يسعفه في ذلك ؛ فترجمته لا توضّح الفارق الذي يضعه أرسطو بين المأساة والملحمة ، ولا كيف تطوّرت الأولى من الثانية ، وسوف يزداد القارئ اضطراباً في الفهم حينما يترجم المأساة بـ«المديح» والملهة بـ«الهجاء»<sup>(٥)</sup> . وسيترتب على ذلك فهم خاطئ

(١) الإمتاع والمؤانسة ، ج١ ص١١١ و١١٦

(٢) ياقوت الحمويّ ، معجم البلدان ، بيروت ، دار الفكر ، ج٢ ص٥٢٨

(٣) الخطيب البغداديّ ، تاريخ بغداد ، بيروت ، دار الكتب العلميّة ، ج٨ ص ١٣٥ و١٣٦

(٤) الذهبيّ ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمّد نعيم عرقسوسي ، بيروت ، مؤسّسة

الرسالة ، ج٤ ص٣٦٦ و٣٣٩

(٥) كتاب أرسطوطاليس في الشعر ، انظر دراسة محمّد شكري عيّاد الملحقه بالكتاب ، ص ١٨٨

لمقومات المآسي والملاهي ، وللحيثيات التي يقيم أرسطو تصوّره عنها .  
 يمكن تقريب ذلك الغموض والالتواء والاضطراب بالمقارنة ، بترجم متى بن  
 يونس المأساة بالصورة الآتية : «صناعة المديح هي تشبيه ومحاكاة للعمل الإراديّ  
 الحريص والكامل ، التي لها عظم ومداد ، في القول النافع ، ما خلا كلّ واحد من  
 الأنواع التي هي فاعلة في الأجزاء لا بالمواعيد ، وتعديل الانفعالات والتأثيرات  
 بالرحمة والخوف ، وتنقي وتنظف الذين يفعلون ، ويعمل إمّا لهذا فقول النافع له لحن  
 وإيقاع وصوت (ونغمة) ، وإمّا لهذا فيجعله أن تستتمّ الأجزاء من غير الأنواع التي  
 بسبب الأوزان ، وأيضاً عندما يعدّون آخر التي تكون بالصوت والنعمة يأتون بتشبيه  
 ومحاكاة الأمور»<sup>(١)</sup> . أمّا الملهاة فيترجمها بالصورة الآتية : «ومذهب الهجاء هو كما  
 قلنا شيء مستهزأ في باب ما هو قبيح ، وهي جزء ومستهزئه وذلك أنّ الاستهزاء هو  
 زلل ما وبشاعة غير ذات ضغينة ولا فاسدة . مثال ذلك وجه المستهزئ : هو من  
 ساعته بشع قبيح ، وهو منكر بلا ضغينة»<sup>(٢)</sup> .

الترجمة الدقيقة لنصوص أرسطو ، تؤدّي المعنى بوضوح ، وبدلالة مختلفة عمّا  
 جاء في ترجمة متى ، فشكري محمّد عياد ترجم التعريفين المذكورين بالصيغة  
 الآتية : «التراجيديا هي محاكاة فعل جليل كامل له عظم ما ، في كلام ممتع ، تتوزّع  
 أجزاء القطعة عناصر التحسين فيه محاكاة تمثّل الفاعلين ولا تعتمد على القصص ،  
 وتتضمّن الرحمة والخوف لتحثّ تطهيراً لمثل هذه الانفعالات . وأعني «بالكلام  
 الممتع» ذلك الكلام الذي يتضمّن وزناً وإيقاعاً وغناءً ، وأعني بقولي تتوزّع أجزاء  
 القطعة عناصر التحسين فيه : أن بعض الأجزاء يتمّ بالعروض وحده ، على حين أنّ  
 بعضها الآخر يتمّ بالغناء»<sup>(٣)</sup> . أمّا الملهاة : فهي «محاكاة الأدياء ، ولكن لا بمعنى  
 وضاعة الخلق على الإطلاق ، فإنّ «المضحك» ليس إلّا قسمًا من القبيح ، والأمر  
 المضحك هو منقصة ما وقبح لا ألمّ فيه ولا إيذاء . اعتبر ذلك بحال القناع الذي  
 يستخدم للإضحاك ، فإنّ فيه قُبْحًا وتشويهاً ، ولكنّه لا يسبب ألماً»<sup>(٤)</sup> .

(١) م . ن . ص ٤٩

(٢) م . ن . ص ٤٥

(٣) م . ن . ص ٤٨ ترجمة عياد الملحق بالمصدر السابق

(٤) م . ن . ص ٤٥-٤٦

تتكشّف -عبر المقارنة- التعمية في ترجمة متى ، ليس في الأسلوب المتكلف الحرفي فحسب ، إنّما في مقاصد أرسطو التي يريد إبرازها من خصائص لكلّ من المأساة والملهاة ، الأمر الذي سلب من المفهومين الشهيرين في الآداب اليونانية دلالتهم ، فظلتّ مبهمة غائمة ، لم تفهم في الثقافة العربية . وكان عبد الرحمن بدوي قد استدرج من سوء ترجمة متى لكلّ من المأساة والملهاة ، وأشياء أخرى كثيرة في كتاب أرسطو ، نتيجة مهمّة عبّر عنها بقوله : لو قدّر لكتاب فنّ الشعر «أن يفهم على حقيقته ، وأن يستثمر ما فيه من موضوعات وآراء ومبادئ ، لعُني الأدب العربيّ بإدخال الفنون الشعرية العليا فيه ، وهي : المأساة والملهاة ، منذ عهد ازدهاره في القرن الثالث الهجريّ ، ولتغيّر وجه الأدب العربيّ كلّ»<sup>(١)</sup> .

القول بأنّ الأدب العربيّ كان سيتغيّر في ضوء فهم العرب لقوانين الشعر الإغريقية أمر لا يستقيم مع وجود الآداب القومية التي تنشأ في محاضن ثقافية خاصة ، وتتميّز بسمات خاصة بها ، فلذلك جزء من صيرورة تاريخ الأمم ، وغياب الأنواع الأدبية اليونانية في الأدب العربيّ ، لا ينتقص منه ، كما أن خلوّ الآداب الأخرى من أنواع وأغراض شائعة في الأدب العربيّ لا يخفض من قيمتها . أجل فالتأثيرات بين الآداب أهميتها في كشف وجوه التماثل ، وهو أمر يفيد الدراسات المقارنة ، ولكنّ من الخطأ القول بأنّ الآداب تنصاع في نشأتها واستقامتها لآداب أخرى ، فذلك أمر فيه درجة عالية من التمحّل الذي لا يأخذ في الاعتبار الحواضن الثقافية الفاعلة في نشأة الآداب ، ولكن لو كان كتاب فنّ الشعر قد تُرجم ترجمة دقيقة ، وُشرح بطريقة واضحة ، لتبدّل تصوّر القدماء عن الآداب اليونانية نفسها ، ولأدركوا الفوارق بين آدابهم وآداب اليونان ، ولتجنّبوا البحث عن المماثلة المتعسّفة فيما بينهما ، ولكان أعطاهم ذلك تصوّراً أعمق عن طبيعة أدبهم وطبيعة الآداب الأخرى .

(١) أرسطوطاليس ، فنّ الشعر ، ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقّق نصوصه عبد الرحمن بدوي ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٣ ، ص ٥٦ وقد كرّر بدوي في سيرته الذاتية شكواه من «سوء الترجمة العربية القديمة» ، واضطراره إلى القيام بترجمة جديدة للكتاب مع «شروح مستفيضة ومقدّمة صافية» . انظر عبد الرحمن بدوي ، سيرة حياتي ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،

قاد سوء الترجمة إلى سوء الفهم ثم خطأ التأويل ، فقد اعتمد ابن رشد على ترجمة القنائي ، وترتب على ذلك الوقوع في سلسلة متلازمة من الأخطاء الثقافية ؛ إذ يشير تلخيص ابن رشد لكتاب «فن الشعر» مشكلة كبيرة ، تتمثل في محاولته نقل أنواع أدبية نشأت في سياق ثقافي مخصوص ، إلى سياق آخر مختلف لم يعرف تلك الأنواع ، وهي محاولة لم توفق ؛ لأنّ الشارح لم يكن على بينة من طبيعة تلك الأنواع وخصائصها الفنيّة . ولم يتوقف الأمر عند هذا الأمر ، إنّما تخطّاه إلى إيجاد مماثلة بين «أغراض» شعريّة عربيّة و«أنواع» أدبيّة يونانيّة ، وذلك يكشف أنّ ابن رشد لم يأخذ في الحسبان السياقات المختلفة بين الثقافتين العربيّة واليونانيّة ، ولم يلتفت إلى التباين بين «موضوعات» الشعر عند العرب ، و«أنواعه» عند اليونان .

مرّ على معرفة العرب بكتاب أرسطو قبل ابن رشد ، نحو قرنين ونصف ؛ إذ عرفت الفلسفة الأرسطيّة ، وشاع منطق أرسطو في الثقافة العربيّة ، وعلى الرغم من ذلك ؛ فإنّ الكتاب لم يستأثر إلاّ باهتمام الفلاسفة ، والشذرات المتناثرة التي تردّدت في تضاعيف كتب النقد لا تقيم الدليل على أنّه أصبح منشطاً فيها . ويعود تفسير ذلك إلى أنّ الشراح العرب أدرجوا الكتاب في صلب فلسفة أرسطو ، فكان عندهم جزء من منطق ، فشرح وفُسر ضمن الأفق المشبع بمفاهيم المنطق والفلسفة ، ولما عورضت أمثله بنماذج من الأدب العربيّ ، كما وقع ذلك في شرح ابن رشد ، حدث سوء فهم في مقاصد أرسطو . لم يشرح ابن رشد الكتاب بالطريقة نفسها التي شرح فيها كتاب «ما بعد الطبيعة» ، فعمله تردّد بين التلخيص والشرح ، وذلك فرض عليه التخلص من الأمثلة التي أوردها أرسطو للنصوص الأدبيّة اليونانيّة ، وبها استبدل النصوص العربيّة من شعر وآيات قرآنيّة .

اتّخذت علاقة ابن رشد بآثار أرسطو ثلاثة أشكال : تفاسير وتلخيصات وجوامع ؛ فطريقته في التفاسير أنّه يورد مقاطع من نصوص أرسطو من الترجمة العربيّة الشائعة ، ثمّ يبادر إلى تفسيرها وشرحها شرحاً دقيقاً وعميقاً ، وهو يأخذ في أثناء ذلك بما لديه من تفاسير المفسّرين اليونانيّين المترجمة إلى العربيّة ، وأحياناً ينتقدها ، ثمّ يبيّن ما أدركه من نصّ أرسطو . أمّا في التلخيصات فيورد الكلمات الأولى من نصّ أرسطو ، ثمّ يشرح بقيّة الموادّ بلغته ، ويضيف إليها آراءه الشخصيّة ، والمعلومات التي لديه من مصادر الفلاسفة المسلمين ، بحيث يبدو الأثر بشكل كتاب مستقلّ ، تتمتّع فيه أقوال أرسطو بأقوال ابن رشد ، ولا يمكن تمييز إحداها عن الأخرى . أمّا

طريقة ابن رشد في الجوامع ، فإنه يتحدث دائماً عنها بنفسه ، في الوقت الذي يبين عقائد أرسطو وآراءه ، ويأخذ خلال ذلك بما في كتبه الأخرى لبيان وإكمال النص الذي بين يديه ، ويضيف إليها من معلوماته<sup>(١)</sup> .

إذا نظرنا في تلخيص ابن رشد لكتاب «فن الشعر» وجدناه يندرج ضمن الطريقة الثانية ، فهو مزيج من تصوّرات ابن رشد المستنبطة من النصّ الأرسطيّ المترجم ترجمة سيّئة إلى العربيّة ، وفيه كشف ابن رشد عدم درايته بالأدب اليونانيّ الذي جعله أرسطو متناً للتحليل في كتابه ، وذلك قاده إلى توهم العلاقة بين الأغراض الشعريّة العربيّة ، وبخاصّة المديح والهجاء ، والأنواع الخاصّة بالشعر المسرحيّ عند اليونان ، وهي المأساة والملهاة . وبالنظر إلى اختلاف الأغراض عن الأنواع باعتبار الأولى موضوعات والثانية أنساقاً وأبنية فنيّة ، فقد أقام مشابهة مغلوطة بين الاثنين استناداً إلى تفسير ضيق خاصّ بالوظائف وليس بالسّمات الفنيّة ، وبهذا يكون قد وقع في خطأين الأول : انتزاع تصوّر نقديّ من سياق أدبيّ وتطبيقه في سياق مختلف ، والثاني إخضاع نصوص أدبيّة تكوّنت في سياق خاصّ لسياق لا علاقة لها به . إلى ذلك فكلّ «مصطلح يعجز عن فهمه فهو يرده إلى عادة معروفة في الشعر العربيّ»<sup>(٢)</sup> .

أظهر ترحيل كتاب «فن الشعر» إلى العربيّة مفارقة تتّصل بعدد الأنواع الشعريّة ، فأرسطو يتحدث عن : الملحمة والمأساة والملهاة والدوثرمب ، لكنّ العدد يتناقص إلى ثلاثة في ترجمة القنائيّ ، وهي : المديح والهجاء والديثرمبو ، ثمّ ينتهي إلى اثنين عند ابن رشد ، هما : المديح والهجاء . لا يكشف هذا التناقص سوء الترجمة والتلخيص فحسب ، إنّما يفصح جهل المترجم والمخصّص بالأنواع الشعريّة التي تحدّث عنها أرسطو في كتابه . ويكشف التلخيص عن مفارقة أخرى ، لا تقلّ خطراً عن الأولى ، فالنصوص الأدبيّة اليونانيّة تتضاءل إلى أن تختفي ، فيُقدّم عن جزء قليل منها تلخيصاً لا قيمة له ، وفي المقابل يتزايد عدد النصوص الأدبيّة والدينيّة العربيّة ، فيكاد يغصّ الكتاب بها . تزيد الشواهد الشعريّة العربيّة على مئة بيت ، فيما تبلغ الشواهد القرآنيّة خمسة عشر شاهداً ، ويتردّد مصطلح «أشعار العرب» وغيره في

(١) كاظم الموسويّ البجنوريّ (مشرف) دائرة المعارف الإسلاميّة الكبرى ، طهران ١٩٩٨ ، ج ٣ ، ص ١٣٨

(٢) كتاب أرسطوطاليس في الشعر ، ص ١٦

تضاعيف الكتاب من أوله إلى آخره ، وذلك في سياق شرح فن شعري يساء فهم مكوناته وهو المأساة ، فيعامل على أنه المديح .

استند تصوّر ابن رشد للشعر ، في سياق تلخيصه لكتاب أرسطو ، إلى ركيزتين : التاريخ والطبائع . يتدخل التاريخ في ضبط مسار الشعر وتطوّره ، وتتدخل الطبائع في تصنيفه . أظهر ابن رشد في الركيزة الأولى بصيرة تاريخية سليمة ، فالشعر ظاهرة ثقافية متطورة عبر الزمن ، لكنّه نقض في الثانية ذلك التصرّو ، حينما أدخل قضية الطبائع في تصنيف الشعر ، فقد جرى أرسطو وعموم الفكر القديم القائل بالثنائيات الضدية ، فالنفوس تكون بطبعها إمّا فاضلة أو خسيصة ، فالطّيبة بطبيعتها تنشئ المديح ، والخسيصة بطبيعتها تنشئ الهجاء ، «إذا نشأت الأمة تولدت فيها صناعة الشعر من حيث أنّ الأوّل يأتي منها أولاً بجزء يسير ، ثمّ يأتي من بعده بجزء آخر ، وهكذا إلى أن تكمل الصناعات الشعرية ، وتكمل أيضاً أصنافها بحسب استعداد صنف من الناس للانداز أكثر بصنف من أصناف الشعر . مثال ذلك أنّ النفوس التي هي فاضلة وشريفة بالطبع هي التي تنشئ أولاً صناعة المديح - أعني مديح الأفعال الجميلة - والنفوس التي هي أخسّ من هذه هي التي تنشئ صناعة الهجاء - أعني هجاء الأفعال القبيحة - ، وإن كان قد يضطر الذي مقصده الهجاء / للشّرار والشّرور أن يمدح الأخيار والأفعال الفاضلة ، ليكون ظهور الشرور أكثر - أعني إذا ذكرها ثمّ ذكر بإزائها الأفعال القبيحة» (١) .

اكتنف الإبهام كلّ المصطلحات التي قام عليها كتاب أرسطو ، مترجماً وملخصاً ، ففضلاً عن الخطأ الجسيم في وضع المديح والهجاء كمقابلين للمأساة والملهة ؛ فإنّ العناصر المكوّنة للمأساة ، وهي التي تشكّل متن الكتاب ، عُرِضت بغموض لا يقلّ عن المفهومين المذكورين . قرّر أرسطو أنّ المأساة تتألّف من العناصر الآتية : القصة والأخلاق والعبارة والفكر والمنظر والغناء ، فتحوّل عند متّى إلى : الخرافات والعادات والمقولة والاعتقاد والنظر والنغمة ، ثمّ تنتهي عند ابن رشد إلى : الأقاويل الخرافية والعادات والاعتقادات والنظر واللعن .

يفهم وجه القصور عند متّى إذا أخذنا في الحسبان حرفيّة الترجمة ، ولكن في

---

(١) ابن رشد ، تلخيص كتاب الشعر ، تحقيق تشارلس بترورت ، وأحمد عبد المجيد هريدي ، القاهرة ،

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ ، ص ٦٤

حالة ابن رشد ، وهو منشغل بفلسفة أرسطو وملخص لها وشارح لغوامضها ، يصعب فهم الأمر ، من ناحيتين : الأولى غياب ذلك في الشعر الذي يعالجه ، والثاني اضطراب الفهم ، من ذلك تفسيره لعنصر المنظر ، وهو أحد مكونات المسرحية المأساوية ، فهو لا ينتبه إلى أن شعر المديح يختلف عن الشعر الذي يعالجه أرسطو ، فلا تتوافر فيه تلك العناصر ، تغيب عنه الحكاية/الأقاويل الخرافية ، وتغيب العادات والاعتقادات والمناظر ، وربما الألمان ، فهذه من مكونات المسرحية .

وتنبثق المفارقة من ثنايا الجهل ؛ حينما يحاول ابن رشد تفسير «المنظر» فيشتقه من السياق الثقافي للفكر العربي بالنسبة له ، فيظن أنه «النظر» كما جاء في ترجمة متى ، فيقول بأنه «إبانة عن صواب الاعتقاد» ، وهو ضرب من الاحتجاج لصواب الاعتقاد الممدوح به ، وحين يبحث عما يقابله في أشعار العرب ، ينتهي إلى أنه لا يوجد إلا في «الأقاويل الشرعية المدحجة» ، فالمديح لا يلائمه الاحتجاج بصواب الاعتقاد ، إنما بقول محاك ، ذلك أن «صناعة الشعر ليست مبنية على الاحتجاج ، والمناظرة ، وبخاصة صناعة المديح»<sup>(١)</sup> .

لاحظ ابن رشد نقصاً في كتاب أرسطو . وهو خاصّ بعدم معالجته للملهاة ، لكنه لم ير في ذلك النقص عيباً ، فتحليل المأساة - عند ابن رشد بالمديح - يكفي إذا فهم بضده «الذي نقص مما هو مشترك هو التكلم في صناعة الهجاء ، لكن يشبه أن يكون الوقوف على ذلك يقرب من الأشياء التي قيلت في باب المديح ؛ إذ كانت الأضداد يعرف بعضها من بعض»<sup>(٢)</sup> .

لن تصرف هذه الملاحظة القصد غير المباشر الذي تحمله في طياتها . إنما تؤكد أن ابن رشد اعتبر المديح هو الأصل ، ومنه تشتق قواعد الشعر ، وبالنظر إلى أن الجزء الخاصّ بالهجاء لم يترجم ، كما توهم ابن رشد ، فيكفي قلب الأدوار ، فكلّ المعايير تُستبدل بنقائضها لتكون صالحة . المديح والهجاء محكومان بعلاقة ضدية ، فقلب السنن الخاصة بالمديح ، يؤدي إلى إظهار سنن الهجاء الخفية في كتاب أرسطو .

اعتبر كيليطو شرح الكتاب شائناً فاضحاً ، فابن رشد الذي كان يطمح إلى الوفاء التام لأرسطو ، قد خانته هذه المرة ، فشوه أفكاره بلا تعمد ، ومن دون أن يفطن إلى

(١) م . ن . ص ٧٢

(٢) م . ن . ص ١٣٢

ذلك لحظة . إنّه بمجمل القول شرح يستعصي على القراءة ، لا نفع يُتوخّى منه لمن يريد الاعتماد عليه لإثراء فهمه لفنّ الشعر ، فلو ضاع كتاب أرسطو هذا ، لما تسنّى تمثّل موضوعه وتصوّر محتواه من خلال ابن رشد . بل أكثر من ذلك لكي نفهم كلام هذا الأخير ، لا بدّ من الرجوع إلى أرسطو ، بحيث نجد أنفسنا أمام مفارقة لا شكّ في أنّها خطرت ببال العديد من القراء : ليس ابن رشد هو الذي يشرح أرسطو ، بل إنّ الثاني هو الذي يشرح الأول<sup>(١)</sup> .

برهن تلخيص ابن رشد الخاطي لأفكار أرسطو في مجال الشعر على قضية مهمّة في الأدب ، قضية السياقات الثقافية التي تغذي النصوص الأدبيّة بخصائصها ، فالتراسل بين المرجعيّات الثقافيّة والنصوص الأدبيّة قويّ وفاعل في صوغ العناصر الأساسيّة للمادّة الأدبيّة ، وفي ضوء ذلك يكون استحضارها ضروريّاً لكلّ شرح أو تفسير أو نقد يتوخّى الدقّة . في حالة ابن رشد ، وسلالة الشراح والملخصين والمترجمين لكتاب «فنّ الشعر» ، جرى تغييب السياق الثقافيّ اليونانيّ الذي شكّل مرجعيّة مباشرة لكتاب أرسطو ، وبه استبدل سياق ثقافيّ عربيّ مختلف ، أدّى بداية من الترجمة الأولى ، وانتهاء بتلخيص ابن رشد إلى مبادلة غير صحيحة ، لا يمكن أن يقبلها الأدب ، ولا المجتمع الأدبيّ العارف . مبادلة في المفاهيم الأساسيّة ، ومبادلة في النصوص التمثيلية لتوافق سياقاً مختلفاً عن ذلك الذي احتضن الكتاب في الأصل . وتبع ذلك سوء فهم في الوظائف ، وفي المماثلة الخاطئة بين أغراض شعريّة عربيّة ، وأنواع شعريّة يونانيّة .

#### ١٤. ترجمة خاطئة:

ينبغي ألاّ يحصر مفهوم الترجمة في تلك العمليّة الاستبداليّة بين اللغات ، إنّما يمكن توسيعه ليشمل مظاهر التعبير الفنيّ ، بعد أن وقفنا على الوجه الثقافيّ له ، فكلّ قراءة خاطئة هي نوع من الترجمة الزائفة لشكل التعبير ، وعدم دقّة في فهم محتواه ، فتكون الوساطة ، وهي عمليّة أساسيّة في الترجمة ، فاقدة للشروط التي تؤهلّها للقيام بوظيفتها ، وحدث أن وقع خطأ في مثل هذا الضرب من الترجمة في السرد الأدبيّ .

---

(١) لن تتكلّم لغتي ، ص ٤٨



في رواية «بريد بغداد» للكاتب التشيليّ «خوسيه ميغيل باراس» وصل الرسّام «إليرو ماتوشكا» المعروف باسم «هويريكو» إلى بغداد برفقة زوجته التشيكية «إيفا» في أوّل ستينيات القرن العشرين ، وشغل بالبحث عن نماذج فنّية شرقية يستنسجها في لوحاته ، فطاف بغداد ساعياً وراء موضوعات فنّية على خلفيّة أحداث العنف بعد ثورة عام ١٩٥٨ ، وانتهى به التطواف إلى آثار «طيسفون» عاصمة الأكاسرة قبل ظهور الإسلام ، وهي المعروفة بأطلالها الشامخة جنوب بغداد باسم «طاق كسرى» عند أحد منحنيات نهر دجلة .

وبعدّ القوس العمرانيّ الضخم المتبقّي من آثار القصر الإمبراطوريّ من أقدم الأقواس في العالم ، بناه الفرس الفارثيّون بارتفاع ١١٠ أقدام ، واستأثر به ورثتهم الساسانيّون ، وكان جزءاً من قاعة مسقوفة بالأجر المعقود تعرف بـ«إيوان كسرى» . وبغية رسم ذلك الأثر القديم ، شغل الفنّان بتاريخه وتسمياته وبنائه وتعاقب الدهور عليه ، فأجرى بحثاً موسّعاً عنه ، ثمّ إنّه شعر بالغمّ وهو يقف مندهشاً أمام المبنى الضخم الذي لم يبق منه سوى جزء يسير ، ليس بسبب تضارب الأخبار التاريخية حوله ، «إنّما من ثقل وطأة الزمن والعمل المتراكم ؛ التفكير فيمن شيّدوا البناء بالعمل ثلاثين سنة متواصلة ، وهم يموتون كالذباب في مسعاهم ، يعملون بعناد تحت الشمس الضاربة والسوط لوضع آجرة صغيرة بعد أخرى ، مناوين دوماً بين الأجر المشويّ كثيراً والمشويّ قليلاً ، الضارب إلى الحمرة بذات اللون الأغر المائل إلى الصفرة ، طوال حياة بكاملها»<sup>(١)</sup> .

دهش الرسّام من ملايين القطع المربعة الصغيرة التي شكّلت قبة القصر المنيف ، فتخيّله كاملاً ، وراح يصف أبعاده على سبيل التخمين ، حيث «الجدران التي تنحني لتشكّل هذه المغارة الضخمة لا تقلّ سماكتها عن ستة أمتار في الأسفل وحوالي مترين في الجزء العلويّ» . ويتجاوز ارتفاع القوس في منتصفه الثلاثين متراً . وقدرت العرض بعشرين متراً ، والعمق بنحو أربعين متراً . وقد شيّد هذا كلّ منذ سبعة عشر قرناً ، من أجل إمبراطورية وملوك طواهم النسيان اليوم» . ثمّ راح يتذكّر تاريخ قومه من أبناء المابوتشي ، وهم أقلّية في تشيلي ، فتخيّل حالهم في ذلك الوقت «عندما كانت

---

(١) خوسيه ميغيل باراس ، بريد بغداد ، ترجمة صالح علماني ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٨ ص ٣٤٨ .

تجري تحت القوس طقوس ملكيّة ، وكان العلماء يحفرون ألواح الطين بأزاميلهم ليكتبوا تاريخ تلك العصور» .

وعاد يتأمّل «القوس العملاق المجرّح بشقوق هائلة والذي سيسقط منهارة بكل تأكيد ذات يوم» . وانتهى بتدوين ملاحظاته الفنيّة عن القوس ، «لا سيّما المنظور الذي يقدّمه عند النظر إليه من أسفل على مقربة من الجدار ؛ إذ ينحني وينعكس نحو الأعلى هناك في الأعالي فوق رؤوسنا ، حتى يسبّب لنا الدوار . بل إنني اصطدت غيمة صغيرة من حرير ، وطارثاً أسود يعبر بسرعة على خلفيّة سماء سماويّة عبر الشرخ الأكبر في سقف القبّة . أمضيت بعد ذلك وقتاً طويلاً في ملء أوراق بقطع أجرّ وتدوين ملاحظات باستخدام رموز حول الأضواء والظلال»<sup>(١)</sup> .

ثمّ عاد الفنّان إلى بغداد وانهمك في رسم القوس المعماريّ الكبير ، وحينما انتهى منه ، ومن مجموعة لوحات مستوحاة من الحياة العراقيّة ، أرسلها دفعات إلى وكيل أعماله في فيينا ، ومن هنالك أرسلت إلى بلاده للعرض في صالة جامعة تشيلي ، وحينما افتتح المعرض أخيراً ، كان حدث الموسم الفنّيّ ، فدبّج الناقد «روميرا» مقالة قرّط فيها المعرض ، معتبراً صاحبه «موهبة تصويريّة استثنائيّة» مشيراً إلى جودة عمله ومهاراته ، مبيناً الموادّ الفنيّة والثقافيّة التي نهل منها موضوعاته ، «بفضل إقامة طويلة في الشرق الأوسط» فلوحاته «ستعيش بفضل قيمتها التصويريّة حصراً ، ولكنها كانت وستكون أيضاً شهادة تاريخيّة اجتماعيّة ، حتى لو ساءنا ذلك . فالاهتمام بالاستمراريّة هنا ، والنزوع إلى تصوير الحقيقة ، وحبّ الموضوعيّة ، لا تضعف العلاقة المضبوطة لدرجات الألوان وجمال اللون ودقّة الرسم»<sup>(٢)</sup> .

وبعد أن عرّف الناقد «روميرا» بالرسم «هويريكو» انصرف إلى تحليل لوحته الكبيرة «أجر» التي نسخ فيها قوس طيسفون بكامله ، فقال «ثمّة شيء من القلق حيال الألغاز الجوهريّة التي يتمكّن السوراليّون من اكتشافها وإيصالها ، من خلال أشياء أو كائنات مصوّرة بواقعيّة مملّة ومدقّقة ، ويضيفون إليها ارتباطات غريبة وغير مألوفة . إنني أشير في هذا المجال بصورة خاصّة إلى اللوحة الكبيرة المعنونة «أجر» ، حيث التصوير الصارم لبئر عظيمة ، مع أقصى استنساخ منهجيّ ودقيق لكل قطعة

(١) م . ن . ص ٣٤٩-٣٥٠

(٢) م . ن . ص ٤٣٦-٤٣٧

أجر صغيرة مستطيلة من تلك التي تشكّل جداره الآخذ بالتقعر والانغلاق في نزوله ، محدثاً إحساساً بقلق دواريّ . وكمشاهدين ننظر من الحافة العليا لهذه البئر ، مع أنّ الحافة لا تظهر ، نشعر للحظة كما لو أنّنا نسبح في الفراغ . ولكن أكثر ما يفاجئ وما يشدّ انتباهنا فوراً ، هي بركة صغيرة أو بقية ماء غير منتظمة الشكل في قعر البئر ، تعكس سماء زرقاء مع غيوم نائية يجتازها طائر أسود . وعند الحافة يظهر وجه يطلّ من أعلى - لكنّه ينعكس في الأسفل - غير محدّد الملامح بدقّة كبيرة ، وهذا منطقيّ بسبب بُعد المسافة وانعكاس الضوء ، لكنّه يوقظ جاذبيّة فضول لا كايح لها<sup>(١)</sup> . وختم الناقد مقالته بنوع من اليقين ، قائلاً «إنّنا باختصار أمام أحد أكثر الجهود جديّة لفنّان تشيليّ يعد ببلوغ قمم لا يصلها إلّا قليلون» .

ما العلاقة التي تربط موضوع لوحة «أجر» التي رسمها الفنان «هويريكو» بالنقد التحليليّ المستفيض الذي كتبه الناقد «رومير»؟ لا توجد أية علاقة ، فقد حدث خطأ في أثناء تنظيم المعرض ، وعلقت اللوحة مقلوبة ، فظهر قوس طيسفون مقلوباً إلى الأسفل ، فتوهّم الناقد أنّه بئر عظيمة ، فراح يقدم تفسيراً خاطئاً للوحة البئر أفضى إلى تأويل خاطئ . ولم ينتبه إلى عنوان اللوحة ، وكان يجهل مرجعيّتها الثقافيّة والتاريخيّة ، وما أنّه معتدّ برصيده النقديّ ، فقد أطلق العنان لأوهامه في تحليل مضمون اللوحة ؛ إذ تظهر بعض «الألغاز الجوهرية» التي يدسّها الفنّانون السورباليّون في أعمالهم مع أنّهم يقدمونها «مصورة بواقعيّة مملّة ومدقّقة ، ويضيفون إليها ارتباطات غريبة وغير مألوفة» .

فبما أنّ اللوحة قد قلبت ، فينبغي اختلاق موضوع لها ، فأطلق العنان لتأويل لا صلة له بها ، فالبئر العظيمة التي صورت بصرامة ، ودقّة في تفاصيلها كافّة تشعر الناظر إليها بالقلق الذي يؤدّي إلى الدوار ، وبما أنّ حافة البئر لا ترى ، فبدت وكأنّ الناظر إليها يعم في فراغ . ولكن ليس هذا كلّ شيء ؛ ففي قعر تلك البئر ظهرت بركة صغيرة ، وفيها انعكست سماء زرقاء ، وغيوم بعيدة اخترقها طائر أسود ، وعند الحافة العليا ثمة وجه غائب الملامح بسبب بُعد المسافة وانعكاس الضوء ، لكنّه يثير فضولاً مفرطاً ، وكلّ هذه أوهام بدّتها أوصاف الرسّام للأبعاد ، وطبيعة المنظور الذي

(١) م . ن . ص ٤٣٧-٤٣٨

درسه بالتفصيل ، ودوّنه ، قبل أن يعود إلى بغداد ويشرع في نسخ القوس على قماش اللوحة .

هذا هو السياق التحليلي الذي اختلقه الناقد للوحة فنّية قامت على دراسة دقيقة لموضوعها ، فلم يكتف الرسّام بمعاينة القوس ، والتوغّل في تفاصيله العمرانيّة ، وإعداد دراسة فنّية كاملة عن كنيّة تشكيّله ، إنّما عاد إلى تاريخه البعيد منذ أيّام الأكاسرة الأوّل ، من أجل أن يستوعب الموضوع الذي يشتغل عليه ، فقد بذل جهداً في تشريح معمار القوس وتاريخه ، وسعى لأن يظهر ذلك في اللوحة ، أمّا الناقد فقد فصح انقلاب اللوحة جهله بكلّ العناصر الفنّية للوحة ، فجعل من القوس بئراً ، وراح يؤوّل مكونات المشهد بكامله في تعسّف واضح لموضوع اللوحة ومكوّناتها .

تذكّر قراءة الناقد «روميرا» للوحة الرسّام «هويريكو» بقراءة «ابن رشد» لمفهومَي «التراجيديا» و«الكوميديا» عند أرسطو ، فكلّ منهما اصطنع موضوعاً وسياقاً لا صلة لهما بالموضوع الأصليّ وسياقه ، ويعود ذلك إلى سوء الترجمة اللغويّة أو البصريّة ؛ وغياب المرجعيّة التفسيرية القادرة على ربط الأشياء بعضها ببعض ؛ إذ افترض الناقد أنّ الرسّام اتّخذ لنفسه منهجاً سريالياً في رسم بئر حينما عجز عن معرفة السياق التاريخيّ للقوس الفارسيّ ، مع أنّ اللوحة تندرج في إطار رسم المناظر الطبيعيّة التي تتوافر فيها درجة عالية من المطابقة بين المرجع الأصليّ وتمثيله الفنّيّ ، وافترض الشارح أنّ المأسى والملاهي تمثيلات شعريّة مدحيّة وهجائيّة ، وجرى إهمال كلّ ما له صلة بتلك الأشكال الأدبيّة العريقة في الثقافة اليونانيّة . وفي الحالتين وقع استبعاد للحقائق الماديّة المُمثّلة فارسيّة كانت أم إغريقيّة ، فما ورد شيء عن قوس طيسفون في كلام الناقد الفنّيّ «روميرا» ، ولم يعرّج ابن رشد على ذكر أعمال سوفكليس وأسخيلوس ويوربيدس وأرسطوفانيس .

## المصادر والمراجع

### ١. المصادر

- إبراهيم (صنع الله)  
-أمريكانلي ، القاهرة ، دار المستقبل العربيّة ، ٢٠٠٤  
الأسواني (علاء)  
- شيكاجو ، القاهرة ، دار الشروق ، ط٤ ، ٢٠٠٧ ،  
-عمارة يعقوبيان ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ٢٠٠٦  
الأعرج (واسيني)  
-البيت الأندلسيّ ، بيروت ، دار الجمل ، ٢٠١٠  
ألليندي (إيزابيل)  
- بلدي المخترع ، ترجمة رفعت عطفة ، دمشق ، دار ورد ، ٢٠٠٤  
إيكو (أمبرتو)  
-اسم الوردة ، ترجمة أحمد الصمعي ، تونس ، دار التركي ، ١٩٩١  
باراس (خوسيه ميجيل)  
-بريد بغداد ، ترجمة صالح علماني ، القاهرة ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ،  
٢٠٠٨  
باموق (أورهان)  
-إسطنبول : الذكريات والمدينة ، ترجمة أماني توما ، وعبد المقصود عبد  
الكريم ، القاهرة ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ، ٢٠٠٨  
بدر (علي)  
-الطريق إلى تلّ المطران ، بيروت ، دار رياض الرّيس للكتب والنشر ، ٢٠٠٥  
-حارس التبغ ، بيروت ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر ، ٢٠٠٨  
بدوي (عبد الرحمن)  
-سيرة حياتي ، بيروت ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر ، ٢٠٠٠  
براون (دان)  
-شيفرة دافنتشي ، ترجمة سمة محمّد عبد ربه ، بيروت ، الدار العربيّة  
للعلوم ، ٢٠٠٤

- بركات ( حلیم )
- المدينة الملوّنة ، بيروت ، دار الساقی ، ٢٠٠٦
- بورخيس ( خورخه لويس )
- المرايا والمتاهات ، ترجمة إبراهيم الخطيب ، الدار البيضاء ، توبقال ، ١٩٨٧
- تاج السر (أمير)
- مرايا ساحلية : سيرة مبكّرة ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ٢٠٠٠
- ثربانتس (ميغيل)
- دون كيخوته ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، دمشق ، دار المدى ، ١٩٩٨
- حداد (فواز)
- المترجم الخائن ، بيروت ، رياض الرئيس للنشر ، ٢٠٠٨
- حميش (بنسالم)
- العلامة ، الرباط ، مطبعة المعارف الجديدة ، ٢٠٠٦
- الربيعي (عبد الرحمن مجيد)
- أية حياة هي؟ سيرة البدايات ، بيروت ، دار الآداب ، ٢٠٠٤
- خطوط الطول .. خطوط العرض ، تونس ، دار المعارف ، ١٩٩٣
- زيدان (يوسف)
- عزازيل ، القاهرة ، دار الشروق ، ٢٠٠٨
- سعيد (إدوارد)
- خارج المكان ، ترجمة فؤاز طرابلسي ، بيروت ، دار الآداب ، ٢٠٠٠
- سينويه (جيلبرت)
- ابن سينا والطريق إلى أصفهان ، ترجمة آدم فتحي ، كولونيا ، دار الجمل ، ١٩٩٩
- شرابي (هشام)
- الجمر والرماد ، الجزائر ، منشورات الاختلاف ، ٢٠٠٣
- هشام شرابي ، يروي قصّة ثلاث مدن عاش فيها : عكا وبيروت وواشنطن ،
- تحرير محمود شريح ، كولونيا ، منشورات الجمل ، ١٩٩٤
- شكري (محمّد)
- الخبز الحافي ، لندن ، دار الساقی ، ١٩٩٣ .

- الشطّار ، لندن ، دار الساقى ، ١٩٩٤  
شمعون (صموئيل)
- عراقىّ في باريس ، كولونيا ، دار الجمل ، ٢٠٠٥  
شميت (إريك إيمانويل)
- مسيو إبراهيم وزهور القرآن ، ترجمة محمّد سلماوي ، القاهرة دار الشروق ،  
٢٠٠٥  
الشوك (علي)
- السراب الأحمر : سيرة حياة هشام المقدادي ، دمشق ، دار المدى ، ٢٠٠٧  
طاهر (بهاء)
- الحبّ في المنفى ، القاهرة ، دار الهلال ١٩٩٥ .  
عوز (عاموس)
- قصّة عن الحبّ والظلام ، ترجمة حمي غنّام ، دار الجمل ، بغداد- بيروت ،  
٢٠١٠ ،  
غالا (أنطونيو)
- المخطوط القرمزيّ ، ترجمة رفعت عطفة ، دمشق ، دار ورد ، ١٩٩٨  
الغيطاني (جمال)
- خلّسات الكرى ، القاهرة ، دار شرقيات ، ١٩٩٦  
قطّان (نعيم)
- فريدة ، ترجمة آدم فتحى ، منشورات الجمل ، كولونيا ، ألمانيا ، ٢٠٠٦  
- وداعاً بابل ، ترجمة آدم فتحى ، منشورات الجمل ، كولونيا ، ألمانيا ، ٢٠٠٠  
كجه جي (إنعام)
- الحفيّدة الأميركيّة ، بيروت ، دار الجديد ، ٢٠٠٨  
مازن (أمين)
- مسارب ، طرابلس ، مطابع الثورة العربيّة ، ١٩٩٨  
محفوظ (نجيب)
- أصداء السيرة الذاتيّة ، القاهرة ، مكتبة مصر  
المرنيسي (فاطمة)
- نساء على أجنحة الحلم ، ترجمة فاطمة الزهراء أزرويل ، المركز الثقافىّ ، ١٩٩٨

مسعد (رؤوف)

-بيضة النعامة ، لندن ، رياض الرئيس للنشر ، ١٩٩٤

-مزاج التماسيح ، القاهرة ، ومكتبة مدبولي ، ٢٠٠٠

المقري (علي)

-اليهودي الحالي ، بيروت ، دار الساقبي ، ٢٠٠٩

معلوف (أمين)

-حدائق النور ، ترجمة عفيف دمشقية ، بيروت ، دار الفارابي ، ١٩٩٣

-رحلة بالداसार ، ترجمة نهلة بيضون ، بيروت ، دار الفارابي ، ٢٠٠١

-ليون الإفريقي ، ترجمة عفيف دمشقية ، بيروت دار الفارابي ، ١٩٩١

منيف (عبد الرحمن)

-سيرة مدينة ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٩٤

ميخائيل (سامي)

-فيكتوريا ، ترجمة سمير نقاش ، دار الجمل ، كولونيا ، ألمانيا

مينه (حنا)

-بقايا صور ، بيروت ، دار الآداب ، ١٩٩٠

نقاش (سمير)

-شلومو الكردي وأنا والزمن ، كولونيا ، منشورات الجمل ، ٢٠٠٤

وازن (عبد)

-حديقة الخواس ، بيروت ، دار الجديد ، ١٩٩٣

ولد إبنو (موسى)

-مدينة الرياح ، بيروت ، دار الآداب ، ١٩٩٦ ،

## ٢.المراجع

إبراهيم (عبد الله)-محرر

-الأدب والمنفى ، الدوحة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث ، ٢٠٠٧

أرسطو طاليس

-كتاب أرسطو طاليس في الشعر ، نقل أبي بشر متى بن يونس القنائي ، حققه



- مع ترجمة حديثة ، شكري محمد عياد ، القاهرة ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧
- فنّ الشعر ، ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقّق نصوصه عبد الرحمن بدوي ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٣
- ابن أبي أصيبعة (موفّق الدين أبو العبّاس )
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق نزار رضا ، بيروت ، دار مكتبة الحياة
- أشكروفت (بيل) وآخرون
- الردّ بالكتابة : النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة ، ترجمة شهرت العالم ، بيروت ، المنظمة العربية للترجمة .
- البنجوري (كاظم الموسوي)- مشرف
- دائرة المعارف الإسلامية الكبرى ، طهران ١٩٩٨
- بن دور (زفي )
- النفي اللامرئي : اليهود العراقيون في إسرائيل ، ترجمة هناء خليف غني ، مجلة الأقاليم ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية ، ع ٢٠١١/١
- التوحيديّ (أبو حيّان)
- الإمتاع والمؤانسة ، ضبط وشرح أحمد أمين ، أحمد الزين ، بيروت : مكتبة الحياة
- تودوروف (تزفتيان)
- الشعرية ، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة ، الدار البيضاء ، توبقال ، ١٩٩٠
- نحن والآخرون ، ترجمة : د . ربي حمود ، دمشق ، دار المدى للثقافة والنشر
- حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله)
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، بيروت ، دار الكتب العلميّة ، ١٩٩٢
- الخطيب البغداديّ (أبو بكر أحمد بن ثابت)
- تاريخ بغداد ، بيروت ، دار الكتب العلميّة

- الذهبيّ (شمس الدين محمّد بن أحمد)  
 -سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمّد نعيم عرقسوسي ،  
 بيروت ، مؤسّسة الرسالة  
 الذيب (سامي)  
 -ختان الذكور والإناث ، دمشق ، دار الأوائل ، ٢٠٠٣  
 ابن رشد (أبو الوليد محمّد بن أحمد )  
 -تلخيص كتاب الشعر ، تحقيق تشارلس بتروت ، وأحمد عبد المجيد هريدي ،  
 القاهرة ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ، ١٩٨٧  
 روكي (تيتز)  
 - في طفولتي : دراسة في السيرة الذاتيّة العربيّة ، ترجمة : طلعت الشايب ،  
 القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة  
 سعيد (إدوارد)  
 -الاستشراق ، ترجمة كمال أبو ديب ، بيروت ، مؤسّسة الأبحاث  
 العربيّة ١٩٨١ .  
 -تأمّلات حول المنفى ، ترجمة ناثر ديب ، بيروت ، دار الآداب ، ٢٠٠٤  
 -الثقافة والإمبرياليّة ، نقله إلى العربيّة كمال أبو ديب ، بيروت ، دار الآداب ،  
 ١٩٩٧  
 -المثقف والسلطة ، ترجمة ، محمّد عناني ، القاهرة ، رؤية للنشر والتوزيع ،  
 ٢٠٠٦ ،  
 القفطي (جمال الدين أبي الحسن عليّ)  
 -تاريخ الحكماء ، بغداد ، مكتبة المثنى - القاهرة ، مكتبة الخانجي  
 كليطو (عبد الفتاح)  
 -لسان آدم ، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي ، الدار البيضاء ، توبقال ، ١٩٩٥  
 -لن تتكلّم لغتي ، بيروت ، دار الطليعة ، ٢٠٠٢  
 لاوت (رينهارد)  
 -إبراهيم وأبناء عهده مع الله ، ترجمة غانم هنا ، دمشق ، خطوات للنشر  
 والتوزيع ، ٢٠٠٦

- لوجون (فيليب)  
-السيرة الذاتية ، ترجمة عمر حلّي ، بيروت ، المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٤  
مانغويل (ألبرتو)  
-تاريخ القراءة ، ترجمة سامي شمعون ، بيروت ، دار الساقي ، ٢٠٠١  
ماي (جورج)  
-السيرة الذاتية ، تعريب : محمد القاضي - عبد الله صولة ، بيت الحكمة -  
قرطاج ١٩٩٢  
المسيري (عبد الوهاب)  
-موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ، مركز الدراسات السياسيّة  
والإستراتيجيّة بالأهرام ، القاهرة ، ١٩٧٥  
ابن النديم (محمد بن إسحاق)  
-الفهرست ، تحقيق ناهدة عباس عثمان ، الدوحة ، دار قطريّ بن الفجاءة ،  
١٩٨٥  
واليا (شيلي)  
-صدام ما بعد الحداثة : إدوارد سعيد وتدوين التاريخ ، ترجمة عفاف عبد  
المعطي ، القاهرة ، رؤيا للنشر والتوزيع  
ياقوت الحمويّ ( أبو عبد الله)  
-معجم البلدان ، بيروت ، دار الفكر



## المحتويات

### مقدمة

5

### الفصل الأول : السيرة والمنفى والأوطان المتخيّلة

- 11 ١ . أوطان متخيّلة .
- 14 ٢ . المنفى والعودة المستحيلة .
- 21 ٣ . السيرة والمنفى : تفاعلات متبادلة .
- 26 ٤ . المنفى وانزياح الهوية .
- 30 ٥ . الأبوة والأمومة : تنازع تربويّ .
- 37 ٦ . المنفى وثنائية الرفعة والدونية .
- 40 ٧ . صور متعارضة .

### الفصل الثاني : الهوية السردية والمدن المستعادة

- 45 ١ . المدينة الملونة وإزاحة المنفى .
- 53 ٢ . منطقة الجمر والرماد .
- 58 ٣ . المدينة بوصفها ذكرى مستعادة .
- 64 ٤ . السيرة واستدعاء مدينة البدايات .
- 69 ٥ . السيرة ومآل المدن الإمبراطورية .

### الفصل الثالث : السرد والاعتراف وإعادة تعريف الهوية

- 75 ١ . مَنْ يجرؤ على الاعتراف؟
- 79 ٢ . السرد والتشرد والاقتلاع .
- 84 ٣ . طقس التحوّل وضرورة الاعتراف .
- 89 ٤ . نزاع الهويّات وإعادة تعريفها .
- 93 ٥ . الهوية وانفراط العقد الاجتماعيّ .
- 95 ٦ . الهويّات الثابتة والهويّات المتحوّلة .

## الفصل الرابع : الهوية الملوثة والنجوع التوراتي

- 105 ١ . الهوية والكراهية .
- 111 ٢ . اللغة وهوية التابع .
- 116 ٣ . فرضية الازتياب الجماعي .
- 122 ٤ . الهوية الفردية والهوية الجماعية .
- 127 ٥ . محاولة لاسترضاء الله .
- 132 ٦ . ذعر ومجاعة وأكلة لحوم البشر .
- 135 ٧ . تضافر الدين والمال .
- 141 ٨ . الهوية والعجمة .
- 144 ٩ . خاتمة .

## الفصل الخامس : هويات سردية أم أقنعة للتنكر؟

- 149 ١ . مدخل
- 149 ٢ . إستراتيجية الهوية المتحوّلة
- 151 ٣ . ماثلاث سردية زائفة
- 155 ٤ . الهوية والبراهين الناقصة
- 156 ٥ . تعميم سردي غامض
- 159 ٦ . معالم الهوية المرتبكة
- 162 ٧ . الهوية والتركة الوطنية
- 164 ٨ . عشق محرّم
- 167 ٩ . أحلام الغزاة

## الفصل السادس : السيرة الروائية والهوية والتهجين السردية

- 173 ١ . مدخل
- 175 ٢ . ميثاق السيرة الذاتية وميثاق الرواية
- 179 ٣ . استثمار التجربة الذاتية
- 181 ٤ . الاكتشاف والانتهاك
- 185 ٥ . أصداء ذاتية وبقايا صور

193	٦ . التخيّل والتنكّر
197	٧ . استكشاف عالم الحريم
204	٨ . السيرة الروائيّة الوظيفية المأووية
210	٩ . السيرة الروائيّة والبعد التوثيقيّ
212	١٠ . اليوتوبيا بوصفها منفى داخليا
216	١١ . خاتمة

## الفصل السابع : الارتحال والاكتشاف وصوغ الهوية

221	١ . مدخل
221	٢ . السرد وفرضيّة عبور الحدود الدينيّة .
226	٣ . البحث في انحراف المعتقد الدينيّ .
231	٤ . الرؤية المساويّة والكشف العميق .
247	٥ . بحث في مصائر المترحّلين وفي إخفاقات المتوطّنين .
260	٦ . الارتحال والمغامرة السردية .
263	٧ . قوافل بكماء وهلوسات مرتحل وشبق نصرانيّ .
272	٨ . خاتمة

## الفصل الثامن : كذب أبيض وغشّ سرديّ وسوء تأويل

275	١ . مدخل .
275	٢ . هوس الترجمة .
279	٣ . انتحال صفة .
282	٤ . الشبهة واستعادة هويّة النصّ .
285	٥ . غشّ سرديّ .
291	٦ . مترجم معجال ومتهيّج الذهن .
294	٧ . نقصان في الأمانة .
298	٨ . مترجم بابويّ عابر للهويّات الثقافية .
304	٩ . حذار من تمرّد الترجمان .
309	١٠ . خداع صريح .

- 314 . ١١ . ترجمة المصائر .  
317 . ١٢ . خيانة مشروعة .  
323 . ١٤ . ترجمة المفهوم : سوء فهم وتأويل خاطئ .  
334 . ١٤ . ترجمة خاطئة .



## السرد، والاعتراف، والهوية

♦ يقترن أدب الاعتراف بالهوية، فلا يمكن انتزاع الكاتب من الحاضنة الاجتماعية والثقافية التي يشترك بها، ذلك أن أدبه يقوم بمهمة تمثيلها، وبيان موقعه فيها، فلا يطرح موضوع الهوية في السرد والاعتراف بها إلا على خلفية مركبة من الأسئلة الشخصية والجماعية، وتبادل المواقع فيما بينهما؛ فالكاتب منبثق من سياق ثقافي، وتجد الإشكاليات المثارة كافة، في مجتمعه، درجة من الحضور في مدونة السردية. لكن أدب الاعتراف محط شبهة وموضوع ارتياب، لأن الجمهور لم يتمرس في قبول الحقائق، لذا فهو يرى في جرأة الكاتب على كشف المستور سلوكاً غير مقبول، وإفراطاً في فضح المجهول. فالاعتراف محاط بكثير من ضروب الحذر في مجتمعات تقليدية تتخيل أنها بلا أخطاء، وتتحاشى ذكر عيوبها، وتوهم أنها تطهرت من الآثام التي واطبت على اقترافها مجتمعات أخرى. هكذا تدفع المخاوف كثيراً من الكتاب إلى اختلاق تواريخ استرضائية لمجتمعاتهم، وابتكار صور نقيّة لذواتهم، وتجنب كشف المناطق السرية في تجاربهم وإظهار المسكوت عليه في مجتمعاتهم، والصمت عما ينبغي لهم قوله أو التزييف فيه، وربما إنكار وقوعه، بغية الحفاظ على الصور الشفافة لهم ولمجتمعاتهم. ولم يزل أدب الاعتراف يتلقى إماً بوصفه جملة أسرار، أو على أنه مدونة فضائح، فسوء الظن يترصص بالكتاب والقراء على حد سواء، ولا غرابة أن نجد ندرة فيه، إذ يعمق الخوف من المتلقين رغبة في الصمت لدى الكتاب، وهذا يضر في طياته تزييفاً للتاريخ الشخصي وللتاريخ العام، ويجعل من خداع الذات والآخرين سلوكاً شائعاً، بحيث تتوارى الوقائع المهمة، أو يقع تخطيها، وكل هذا يتعارض مع وظيفة أدب الاعتراف الذي يستبطن المناطق الخفية من حياة الأشخاص، ثم المجتمعات بعد ذلك.

♦ المؤلف

ISBN 978-614-419-034-1



9 786144 190340

